

تاريخ المغرب الإسلامي

دكتور
عصام الدين عبد الرؤوف الصفي
أستاذ التاريخ الإسلامي
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الناشر
مكتبة نهضة الشرق
جامعة القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد أفضل المرسلين
وبعد :

يتضمن هذا الكتاب مجموعة محاضرات ألقيتها على طلابي في عدة
جامعات في مصر وخارج مصر عن تاريخ المغرب والأندلس •

ودراسة تاريخ المغرب والأندلس له أهمية خاصة بالنسبة لنا
كعرب ، ذلك أن أسبانيا حكماها العرب عدة قرون ، وازدهرت فيها
الحضارة الاسلامية ، وشهدت نهضة ثقافية اسلامية كان لها أثرها في
أوربا ، وأقيمت فيها المساجد الضخمة ، التي كانت منارة للإسلام والعلم
والحضارة في القارة الأوروبية عدة قرون •

ولكن العرب — كما هو حالهم اليوم — أضاعوا هذه البلاد ،
وفقدوها كما فقدوا غيرها فيما بعد ، بسبب ما يسود بينهم من انقسام
وخلافات ومنازعات ، متناسين الصالح العام ، ومتطلعين فقط الى تحقيق
مآرب شخصية زائلة •

لذلك فدراسة تاريخ الأندلس ، يوضح لنا ، كيف وصل العرب الى
قمة المجد ، بفتحهم لاسبانيا أو لقطعة من أوربا ، وكيف اقتربت جيوشهم
الظافرة المنصورة من باريس واستوطنوا هذه البلاد ، ونشروا الاسلام
واللغة العربية والثقافة الاسلامية ويسعد الانسان حينما يدرس هذا
الازدهار ، وهذا التقدم الحضارى • ولكن الدارس يعبر مع دراسته
القرون ، شأنه شأن دارس التاريخ ، فيصاب بالحزن والأسف ، حينما

يرى أن مجد العرب والاسلام في هذا البلد الى زوال ، حتى ينتهي حكم العرب في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي .

وقسمت بحثي الى عدة موضوعات ، بدأت بدراسة الفتح العربي للمغرب ثم أسبانيا قبل الفتح العربي ، وانتقلت الى بحث الفتح العربي لاسبانيا ، والنتائج التي ترتبت على هذا الفتح ، ثم درست عصر الولاة في الأندلس ، وفيه حاول المسلمون فتح فرنسا ولكنهم هزموا في بلاط الشهداء . وفي عصر الولاة اشتد الصراع بين القيسية واليمينية .

وظلت بلاد الأندلس في اضطراب حتى دخلها عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك ، وأقام في أسبانيا امارة مستقلة تماما عن الدولة الاسلامية ، وخلفه أبناؤه في حكم الأندلس حتى ولى عبد الرحمن الناصر ، فصول الامارة الى خلافة ، وظلت الدولة الأموية تحكم في الأندلس حتى سقوطها سنة ٤٣٢ هـ .

اضطربت الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية ، وتنافس أمراء الأقاليم في حكم الأندلس . هنا انتهزت الممالك النصرانية في شمال أسبانيا الفرصة ، وأنقضوا على مدن الأندلس ، منتهزين فرصة النزاع بين ملوك الطوائف ، وحاول المرابطون ثم الموحدون من بعدهم أن ينقذوا المسلمون في الأندلس ، ولكن محاولاتهم كانت مسكات وقتية . وظل أمر الأندلس في ضعف والنصارى في قوة حتى لم يعد للعرب سوى غرناطة ، آخر معاقل المسلمين في الأندلس ، وسقطت غرناطة سنة ١٤٩٢ م . ويسقطها زال الحكم العربي عن الأندلس .

هذا وبالله التوفيق

المؤلف

دكتور عصام الدين عبد الرؤوف النقي

مصر الجديدة

١٩٨٤/٨/٤

الفصل الأول

التعريف ببلاد المغرب والأندلس

١ — أهمية دراسة تاريخ المغرب والأندلس

٢ — التعريف ببلاد المغرب

٣ — التعريف ببلاد الأندلس

٤ — الفتح العربي للمغرب

٥ — الفتح العربي للأندلس

أهمية دراسة تاريخ المغرب والأندلس

لتاريخ المغرب والأندلس أهمية كبيرة في دراسة التاريخ الإسلامي العام والخاص . فبخصوص المغرب والأندلس دراستهما متصلة ووثيقة الصلة ، لأن ما كان يجرى في المغرب له صدى في الأندلس وما يحدث في الأندلس له رد فعل في المغرب .

وانضمام المغرب والأندلس الى الدولة الإسلامية الكبرى ، أعطاها طابعاً مميزاً وقسم الدولة الإسلامية الى قسمين كبيرين ، قسم شرقي له نظمه وحضارته وتقاليده ، وقسم غربي له مقوماته وثقافته ، ولعب القسم الغربي دوراً كبيراً في تاريخ الإسلام ، فقامت الدولة الفاطمية في المغرب ، وانتقلت الى المشرق فسيطرت على مصر والشام والحجاز واليمن .

ومن ناحية التاريخ العام يتضح لنا أهمية دراسة تاريخ المغرب والأندلس ، ذلك أن الحضارة الإسلامية التي ازدهرت في المشرق ، انتقلت الى المغرب والأندلس ، وانتشرت العلوم والفنون العربية المتقدمة في الأندلس وصقلية وانتقلت الى أوروبا . وبذلك لعبت المغرب والأندلس دوراً كبيراً في ازدهار الحضارة الانسانية .

نظرة عامة حول بلاد المغرب

عرفت بلاد المغرب منذ أقدم العصور بأسماء مختلفة ، فكان الأغرقي يسمون القسم الشمالي منها الذي كان يسكنه العنصر الأبيض باسم ليو أو ليبيا ، بينما كانوا يطلقون على الصحراء اسم بلاد الاحباش السود . أما لفظ افريقية ، فقد أطلقه الرومان على الأقليم الذي يقابل اليوم الجزء الشمالي الشرقي من الجمهورية التونسية ، ويشتمل على قرطاجنة وما حولها حتى نوميديا غربا ، وكان يعرف باسم ولاية افريقية القنصلية ، وأطلقه العرب على كل ما يلي : طرابلس غرباً . ثم تحدد مدلول

أفريقية ، فأصبح في معظم المصادر العربية ، يعنى الأقليم الذى تتوسطه القيروان ، ويمتد من طرابلس حتى بجايه .

أما المغرب فيشمل كل ما يلى مصر غرباً حتى المحيط الأطلسى وتتوسطه أفريقية . وقد أصطلح على تقسيم المغرب الى ثلاثة أقسام كبيرة ، بحسب قربها أو بعدها عن مركز الخلافة في المشرق وهى :

١ — المغرب الأدنى ويسمى أيضاً أفريقية ويشمل تونس وبعض الأجزاء الشرقية من الجزائر وعاصمته القيروان أيام الأغالبه ، والمهدية أيام الفاطميين ، ثم مدينة تونس فيما بعد وحتى اليوم .

٢ — المغرب الاوسط ويشمل بلاد الجزائر ، ويمتد من تاهرت حتى وادى ملوية وجبال تازة غرباً ، وقاعدته تلمسان .

٣ — المغرب الأقصى : وعاصمة المغرب الأقصى تردت بين مدينة فاس ومراكش ، فالأدراسة العلويون أسسوا مدينة فاس سنة ١٩١ م ، واتخذوها عاصمة لهم ثم جاء المرابطون وبنوا مدينة مراكش سنة ٤٦٣ م واتخذوها عاصمة ، والمغرب الأقصى يشمل المملكة المغربية اليوم التى عاصمتها الرباط .

ولفظ أفريقية مشتق من كلمة أفرى التى أطلقها الفينيقيون على سكان أوتيكا وقرطاجنة ، ثم عممه اليونانيون بعد ذلك ، فأطلقوه على سكان المغرب من حدود مصر الغربية الى المحيط الأطلسى .

أما لفظ المغرب فالمراد به ، هو كل ما يقابل المشرق من البلاد وقد اختلف الجغرافيون والمؤرخون المسلمون في تحديد مدلوله فجعله البعض يشمل بلاد شمال أفريقيا بالاضافة الى الأندلس وجميع الممتلكات الاسلامية في حوض البحر المتوسط مثل صقلية وجنوب ايطاليا وجزيرتى سردينيه وكورسيكا وجزر البليار أو الجزر الشرقية ، وقد اعتبر بعض المؤرخين مصر من بلاد المغرب ، باعتبارها القاعدة السياسية والعسكرية والثقافية لهذه المنطقة المغربية في الفترة الإسلامية الأولى . لأن الخليفة

هشام بن عبد الملك مثلاً ، قند عبد الله بن الحبحاب ولاية مصر والمغرب
والأندلس •

وفي العصر العباسي زاد مدلول كلمة المغرب ، فانضمت التسام الى
هذا القسم ذلك ان العباسيين قسموا مملكتهم قسمين ، وهما المغرب
ويشمل الشام ومصر وأفريقية وما يليها غرباً ، والمشرق ويشمل بلاد
فارس وما يليها شرقاً • ولكن على الرغم من كل هذه التقسيمات السانفة
فان جمهرة المؤرخين والجغرافيين العرب اتفقوا على تحديد كلمة مغرب
بالأراضي الإسلامية الممتدة غربى مصر الى المحيط الأطلسي • فهناك المغرب
الأفريقي والمغرب الأندلسي • وعلى هذا الأساس كانت مدينة الإسكندرية
هى الحد الفاصل بين المغرب والمشرق ، ولهذا عرفت بأسم باب المغرب ،
لأنها كانت معبراً لجميع المغاربة القادمين من المغرب أو العائدين اليها
سواء بالبر أو البحر بقصد التجارة أو طلب العلم أو تأدية فريضة الحج •

تبدأ أفريقية المغربية من حدود برقة الغربية شرقاً الى المحيط
الأطلسي غرباً ويحدها من الشمال البحر المتوسط ثم منطقة ساحلية ضيقة
تشمل إقليم التل ، ويحدها من الجنوب صحراء مصرية الأطراف هى
الصحراء الكبرى ويفصلها عن مصر برقة ، التى كانت امتداداً للصحراء
الغربية وتخترق هذه المنطقة سلاسل من الجبال العالية تمتد من مراكش الى
تونس ، مخترقة المنطقة كلها من الغرب الى الشرق فاصلة السهل الساحلى
الضيق عن بقية البلاد حيث تكثر الاغوار ، بينما تحصر السلاسل بينها
سهولا طولية ضيقة • لذا فطبيعة البلاد الجغرافية وعرة والدفاع عنها
ميسور ، بينما يتطلب الهجوم مشقات كبيرة •

أما سكان المغرب فيمكن تقسيمهم الى ما يأتى :

- ١ — الروم وهم البيزنطيون •
- ٢ — الأمازيغ ، وهم بقايا شعب قرطاجنة وأخلاق من المستعمرين
اللاتين ، والوطنيين الذين تأثروا بالحضارة الرومانية والبيزنطية
وكانوا يدينون بالطاعة والولاء لسادتهم البيزنطيين •

٣ - البربر وهم سواد سكان المغرب •

أطلق الرومان اسم البربر على سكان بلاد المغرب لأنهم كانوا يعتبرونهم أعاجم على حضارتهم ، وينقسم البربر الى مجموعتين مختلفتين : البربر الحضري ، ويسكنون السهول الخصبة والمدن أو الهضاب المزروعة ، ويشغلون بالزراعة والصناعة ، والحضارة البيزنطية تأثير عليهم والبربر الرحل ويعيشون على الرعي ، ويميلون للاغارة وعلى ما يجاورهم من عمران ، وينقسم البربر عموماً الى قسمين كبيرين ، برانس وبترا ، وينسب البرانس الى برانس بن بر كما يزعمون ، لذلك سموا برانسا ، ويسكنون المدن ، ويتأثرون بالحضارة البيزنطية . وأما البترا ، فهم بدو ، يسكنون البادية •

وينقسم بربر البرانس الى سبع قبائل كبرى هي :

أوربه وآصنهاجه وكتامه ومصموده وأوريفه وأزدواجه وتعتبر قبائل صنهاجه أكبر قبائل البربر ، وقد غلب على صنهاجه التبدى ، وتفرقوا في بلاد المغرب •

ومن القبائل البرانسية الكبرى ، كتامه التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ المغرب فعلى أكتافها قامت الدولة الفاطمية وتنتشر قبائل البرانس في كل بلاد المغرب • ولكن بعض قبائلهم ، توغل في قلب قارة أفريقيا حتى تصل الى منحنى نهر النيجر ، ومصب السنغال ، معظمها ينزل في مواضع زراعية متحضرة •

أما بربر البترا ، فينقسمون الى أربع قبائل هما : -

ضريسه ونفوسه ، وأداسه ولواته ، وتنزل هذه القبائل في السهول المرتفعة أو المنخفضة ، وعلى الهضاب التي تمتد من طرابلس الى تازره ، وينتشرون في إقليم النخيل الذي يمتد من غدامس الى السوس الاقصى ، ويؤلفون أغلبية سكان القرى الصحراوية ، وللبتربطون في داخل أفريقية وفي إقليم التل قرب طرابلس وعلى سفوح جبال أوراس •

والعداء بين البتر والبرانس قديم ، ويتمثل بصفة خاصة بين زناته أكبر قبائل البتر وصنهاجه أكبر قبائل البرانس ، ويرجع سببه الرئيسي الى العداء بين البدو والحضر ، فالبتر يشنون الغارات بين البادية على المدن العامرة للبرانس ، والبرانس يتأثرون بالحضارة البيزنطية ، أما البتر فيتميزون بالبداءة • لذلك تقارب البتر من العرب بسرعة على حين حمل البرانس عبء المقاومة مع العرب • ولما آلت البلاد الى العرب أنضم البرانس الى الحركات المعارضة للدولة الاسلامية •

الفتح العربي للمغرب

كان من الطبيعي أن يتطلع عمرو بن العاص الى فتح أفريقية ، بعد أن أتم فتح مصر سنة ٢٠ هـ ، وهو نفس السبب الذي ألح فيه عمرو بن العاص على عمر بن الخطاب بفتح مصر بعد فتح الشام •

ذلك أن الشام ومصر وبلاد المغرب كانت تتبع الدولة البيزنطية ، فلما تم فتح بلاد الشام كان ضروريا فتح مصر لتأمين حدود الشام ، من الخطر البيزنطى فى مصر • ولما تم فتح مصر كان لابد من تأمين حدود مصر غرباً ، أى فتح افريقية لحماية مصر من خطر بيزنطى فى غربها •

بعد أن أتم عمرو بن العاص فتح مصر سنة ٢٠ هـ ، قاد حملة لغزو برقة سنة ٢٢ هـ وفتحها وصالح أهلها على الجزية ، وواصل زحفه حتى فتح طرابلس بعد حصار دام شهرا لكنه انسحب بقواته منها عائدا الى مصر •

ولما ولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح ولاية مصر خلفا لعمرو بن العاص ، سار على سياسة سلفه فى غزو أفريقية فسار الى برقة ، وكان يليها عقبة بن نافع الفهري من قبل والى مصر ، وضم الى جيشة حامية برقة ، وسار الى طرابلس ولكن الروم تصدوا للحامية العربية بقيادة جريجوريوس - حاكم افريقية الرومانى - أو جرجير - كما يسميه العرب •

رفع العرب حصارهم عن طرابلس ليتفرغوا لمقاومة الحاكم الرومانى ، ونشبت بين الفريقين معارك ضارية فى ظاهر ٠٠٠٠ سيطله بالقرب من أطلال قرطاجنة القديمة - وهى عاصمة أفريقية حينئذ • وهزم فى هذه المعركة القائد الرومانى وقتل سنة ٢٨ هـ / ٦٤٨ م ، واستولى عبد الله بن سعد على سيطله ودمرها تدميراً ، وبث جيوشه فى تلك الانحاء وصالح أهل هذه البلاد على الجزية • ولكنه لم يتخذ قاعدة اسلامية فى هذه البلاد ولم يعهد لاحد القادة المسلمين بحكم هذا

الاقليم ، انما انسحب عائدا الى مصر بعد خمسة عشر شهرا ، تاركاً حامية في برقة وأخرى في زويلة .

ولكن الدولة الاسلامية توقفت عدة سنوات عن الفتح ، بسبب الفتنة الكبرى في عهد بن أبي طالب ، وثورة معاوية والخوارج عليه ، والتي انتهت بمقتله في رمضان سنة ٤٠ هـ .

حملة عقبة بن نافع الأولى على بلاد المغرب

يجمع المؤرخون على أن معاوية بن أبي سفيان ولي عقبة بن نافع الفهري أفريقية سنة ٥٠ هـ ، وأمره بفتح هذه البلاد ويبدأ الفتح الحقيقي للمغرب بحملة عقبة هذه والجدير بالذكر أن القواد الذين تولوا فتح المغرب ، بعضهم امتاز باللين والحكمة السياسية ، والبعض الآخر امتاز بقوة الشكيمة ، والمقاومة العسكرية دون السياسية ، وكان للجانب السياسي أهميته ، في تثبيت أقدام المسلمين في المغرب ، واندماج البربر في الحياة الاسلامية .

وعقبة بن نافع الفهري من الشخصيات الكبيرة في التاريخ الاسلامي فهو أحد رجال عمرو بن العاص الذين حاربوا معه في فتوحه الأولى في أفريقية ، وهو ابن خالة عمرو بن العاص ، ومن أوائل المجاهدين في المغرب ، دخل برقة سنة ٢٣ هـ ، دون العشرين وشبارك في الغزوات التي شنّها العرب في أفريقية بمقدرة عسكرية فائقة ، وشجاعة منقطعة النظير .

وقاد الحملة التي أخضعت قبيلة لواته في طرابلس ، وانضم الى جيش عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، وتولى حماية برقة منذ فتحها ، وظل مجاهداً مرابطاً في سبيل الله ما يقرب من ربع قرن .

اتخذ عقبة بن نافع الفهري طريقه في داخل البلاد مباعدا الساحل ، ولقد لزم هذه الخطة في كل أعماله ، لأن السواحل مليئة بالحصون

والمحارس ، أما انداغل فليس فيه تحصينات قوية ، ومقاومة البربر في الداغل ، أقل من مقاومة البيزنطيين على الساحل • وجاز وهاد برقة على رأس عشرة آلاف مقاتل وسار في أقليم الواحات متقلداً دون أن يلقي مقاومة تذكر ، إذا لم يتوقعوا قدوم العرب في هذا الوقت ، فداهمهم عقبة ، وأصاب منهم كثيراً ، وتوغل غرباً حتى المغرب الأقصى ، وافتتح جميع الثغور والعواصم الأفريقية تباعاً وهزم جيوش البربر والروم التي اعترضته حتى استحق لقب « قاهر الروم والبربر » وتوغل في مفاوز المغرب الأقصى •

رأى عقبة ضرورة إقامة مدينة إسلامية جديدة في أفريقية لتكون عسكرياً للمسلمين وعزاً للإسلام حتى آخر الدهر ، فشرع في اخطاط هذه المدينة ، لتكون قاعدة لنشر الإسلام في هذه البلاد ، يلجأ إليها البربر لاعتناق الإسلام ، ودراسة تعاليمه على أيدي الفقهاء والوعاظ وانعلماء في مسجد القيروان الجامع وموضع القيروان يناسب المزاج العربي ، فهي بعيدة عن البحر وعن الخطر البيزنطي الكائن في الساحل ، ومن حيث قربها من الصحراء لتصعب محاصرتها • وموضع القيروان متوسط بين الساحل والهضبة القريب من السفوح الصالحة للرعى • ولهذا الموقع أهمية عسكرية ، فيمكن منه مراقبة تحركات العدو من بعيد ، ومباغتته إذا تطلب الأمر ، واتخذ منها — بالإضافة إلى نشر الإسلام — قاعدة عسكرية يجمع فيها عدته وعتاده ، ويرسل منها التجريدات العسكرية لشحن الحملات الحربية ، والعودة إلى القيروان بالغنائم ، واعداد الحملات من جديد وهكذا ظل عقبة بن نافع واليا على أفريقية خمس سنوات (٥٠ — ٥٥ هـ) (٦٧٠ — ٦٧٥ م) حيث عزله وإلى مصر مسلمة ابن مخلد ، الذي جمع له معاوية بين حكم مصر وأفريقية ، وعهد إلى أبي المهاجر دينار بحكم أفريقية ، ويختلف هذا الأنصاري عن عقبة ، إذ يعتمد على السياسة في تعامله مع البربر أكثر من القوة العسكرية ، وأثبتت هذه السياسة نجاحها ، وأثمرت ، فهادن البربر واستمالهم ، ليضرب بهم العدو المشترك وهو الروم ، وبذلك استطاع أن يواجه قوة البربر وشدة

بأسهم في ضرب العدو القوي المتمثل في البيزنطيين ، وتجنب مواجهة عدوين في وقت واحد . ولجأ إلى الحيلة والدهاء في جذب البربر إليه فأقنعهم بأنهم — أي البربر — أقرب إلى العرب من الروم ، والعرب دخلوا المغرب ليحاربوا الروم ، وليس البربر ، وأنضم إليه كسيله — زعيم البربر البرانس — هو وقومه ، واعتنقوا الإسلام ، واعتنقتهم قبيلة أوربه . وهذا مكسب كبير للإسلام وللعرب ، وزحف أبو المهاجر دينار وكسيله إلى تلمسان ، وفتحها . وبذلك اجتاحت المغرب الأوسط (الجزائر) واحتل مدنه الساحلية حتى بلغ تلمسان .

ولم يلق المؤرخون الأضواء على ولاية أبي المهاجر دينار التي استمرت سبع سنين (٥٥ — ٦٢ هـ) ربما لأنها تقع بين ولايتي عقبة الأولى والثانية ، ودور أبي المهاجر دينار في المغرب لا يقل عن دور عقبة .

ولما ولي يزيد بن معاوية الخلافة رأى ضرورة اتمام فتح المغرب فعزل أبا المهاجر دينار ، وأعاد عقبة بن نافع إلى حكم أفريقية لما عرف عنه من الشجاعة وقوة البأس وحسن البلاء .

اتخذ عقبة سياسة مخالفة تماماً عن سياسة سلفه ، فنظر إلى كسيله وقومه نظرة شك وريبة ، بل قبض على كسيله وعلى سلفه أبي المهاجر دينار . وبذلك انشق عليه البربر البرانس وقبيلة أوربه بالذات ، ومما لا شك فيه أن عقبة أخطأ في سياسته هذه ، فقد جلب على نفسه عداوة البربر البرانس بعد أن كانوا في عهد سلفه أنصاراً للعرب والمسلمين وسنرى الآثار السيئة التي ستترتب على هذه السياسة .

ومهما يكن من أمر فقد قاد عقبة جيشه في حملة مشهورة في تاريخ المغرب ، وجاس خلاله من أدناه إلى أقصاه حتى بلغ المحيط الأطلسي ، وخاض في حملته هذه معارك ضارية وحرباً مريرة مع قبائل البربر ، فقد فيها طائفة من خيرة رجاله .

ولما بلغ عقبة ساحل المحيط ، وانتهى إلى ساحل المحيط دفع فرسه

الى الماء حتى بلغ نحره ، هنا أخذته نشوة النصر كل مأخذ ، وتطلع الى تحقيق آمال عريضة للاسلام وأهله وقال : « اللهم انى اشهدك أن لا مجاز ، ولو وجدت مجازاً لجزت اللهم أشهد أنى قد بلغت المجهود ولو لا هذا البحر لمضيت فى البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد سواك » .

عاد عقبة بجيشه الى القيروان ، ويبدو أن عودته المفاجئة سببها ما نرى الى علمه من حدوث قلاقل واضطرابات فى أفريقية ، وفى أثناء عودته ، مر بالجزائر ، واتخذ بها قاعدة اسلامية على غرار القيروان ، وهذه القاعدة هى تاهوده بالقرب من مدينة يسكره بالقرب من قسطنطينية ، وفرق عقبه قواته فى أنحاء المغرب ، وبينما ينسحب من الجزائر فى قلة من الجند ، فر من أسره كسيه ، وقوى أمره وعظم بأسه بمن انضم اليه من البربر والروم ، وباعت عقبة — الذى كان فى قلة من الجند — ودارت رحى معركة حامية الوطيس بين كسيه وعقبة ، وحارب أبو المهاجر دينار الى جوار عقبة ، واستشهد فى هذه المعركة — التى دارت قرب تاهودة ، عقبة وأبو المهاجر سنة ٦٤ هـ / ٦٨٢ م .

ولا يزال موضع تاهوده يعرف بسيدي عقبة ، وهو عبارة عن واحة جميلة من النخيل ، وبها مقام هذا الفاتح العربى الكبير ، وزحف كسيه الى القيروان ، واستولى عليها ، كما استولى على البلاد والمواقع التى آلت الى العرب ، وزال الحكم العربى من المغرب وذالت دولتهم ولكن الى حين .

لما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان ، رأى ضرورة استعادة بلاد المغرب والقضاء على مقاومة البربر فى هذه البلاد ، فعهد الى زهير بن قيس البلوى بحكم أفريقية وأمدّه بجيش ضخم كيما ينفذ الاستراتيجية الاسلامية فى هذه البلاد سنة (٦٩ هـ / ٦٨٨ م) والتقى زهير بن قيس بجيش كسيه فى معركة انتصر فيها العرب على اعدائهم ، وقتل كسيه وجمع من البربر ، ومزق البربر فى هذه المعركة كل ممزق ، وأرسل فرقا من جنده فى أنحاء أفريقية لاخضاع البربر ، وأنهاء الفتنة ، واسترد القيروان ، وترك فيها حامية للدفاع عنها .

ولم يكد العرب ينتهون من اخضاع ثورات البربر حتى داهمهم خطر جديد أشد هولاً وأقوى بأساً ، ذلك هو الخطر البيزنطي .

فالبيزنطيون لا يستطيعون الوقوف مكتوفى الايدى ازاء احتلال العرب لبلاد المغرب التى يخضع جزءاً كبيراً منها لسيادتهم . ذلك أن البيزنطيين انتهزوا فرصة توغل المسلمين غرباً ، وأمدهم قيصر قسطنطينية بأسطول من صقلية ، ونزلوا فى قرطاجنة ، ثم زحفوا على برقة فى حشد كبير ، وهزم الروم العرب شر هزيمة ، وقتل زهير وكثير من جنده ولم ينج من المعركة الا من لاذ بالفرار . ومرة أخرى يفقد المسلمون بلاد المغرب ، ويتوقف الفتح العربى لهذه البلاد بضع سنين . ونستدل من ذلك أن مقاومة البربر البرانس للعرب من ناحية والروم من ناحية أخرى قد صرفت المسلمين عن فتح هذه البلاد بعض الوقت ، يضاف الى ذلك أن الدولة الاسلامية فى أوائل عهد عبد الملك بن مروان شغلت بالقضاء على ثورة عبد الله بن الزبير وثورات الخوارج .

لم يكد عبد الملك بن مروان ينتهى من اخضاع الثورات فى دولته ، ويعيد اليها الأمن والطمأنينة ، والاستقرار والهدوء حتى تطلع الى استعادة فتح المغرب ، فولى عليها حسان بن النعمان النصابى وسيره الى أفريقية على رأس جيش كبير ، تذكر الرواية العربية أنه أقوى جيش سار الى أفريقية منذ بداية الفتح ، واخترق حسان بجيشه برقه ، واتبع سياسة أبى المهاجر دينار فى استمالة البربر ، وضمهم الى جانبه ، وضرب العدو المشترك بهم بدلاً من مواجهة عدوين فى وقت واحد . ويعتبر حسان الفاتح الحقيقى لبلاد المغرب ، تولى حكم هذه البلاد بين عامى ٧٨ - ٨٦ هـ .

انضم البربر البرانس الى العرب فى محاربة الروم ، وزحف الفريقان الى قرطاجنة فخر بها حسان ، وهزم الروم ، ولم تعد بذلك قاعدة للبيزنطيين يشنون منها الهجمات على العرب ، ولم يستطع المسلمون غزوها من قبل لمناعتها وحصانتها واتصالها بالبحر وقربها من صقلية ، حيث كانت ترسل اليها الامدادات بسرعة .

لم يقف امبراطور الروم مكتوف الأيدي ازاء تدمير قرطاجنة لأن انهيارها هو فى الحقيقة انهيار للحكم البيزنطى ، فى — كما قلت — قاعدة للعمليات الحربية البيزنطية والنفوذ البيزنطى فى بلاد المغرب ، فسير الامبراطور اليها جيتسا بقيادة يوحنا ، يعاونه أسطول من صقلية ، وقوة أرسلها ملك القوط ، الذى أزعجه اقتراب العرب من بلاده ولم يستطع العرب التصدى لهذه القوة المتحالفة ، فانسحبوا الى القيروان ، واستقروا فيها حتى أرسلت دمشق اليهم الامدادات ، فعاودوا الهجوم على قرطاجنة وهزموا الروم والبربر فى عدة مواقع ، واستولى حسان بعد قرطاجنة على المدن الساحلية ، وطرد الروم فيها ودمر تحصينات الروم القوية ، وخرّب قرطاجنة ، وفر الروم والقوط وبذلك أخرج من الميدان عنصرا هاما من عناصر المقاومة فى المغرب ، وهو العنصر البيزنطى • وبهزيمة الروم تمكن حسان من سحق كل مقاومة بربرية ، واستعاد الاسلام سلطانه فيما بين برقة والمحيط •

عاد حسان بعد هذه الانتصارات الرائعة الى القيروان ليريح أصحابه مما أصابهم فى حملة قرطاجنة ، وعرف بظهور خطر جديد وهو خطر امرأة من البربر تعرف بالكاهنة ويختلف المؤرخون فى شأن الكاهنة اختلافاً كبيراً ، بل يميل بعضهم الى انكارها أصلاً معتمداً على ما يشوب اخبارها من أساطير ولكن تجمع الآراء على وجود الكاهنة وعلى ذكر الدور العظيم الذى قامت به أثناء فتوح افريقية ، ولكن شخصيتها وحقيقة أمرها لازالت غامضة فى حاجة الى كثير من التوضيح •

يبدو أن الكاهنة كانت زوجه لرجل من رؤساء القبائل ، وتوفى تاركاً لها ولدين صغيرين استبدت بهما ، وحكمت القبيلة باسمهما ، وملكت البربر خمساً وثلاثين سنة وهذه القبيلة هى قبيلة جراوه احدى قبائل البتر المقيمين فى الاوراش ، وكانت هذه القبيلة على صلة بالروم ، ويبدو أن الكاهنة كانت مسموعة الكلمة فى قومها ، مهيبه الجانب بين ذويها ، فاستطاعت أن تحتفظ بالامر لابنيها القاصرين •

ثورة كسيه على العرب هى مقاومة البرانس المستقرين يعززهم

الروم وينصرونهم لأنهم نصارى أو آخذون بأسباب الحضارة البيزنطية ،
ودفاعهم كان عن النواحي العامرة الفسيحة التي كان هؤلاء انبرانس
يعمرونها ويفلحون ويرسلون سوائبهم في مراعيها وسفوحها •

أما ثورة الكاهنة فثورة قبيلة يهودية احتفظت ببقايا من الحضارة
القديمة ، وطال عهدها بالاستقلال لضعف احكام البيزنطيين ، وعجزهم
عن اخضاع البتر في الصحراء والهضاب واثراجح أن هذه المرأة لم ترفع
راية العصيان الا حين تسامعت بمسير حسان اليها ، وأنها كانت مطمئنة
في نواحيها ترقب مصير كسيله ثم مصير الروم على يد حسان فلما رأت
حسان ينوى السير نحوها ، أخذت تستعد لقتاله وردة عن بلادها •

ويغلب على الظن أن الكاهنة كانت تتوقع مسير العرب اليها لأنها لم
تكد تتسامع بمسير حسان اليها حتى رحلت من الجبل في عدد لا يحصى
ولا يدرك ، وحطت رحالها عند باغاية ، وهي مدينة حصينة على سفح
الأوراش تقوم بين الجبال مقام الباب من الدار وقد أرادت الكاهنة من
ذلك ان تكون على مقربة من مواطن جراوة الاصلين على الأوراش ، لكي
نستمد منها العون ، أو تطلب النجاة عند الضرورة ، وأمرت بهدم باغاية
حتى لا تسقط في يد العرب ، وهذا يدل على أنها كانت تحارب العرب
منفردة دون عون من الروم • لذلك فحركة الكاهنة حركة بربرية صرفه
لا تعرف حرب الحصون ولا المناجزة خلف الاسوار وانما اسلوبها هو اللقاء
في الارض انفضاء بالحراب والسيوف •

والتقى حسان بالكاهنة على نهر نينى ، وكان لا يفكر أيضا في
الاحتماء بالحصون •

كانت معركة نينى شديدة حامية اضطر حسان وجنده الى خوض
غمارها ، وكانوا مجهدين من آثار حملة قرطاجنة وما تلاها ، ولهذا ضعفت
عزائمهم ، ووهنت قواهم عن خوض هذه المعركة ، واذا اضفنا الى ذلك
أن العرب كانوا يقاتلون قوماً مثلهم واستثارت الكاهنة حماسهم بما لها من
مكانة في نفوسهم وهيبة في قلوبهم وبذلك نبت البربر للعرب ، وهاجموا

العرب هجموا لم يكونوا يتوقعونه ، فدارت الدائرة على العرب ، واضطروا الى التقهقر بعد قتال شديد ، وقتل من العرب كثيرون • ولم تكف الكاهنة بهزيمة العرب في قلب الاوراش ، وانما تتبعت حسان حتى اخرجته من حدود افريقية ، واطمأنت على سلطانها منه ، ثم عادت ادراجها • ولم تدخل الكاهنة القيروان ، وانما عم أهلها الفزع والهلع ، واستعدوا للرحيل من تهديد مرتقب وعادت الكاهنة الى الاوراش ، وهذا يدل على أن حركة الكاهنة كانت ثورة محلية في ناحية من نواحي البلاد لا حركة انتفاض عام ، وأقام حسان في طرابلس ينتظر المدد ، وينظم أموره هناك ، فشيد لنفسه منازل على مقربة من برقة سميت قصور حسان •

ولكن حركة الكاهنة لم تؤد الى هدوء البلاد ، وانما عمها الاضطراب ذلك ان الكاهنة ملكت افريقية ، وأساعت السيرة في أهلها ، فعارضها بعض البربر ، بل راسلوا العرب ولاحظت الكاهنة ان العرب ما يكادون ينزلون البلاد حتى تتوجه همتهم الى المدائن والنواحي العامرة يبذلون وسعهم في الاستيلاء عليها ، فاذا تم لهم ذلك ، انقضوا على الخيرات — والنفائس والاموال فانتهبوها ، ولم يخلفوا وراءهم منها شيئاً ، ثم ينصرفون بعد ذلك عن افريقية ، كأنما كانوا يأتون لهذا وحده ، فاعتقدت أن العرب لا يريدون من فتح هذه البلاد الا امرا واحدا ، الأموال والغنائم والأسلاب والسبى ، فلا بد من قطع رجاء العرب في البلاد والقضاء على معالم العمران فيها فتجعلها قاعاً صافياً ، كأن لم تقن بالامس • وقد اخطأت الكاهنة في سياستها هذه ، وغاب عنها ان العرب أمة زاحفة الى الامام ، وان حركة الفتوح الاسلامية تسير قدما دون توقف ، وأن العرب يهدفون الى فتح بلاد المغرب ونشر الاسلام في هذه البلاد ، مهما كانت التضحيات ، ووجهت الكاهنة أهلها يقطعون الشجر ، ويهدمون الحصون ، وخرج يومئذ من النصارى والبربر خلق كثير مستغيثين بما نزل بهم من الكاهنة فتفرقوا في البلاد المجاورة •

أضر هذا العمل بقضية الكاهنة ضرراً كبيراً ، فقد عارضها فريق كبير من أهل البلاد حينما رأوا الخراب والدمار قد عم حقولهم ومنازلهم ،

وتعمدت سبل معيشتهم ، وبلغ من استياء الناس من الكاهنة ، أن استنجد بعضهم بحسان ، وعارضوا الكاهنة ، وقاوموها فاضطرب الامر من يدها وعم الاضطراب البلاد ، ونظر البربر الى العرب كمضننين ومنقذين من سياسة الكاهنة الغاشمة ، الامر الذى سيكون له أبعاد الأثر في اتمام فتح البلاد .

انتهاز حسان فرصة معارضة البربر لكاهنة ، واستنجد بعضهم به ، وقاد جيشا ضخما سنة ٨٠ هـ ضم فريقا من البربر لمحاربة الكاهنة ، والتقى حسان بجيوش الكاهنة عند مدينة قابس ، وهزمها شر هزيمة ، ونكل بقواتها ، وقتلها سنة ٨٢ هـ في موضع يعرف ببئر الكاهنة في جبل أوراس .

وجد الروم في خروج حسان من أفريقية فرصة سانحة لاستعادتها ، ويسط سلطانهم عليها من جديد ، وكان الامبراطور انبيزنطى الجديد ليونتيوس ، قد اقلقه سقوط قرطاجنة في يد العرب وتدميرها ، واسترد البيزنطيون مدينة قرطاجنة وقتلوا الحامية العربية التى فيها ، فاغار عليها حسان واستعادها وخربها حتى لا يعود الروم اليها .

اتخذ حسان سياسة رشيدة في جذب البربر الى جانب العرب فولى على النواحي عمالا وولاه من البربر بل عهد بحكم الاقاليم لابناء الكاهنة ، ولكى يضمن حماية سواحل المغرب من الخطر البيزنطى تشيد ميناء تونس ، لتحل محل قرطاجنة وليبنى فيها أسطولا يغير على ساحل الروم ، فيشتغلهم بأنفسهم عن الاغارة على أفريقية ، ولا يفصلها عن البحر غير برزخ صغير ، وبهذا يستطيع العرب سكنها ، لانها ليست على البحر مباشرة ثم ان موقعها يجعلها بمأمن من غارات الروم المفاجئة ، وأعجب هذا الميناء اليونانى القديم حسان ، وأعاد تخطيطه ، وزودها بدار صناعة لبناء الأساطيل ، واستعان في ذلك بألف أسرة من أقباط مصر الذين كانوا على علم وخبرة بالشئون الملاحية وبناء السفن . وهكذا أصبحت أفريقية بعد أن فتحتها العرب مثل الشام ومصر ، مركزاً تجارياً تخرج منه أساطيل المغرب تحمل راية الإسلام في غرب البحر المتوسط .

بعد أن أتم حسان فتح أفريقية ، نظم المشيخون العسكرية والادارية والمالية في البلاد ، وأنشأ الدواوين ، ورتب الخراج والجزية ووطد سلطان انحكم الجديد في التعمور والنواحي ، ثم جدد مدينة القيروان ، وأنشأ بها المسجد الجامع ، ولبث في منصبه حتى توفى عبد الملك بن مروان ، ولما ولي الوليد بن عبد الملك ، أبقى حسان في منصبه ولما كانت أفريقية تابعة لمصر ، فقد عزل عبد الله بن مروان — والى مصر — انذى خلف عبد العزيز بن مروان ، عزل حسان بن النعمان سنة ٨٦ هـ ، وعهد الى موسى بن نصير بحكم بلاد المغرب •

يعتبر حسان بن النعمان — كما قلت — الفاتح الحقيقي لبلاد المغرب ، فلما ولي موسى بن نصير هذه البلاد ، وجد نظاماً ثابتاً وقائماً واقتفى أثر حسان في معاملة البربر وساوى بينهم وبين العرب في المعاملة ، وجذبهم اليه ، واحسن اليهم واتخذ منهم جندا لجيشه ، وكان البربر هو العنصر الرئيسي في جيش طسارق بن زياد في فتح الأندلس كما سنرى •

يجب أن نشير اشارة سريعة الى نشأة موسى بن نصير ، فانرواية العربية تشير الى أنه من التابعين ، وولد سنة ١٩ هـ في خلافة عمر بن الخطاب في قرية من قرى الجزيرة أو بوادي القرى من شمال الحجاز ، وينسب الى بكر بن وائل ، وأن أباه نصيرا كان ممن سباهم خالد بن الوليد في معركة عين التمر سنة ١٢ هـ ، وقيل أنه ينسب بطريق الولاء الى بنى لخم ، وتشير الرواية العربية ان نصيرا كان على حرس معاوية بن أبي سفيان ، ثم كان وصيفاً لعبد العزيز بن مروان وأعتقه •

تدرج موسى في بعض الوظائف قبل ولايته على أفريقية سواء الحربية أو الادارية وقاد بعض الحملات البحرية في عهد معاوية ، وغزا قبرص وغيرها من الجزر القريبة ، ودخل في خدمة عبد العزيز بن مروان — أمير مصر — وتولى مكانة رفيعة في بلاطه حتى ولي أفريقية في سنة ٨٦ أو ٨٩ هـ • ونهما يكن من أمر فقد اضطربت بلاد المغرب بعد عزل حسان

وتولية موسى ، فاضطرب البربر من جديد ، وعادوا الى الثورة فسحق موسى الثورة في كل ناحية ، وأخضع هواره وزناته وصنهاجه وكتامه وغيرها من القبائل البربرية القوية ، ثم سار الى طنجة وفتحها ، وكان العرب لم يصلوا اليها بعد ، وولى عليها قائداً عظيماً هو طارق بن زياد الليثي ، وطهر مغاور المغرب الأقصى من العصاة والمتمردين ، وأحرز في هذه الغزوات من الغنائم والسبى ما لا يحصى ، ولما هدأت البلاد ، وانتهت الثورات استمال اليه البربر وحشد في جيته آلافاً من البربر ، ونشر الاسلام بينهم وأقبلوا على الدين الجديد بحماس منقطع النظر . وانتشر الأمن في البلاد ، وحلت الطمأنينة محل الفتن والاضطرابات .

واهتم موسى بانشاء اسطول قوى ، قاوم هجمات البيزنطيين على طول سواحل المغرب بل هاجم جزر البليار وجزر ميورقه ومنورقه — وكانت من أملاك ملك أسبانيا القوطي — وسارت حملات أخرى الى صقلية وسردانية ، وعادت محملة بالغنائم والاسلاب .

وهكذا بسط العرب سلطانهم على شمال أفريقيا كله البر والبحر ، ولم يبق في يد النصارى من شمال أفريقية كله سوى ثغر سبته الواقع في نهاية البحر المتوسط شرقي طنجة وكانت يومئذ من أملاك أسبانيا .

نتائج الفتح العربي لبلاد المغرب

كان من نتائج الفتح العربي لبلاد المغرب تطور المجتمع ، وتغير عاداته وتقاليده بعد أن اندمج العرب والبربر . وكان لابد لهذا المجتمع الجديد أن يتخذ صوراً وأشكالا متعددة قبل أن يتخذ صورته النهائية نتيجة لاختلاط عناصر ذات لغات وأديان وتقاليد مختلفة .

انتشرت اللغة العربية في بلاد المغرب ، نتيجة لهجرات القبائل العربية الى هذه البلاد ، ومما ساعد على انتشارها انها لغة الدين الجديد ، كما أن العرب سبغوا في جعل اللغة العربية لغة دين وأدب وثقافة ، والناس كما يقول ابن خلدون تبع السلطان وعلى دينه ، فسار

استعمال اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة ومن عوامل انتشار اللغة العربية تعريب الدواوين الذي بدأ في عهد عبد الملك بن مروان ذلك أن عبد الملك شرع في صبغ الدولة بصبغة عربية بعد أن استقرت فيها الأمور ، واتسعت خبرة العرب وساعد تعريب الدواوين على ذبوع اللغة العربية وانتشارها فقد اقبل الموظفون من البربر على تعلم اللغة العربية حتى يستمروا في عملهم ، فأصبحت اللغة العربية لغة التدوين والادارة والسياسة ، فضلا عن كونها لغة الدين والأدب والثقافة .

انتشر الاسلام بين البربر بعد أن توطدت العلاقات بينهم وبين العرب وأرسلت الخلافة فقهاء وعلماء ساهموا مساهمة كبيرة في نشر الاسلام ، وكانت الديانات الرئيسية في بلاد المغرب ثلاثة . المسيحية على الساحل واليهودية بين البربر البتر ، والوثنية والمسيحية بين البربر البرانس .

ورأى المسيحيون الوثنيون من البربر في الاسلام عقيدة بعيدة عن تعقيدات الكنية وفيها البساطة والوضوح تدعو الى فعل الخير ونبذ الرذائل والمؤاخاة ، وأدراكا للحقائق الأساسية انتمى تقوم عليها الطبيعة البشرية ، وأدى انتشار الاسلام بين البربر الى تحمسهم للدين الجديد ، فانضموا الى صفوف المجاهدين ينشرون الاسلام في غير بلاد الاسلام .

استغرق الفتح العربي للمغرب ثمانين عاماً منذ سنة ٢٣ هـ حتى نهاية القرن الأول الهجرى ، وهى مدة طويلة اذا ما قورنت بفتح الشام والعراق ومصر ، الذى لم يستغرق أكثر من عشر سنوات ، وهذا راجع بطبيعة الحال الى عناد البربر وقوة بأسهم ، وشدة مراسهم ، وشدة مقاومتهم للفتح يضاف الى ذلك تصدى البيزنطيين للفتح العربى ، وتوقف الفتوحات العربية لبضع سنين ، نتيجة للفتنة الكبرى وفي عهد عبد الملك بن مروان فترة من الوقت لقمع ثورة عبد الله بن الزبير .

والخلاصة أن الفتح العربى للمغرب أوجد تغييرا شاملا في المجتمع

المغربى ، فدخل المغاربة فى دين الاسلام الامر الذى أوجد تقارباً بين الشعبين العربى والبربرى اللذان يتشابهان فى بعض الصفات والسمات ، وصارت للبربر نفس العقلية العربية ، وظهر منهم فقهاء وشعراء وخطباء ، وازدهرت المذاهب الدينية والسياسية المعروفة فى الدولة الاسلامية فى بلاد المغرب وصارت معاملاتهم قائمة على أساس الشريعة الاسلامية .

وهكذا نرى أن الفتح العربى للمغرب قد غير الحياة المغربية تماماً ، بعكس الغزو الفينيقى أو الرومانى أو البيزنطى الذى لم يمس الحياة المغربية ، وكانت جيوش هذه الدول مجرد جيوش احتلال لا أثر ولا تأثير لها على البربر . أما العرب فقد نقلوا الحياة المغربية الى وضع جديد وعصر جديد . الفتح العربى للمغرب ثورة فى تاريخ البربر . فيها تحولت البلاد الى عهد مختلف تماماً عن العهد السابق ، تغير اجتماعى وثقافى وسياسى ودينى وأصبحت بلاد المغرب جزءاً من الدولة الإسلامية .

وكان لتغير وضع البربر أثره فى فتح الأندلس وساهم البربر مساهمة كبيرة فى هذا الفتح ، وكان معظم القادة منهم ، ورأوا فى ذلك فرصة للجهاد والحرب ، وأشبع فيهم موسى بن نصير رغبتهم فى الحرب والجهاد والحصول على العنائم .

أسبانيا قبل الفتح العربي

كانت أسبانيا جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية الرومانية ، ولما سقطت روما في يد الجرمان ، استولى الجرمان على أملاك الرومان في ايطاليا وفرنسا وأسبانيا ، وكانت أسبانيا من نصيب القوط .

والقوط أحدى القبائل الجرمانية التي نزحت من شمال أوروبا ويقال من اسكتدناوه بالذات وبين القوط والوندال تشابه عظيم في العادات والتقاليد ، مما يؤكد الرأى القائل بانتمائها الى شعب واحد ، ونشط القوط في عهد الامبراطور اسكندر سيفروس (٢٢٢ - ٢٣٥م) وزحفوا صوب البلقان تدريجيا ، وزحفوا الى اليونان ، وألحقوا بها الخراب والدمار . وظلوا يواصلون العبث والرعب في البلقان ، حتى دهرم الامبراطور الرومانى قسطنطين الكبير ، وأجبرهم على الانسحاب الى أقاصى داسيا سنة ٣٢٢ هـ ، وألقى في قلوبهم الرعب ، وتتبعهم الاباطرة وأضعفهم ، وأجبرهم الهون على الفرار الى ضفاف الدانوب . وتعرضوا بعد ذلك لملاحقة القادة الرومان .

لكن القوط لم يستكينوا طويلا لما لحق بهم من ويلات وبطس وتكيل ، فقوى أمرهم واشتد بأسهم في عهد قائدهم ألاريك ، وثاروا في اليونان وراقيا ، وخرّبوا البلاد ودمروها ، وواصلوا زحفهم في أوروبا حتى دخلوا روما سنة ٤١٠م ونهبوها . ولكن الامبراطور الرومانى هونوريوس عقد معهم صلحا ، بمقتضاه تعهدوا بالهدوء والسكينة ، بل وافق على دخولهم في الجيش الامبراطورى ، وساهموا في قمع الثورات التي اجتاحت أوروبا ضد الامبراطورية الرومانية ، ثم استقروا في أواسط فرنسا وجنوبها ، فيها بين نهر اللوار والجارون ، واتخذوا تولوز عاصمة لهم بموافقة الامبراطور وأقاموا في هذا الاقليم مملكة قوطية خاضعة لروما . ومن أبرز ملوك القوط - تيود وريك الأول ولد ألاريك - اذى أثرنا اليه - وقسوى أمر

هذه المملكة في عهد تيود وريك التانى الذى دخل أسبانيا ، وضمها الى مملكته الناشئة ، وطرد منها الوندال والسويف ، واعترفت الامبراطورية بالمملكة القوطية التى واصلت اتساعها حتى شملت شبة الجزيرة الايبيرية في نهاية القرن الخامس الميلادى . لكن الفرنج طردوا القوط من فرنسا ، وشملت مملكة القوط أسبانيا فقط متخذة طليطلة عاصمها لها ، وطبق القوط الأنظمة والقوانين الرومانية في أسبانيا ، واعتنقوا المسيحية ، وظلوا يحكمون أسبانيا قرنين من الزمان حتى الفتح العربى .

لم يمتزج القوط بالشعب الاسبانى ، انما شكلوا أرستقراطية حاكمة تستأثر بثروات البلاد ، وتحالف القوط مع رجال الدين الذين أمثلوا الضياع الشاسعة والارقاء ، وأراضيهم معفاة من الضرائب ، ووجه الاشراف ورجال الدين القوانين والنظم حسب مصالحهم الخاصة ، ووفق حياتهم الاقطاعية ، أما سائر الشعب فاما طبقة متوسطة تجار وموظفين يتقاضون الأجر الزهيد ، واما أرقاء يعيشون لخدمة سادة الأرض ، وأدوات انتاج لخدمة السادة رجال الاقطاع .

قاسى الشعب الاسبانى في ظل حكم القوط ويلات البؤس والحرمان والشقاء ، وكان عبء الضرائب يقع على عاتقهم ، بل ان القوط بعد أن حكموا أسبانيا تخلوا عن الروح الحربية والمقدرة القتالية التى تحلوا بها قبل مقدمهم الى أسبانيا ، وحينما حاربوا ضد الرومان والى جانب الرومان . واعتمد القوط على الشعب الاسبانى الكادح في الحرب واستكانوا الى الراحة والسكينة ، وأصبح قوام الجيش الاسبانى من الاسبان واليهود أنتظموا في سلك الجيش غير راضين عن حكومتهم التى سلبتهم حقوقهم المشروعة في الحياة الحرة الكريمة وكان من الطبيعى الا تخلص هذه العناصر المضطهدة في الحرب لصالح القوط ، بل تمنوا الخلاص من حكومتهم الظالمة الغاشمة وهذا يفسر أسباب هزائم جيش أسبانيا القوطى .

اشتد اضطهاد اليهود في أسبانيا ، وكانوا يشكلون الطبقة العاملة والتجار والمرايين ، وقاسوا صنوف الاضطهاد من القوط

وأجبروهم على التتصر أو النفي أو المصادرة فاعتنق النصرانيون كثير منهم كرها . ولما اشتد اضطهاد القوط لهم راسلوا يهود المغرب ودبروا معهم انقلابا ضد القوط ، ولكن أمرهم انكشف ، فز القوط في اضطهادهم في عهد الملك اجيكا سنة ٦٩٤م ، وأصد مرسوما بالتفكيك بهم ، وصادر أملاكهم على اعتبار انهم خوة أعداء الوطن ، وفرض عليهم العبودية ، وحرر الارقاء النصراني من السادة اليهود ووجههم بعض أملاكهم ، ونزع الابناء اليهود من السابعة لتربيتهم على النصرانية ، وألا يتزوج رجل يهودي نصرانية ولا تتزوج يهودية نصرانية . وهكذا عاش اليهود في ظلم واضطهاد ، وتمنوا الخلاص من بطش القوط ، وناصروا العرب حينما قدموا الى أسبانيا ، واعتبروهم منقذين مخلصين .

وحينما فتح العرب بلاد المغرب ، واقتربوا من شواطئ أسبانيا ، كان يحكم المملكة القوطية في أسبانيا وتيزاوتسمية المراج العربية غيطشه - وهو ابن الملك اجيكا - وكانت مملكة القوط في عهد هذا الملك في آواخر أيامها ، فرققتها الخلافات وعمتها القلاقل والاضطرابات ، وكثرت فيها الفتن ، وقضى وتيزا سنين حكمه في سحر معارضيه ، ومن خصومه الاقوياء تيود وفريد الذي نفاه الملك اجيكا الى قرطبة ، واستطاع الفرار ، والانضمام الى الثوار الناقمين على الملك ، وزاد أمر البلاد اضطرابا اقترب الجيش العربي المنتصر الظافر من شواطئ أسبانيا المضطربة ، وكان العرب قد حاصروا سبته ورددتهم عنها حاكمها القوطي يوليان ، وأمد وتيزا يوليان بخير جنده ، لأن سقوط سبته يشكل خطرا على بلاده ولكن الأمور في أسبانيا زادت اضطرابا ، وأعلن الثورة ضد الملك ، رودريك ابن تيود وفريد ، وانضم اليه المعارضون للملك ، وكانت ثورة قوية عنيفة ، بل نادى بنفسه ملكا وخلع وتيزا وقتله ، وولى الملك سنة ٧١١م .

هدأت البلاد بتولية رودريك الملك ، فتمكن من قمع الثورات ، والقضاء على الفتن في كل مكان ، واعادة الامن والطمانينة الى

الناس • وقد لجأ الثوار والمعارضون الى يولييان - حاكم
سبته والمضيق •

تختلف الروايات حول أصل يولييان فيرى البعض أنه يحكم
سبته نيابة عن الامبراطور البيزنطي ، ويعتقد البعض الآخر انه
قوطى يحكم سبته نيابة عن ملك القوط ، وينكر البعض وجود يولييان
على الاطلاق ، لأن أخباره لم ترد الا في القرن الثلثي عشر ، ولكن
الحقيقة ان يولييان شريكا نصرانيا ، حكم سبته نيابة عن ملك
القوط ، وأنه كان واسع النفوذ ، - يعتصم بالبحر لجأ اليه الاشراف
والمعارضون لحكم رودريك ، وكان من أنصار العهد القديم يعارض
حكيم رودريك ، ويرى ضرورة عودة العرش الى بيت ويترا ،
فتحالف يولييان مع موسى بن نصير لعزل رودريك عن العرش •
وتضيف الرواية العربية سببا آخر لتحالف يولييان مع موسى بن
نصير ، يعتقد أرسل يولييان ابنته الحسناء فلورندا الى بلاط القوط في
طيطاله لتلقى ما يليق بها من التربية والتعليم بين أبناء الأسر
الارستقراطية ولكن رودريك أفتتن بجمالها ، واعتدى على عقابها
فغضب يولييان ، ورأى ضرورة الانتقام من رودريك . وبعض
الروايات تنكر هذه الرواية من أساسها ، وتعتبرها من نسج خيصال
الرواة • ولكن الرواية الاسبانية لا تنكرها وترجع الى القرن الثامن ،
ويؤيد بعض الكتاب الاوربيين هذه القصة ، وينكرها البعض الآخر •

وهما يكن من أمر يمكن أن يكون سبب موقف يولييان من الفتح
العربي لاسبانيا راجعا الي مناصرة يولييان للعهد القديم وانصاره ،
ومعارضته للعهد الجديد ، فضلا عن قصة فلورندا • وكان تدخل
يولييان أكبر عامل في تذليل فتح المسلمين لاسبانيا •

الاندلس :

المراد بلفظ الاندلس اسبانيا الاسلامية بصفة عامة ، أطلق هذا
اللفظ في بادئ الامر على شمسه جزيرة ايبيريا كلها ، على اعتبار
أنها كانت جميعا في يد المسلمين ، ثم أخذ لفظ اندلس يقل مدلوله

الجغرافى شبيهاً فشيبيهاً تبعاً للوضع السببى الذى كانت عليه الدولة الاسلامية فى شبه الجزيرة ، حتى صار لفظ الأندلس آخر الأمر قاصراً على مملكة غرناطة الصغيرة ، وهى آخر معقل للمسلمين فى الأندلس ، فى الركن الجنوبى العربى من شبه الجزيرة الأيبيرية .

وكلمة أندلس اشتقتها العرب من كلمة وأندلوسن وهى اسم قبائل الوندال الجرمانية التى اجتاحت أوروبا فى القرن الخامس الميلادى ، واستقرت فى السهول الجنوبية الاسبانية وأعطت اسمها ، ولما فتح العرب أسبانيا ، عربوا هذا الاسم ، وسموا الأندلس .

ويلاحظ أن حكم المسلمين للأندلس دام أكثر من ثمانية قرون ، ولهذا تركوا فيها آثاراً مادية وروحية وخلقية واضحة المعالم ، ولا سيما فى الولايات الجنوبية التى استقر فيها العرب الى آخر أيامهم ، فالسمات والعادات واللغة والموسيقى والاعانى والصفات العربية يلاحظها بوضوح كل من اتصل بالاسبان ، وعاش بينهم . واللغة الاسبانية تحتوى على أكثر من أربعة آلاف كلمة عربية عدا التعبيرات والصيغ العربية الموجودة فى تلك اللغة . ولا تزال توجد عائلات مسيحية اسبانية تحمل أسماء عربية مثل بنى حسن وبنى لمية . أما أسماء الاماكن العربية والمغربية فلا تزال فى كل قرية وفى كل ناحية من الأراضى الاسبانية .

وتقع شبه جزيرة أيبيريا فى جنوب غرب أوروبا ويحدها من الشرق البحر المتوسط ، ومن الغرب المحيط الاطلسى ويفصلها عن فرنسا شمالاً جبال البرانس ، التى تتخللها ممرات ومضائق تصل بين البلدين . وهذه الجبال جعلت أيبانيا فى شبه عزلة عن أوروبا ، وتحيط بأسبانيا مياه البحر المتوسط والمحيط الاطلسى من الشرق والغرب والجنوب حتى أطلق عليها العرب جزيرة أسبانيا .

وقد استغل المسلمون طبيعة أسبانيا الجبلية فى تكوين شبكة دفاعية قوية ، فجعلوا من سلاسل الجبال ووديان الانهيار التى

تقطعها في خطوط مستعرضة من الشرق الى الغرب أو العكس خطوط دفاعية ضد أى هجوم يقع عليها من المسيحيين في الشمال فقامت على هذه الوديان مدن هامة ، وكانت بمثابة قواعد عسكرية لهذه الخطوط مثل سرقسطه وطليلطه . وفي أقصى الجنوب تجد نهر الوادي الكبير الذى تقع عليه عواصم الأندلس مثل قرطبة وأشبيلية وقادس .

ويعتبر جبل طارق حلقة الوصل بين المغرب والأندلس ويقع هذا الجبل في أقصى جنوب إسبانيا ، وكان يسمى الجبل المجوف Mons calpe ثم أطلق عليه المسلمون اسم الصخرة وجبل الفتح وجبل طارق وفرضة المجاز . واسم جبل طارق هو الأسم المعروف حتى الآن في جميع اللغات Gibraltar نسبة الى فاتح الأندلس العظيم طارق بن زياد .

أما المضيق نفسه فيعرف قديما بأعمدة هرقل نسبة الى الجبال المحيطة به ، وأطلق عليه العرب مضيق جبل طارق وطوله ٨٠ كم ، وعرضه حوالي ١٥ كم .

وكما يقول الدكتور أحمد مختار العبادي أن مسافة المضيق التي تفصل المغرب عن الأندلس ضيقة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكري أو الثقافي أو الاقتصادي بينهما فكل من اللطرين يعتبر منطقة آمان للأخر وامتدادا له في الدم والجوار والأخذ والعطاء وفي الضلالت التاريخية والتكوينات الجغرافية والجولوجية والمواقع الاستراتيجية رغم وجود هذا المضيق بينهما . ولهذا نشب صراع تقليدي مستمر بين الشاطئين الأفريقي والأوروبي حول السيطرة على هذه المنطقة المحيطة بالمضيق ، والمعروفة باسم البضوتين ، عدوة المغرب وعدوة الأندلس ، والعدوة معناها الجانب أو الشاطيء .

الفتح العربي لاسبانيا

الاسلام في نهضته الشاملة ، وببروحه للفياضة الشجاعة التي بثها في نفوس أهله يكسب للمسلمين ولدولة الاسلام أرضا جديدا في كل سنة بل وفي كل يوم ولما فتح المسلمون للشام لم يكتفوا بذلك ، بل اتجهوا الى مصر ، ومن مصر فتحو المغرب ولما تم فتح المغرب رأى موسى بن نصير أن يواصل انتصارات المسلمين وجهادهم فيما وراء المضيقي ، في عالم جديد غريب ظلي المسلمين كل الغرابة ، وشجبه على ذلك للقضاء الذي تم بينه وبين يوليان حينما سبته ، والتحالف بين الرجلين كان تحالفا فريدا من نوعه ، يوليان يتطلع الى القضاء على عرش ملك القوط ، مستعينا بقوة المسلمين المتقدمة والضرارية ، وموسى يريد أن يستغل تحالف يوليان معه في تحقيق حلم الاسلام الكبير ، وهو الانتشار في شتى البلاد والبقاع ، والزحف الى الامام دون أن يعوقه عائق ، ويحول دونه حائل

بعد أن أتم موسى بن نصير فتح طنجة ، تطلع الى فتح سبته ولكنه لم يستطع لمناعتها وبينما هو يستعد لاعادة الكرة جاعته رسالة من يوليان يعرض عليه مشاركته في فتح اسبانيا ويرغبه في الغنائم التي قد يحصل عليها من وراء هذا الفتح . والراجح أن يوليان لم يكن يقصد أن يساعد موسى على فتح اسبانيا ، وانخالها في حوزة العرب ، ولكن يوليان كان يقصد أن يساعد موسى في التخلص من رود ريبك ، والانسحاب بعد ذلك من اسبانيا وكان يعتقد أن العرب يشنون الغارات لأجل الحصول على الغنائم ، ثم ينسحبون الى مواقعهم أما موسى فحينما وصلت له رسالة يوليان ، وجد الفرصة سانحة لتوسيع ملك الاسلام فيما وراء البحر .

ومهما يكن من أمر فقد قابل موسى يوليان ، وتختلف الروايات حول مكان المقابلة ، فالبعض يرى أنها تم في عرض البحر ، ويرى آخرون أنها كانت في سبته ، ويرى البعض أنها تمت خارج سبته ،

ولا نعرف بالضبط ما الذي دار في هذه المقابلة • ولكن يفهم من سير الاحداث أنهما اتفقا على غزو أسبانيا ، وتمهد يوليان بتقليل السفن والادلاء وكل مساعدة ممكنة • وأغلب الظن أن يوليان حرص موسى على التخلص من رودريك والانسحاب فورا ، وانهاء مهمته عقب ذلك • لكن موسى كان يضم استغلال صاحبه في تحقيق مشروع كبير ، وهو التوسع فيما وراء البحر • وأطلع يوليان موسى على ضعف أسبانيا ، ومعارضة الأهليين للحكم القوطي ودله على نقاط الضعف في هذا البلد الفسيح •

لما اقتنع موسى بهذا المشروع الكبير ، كتب الى الوليد بن عبد الملك يستأذنه في فتح أسبانيا ، فكتب اليه الوليد أن يخطره بالنسرايا ، والا يزوج بالمسلمين الى أهوال البحر ، ونزل موسى على نصيح الخليفة في اختبار الفتح الجديد بالنسرايا •

عهد موسى الى احمد بن جندب ، وهو طريف بن مالك أو ملوك ويكنى بأبي زرة ، وأمره بشن الغارة على سباحت أسبانيا الجنوبية ، فعبر طريق المضيق في مائة فارس وأربعمائة رجل في رمضان سنة ٩١ هـ ٧١٠ م وهنما في المكان المعروف بالسسمه حتى اليوم نزل طريف وجنوده وأغاروا على المناطق التي تليها الى جهة الجزيرة الخضراء وأضاب سببا ومالا كثيرا ، وطاد سببا •

أثبتت هذه الحملة الاستطلاعية اخلاص يوليان اذ قدم لطريف السفن والارشادات اللازمة ، كما أن هذه الحملة لاحظت ضعف المقاومة في أسبانيا ، وتدهور البلاد وامكان غزوها •

شجعت هذه الحملة الاستطلاعية موسى بن نصير على اعداد جيش كبير لفتح أسبانيا فجهز جيشا من العرب والبربر يبلغ عدد رجاله سبعة آلاف مقاتل ، وأسند قيادته الى طارق بن زياد اثنيي - حاكم طنجة - ويختلف المؤرخون حول نسب طارق بن زياد فيرى البعض أنه فاطمي من همدان ، وأنه مولى لموسى بن نصير ، وتشير رواية أخرى وهي الأرجح ان طارقا من البربر ، ومن هبيلة نقرزة

بالذات ، وأبنة تلقى الاسلام عن أبيه زياد ، وهذا عن أبيه عبد الله
وبعد عبد الله تدخل في أسماء بربرية محضه حتى تصل الى بنفزه
وهي القبيلة التي ينتسب اليها .

كان طارق بن زياد جنديا شجاعا ، وقائدا بارعا ، وقبله فطرز
موسى الى مواهبه وولاه طنجه ، وهي أمنع حصون المغرب ، وتقف
في بقعة استراتيجية تحتاج الى مقدرة دفاعية كبيرة ، ثم أسند
اليه مهمة فتح الاندلس ، وقاد جيشا كبيرا وعبر جندب المضيق في سفر
يوليان ، ونزل بالبقعة الصخرية التي لا تزال تحمل اسمه الى اليوم .
وهي جبل طارق سنة ٥٩٣ م - ٧١٦ م ، واخترق طارق المنطقة المجاورة
بمعاونة يوليان وارشاده وتمكن من اختراق بلاد الجزيرة ، واستولى
على قلاعها ، وهزم قائدها القوطي تدمير ولما أدرك ولاية ملك القسود
في هذه المنباطق خطر لزحف الاسلامي ، وما قد يؤدي ذلك الى
زوال ملك القوط ، أرسلوا الى تيود وريك - ملك القوط الذي كان في
بعض الولايات الشمالية ، لقمع الفتن فيها يخبروه بخطورة الموقف ،
فعاد الملك بسرعة الى طليطله وأعاد تنظيم قواته .

تغلب طارق بن زياد على كل مقاومه اعترضته ، وواصل زحفه الى عاصمة
القوط ، وأعيد ملك القوط جيشا قويا يقبل مائة ألف مقاتل
أو تسعون ألفا ، وبنارح الجيش لوقف الزحف الاسلامي ولما علم
بضخامة جيش القوط ، استنجد بموسى فأمدته بخمسة آلاف جندي ،
فتضار جيش الاسلام اثني عشرة ألفا ، وانضم اليهم يوليان في قوة
صغيرة من أنصاره وجنده .

دار اللقاء بين جيش القوط الكبير وقوة المسلمين الاقل عددا
على ضفاف نهر وادي لكة أو وادي بكة . وفي هذا الموقع دار اللقاء
التاريخي الحاسم بين الشرق والغرب ، وبين الاسلام والنصرانية في
رمضان سنة ٥٩٣ م ، وغرق النهر بين الجيشين .

دارت مناوشات بين الجيشين استمرت عدة أيام ، ثم نشبت
المعركة الحاسمة التي انتهت في اليوم السابع من بدأ القتال ، وتوكل

جيش القوط تمزقه الخيانة والخلافات والكراهية للملك ، وعدم الاخلاص في الحرب ، وتمنى كثير من جند الملك القوطى هزيمته ، واستطاع يوليان في المعركة ان يستميل بعض للجند ، وادى انقسام الجيش الى هزيمته ، ومزق المسلمون اعداءهم كل ممزق ، ولم ينج الا الشريد ، اما الملك فتختلف الروايات في مصيره ، فيقول البعض بأنه عرق في النهر ، والبعض يقول أنه قتل ، ويذهب البعض الى أنه هرب الى البرتغال ، وهرب في بعض الأديرة متخفيا حتى وفاته . وتسلم هذه الواقعة وادي لكة أو وادي يكة أو موقية شيوخه ، وكان من أهم نتائجها زوال ملك القوط ، وسقوط المدن الإسبانية في أيدي المسلمين الواحدة تلو الأخرى تساقط أوزاق الخريف .

أقلت هذه الواقعة الرعب في نفوس القوط ، فامتنعوا بالحصون والجبال ، وقيصدوا الى الهضاب والسهول ، وذاغت أنباء النصر في بلاد المغرب ، فزحف الى الأندلس عدد عظيم من الجزير والترب ، وانضموا الى الجيش المنتصر ، واستبك المسلمون مع القوط في الواقعة استخفا ، مجاولة من القوط لدرء المسلمين عن بلادهم ، ولكن الدائرة دارت على القوط مرة أخرى ، الأمر الذي يسر للمسلمين أمر فتح المدن الأسبانية المدينة تلو الأخرى .

زحف طارق بن زياد الى طليطلة ، على حين أرسل منيف الرومي - مولى الوليد بن عبد الملك - الى قرطبة ، فهدم أسوارها ، واقتحمها دون مشقة ، وأرسل حملات أخرى الى البيرة وعزناطة ومالقة ، وتم فتح هذه البلاد ، وغاوى اليهود المنتمين في هذه الحروب لانهم - كما قلنا - يرجون زوال ملك القوط ، وكان المسلمون يخشعون في كل مدينة يفتحونها حامية صغيرة تحميها وتمنع أي مجاورة قوطية ، لاستبترادها ، ثم زحف المسلمون شرقا الى مرسيه وكانه تسمى تدمير نسبة الى حاكمها ، ولكن هذا الحياكم قلوب المسلمين بعناء وصلابة ، ولم ينقطع المسلمون قطح البنادة ، بل أبصروا عليها بشرط عدم مناصرة اعداء المسلمين .

وكانت مقاومة القوط قد اعترها الوهن والضعف ، وهذا يفسر لنا دخول طارق بن زياد طليطله ، والاستيلاء عليها دون مقاومة تذكر ، وقد فرت حاميتها وهرب سكانها الى القرى والجبال المجاورة ، ووجد المسلمون المدينة خالية من سكانها ، وغنم المسلمون مغانم وفيرة من القصور والكنائس تسهب المراجع العربية الخديثة عنها .

خشى طارق أن يقطع عليه العدو الطريق في هذه البلاد الجبلية الوعرة لا سيما وأن فصل الشتاء كان قد اقترب ، وتصعب المسلمون من الجهد الذي بذلوه وأثقلتهم الغنائم التي جمعوها ، ويرى البعض أن طارق استنجد بموسى بن نصير غير أن بعض المصادر تشير الى أن موسى بن نصير هو الذى أمر طارق بالتوقف الفتح ، أما جرمطه على عدم التوغل بالمسلمين في مجاهل تؤدي الى تدميرهم أو حقدًا على أن ينال طارق شرف فتح الأندلس .

ونحن نرجح أن موسى بن نصير الذى عرف عنه الحذر ، طلب من طارق التوقف حتى يلحق به لدراسة الموقف على الطبيعة ولتحديد امكانية مواصلة الفتح أو التوقف عند هذا الحد . ومهما يكن من أمر فقد عبر موسى مضيق جبل طارق على رأس عشرة آلاف مقاتل من العرب وثمانية آلاف من البربر في سفن صنعها خصيصا لهذا العمل ، يحفزه شرف الاشتراك في الفتح على الرغم من أنه بلغ من العمر أرذله ، ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان ٥٩٣ — ٧١٢ م ، وبدأ موسى زحفه بالاستيلاء على مدينة شذونه ، ثم قرمونه — وهى حصن منيع — فاستولى عليها ، وفتح أشبيلية بعد حصار دام شهرا ، وفتح ماردة بعد لآلى وعناء سنة ٩٤ هـ والتقى موسى بطارق على مقربة من طليطله ، وتشير الرواية العربية الى أن موسى أنيب طارقا بل بعضهم يقول أن موسى زج طارقا في السجن ، ولكنه ما لبث أن عفا عنه ، ثم اشترك القائدان الكبيران سويا في مواصلة فتح ما تبقى من بلاد الأندلس ، وزحفا نحو الشمال الشرقى ، واختربا ولاية أراجون واستوليا على سرقسطة ووشقة ولا رده حتى بلغت شاطئ البحر الشمالى عند حدود فرنسا الجنوبية .

وهكذا انتهى كل من موسى وطارق من فتوحاتهما ، وكانت
أواخر الخليفة الوليد بن عبد الملك قد قضت برجوعهما إلى دمشق ،
فرجع موسى ومعه طارق ، بعد أن خلف على الأندلس ابنه
عبد العزيز بن موسى بن نصير في أواخر سنة ٨٩٤ - ٨٧٤ .

وكان موسى طموحا يتطلع إلى عبور جبال البرانس والاندفاع
في غزو أوروبا ، ولكن الخليفة عارض هذا الرأي خوفا من العاقبة
الوخيمة . أما ابنه عبد العزيز بن موسى ففتح الجزء الشرقي من
الجزيرة . وبذلك تم فتح شبه جزيرة أسبانيا كلها إلا الجزء الشمالي
العربي الذي يسمى جاليقية . فكانت هذه النقطة التي تركها العرب
لبردها ووعورتها ، نواة للدولة المسيحية الأسبانية التي ما زالت تنمو
وتترعرع حتى طردت العرب من الأندلس بعد ثمانية قرون .

ويرى سافدرا أن حملة طارق بن زياد جاءت ممددة للأسرة
الملكية القديمة ، وعوناً لها على إعادتها إلى الملك . ولما زحف موسى
إلى الأندلس اتخذت الحملة صفة الفتح ولذا ثار الأسبان في المدن
الكبرى مثل أشبيلية وطليطلة وغيرها مما اضطر العرب إلى فتحها من
جديد ، ومن هنا أصعبوا فاتحين لا مدينين كما كانوا من قبل .
وكانوا أسرة يوليان والأسرة الملكية القديمة المكافآت والضياح
والإقطاعات على مساعدتهم في الفتح . ولكننا نرد على كلام سافدرا
بأن العرب جعلوا فاتحين لا مدينين ، وأن فتح الأندلس جزء من سياسة
المسلمين الكبرى التي بدأت منذ فجر الإسلام وهي مواصلة الفتح ،
ونشر الإسلام في غير بلاد الإسلام .

وهكذا فتحت الأندلس في أربع سنوات من ٩١ - ٨٩٥ .

تختلف الروايات حول البواعث والأسباب التي دفعت الوليد
ابن عبد الملك إلى استدعاء موسى وطارق إلى دمشق ، فيقتصر بعضها
على الخلاف بين طارق وموسى وخوف الخليفة من أثر هذا الخلاف
على موقف المسلمين في الأندلس . وتشير رواية أخرى إلى أن الخليفة
خشى من توغل موسى بالمسلمين في أراضى بعيدة خاصة عن بعض

دمشق وتشير رواية أخرى - وهي الأرجح من أن الخليفة خشى من أن يستقل موسى بهذه البلاد النائية البعيدة ، وقد عرفت عنه الطموح .

امتثل موسى لأمر الخليفة ، وكانت عنده - رغم شيوخته آمال عراض ، ففكر في اختراق جبال البرانس ، وأن يقتحم أمم النصرانية في فرنسا وإيطاليا واليونان وغيرها ويصل إلى الشام عن طريق القسطنطينية ، وتحويل البحر المتوسط إلى بحيرة عربية ولم تكن هذه الخطة مستحيل تحقيقها في ذلك الوقت . ذلك أن دولة الفرنجة في فرنسا وألمانيا - وانلومبارد في إيطاليا - وممالك النصرانية الأخرى كانت كلها ضعيفة ، ولا تستطيع التصدي لقوة المسلمين المتفوقة في ذلك العصر .

وتختلف الروايات حول مصير موسى بن نصير ، فتذكر بعض هذه الروايات أنه قوبل في دمشق بالترحاب ، وتذكر روايات أخرى أنه غومل بقسوة في دمشق لا تتناسب إطلاقاً مع الدور الكبير الذي أداه في خدمة الاسلام وأهله .

فقد وصل موسى إلى القسطنطينية إلى دمشق في موكب من الجنائيم لم يشهد التاريخ له مثيلاً يتمثل في الأسرى من أبناء وبنات وملوك القوط والذهب والفضة وغير ذلك مما لا يمكن حطه عنهم ، وتشهير الروايات التي بأن موسى اقترب من دمشق ، وكان الولي في مرض الموت يطلب منه ولي عهده سليمان بن عبد الملك أن يتمهل نحى وفاة الولي حتى يحصل هو - أي سليمان - على جمل الغنائم . ولكن موسى رفض تلبية طلب سليمان ، ودخل دمشق والولي على فراش الموت ، ولما توفي الولي وولي سليمان فاز غضبه على موسى وأساء معاملته ، وزجه في السجن وظالبه بهائل الكثير ، وتامسقاغ موسى تسديد بغض ما عليه ولجئاً إلى بعض القبياتك وطالبها بمعاونته على تمديد باقي ما عليه . فلم عفتنا عنه وثوفي الشنيخ بعد أن تجاوزنا من العمر ثمانين عاماً بعد أن أدى دوراً بطولياً يذكره التاريخ بفخر وأعران الخدمة وطهته .

كان موسى بن نصير من أعظم رجالي الجيوب والامارة للمسلمين في القرن الأول — الهجري ، وظهرت خلوقته الفاتحة في معرفة نفسية الشعوب وبراعة في سياستها وقادتها وكان عالماً في الحديث والفقه والشعر والأدب والفلك .

أما مصير طارق بن زياد فالروايتان العربية والاسبانية لا تشير كل منهما اليه بشيء ويبدو أن أمره أهمل في دمشق وأنه قضى بقية حياته في زوايا النسيان ، وأسيئت معاملته رغم مقدراته العسكرية الكبيرة ورغم جهوده الجبارة في فتح بلاد المغرب والأندلس . أما نصير الكونت يوليان ، في بعض الروايات عاد إلى مسقطه بعد الفتح ، وأقطع ما حولها من الأراضي ، وقلده أمارتها جزاء لخدماته ، وبقي على دينه ، غير أن عقبه دخلوا في الإسلام ، ويقول الرواية أنه قتل في صراع مع مواطنين أو قتل ، بعد ذلك بأعوام في ولاية الجرب الثقي بيد العرب الذين ارتابوا في ولايته .

كان عبد العزيز بن موسى بن نصير أول ولاية الأندلس من قبل المسلمين ، وأسس خلف موسى ابنه عبد الله على أفريقيا ، وأقر سوادنا ابن عبد الملك هذا الاختيار ، وكانت مهمة عبد العزيز صنعة صناعة أقوى الحصون ، و تجهز الحاميات العسكرية بما يحتاج من مؤن ومعدات ، وقمع الثورات ، وأعاد الهدوء والطمأنينة التي التفتلاد ، وأثبأ ديوانا لتطبيق الأحكام الشرعية ، ومبنيج الزواج بين العرب والاسبان وتزوج بالملكة ايجلونا — أرملة رودريك ملك القروط واختار أسبيلية أول عاصمة للأندلس ، وأقبل المهاجرون على الأندلس من العرب والبربر ، واستقروا بالوطن الجديد ، واشتغلوا بالزراعة والصناعة والتجارة .

ولكن العرب في أسبانيا عارضوا حكم عبد العزيز بن موسى ، واتهمه بعضهم بالانقياد لزوجته ، بل ردد البعض أنه تنصر ولكن الأقرب إلى الصواب أن المصنوع خصامت حول نواياه في الاستقلال بالأندلس ، ويغزرها ضمنه الشبهات من الخلافة التي انشأها في أيام

موسى • فمهما يكن من أمر فقد هاجمه الثوار في مسجد أشبيلية وقتلوه سنة ٨٩٧ هـ • وأرسلوا برأسه الى سليمان بن عبد الملك بدمشق مما يدل على أن أصابع سليمان لم تكن بعيدة عن هذه المؤامرة خصوصا وأن سليمان عزل عبد الله بن موسى في هذه الأونة •

نتائج الفتح العربى للأندلس

من الناحية السياسية سقطت مملكة القوط ، وتحولت أسبانيا الى ولاية تابعة للدولة الاسلامية الكبرى ، يحكمها ولاية يعينهم والى أفريقية أو والى مصر ، لان أسبانيا كانت أحيانا تتبع والى أفريقية وأحيانا تتبع والى مصر •

أدى الفتح العربى للأندلس الى تغير شامل فى المجتمع الاسبانى فلم يعد ينقسم المجتمع الى طبقة أرستقراطية تتمثل فى القوط ورجال الكنيسة وطبقة متوسطة تعمل لحساب الارستقراطية وتتقاضى الأجر القليل ، وطبقة دنيا من الاقنان والارقاء ويهود ناقمين على الحكومة لاضطهادهم ، وانما ذابت الفوارق بين الطبقات فى المجتمع الجديد وانقسم المجتمع الى العرب وهم الذين ساهموا فى الفتح أو هاجروا الى أسبانيا واستقروا فيها بعد الفتح ، والبربر هم أهل المغرب الذين ساهموا فى الفتح •

والاسبان سكان البلاد الأصليين وقد تعلموا اللغة العربية لغة الغاتخين وسموا بالمستعربين وبقوا على دينهم ، لا يتعرض لهم العرب بسوء ولا يحملونهم على اعتناق الاسلام ، لانه لا اكراه فى الدين ، وانما بقى من أراد على دينه بشرط دفع الجزية وثمة طبقة أخرى وهى طبقة المولدين ، ونشأت هذه الطبقة الجديدة من تزاوج العرب بالاسبان ، فحملوا مزايا الجنسيتين ، وكانوا نتيجة لاختلاط الدماء العربية بالأوربية •

ومن نتائج الفتح الاسلامية للأندلس تحسن الأوضاع الاقتصادية فى الأندلس ، فأعيد توزيع الأراضي الزراعية بين العرب

والبربر والاسبان ، ولم يعد الاسباني يزرع لصالح الارستقراطية التي لم تكن تترك له سوى النزر اليسير مما لا يكاد يكفي احتياجاته أما العرب فقد تركوا الأرض في يد الاسبان يزرعونها ويؤدون خراجها الذي حدد بنسبة المحصول وجودة الأرض وبعده أو قربه من مصادر المياه .

وأدى الفتح العربي الى انتشار اللغة العربية والاسلام ، وظهور الحضارة الاسلامية في الأندلس تحديجيا ، وكانت أسبانيا قبل الفتح تعيش في ظلام الجهل . ولكن الاسلام أضاء بنوره هذه البلاد وأدى الى ظهور العلم والثقافة وانتشار الحضارة الاسلامية .

عصر الولاة فى الأندلس

تُعرف الفترة الأولى للحكم الإسلامى فى الأندلس بعصر الولاة وهى فترة مضطربة كل الاضطرابات ، سادت فيها الألقاقل وانقطن بلاد الأندلس ، وأشد هذه الفتن ضراوة ما حدث بين الغرب وأثربز ، وكان أمير القبروان هو الذى يعين ولاة الأندلس فى أغلب الأحيان ، على أن أهم ما يميز هذه الفترة هم غزوات المسلمين فى فرثبنا أو قنما وراء انبرانس ،

لما قتل عبد العزيز بن موسى ، ولى الأندلس ابن عمه أيوب ، ابن حبیب اللخمى سنة ٩٧ هـ ، وحكم البلاد ستة أشهر فقط ، واليه ينسب بناء قلعة أيوب فى جنوب سرقسطه شمال أسبانيا ، وهى الآن مدينة كبيرة لا تزال تحمل اسمه ، ثم خلفه الحربى بن عبد الرحمن الثقفى حتى سنة ١٠٠ هـ ٧١٩ م ، وخلفه السمع بن مالك الخولانى نسبة الى قبيلة خولان اليمانية بعهد من الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وقام هذا انوالى الجديد بعدة اصلاحات عمراتية وأدارية ، منها اعادة بناء سور قرطبة وقنطرتها التى تربط المدينة بأراضيها الجنوبية عبر نهر الوادى الكبير .

بدء المحاولات الجدية لفتح فرنسا

كانت الفتوح العربية تتدافع كأواج البحر موجة تلو موجة فالعرب قد فتحوا الشام ثم وثبوا منه الى مصر ، وجاعت بعد مصر أفريقية ، ثم كان بعد مصر فتح أفريقية ، فتح الأندلس وتمشيا مع هذه الطريقة كان لابد أن يتبع فتح الأندلس قفزة أخرى الى ما وراءها وفعلا فكر فى هذا — كما قلت — موسى بن نصير عندما أتم فتح أسبانيا ، ثم فكر فى أن يعبر جبال البرتات الى أرض غاليا ، ومنه يسير شرقا فى مشروع كبير يرمى الى فتح روما أو القسطنطينية ، والقسطنطينية كانت أملا عظيما ، تحطمت على أسوارها كثير من المحاولات العربية فى المشرق ، فقد حاول العرب غزوها عدة مرات ، ولكنهم أخفقوا ، ولكن الخليفة

استدعى موسى بن نصير - كما رأينا - ورفض توغل المسلمين في أراضيهم ومجاهل غير آمنه ، ولكن فكرة غزو ما وراء أسبانيا ظلت تتردد في النفوس حتى ولى الإندلس السبع بن مالك الخولاني ، وهو من خيرة الولاة الذين تولوا أمر الإندلس . وبتوليته عادت الي الجند جماسيتهم وتحركت فيهم روح الغزو التي كانت قد فطرت بعد استدعاء موسى وطبارق إلى المشرق ، وما أصابهما في دار الخلافة .

ويجب أن نلقى نظرة عامة على فرنسا قبل محاولات المستعمرين فتحها ، ففرنسا في التاريخ الروماني تسمى غاليا ، أو غاليس أو غالاه ، وكأصطلح جغرافي لم تكن قد وجدت بعد كتلة واحدة أو كوحدة سياسية ، كذلك لم تكن قد تكونت بعد اللغة الفرنسية في ذلك الوقت ، وبعد زوال الدولة الرومانية توزعت فرنسا بين قوى مختلفة ، فسبتمانيا كانت تابعة للقوط الغربيين - وهي المدن السبع - والجزء الذي يجده نهر اللوار شمالا إلى جبال البرنات جنوبا كان دوقية مستقلة تسمى أكيثانيا « أكوين » فاذا سربنا من أقليم سبتمانيا شرقا ، فهناك أقليم بروفانس ، بينما نجد شرقي نهر الرون « برجنديا » وكانت هذه الأقاليم مستقلة تبعاً لما تخلف عن الغارات الجرمانية . أما شمال نهر اللوار حتى ألمانيا الحالية ، فكانت مملكة تسمى مملكة الفرنجة أو الميروفنجية .

ضعفت الدولة الميروفنجية بمرور الزمن ، ولم يعد في أسباطها القبض على زمام الامور في الدولة ، انهارت السلطة المركزية ، واسترد الامتياز والزعماء المحليون استقلالهم وامتيازاتهم ، وأزداد سلطان محافظ القصر ، وأصبح في القرن السابع منذ ضعف الملوك أقوى المناصب الادارية والسياسية في الدولة ، وأصبح محافظ القصر صاحب السلطة الفعلية في الدولة ، بينما لم يكن للملك من السلطة سوى اسمها فقط . وأختصت الأسرة الكارلية بهذا المنصب الكبير ، وأخذت تهدد بنفوذها وقوتها مصير الأسرة الميروفنجية ، وولى شارل مارتل منصب محافظ القصر سنة ٧٢٠ م بعد أن تغلب على منافسيه . هكذا كانت مملكة الفرنج حينما عبر المسلمون إلى غاليا أو خالينس .

لثالث مرة بقيادة السمح بن مالك ، وغزوا ولاية سبتمانيا القوطية ، واستولوا على قواعدها ، وزحفوا على مدينة تولوز - عاصمة أكوئين - وكان أودو - دوق أكوئين - أحد أعضاء الأسرة الميروقتجية ، أقوى أمراء انفرنج في غاليا ، وشدهم بأسا وأمسقل بأكوئين منتهزا فرصة الاضطرابات التي سادتها ، وسيطر على جنوب فرنسا ، من اللوار الى البرانس ، والتف حوله القوط والبتسكنس و (الفاثاريون) وتطلع اليه للتخلص عن طمطرو كلارك ولولتله ، وانقرباع بالاساسه الفرنجية .

أقام السمح بن مالك في سبتمانيا حكومة استلامية ، وبلاد توزيع الاراضي بين الأهلين وقرض الجزية والخراج على الفخاريين ، وكلل لهم الحرية الدينية ، والفاثاريين طبقا لمرامهم وزحف نحو القرب لقسوة أكوئين ، وهزم الأعداء الذين تصدوا له شر هزيمة ، وأتجه إلى تولوز ، فاستطاع يد يودو ، وأعد جيشا قويا لانقاذ مملكته من العرب والتقى السمح بن مالك بيودو بظاهر تولوز في معركة حامية الطويس ، وبذل كل من الفريقين الوانا من الشجاعة النادرة ، وسالت الدماء أنهارا ، وفجأة سقط السمح من فوق جواده صريحا ، فاختل نظام الجيش الاسلامي ، وخادته الفوضى والاضطراب ، وانسحب المسلمون الى سبتمانيا بعد أن فقدوا القائد الشجاع سنة ١٠٢٢ هـ ٧٣٦ م .

اتخذ المسلمون على أثر هذه الهزيمة من مدينة أربونة قاعدة لمعلياتهم الحربية فيما وراء البرانس .

اختار الجيش الإسلامي عبد الرحمن الفافقي ، قائدا عاما ووقع اختيار الجماعة له والبابطين الأندلسيين حتى تعهد للدولة التي أحدها بالولاية ، وقضى فتوته في تهدئة الأمور في البلاد حتى ولي عنيسه بن سميم الكلباني حكم الأندلس سنة ١٠٢٣ هـ ، وكان لابد لعنيسه من إعادة تنظيم جيشه واعداده لمواجهة الجهاد فيما وراء البرانس ، وأصلح أحوال البلاد الداخلية ، وقضى على الاضطرابات التي حدثت في الأندلس ثم عبر جبال البرانس ، وأتم فتح إقليم سبتمانيا بمقتضى التسبع ، ثم صعد مع الفرس لملاحتي بلغ مدينة ليون والمحتلها ، ثم توجه إلى غربي الأقاليم المعروفة

برجانديا حتى بلغ مدينة أوتون في أعالي الرون ، ولكن أهالي البلاد قطعوا عليه خط رجعتة ، وأنتهى الأمر بأستشهاده هو الآخر سنة ١٠٧ هـ ، فأرشد الجيش الى الداخل ، وعادت الاضطرابات الى الجزيرة مرة أخرى .

وتسود الاندلس بعد ذلك فترة من الاضطرابات ، تقف فيها حركة الفتح الخارجى مدة أربع سنوات ، ويتوالى على الأندلس فى هذه الفترة التى تلى وفاة غنيسه سنة ولاءه . وفى سنة ١١٢ هـ ٧٣٠ يتولى أمير شجاع متحمس للجهاد ، هو عبد الرحمن الخافقى نسبة الى قبيلة غافق اليمينية ، كأن جنديا عظيما ظهرت مواهبه الحربية فى غزو فرنسا ، عرف عنه الجدل وحب الأصلاح والورع والتقوى ، وكان فوق العصبية وعاد الوفاق بين اليمينية والمصرية فى عصره ، الأمر الذى قوى من شأن البلاد والجيش ، وكان حكمة فى الواقع فاتحة عهد جديد فى تاريخ الأندلس .

نظم عبد الرحمن ادارة البلاد ، وأعاد الى النصرارى أملاكهم المعتصبة ، وسأوى بين الناس فى الضرائب ، وأوجد نظاما اداريا قويا ، وأعاد تنظيم صفوف الجيش ، وزوده بأقوى الأسلحة ، وحسن القواعد والثغور الشمالية ، واختار لجيشه فرسانا من البربر ، يقودهم نخبة من العرب .

أخضع عبد الرحمن الخافقى الثورات فى الشمال . وفى أوائل سنة ٧٣٢ م ١١٤ هـ سار عبد الرحمن الى الشمال مخترقا ولاية أراغون « النجر الأعلى » ونافار « بلاد البشكنس » ، وعبر البرانس من طريق نبلونه ، ودخل فرنسا فى ربيع سنة ٧٣٢ م وزحف مباشرة على مدينة آرن الواقعة على نهر الروم ، التى عارضت الحكم الإسلامى ، وقهرها بعد لائى وعناء ، ثم زحف غزبا ، وعبر نهر الجارون ، وقا تل عبد الرحمن بودو قتالا شديدا هزم فيه الدوق شر هزيمة ، وقتل من جنده كثيرين ، ودخل عبد الرحمن عاصمته برنال ، وسقطت أوكوتين كها فى يد المسلمين ، ولاد الدوق يودو بالفرار وأخذ يصرب فى الأرض ، ثم ارتد عبد الرحمن نحو الدوق مرة أخرى واخترق الجيش الإسلامى برجوتية وأسفلنى على ليون وواشيل زحفا حتى رصانصن التى تبعد مائة ميل فقط عن باريس وأرشد

عبد الرحمن بعد ذلك عربيا انى ضفاف اللوار ، ليتم فتح هذه المنطقه . تم مقصد عامه الفرنج ، وبذلك سيطر على نصف فرنسا الجيوبى من التسرف الى الغرب فى بضعة أشهر فقط .

بحأ يودو الى سارل مارل يسنجد به صد الحظر الدايم الذى أودى بمملكته . والدوله المبروفنجية تعتبر فى نظر الفرنسيين ، المرحلة الاولى من تاريخهم الحديد . ولكنها فى الحقيقه لم تكن فرنسه بحال من الأحوال ، فلا اللغة ولا الحدود ولا القوميه كانت فرنسية حتى ذلك الوقت ، وانما كانت الدوله المبروفنجية ألمانيه ، فسارل ألماني وكذلك حينه ، فالقتال الذى وقع أنما كان بين سكان الصحارى الممنده من بلاد العرب الى شمال أفريقيه وبين سكان الغابات الشماليه فى أوربا حيث موطن القبائل الجرمانيه . وهذه أول مره فى التاريخ تلتقى فيها هاتان القوتان . لذا كان الجيسان مختلفين فى كل تىء فى السلاح وفى اللباس وفى التكتيك الحربى وأساليب القتال .

فالعرب وأنبربر آتون من بلاد صحراويه حاره . ملاسهم واسعة مضافه ، وأسنحتهم خفيفه أهمها الخوس والسيف ، وطريفتهم فى الحرب الكر وانفر . ولهم مرقه من الحاله هى الركن الاساسى فى انجيس . وهى التى يهتمون بها ، ويولونها عناية . أهأ الحرمان . مهم أهأ، مناطق بارده أبديهم حديدية ، ويحاربون شبه عراه ، أسلحتهم ممدده من بنتتهم حيث الغابات الثقيله والسيف العربيه وأكثرهم مشاه بسببرون فى صفوف متراصة .

ومهما يكن من أمر فقد نفذ عبد الرحمن بجيسه الكبير الى فرنسا سنة ٧٣٣ م ١١٤ هـ وأقتحم وادى الرون وولابه أكونين ونستت فوى أودو ، وأشرف على ضفاف اللوار ، وغد ألقب هذه الانصارات سارل مارل — محافظ القصر فى مملكه الفرنجة فى عهد بيودوريك الرابع ولجسأ أودو وزعماء الفرنج الى محافظ القصر بسنجدون به . ويحذرونه من سقوط بلادهم فى يد المسلمين . بالمقرئ صاحب كتاب بفتح الطيب أكبر وسوعه فى تاريخ الامم . بعل عن مؤرخ أقدم منه اسمه الحجارى

نسبه الى وادى انججاره بالاندلس ، عولا معناه ان عارله (سارل مارنل) قال لقومه حين نسكوا اليه وقوف العرب على ابواب بلادهم ، انظروا لا تواجهوهم في اقبال أمرهم فان لهم ارادة هويه ، وبيه صادفة وحصانه انظروا حتى تهدأ أمورهم ، وبأحدوا في اننافس في الرباسة والملك والمال ، وعند ذلك تتفرق كلمتهم ، وبضعف امرهم ، متمكون منهم بأيسر مجهود .

ويعقب المفري عنى ذلك بقوله : مكان والله ذلك .

ساسى سارل مارنل ويودو الحلافات بينهما وتنافسها لمواجهة العدو المشترك . وكان لا بد من خوض غمار معركة فاحشه لدرء خطر المسلمين عن بلاده ، وفي نفس الوقت لتسطره على جنوب فرنسا ، واستراع ملك بودو ، وهذا حلم قديم كان يرادوه ، وقاد سارل جينه الذى ينألف من الفرنج والعشائر الجرمانية المنوحسه والعصابات المرتقه فيما وراء البرتات وسار زعيم الفرنجه على رأس هذا الجيس الجرار نحو الجنوب للاقاء العرب .

ودار اللقاء الحاسم بين السرف والعرب والاسلام والنصرانيه ومن الصعب تحديد مكان هذا اللقاء ، ولكن يمكن القول بأنه السهل الواقع بين مدينتى تور ونواتبه على مقربه من مدينته تور ، وبعد أن استولى المسلمون على مدينه بواتيه وخرّبوا كنيستها ، وما أراد عبد الرحمن أن يعبر الوار فاجأه الجيس الكبير بقياده سارل ، ودارت رحى معركة رهيبه وأرند الجيس المسلم الى السهل - الذى أشرنا اليه - وكان الجيس المسلم منفلا بالغنائم وكانت ثبر بين جنوده القسلافل ، ونتمنى هذه الغنائم في كنوز نرواب جوب فرنسا ودار انقتال بسده وصراره بن الفرعفين ، ولاح النصر في جانب المسلمين ، ولكن فطن الفرنجة الى حرص المسلمين على عائمهم فأحدنوا ثغرة في داخل الحيتس المسلم ، وانقصوا على الغنائم فترك المسلمون الحرب ، واتجهوا الى انغنائم يمنعون الفرنجة عنها ، فذب الخئل الى صفوف المسلمين ، وعينا حاول عبد الرحمن أن يعبد الهدوء الى جينسه ، فأصابه سهم فقتله ، وخر صريعا من فوق جواده ، وعم الدعر

والجزع والهلع بين صفوف الجيش المسلم ، هنا وأنت الفرصة الفرنجة للنبيل من المسلمين ، فقتلوا منهم ما لا يحصى ولا يعد ، وأقبل الليل للنبيل أكتوبر ٧٣٢ م ١١٤ هـ فقرر المسلمون الانسحاب من المعركة التي لم يعد لهم أمل في الانتصار بعد أن فقدوا قائدهم والكثير من جندهم ، وارقد المسلمون في جوف الليل وجنح الظلام جنوبا صوب قواعدهم في سبتمانيا ، تاركين أثقالهم ومغانمهم وفي الصباح أقبل شارل على المعسكر فوجده خاليا الا من الجرحى ، فأمر بذبحهم وأنسحب الى الشمال ، وخشى أن يتابع الجيش المسلم خوفا من كمين ربما قد أعدوه .

والرواية العربية تتحدث بايجاز شديد عن موقعة بلاط الشهداء ربما لما أحدثته من صدمة للمسلمين ، بينما تسهب الرواية النصرانية في الحديث عن هذه الموقعة .

ولوقعة بلاط الشهداء أهمية كبيرة جدا في التاريخ الاسلامي فهي من المعارك الفاصلة في التاريخ ، اد أوقفت رحف العرب في أوروبا ، والمعروف أنه لو أنتصر العرب ، لاستطاعوا اجتياح أمم النصرانية في أوروبا ، والوصول الى القسطنطينية عن طريق أوروبا وأوقعت هذه المعركة زحف المسلمين عند حد معين ، وتعتبر انتصارا للعرب على الشرق والنصرانية على الاسلام . ولدولة الفرنجة على دولة الاسلام .

وتعرض الكثير من المؤرخين لهذه الموقعة ، ويقول جيبون لو أنتصر العرب في تور و بواتيه ، لكان القرآن بتلى وبفسر في أكسفورد وكمبردج .

ويقول آخر : ان فاتحة القرن الثامن من أهم عصور التاريخ ففيها كان دين محمد ينذر بامتلاك ايطاليا وغاليا ولما وثب المسلمون الى فرض الدين ، فنهض ازاء ذلك الخطر فتى من عسيرة جرمانة هو كارل مارتل ، وأيد هبة النظم النصرانية المشرقة على الفناء ، بكل ما تقتضيه غريزة البقاء من عزم ودفعمها الى بلاد جديدة . وبغول زبلر كان هذا الانتصار بالأخص. انتصار الفرنج والنصرانية . وفد هاون هذا النصر زعيم الفرنجة

على توطيد سلطانه ، لا في غالبا وحدها ولكن في جرمانيا التي أشركها
في نصره .

ويرى محمد عبد الله عنان أن معركة بلاط الشهداء كانت أعظم لقاء
بين الاسلام والنصرانية ، وبين الشرق والغرب ، وفقد العرب في هذه
المعركة سيادة العالم بأسره وتغيرت مصائر العالم القديم كله ، وأرقد
تيار المفتح الاسلامي أمام الامم انضمامية كما أرتد قبل ذلك بأعوام أمام
أسوار القسطنطينية وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتح
أمم الغرب ، وأخضع النصرانية لدولة الاسلام ولم تنتج للاسلام المتحد
فرصة أخرى ، لينفذ الى قلب أوروبا في مثل كثرته وعزمه واعتزازه ، يوم
مسيره الى بلاط الشهداء ولكنه أصيب بفتقر الكلمة ، بينما تسفلت أسبانيا
المسلمة بمنازعاتها الداخلية اذ قامت فيما وراء البرتات إمبراطورية عظيمة
موحدة الكلمة ، تهدد الاسلام في الغرب .

وفريق من المؤرخين المحدثين لا يعلق أهمية كبيرة على هذه الواقعة ،
ويرون أن الامتداد الطبيعي للغزو العربي في أسبانيا هو جبال البرتات .
أما العمليات العسكرية انتهى قاموا بها وراء هذه الجبال ، فهي مجرد
غارات فدائية بدافع الحماس الديني دون أن يعملوا حسابا للتقهر .
فهزيمة الغافقي في رأيهم — كانت نهاية طبيعية لامتداد غير طبيعي محفوف
بالمخاطر ولهذا لم يكن لها تأثير ايجابي على مجريات الاحداث السياسية
الاسلامية ، لأنها كانت بعيدة جدا عن قلب العالم الاسلامي وعن المجال
الحيوي للدولة الاسلامية ، فالهزائم التي منى بها المسلمون أمام
القسطنطينية مثلا ، كان لها تأثير كبير وصدى قوى في السياسة
الاسلامية ، لأنها كانت قريبة من دمشق حاضرة الدولة الاسلامية . ولعل
هذا هو السبب الذي جعل الرواية الاسلامية لا تعلق كثيرا ، ولا تسهب
كثيرا في الحديث عن بلاط الشهداء .

ولكننا مع الرأي الأول القائل بأن هذه المعركة حددت مصير العالم
أجمع شرقه وغربه ومسلمه ونصرانيه ، وسميت هذه المعركة — كما قلت —
بلاط الشهداء ، نسبة الى طريق روماني قديم ، دارت عنده هذه المعركة ،

وهذا الطريق مرصوف مبلط وتسميها المصادر الاوربية ، موقعة ثور .
أما القائد شارل مارتل ، فلقب بعد المعركة « مارتل » أى المطرقة .

توقفت فتوح المسلمين فى فرنسا بعد بلاط الشهداء ، بعكس ما كان يحدث للمسلمين فى فتوحاتهم ، فكثيرا ما هزموا ثم عادوا الكرد وانتصروا . ولكن موقعة بلاط انشهداء - أوقفت فتح المسلمين فى فرنسا ، ذلك أن الدولة الأهوية قد هرت بالكثير من المتاعب ، فالمسلمون هزموا فى آسيا الصغرى ، وشن البيزنطيون الغارات على بلاد الشام والجزيرة وظهرت اندعوة العباسية فى المشرق ، لذلك شغلت الدونة الاموية عن هذا القطر البعيد ، وأثرت هزائم المسلمين فى فرنسا على الروح المعنوية لعرب الاندلس . ونبه انعالم الاوربى الى خطر المسلمين فى اسبانيا ، ولهذا طارد شارل مارتل العرب الى حدود سببتمانيا ، وانتزع منهم افليم بروفانس ، ولم يلبث أن استرد الفرنجه سببتمانيا بل أنشأ تسارلمان نغرا فى أسفل جبال انبرتات على ناطقء البحر المتوسط ، وبذلك لم يعد للعرب أملاك فيما وراء البرتات ، ولقد حاول العرب العزو من نواحي أخرى فهاجموا السواحل الجنوبية لفرنسا ودخاوا سويسرا غير أن هذه الاعمال لم تتخذ صفة الفتح المستقر . بل كانت عمليات تتسم بطابع الغارات السريعة .

الفتن والحروب الداخلية في المغرب والاندلس

انتشرت في بلاد المغرب أفكار الخوارج ، وعارضوا الحكم الاموي ، ورأوا أن الخلافة يجب أن تكون بالانتخاب الحر المباشر لأي مسلم حر فلما ولي عبد الله بن الحبحاب — أفريقية كانت القبائل البربرية تضطرم بعوامل الثورة ولا سيما في المغرب الاقصى ، فسير عبد الله الى موطن الثورة في بلاد المغرب جيشا بقيادة حبيب بن أبي عبيدة الفهري ، وأعاد البلاد الى الهدوء والسكينة ، وعين ابن الحبحاب ابنه اسماعيل وانبا على المغرب الاقصى ، ولكن البربر عارضوا حكمه ، وثاروا عليه ، والتفوا حول داعية من الخوارج الصقرية ، يسمى ميسرة المدغرى ، وانقضوا على طنجة وهزموا حاميتها ، ودعوا لميسرة بالخلافة على مبادئ الخوارج ، ثم زحفوا الى السويس ، وقتلوا الوالى اسماعيل بن عبيد الله ، وعلى أثر انتصارات الخوارج دعت دعوتهم بين البربر ، ولاقت نجاحا كبيرا ، وضعف سلطان العرب في بلاد المغرب ، واضطر ابن الحبحاب الى اخضاع البربر ، فسير اليهم جيشا كبيرا ، الحق به البربر عدة هزائم قرب طنجة ، وسميت هذه المعركة بموقعة الاشراف لكثرة من قتل فيها من قادة العرب سنة ١٢٣ هـ .

ذعر هشام بن عبد الملك من هزيمة العرب أمام البربر ، ومن ثورة البربر على الحكم الاموي ، فأرسل جيشا الى بلاد المغرب بقيادة كلثوم ابن عياض القسيري على رأس جيش ضخم من عرب الشام سنة ١٢٣ هـ ، واجتمعت اليه اثناء مسيره قوات أخرى من مصر وطرابلس وكان يساعد كلثوم ابن اخيه بلج وتوجس عرب أفريقية خيفة من جند الشام بقيادة كلثوم غير أنهم انضموا بعد عدة منازعات الى جيش كلثوم ودخل العرب في معارك ضاربة أواخر سنة ١٢٣ هـ مع البربر قرب طنجة ، هزموا فيها شر هزيمة ، ومزقوا شر ممزق ، وقتل كلثوم وكثير من ضباط الجيش وجنوده .

لومن نتيجة هذه المعركة خروج المغرب الأقصى من قبضة بني أمية
وانتشار دعوه الخوارج في المغرب الاوسط .

وتراجعين قلوب الجيوش الشامي بقيادة بلج بن بشر القنسيرو
وتحصنوا بثغر سبته ، وكان عددهم حوالي تسعة آلاف فارس معظمهم
من الشام مع قلة من جند متمر . وهناك فرض عليهم البربر حصارا شديدا
حتى كاد يهلكهم جوعا ، وينكل بهم . لكن ظروف الأندلس أنقذت بلج
وجنوده ، ذلك أن أخبار ثورات البربر في الغرب ، انتقلت الى الأندلس
فثار في الأندلس ضد واليهم عبد الملك بن قطن الفهري ، فلم ير من منقذ
له من هذه الثورة العارمة ، سوى بشر بن بلج المحاصر في سبته ، وتناسى
الخلافتان بين المضرية ، وعرب الشام اليمينية ، وتحالف معه ، وأشرط أن
يفك الحصار ويسمح له بالذهاب هو وقواته الى الأندلس لانقاذه من
ثورات البربر التي استطار ترها ، وزاد خطرها ، على أن ينسحب من
الأندلس فور القضاء على الثورة .

وكان نوار البربر في ذلك الوقت قد وحدوا صفوفهم في الأندلس
وقسموا انفسهم الى ثلاث جيوش .

جيش يهاجم طليطلة ، وجيش ثان يهاجم قرطبة ، والجيش الثالث
يتجه جنوبا للقضاء على قوة الشاميين في سبته ، والاتصال بأخوانهم ببربر
المغرب .

عبر بلج بن بشر الى الأندلس بعد أن رفع عبد الملك بن قطن الحصار
عنه ، وبعد أن كان محبوبا هو ورجالته في قفص ، فقد تنسموا نسيم
الحرية في الأندلس ، وبعد أن استراحوا بعض الوقت من ويلات
ما أصابهم في المغرب ، اشتبك بلج مع البربر عند بلدة شذونه ، وشنت
شمل البربر ، وانتصر على فريق البربر في قرطبة ، ثم زحف مع قواته
وقوات حليفه والى الأندلس الى طليطلة ، واشتبكوا مع جموع البربر
الرئيسية في عدة وقائع مزقوا فيها شملهم ، وبذلك انتهت ثورة البربر ،
وعادت الأندلس الى الهدوء والسكينة .

وأخذ بلج وأصحابه بعد ذلك ينجمون بحلاوة النصر ، ويتمتعون بالحياة الآمنة الهادئة بعد الحيرمان والنؤس في سبته .
ولكن عبد الملك بن قطن الفهرى والى الاندلس - طالب الشاميين بالرجوع الى أفريقية تنفيذا للشروط . لكن الشاميين رفضوا أن يعودوا الى أفريقية بعد أن بهرتهم خيرات الاندلس ورفض الشاميون الانسحاب ، ودار قتال بين عرب الاندلس والشاميين ، قتل فيه الموالى عبد الملك بن قطن ، وولى بلج أم رالاندلس ، وقد أثار هذا العمل غضب الحجازيين المضريين ، فقتلوا بلج بن بشر ، وقامت بين الطرفين حروب غنية استمرت اكثر من عام حتى سنة ١٢٣ هـ - ٧٤٣ م ولما رأّت الخلافة سوء الحال فى الاندلس ، ولت عليها رجلا له مكانة وله قوة ، ذلك هو الشاعر أبو الخطار بن ضرار الكلبى ، وهو يمنى .

بدأ أبو الخطار ، ولايته بداية طيبة ، فأراد أولا أن يحل مشكله الشاميين ، فأنزلهم مقسمين على كور الاندلس بحيب تكون متسابة الى حد كبير بالاماكن التى جاؤا بها من المشرق ، فأنزل أهل جند دمشق كورة البيرة ، وسماها دمشق ، وأنزل أهل جند حمص كورة أنبيليه وسماها حمص ، وأنزل أهل جند قنسرين كورة جيان فى جنوب الاندلس ، وسماها قنسرين ، وأنزل أهل جند الاردن كورة ريه ، وسماها الاردن وأنزل أهل فلسطين شذونه فى أقصى الجنوب وسماها فلسطين . أما أهل مصر ، فأنزلهم الجنوب الشرقى من الاندلس فى كورة تدمير وسماها مصر . وهذا عمل أدارى حكيم ، كان من الممكن أن يقضى على الفوضى فى الاندلس .

واستطاع أبو الخطار أن يعالج الامور بسياسة من الحزم والاعتدال ، وسوى بين جميع القبائل .

أستقرت الامور فى الاندلس فترة قصيرة بسبب سياسة أبى الخطار ، ولكن عادت الاضطرابات من جديد . والجدير بالذكر أن الولايات الاسلامية فى أواخر العهد الاموى قد اضطربت اضطرابا شديدا ، وقامت فيها حروب أهلية متعددة بين القيسية المضرية وبين اليمانية القحطانية ، وحدثت هذه الحروب الاهلية فى الاندلس كذلك . وكان الموالى

— كما قلنا — يمينيا ، وهو أبو الخطار الكلبى ، أما زعيم المضرية
أو القيسية ، فهو الصميل بن حاتم حفيد شمر بن ذى الجوشن قاتل الحسين
في كربلاء .

وسبب هذه الفتنة بسيط في حد ذاته ، لئذ وقع خلاف بين شخصين
أحدهما — مضرى والآخر يمنى ، فلجأ الاثنان الى الوالى أبى الخطار ،
الذى حكم لليمنى ، فظن المضرى أن هذا الحكم تعصب من الوالى لكونه يمينيا ،
فذهب الصميل — زعيم المضرية — الى أبى الخطار زعيم اليمينية ووالى
الاندلس — ليكلمه ، فوقع نزاع بين الرجلين ، فخرج من المجلس ، وقد
حلت عمامته ، فقال له أحد الحراس على الباب : أصحح عمامتك
أبا الجوشن . رد قائلا : « ان كان لى قوم فسيتقيمونها . وهذا تهديد
بالحرب . وقامت الحرب بين الجانبين القيسية واليمينية على ضفاف
الوادي الكبير ، واستمرت سجالا بينهما الى ان تمكنت المضرية من هزيمة
اليمينية في موقعة كبيرة عند بلدة تسقنده في جنوب قرطبة . واستطاع
الصميل بهذا النصر أن يعزل أبا الخطار من ولاية الأندلس ، وأن يعين
مكانه رجلا محايدا بين عرب الشمال وعرب الجنوب اسمه يوسف الفهرى .
واختار الصميل هذا الرجل لحنكته ومهارته ، وبعده عن التعصب . وكانت
شخصيته مرغوبة من الطرفين المتنازعين ، مقبولة بينهم ، وحكم الفهرى
بمشورة الصميل .

ضعف الدولة الأموية وتدهورها

اضطربت الامور في الدولة الاموية بعد وفاة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ ، وتولية الوليد بن يزيد الخلافة الذي قضى معظم أيام خلافته في البادية ، وبقي في الخلافة سنة وشهرين ، ثم قتل لسوء سيرته سنة ١٢٦ هجرية وخلفه يزيد بن الوليد الذي توفي بعد خمسة أشهر ، وبويع أخوه ابراهيم ، وفي عهده ازدادت الدولة الأموية اضطرابا بسبب الصراعات المستمرة بين القيسية واليمينية ، ونورات الخوارج ، وانتشار اندعوة العباسية في إقليم خراسان ، والانقسام بين أفراد البيت الحاكم ، وتجلى الاضطراب في البيت الأموي ، فلم يكن هناك اجماع على توليه ابراهيم فكان ناس يسلمون عليه بالخلافة ، وناس بالامارة ، وناس لا يسلمون عليه بواحدة منهما ، وانتهى الامر بعزله وقتله على يد مروان ابن محمد .

ولما آلت الخلافة الى مروان بن محمد تعصب لثقيسية ، وطلب اليمينية بدم الوليد بن يزيد ، فثار عليه يزيد بن خالد القسري بدمشق ، وانضمت اليه اليمينية ، فأرسل مروان الى دمشق جيشا أحمد النورة ، وخلصت له دمشق ، كما قضى على ثورات أخرى ، قام بها اليمينية في بلاد الشام .

ولم يكد يستقر الأمر لمروان بن محمد في بلاد الشام حتى خرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، ودعا أهلها الى خلعه وانضمت اليه اليمينية ، فسار اليه مروان ، وأوقع به الهزيمة وظل مروان يخضع الثورات ، متنقلا من بلد الى بلد ، حتى فوجيء بقيام الدولة العباسية في الكوفة سنة ١٣٣ هـ ، وهزم في موقعة الزاب ، وقتل .

اقترن قيام الدولة العباسية بمذابح مروعة ، ذهب ضحيتها أفراد البيت الأموي ، بل نبشت قبور الخلفاء الأمويين ومثل بجثتهم . ولم ينج من بطش بني أمية الا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، الذي كتب له النجاة من بطش بني العباس ، كما كتب له ، اقامة الدولة الأموية في الاندلس ، أعاد فيها مجد آبائه وأجداده .

الامارة الأموية في الأندلس

عبد الرحمن الداخل (١٢٨ - ١٧٢ هـ / ٧٥٦ - ٧٧٨ م)

انتشرت الفوضى في الأندلس في أواخر عصر الولاة ، وعانت البلاد في فتن وحروب ، وعم القحط وعظم البلاء ، وأشتد اليأس والتسقاء ، وازداد الأمر حرجاً في الوقت الذي تدهورت فيه الدولة الاموية ، وقامت الدولة العباسية ، وكانت دولة انخلفة منصرفه تماماً عما يحدث في الأندلس ، وإذا أجمع الأندلسيون على أمير يحكمهم ، يفشل في حكم البلاد التي مزقتها العصبية ، وفرقتها ، وشجعت هذه الفوضى الفرنج ونصارى انشمال على اقتطاع الاطراف الخائفة ، وشن الغارات المتتالية ، وظل الأمر كذلك ، حتى ولي أمر الأندلس رجل قوى حازم ، هو يوسف ابن عبد الرحمن الفهري ، وتولى برأى الجماعة ، دون مصادقة من دولة الخلافة التي كانت مشغولة عما يجري في الأندلس ، واستطاع الفهري أن يقهر منافسيه ، ووطد أقدامه في البلاد محاولاً الاستقلال بها نهائياً عن دولة الخلافة .

نعود الى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك فقد نشأ في قرية تعرف بدير خنان من أعمال قنسرين ، ونما وترعرع في بيت جده ، وسقطت الدولة الأموية وهو في ريعان شبابه الغض في حوالي العشرين من عمره ، وفر هو وأهله ناحية الفرات فراراً من ملاحقة بنى العباس ، ولكن اكتشف أمره ، ففر الى فلسطين ثم مصر ، ولحق به مولاة بدر وسالم ، وفي برقة التجأ الى أخواله من بنى نغزه أخواله ، وأقام وقتاً طويلاً ، ولكن أمره عرف ، ففر هو وصاحبيه الى المغرب الأقصى ، وأقام بها متخفياً عند شيخ من شيوخ البربر ، ولقى في هذه البلاد الكثير من المحن والشدائد . وفي هذه البلاد علم بأخبار الأندلس وما آل إليه أمر البلاد من اضطراب .

وفي أواخر سنة ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م تطلع الى استغلال القلاقل في الأندلس ، والعمل على استرداد ملك بنى أمية السليب ، وانتهاز فرصة

الخلافة التسديد بين القيسية واليمية وأرسل مولاہ بدر ، لنشر الدعوة لبني أمية بين أهل الشام وأنصار هذا البيت . وكانت رياسته الأمويين لزعيمة من موالى بني أمية ، هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله بن خالد ، واتفق بدر معهما على بث الدعوة بين اليمية ، الذين كانوا يتمنون الخلاص من الفهرى ، ونشط أبو عثمان وحليفه في نشر الدعوة في البيرة خصوصا بين اليمية ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م ، ولما أيقن بكثره أنصار بني أمية ، أرسل إلى عبد الرحمن الأموي يطلب منه القدوم إلى الأندلس ، فقدم عبد الرحمن إلى طرثوس ، وهي قرية تقع غربى المنكب على مقربة من البحر ، واستقر بها ينظم دعوته ، ويدير خطه .

كان والى الأندلس ، يوسف بن عبد الرحمن بعيدا عن قرطبة ، معسكرا بالقرب من سرقسطه لقمرة الثورة هناك ، ولكنه اضطر إلى الإسراع إلى قرطبة مع نائبه الصميل ، لاحتباط دعوة عبد الرحمن ، والقضاء عليها في مهدها ، وأراد يوسف معالجة الازمة سلما ، فأرسل إلى عبد الرحمن بطلب منه ، الكف عن دعوته في مقابل مال كثير أو مصاهرة ، أو منحه ولاية من الولايات ، ولكن عبد الرحمن الذى دانت له جنوب الأندلس بالطاعة والولاء رفض كل العروض . وأبى إلا أن يستحوذ على ملك الأندلس برمه .

ولما قوى أمر عبد الرحمن الأموي سار من طرثوس في صحبة أنصاره إلى رية ، فبايعه أهلها ، ثم إلى سذونه ، فدخلت في طاعته ، ثم إلى أشبيلية ، فبايعه رعيمة وأهلها اليمية وانضم إليه أثناء تجواله كثير من الجند والأنصار ، وذاعت دعوته في غرب الأندلس كله ، وأقبلت إليه المتطوعة من كل صوب وحذب ، من المضرية واليمية وأهل الشام . وواصل زحفه حتى أقرب من قرطبة في أوائل ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م .

سار يوسف والصميل إلى قرطبة ، وتفرق معظم جنودهما بعد أن أفشاها كثرة الحروب ، وأغراها دعوه عبد الرحمن بن معاوية ، ومهما يكن من أمر فقد عسكر يوسف بجنده القليل في المسارة في ظاهر قرطبة من الغرب ، على حين عسكر عبد الرحمن على الضفة النهر الجنوبى ، وقويت

النهر بين الجيشين المتحاربين عدة أيام . ففي يوم الجمعة ، وهو يوم عيد الأضحى ، نشبت معركة حامية ، ودار قتال مرير بين الفريقين ، وهز جيش يوسف الفهرى شر هزيمة ، وقتل في هذه الواقعة الكثير من وجوه القيسية والفهرية ، وفر يوسف الفهرى والصميل من المعركة ، ودخ على أثرها عبد الرحمن بن معاوية قرطبة ، وصلى الجمعة في مسجد الجامع ، وبأيعه الناس بالامارة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م . ومن مصادقات التاريخ أنه في يوم الاضحى سنة ٦٤ هـ الجمعة ، انتصر مروان بن الحكم - جد عبد الرحمن الأموى - على الضحاك بن قيس الفهرى في موقف مرج راهط .

وليوم المسارة نتائج بعيدة المدى في تطور الحياة السياسية الأندلس ، ذلك أن انتصار عبد الرحمن الأموى أنهى عصر الولاة وما اتصف به من قلق واضطرابات ، وبدأ عهد حديد في تاريخ الأندلس ، أصطلح المؤرخون على تسميته عصر الامارة .

السياسة الداخلية لعبد الرحمن الأموى

لم تكن موقعة المسارة الا خطوه على الطريق ، يحاول عبد الرحمن الأموى أو انداغل بعدها بذل الجهود للسيطرة على الأندلس ، التي كانت تضطرم بالثورات ، ويتغلب على كل ناحية أمير أو حاكم مستقل من ذوى العصبية و النفوذ ، فسيطرت اليمينية على بعض البلاد ، وكذلك المضرية والبربر وأنتهز نصارى الشمال - الدين كانوا مستضعفين بالأمس - انتزاع بعض الأراضى من الأندلس ، وتقوية نفوذهم في معاقلهم ، كما أن الفرنج فيما وراء البرانس ، انقزعوا من المسلمين ما تبقى لهم من أرض ، وتحالفوا مع نصارى الشمال الاسبان على انتهاز الفرص لتقوية نفوذهم على حساب نفوذ المسلمين .

قضى عبد الرحمن طوال حكمه الذى امتد فترة تزيد على ٣٣ سنة كلها في صراعات مع العناصر الطامعة والمغتصبة والثائرة ضد حكمه ، فكان يخضع تورة ، وينتقل بعدها الى معركة أخرى فلم يهنأ بهذا الحكم

العريض طوال سنى حكمه ، بل قصاصا كلها فى توطيد سلطانه ، وقهر الثوار ، وقمع الفتنة .

من الطبيعى أن يكون أقوى خصوم عبد الرحمن الداخل ، يوسف الفهري ، الذى انتزع منه عبد الرحمن الأندلس ، ففر يوسف عقب هزيمته الى طليطلة ، وجمع أنصار حوله ، حتى عظم جمعه ، وسار مع حليفه الصميل الى البيرة (غرناطة) واجتمع أهل هذه الانحاء حول يوسف ، وأعد العدة لمحاربة عبد الرحمن ، واسترداد ملكه السليبي ، لكن عبد الرحمن ، ترك حاميه فى قرطبه ، وسار الى خصمه فى البيرة ، وهزمه شر هزيمة ، وأستسلم عبد الرحمن والصميل وعقد الداخل معهما صلحا ، تعهدا فيه بالطاعة والولاء ، والكف عن الحرب والقتال ، على أن يؤمهما فى النفس والولد والأهل والانصار ، وأن يسمح لهما بالاقامة فى قرطبة تحت رعايته ورقابته ، فوافق عبد الرحمن ، وقدم يوسف ولديه عبد الرحمن ومحمد رهينه حتى تستقر الامور ، وتم عقد الصلح بين الفريقين سنة ١٣٩ هـ . وعاش الرجلان يوسف والصميل فى قرطبة ، وشدد عليهما عبد الرحمن الرقابة والحراسة ، ولكن يوسف الفهري لم يقبل أن يعيش فى ظل هذا الاعتقال ، ويفقد جاهه وسلطانه ، ففر سنة ١٤١ هـ الى ماردة وكاتب أنصاره فى طليطلة ، حتى عظم جمعه ، وأشتبك مع عبد الرحمن الداخل فى عدة وفائع ، هزم فيها يوسف شر هزيمة ، وقتل الكثير من أنصاره ، وفر يوسف الى طليطلة ، وعاش بين أنصاره فى حرية ، ولكن بعض أنصاره اغتالوه وأرسلوا رأسه الى عبد الرحمن سنة ١٤٢ هـ

ويبدو أن أصابع عبد الرحمن لم تكن يعيده عن هذه المؤامرة وانتهت بذلك حياة يوسف الحافلة بالأحداث الجسام ، وسك الداخل فى نوايا الابن الأول ليوسف فقتله أيضا . ولم يعد لديه من أبناء يوسف سوى محمد ، فأنتهز محمد فرصه ضعف الرقابة عليه ، ففر من معتقله بقرطبة الى معقل الثورة الفهرية فى طليطلة ، وبعث عبد الرحمن فى أثره جيشا ، هزمه . وهزم أنصاره ، وسبقه محمد الى قرطبه مهنقلا ، ولكنه أدعى

العمى ، فضعت الرقابة عليه ، فعاد ثانية الى طليطلة ، وحرك الثورة ضد الداخل ، ولكنه فشل أيضا . وعلى الرغم من الهزائم المتتالية للفهرية ، في معقلهم في طليطلة ، إلا أن الثورة عادت من جديد بزعامة هشام ابن عروة الفهرى ، أعلن الثورة ، واعتصم بالمدينة ، فسار اليه عبد الرحمن . وما زال يشدد عليه الحصار حتى طلب الصلح ، وما كاد عبد الرحمن يعود الى قرطبة ، حتى عاد الفهرية الى الثورة من جديد في طليطلة . ولكن عبد الرحمن قمع الثورة . وبذلك سحق عبد الرحمن الداخل الثورة الفهرية وكانت الفهرية أخطر قوة تهدد طالع عبد الرحمن الأموي وسلطانه ، وأكبر عقبة في سبيل استقرار ملكه .

ثورة الفاطمي

ثورة حظيرة سغلت عبد الرحمن عدة أعوام ، نشبت في شمال شرق الأندلس بين البربر ، وزعيمها من بربر مكناسه ، وكان فقيها بعلم الصبيان ، وامتأب نفسه بأفكار البربر التي تدعو الى التخلص من العرب ، ولكي يكتسب أهميته بين رعاياه ، زعم أنه سليل الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذاعت دعوته بين البربر في تلك المنطقة ، وكانوا أكثرية بها ، وأخذ من شنت برية مركزا لمورته ، وكثر جمعه ، وقوى أمره ، بمن أنضم اليه من البربر الناقمين على حكم عبد الرحمن ، وأنضم اليه أيضا بعض العرب ، وأرسل عبد الرحمن عدة حملات الى شنت برية لقمع الثورة ، ولكن الثائر رد كل هذه الحملات على أعقابها خاسرة ، ونكل بجند عبد الرحمن ، فعاد عبد الرحمن بجيوش جديدة الى شنت برية . ولما فشل عبد الرحمن في القضاء على الثائر الفاطمي . لجأ الى الحيلة والخديعة ، فضم اليه زعيما من زعماء البربر بدعى هلال ، وعبد البه بختم البلاد التي أستولى عليها الثائر الفاطمي ، اذن نجح عبد الرحمن في بث بذور الانقسام بين البربر ، وأنضم الى هلال الكثر من أتباع الفاطمي ، صعد أدر الفاطمي ، وانقض الكثر من الرجال من حوله ، واعتصم الفاطمي في الجبال ، وطارده عبد الرحمن ، وما زال عبد الرحمن يضغط على الفاطمي دون جدوى ، حتى نزل الفاطمي بقرية من أعمال شنت برية

تسمى قرة العيوس ، وهناك تأمر عليه اثنان من البربر ، وقتلاه وأرسلا رأسه الى عبد الرحمن في قرطبه ، ويبدو أن هذه المؤامرة كانت من تدبير عبد الرحمن ، الذي فشل في قمع الثورة بحملاته المتعاقبة ، ولكن أثمرت المؤامرة فيما فنسكت فيه الجيوش . وأنتهت بذلك ثورة البربر التي ألقب وهددت دولة عبدالرحمن أكثر من عشر سنوات ، وأثارت الرعب والفرع في شرق الأندلس وغربه . وهددت أمن الدولة وسلامتها ، وضاعفت من الفرقة والانقسام بين العرب والبربر .

ثورة عبد الخافر اليماني

رأينا ثورة القيسية الفهرية ، ودرسنا عوامل قيامها وأسباب فشلها ، كما تحدثنا عن ثورة البربر بزعامة الفاطمي ، وتحدث الآن عن ثورة اليمانية بزعامة عبد الخافر ، أستولى على ما جاور قرطبة من بلاد ، وكثرت جموعه ولا سيما من البربر ، وأصبح يهدد قرطبة ، فخرج عبد الرحمن لقتاله والتقى الفريقان اليمانية وجند الداخل بوادي قيس على مقربة من قرطبة ، فاستمال عبد الرحمن أعوان عبد الخافر من البربر ، وظل يقاتل جند عبد الرحمن حتى هزم ، وقتل هو والكثير من أعوانه سنة ١٤٤ هـ

ولم تكن أشبيلية أقل خطرا من طليطلة على دولة عبد الرحمن فقامت فيها عدة اضطرابات من بينها ثورة يمانية ترعها أبو الصباح بن يحيى البحصبي ، صديق عبد الرحمن وحليفه ، وكان أبو الصباح زعم اليمانية في أشبيلية يوم قدوم عبد الرحمن الى الأندلس ، وأيد عبد الرحمن ونصره ، وقاتل معه يوم المساره ، ولكن عبد الرحمن شك في نواياه نحوه ، وعزله عن أشبيلية ، فغضب البحصبي وأعلن العصيان ، وانضم اليه اليمانية ، ولما رأى عبد الرحمن أن قمع الثورة من الأمور المستعصية ، لجأ الى الحيلة والخديعة في القضاء على الثورة ، فأرسل عبد الرحمن الى البحصبي يدعوه الى المصالحة ، ويستدعيه الى قرطبة للتفاهم ، ولما قدم البحصبي الى قرطبة ، قتله عبد الرحمن . وبذلك تفرق جمعه . وهدأت أشبيلية سنة ١٥٠ هـ

ثورات بعض الأمراء الأمويين

ولم يتعرض عبد الرحمن فقط لثورات محلية من الأندلس ، بل ثار بعض أمراء بني أمية ضده ، وطمعوا في الملك ، فدبر ابن أخيه المغيرة ابن الوئيد بن معاوية الثورة ضده . ذلك أن عبد الرحمن سعى الى استدعاء أمراء البيت الأموي المشتتين في الارض الى الأندلس ، وتوافد على الأندلس كثيرون ، وكانوا موضع عنابة عبد الرحمن وتقديده ، وأغدق عليهم ،

وأمسند اليهم المناصب الكبيرة ، ولكن بعضهم أنضم الى معارضى عبد الرحمن فنكل بهم ، وقتل المغيرة ابن اخيسه الوليسد ، حينها اكتشف مؤامرتة ، ونفى أخاه انوليد وأسرتة الى المغرب .

سياسة عبد الرحمن الداخل الخارجي

وبينما عبد الرحمن يوطد لنفسه في الأندلس ، ضاربا على أيدي خصومه فيها ، إذ واجه عداء خارجيا قويا يتمثل في العباسيين في المشرق ودولة شارلمان في أوربا ، ويجرى الأمر على هيئة مؤامرة دولية واسعة صد عبد الرحمن ، ويشترك في هذه المؤامرة الدولية الواسعة النطاق ، أكبر ملكين في ذلك الوقت ، وهما أبو جعفر المنصور ، لما له من قوة وفكر ، وشرلمان ملك الفرنجة ، ونه ما له من سياسة وبطش ، ويتآمر الملكان على التخلص من عبد الرحمن .

مفهوم المسلمين في ذلك الوقت أن عالم الاسلام يضمه دولة واحدة ، وأن المسلمين يخضعون للخليفة انتصرعى سواءا في دمشق أو بغداد . فلما أسنولى عبد دائرحمن على الأندلس ، عى الرغم من أنه أموى ومن بيت الخلافة السابق ، الا أنه لا يستطيع أن يعلن نفسه خليفة ، لأن الخليفة في الحقيقة في بغداد ، وهو صاحب الحق الشرعى في كل ولايات العالم الاسلامى ، لذلك بايعه الناس أمبرا على الاندلس ، وكانت الدعوة على المنابر تقام له باسم ابن الخلائف ، وفي بعض ولايات الأندلس كانت الدعوة تقام باسم الخليفة العباسى دون أن يعترض عبد الرحمن ، لان هذا وضا شرعيا. كما قلنا .

بدأ الصراع بين أبى جعفر المنصور وعبد الرحمن الداخل ، ممثلا في حملة العلاء بن مغيث سنة ١٤٦ هـ / ٧٦٣ م ، وكان العلاء والبا عا . أفريقية من قبل المنصور ، فأراد أن بقضى على ، عبد الرحمن ، وأن يجعل الأندلس ولاية عباسية ، كما كانت من قبل تخضع اولاة الأمويين في القيروان .

- واستغل العلاء فرصة معارضة القيسية واليمينية لحكم عبد الرحيم الداخل ، ووجد أن الوقت مناسب للتخلص من الأمويين في المغرب ، كما تخلص العباسيون من الأمويين في المشرق ، وانتهاز فرصة ثورة فهريية ، طليطلة ، تشغل عبد الرحمن عن الثورة العباسية الزاحفة الى الأندلس ومهما يكن من أمر ، فقد عبر العلاء الى الأندلس في سبعة آلاف مقاتل ونزل بأقليم باجة ورفع العلم الأسود - شعار العباسيين - داعياً لـ جعفر المنصور ، ورحب بمقدمه العرب الناقمون على عبد الرحمن ولكن عبد الرحمن هزمه وقتله وأرسل رأسه الى المنصور - رأى المنصور رأس العلاء ، انزعج وقال « الحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا الشيطان بحراء وسماه صقر قريش » .

وبذلك استطاع عبد الرحمن أن يتخلص من محاولة ضم الأندلس الى الدولة العباسية ، واحتفظ بملكه البعيد عن هذه الدولة ، وأثبت للحركة العباسية أن في مقدوره الاستقلال بالأندلس ، والتصدي لمؤامير العباسيين التي تستهدف القضاء على دولته الفتية الناشئة . كما توقعة منذ ذلك التاريخ محاولات العباسيين العسكريه للنيل من الامارة الأموية في الأندلس .

على أن العباسيين لم يكفوا عن تحقيق غرضهم الرامي الى التخلص من الامارة الأموية ، فلجأوا الى سياسة جديدة غير العنف وشن الحروب هي سياسة اثاره بعض الناقمين على عبد الرحمن ، والاستعانة بدو الفرنجة التي تتعجل الخلاص من الامارة الأموية ، وحاول ملك الفرنج وأمير اطور الغرب شارلمان أو شارل العظيم أن يؤمن حدود بلاده الجنوبية في أسبانيا ، وتحقيق مشروعه الذي كان يسعى الى تنفيذه ، وهو احيد الامبراطورية الغربية . ويلاحظ أن تقارب الدولة العباسية من الدوا الكارلونية الافرنجية ، واشتراكهما في هذه المؤامرة معا ، يرجع الى عدائهما المشترك ضد الدولة الاموية في اسبانيا من جهة ، وضد الدولة البيزنطية المتآخمة للعباسيين من جهة أخرى .

٢ — موقف الفرنجة من عبد الرحمن الداخل

وقعت حوادث هامة في شمال الأندلس سنة ١٥٧ هـ / ٧٧٤ م بمقدنار سليمان بن يقظان الكلبى (الأعرابى) والى برشلونه وجيرونه ، والحسين بن يحيى الأنصارى — والى سرقسطه — وهو من ولد سعد بن عبادة ، وتحالفا على قتال عبد الرحمن وخلصه ، وقوى أمر هذه الثورة ، طبيعة الشمال الجبلية وعلى الرغم من أن عبد الرحمن الداخل ، لم يستطع قمع هذه الثورة ، الا أن التأثيرين ، اعتزما الاستعانة بالفرنجة ، لتأكيد حركتهما الاستقلالية ، وللوقوف الى جانبيهما ضد عبد الرحمن وهكذا فقد خان هذان الزعيمان وطنهما بالالتجاء الى شارلمان ، الذى هو عدو للإسلام والمسلمين فى الأندلس ، ويطمح فى التخلص من الدولة الإسلامية فى هذا القطر النائى البعيد .

ومهما يكن من أمره ، فقد سار سليمان ، وتسميه الروايه اللاتينية ابن الأعرابى ، مع نفر من أنصاره لبقاء شارلمان سنة (٧٧٧ م / ١٦٠ هـ) فى مدينة بادربون — من أعمال وستفاليا بألمانيا — واستقبل شارلمان سليمان وصحبه ، وعرضوا عليه المحالفة ، وطلبوا منه أن يساعدهم فى التخلص من عبد الرحمن. الأموى ، وطلبوا منه غزو الولايات الشمالية الأندلسية ، وعرضوا عليه تسليمه المدن التى يحكمها ابن الأعرابى نيابة عن أمير قرطبه ، ولا سيما سرقسطه .

وكان من الطبيعى أن يوافق شارلمان على طلب ابن الأعرابى الذى يتمنى مع سياسته الرامية الى التخلص من أمير قرطبه ، وتأمين حدود بلاده من خطر المسلمين فى الأندلس . وبذلك وضع المسلمون ميذاً جديداً فى الأندلس ، وهو مبدأ الاستعانة بالفرنجة كلما عارضوا بلاط قرطبة ، الأمر الذى فتح الباب أمام الفرنجة للتدخل فى أمور الأندلس ، وتقوية أمر نصارى الشمال ، وكل هذا أدى فى النهاية الى انهيار دولة الإسلام فى الأندلس .

ولم يكن ثوار الأندلس في الشمال ، هم وحدهم الذين حرضوا شارلمان ، بل ينسب إلى الخلافة العباسية في المشرق تأييد هذه السيامة في المغرب ، لناوأة بنى أمية ، والتخلص منهم . والرواية الأفرنجية تحدثنا عن علاقات سياسية بين المنصور وبينين ، وتقول لنا أن بينين ، بعث في سنة ٧٦٥ م سفارة إلى بغداد ، ورد المنصور بإرسال سفراء إلى ملك الفرنج وقدوا عليه بعد ذلك بثلاثة أعوام ، وقضوا عدة سنوات في البلا الأفرنجي في مدينة متر . وكانت دولة الفرنجة قد قوى أمرها ، أما ذوو الإسلام في الأندلس - فكما يقولون - مزقتها الخلافات والفتن ، وسار شارلمان على رأس جيش كبير ، مما يدل على أن هدفه لم يكن مساندة العثم في الشمال فقط ، وإنما كان يهدف إلى السيطرة كلية على أمانة قرطبة .

وسار شارلمان إلى الأندلس متظاهرا بدافع ديني ، وهو إغا الأندلس إلى النصرانية ، وحماية النصراني في الشمال والمستعربين داخل الأندلس وكان هدف هذه الحملة سياسيا ، وه تحقيق أطلما شارلمان في السيطرة على أسبانيا .

ولما اقترب شارلمان من الأندلس ، قسم جيشة قسما عبر أحده جهال البرانس من الناحية الشرقية ، وعبها أنقسم الثاني بقيادة شارلمان من الناحية الغربية طى أن يجتمع الجيشان أمام سرقسطه ، حيث يلتقى شارلمان بحلفائه المسلمين ، وفتح شارلمان في طريقه بنبلونه عامة قياة الهشكنس ، وأخضع هذه القبائل ، وقدم شارلمان إلى سرقسطه وما ابن الأعرابي ، وأنضم الجيش الآخر إلى عسكر شارلمان أمام سرقسطه طبقاً للخطة الموضوعة ، وأنتظر شارلمان مقدم المسلمين إليه لتتبعه على فتح المدن ، ولكن الظروف قد تغيرت وتهدلت ، فدب الخلاف بين زعم المسلمين ، فبدلاً من أن يرحب الحسين بن يحيى الأنصاري - والم سرقسطه - وحليف ابن الأعرابي بالملك شارلمان ، لم يسلم سرقسطه إلى شارلمان ، ولكنه أغلقها ، وتحصن بها . وأثبت بذلك فشل التحالف القائم بينه وبين ابن الأعرابي . وتعليل ذلك ليس صعباً فربما أن الأنصاري ختم من مغبة ائتخالف مع الفرنجة وضباع البلاد ، وربما استيقظ ضميره

هذا المخطأ الجسيم الذي وقع فيه ، وجاهل شارلمان عبثا ، الاستيلاء على سرقسطه ، وعجز ابن الأعرابي أن يحقق شيئا من وعوده في تصليب يمدن الحصون الواقعة في تلك المنطقة ، وخشى ملك الفرنج مغبة الخوض في تلك المجاهل ، وأرتاب في نية سليمان (ابن الأعرابي) وموقفه ، فأرشد بجيشه نحو الشمال الشرقي في طريق العودة (١٦١ هـ / ٧٧٨ م) .

يختلف المؤرخون حول أسباب انسحاب شارلمان من منطقته سرقسطه عائدا إلى بلاده ، ويرى البعض أنه انسحب بعد أن أيقن أنه اخترق بلادا تسعها أعداء له ولجندة ، وربما يؤدي ذلك إلى فناء جيشه ، خصوصا أنه أبتعد عن بلاده ، وأنقطع خط امداداته ، فأيقن أنه لا مماناة هالك . ويرى البعض أن السكسون المارقين ، عبادوا إلى الثورة من جديد ، بعد أن أبتعد شارلمان عنهم ، وخربوا وأحرقوا الأراضي حتى ضفلات الرين ، فقرر شارلمان الانسحاب ، ويمكن التوفيق بين الروايتين أي أن انسحاب شارلمان المفاجيء من سرقسطه إنما تم بسبب تخوفه من القوى الاسلامية في أسبانيا ، وثورة السكسون .

أرشد شارلمان وفي ركبته سليمان بن يقظان أسيرا ، ومعه عدد من الرهائن ، وبار شمالا نحو بلاد البشكنس وكان الناقاريون في تلك الأثناء قد جمعوا ثلولهم ، واعتزموا الدفاع عن حاضرتهم بنبلونه ، وعن حياتهم المسلوبة ، وأنضم اليهم كثيرا من المسلمين من البلاد المجاورة ولكن هذه المجموع تعرضت لهجمات شارلمان العنيفة ، وهزمها وشتت شملها ، وأسترد شارلمان بنبلونه ، وهدم حصونها وأسوارها حتى لا تعود إلى عرقلة جيشة أثناء انسحابه إلى فرنسا .

غادر شارلمان بنبلونه متجها إلى جبال البرتات عن طريق هضاب رونسفال المؤدية إلى باب الشزري وهو أحد ممرات عدة كانت تستعمل لاختراق البرتات وما كاد الجيش الفرنجي يعبر الجبال حتى هاجمه المسلمون بقيادة عيشون ومطروح ولدى سليمان بن يقظان — ، وخلصا أباهما من الأسر ، وعادا إلى سرقسطه ، بعد أن شددوا الهجوم على مؤخرة

بجيش شارلمان ، وفحصا مؤخره الجيش عن مقعته . هذا ما تذكره الرواية العربية - أما الرواية اللاتينية فتقول ان البشكنس تنبصوا بجيش شارلمان عند هذه المرات ، وهاجموه بشدة وضراوة . ولكن الاستاذ بيدال يؤكد أن البشكنس وحدهم لا يستطيعون تدمير جيش شارلمان والواقع أن تصالفا قد أنعقد بين العرب الذين أرادوا تخليص أسيرهم وبين البشكنس الذين اعترمو الانتقام من شارلمان انذى ألحق الخراب والدمار بهدينتهم والرواية الفرنجية نحدد تاريخ هذه الواقعة (٧٧٨ م / ١٦١ هـ) ويؤكد مؤرخ شارلمان اجنهارت الذى شاهد المعركة أنه هلك فيها الكثير من الأمراء والسادة والرؤساء ورجال القصر والحاشية ، ورولان بطل الأنشودة الشهيرة التى نظمت فيما بعد عن هذه الواقعة ، وأستمدت من أناشيد معاصرة لها ، وانتهى لازالت أثرا خالدا لشهيد الفروسية فى العصور الوسطى .

وتذكر المصادر الفرنسية أن هذه الغارة ، قد أبادت مؤخرة جيش شارلمان وقتلت قائدها الفرنسى رولان الذى كان من المقربين لشارلمان ، وقد ظهرت بعد هذه الحادثة بمدة طويلة تقرب من ثلاثة قرون ، ملحمة فرنسية تشيد ببطولة هذا الفارس الفرنسى ، وتغانية فى الدفاع عن وطنه وجيشه وقائده ، وكيف أنه رفض أن يفتح فى البوق حتى لا يعود شارلمان لانقاذه ، فيقع فى الكمين ، وكيف أن عشيقته التى كانت تنتظر عودته الى فرنسا بشغف شديد ، ماتت كمدًا وحزنا على مقتله ويحترق الفرنسيون أنشودة رولان بداية الأدب الفرنسى ، على الرغم من أنها تقسم بالطابع الأسطورى .

عاد شارلمان الى بلاده يجر أذيال الفشل والخيبة بعد أن فقد رهرة الجيش الفرنسى ، وأسترد عبد الرحمن الداخل سرقسطه سنة ١٦٤ هـ ، ووطد أقدامه فى هذه انواحى وأثبتت هذه المعركة أن الامارة الأموية بقيادة عبد الرحمن الداخل قوية ، تستطيع التصدى للمؤامرات الداخلية والخارجية ، ففشلت الخلافة العباسية فى أسترداد الأندلس ، وفشل شارلمان فى الاستيلاء على هذه البلاد وفشل المتواطئون الخونة الدين

لم يتورعوا عن الاستعانة بالعدو لتخليصهم من حكم عبد الرحمن الداخل .
وفي عهد عبد الرحمن لم نعد نسمع عن مجاولات خارجية أخرى للاستيلاء
على الأندلس .

وكان عبد الرحمن رجلا يعرف قدر الرجال ، فلما التقى بشارلمان ،
ووجده — كما يقوله ابن حيان — تام الرجولة صلب المكسر ، أوجى إليه
دهاؤه أن يتودد إليه ، مع ما كان له عليه من الفوز والانتصار ، فدعاه الى
عقد معاهدة يأمن بها كل منهما جانب صاحبه ، وزاد في تودده ، فعرض
أن يصادر شارلمان تدعيما للرابطة بينهما ، فلم يسع شارلمان الا أن يبعد عن
نفسه ذلك الحلم الامبراطوري فيما يحتض بالأندلس فأجابه الى السلم ،
وأن لم تتم المصاهرة .

حضارة الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل

بعد الفتح العربي اختلط العرب والبربر المسلمون بسكان البلاد
الأصليين من القوط والأسبان واليهود ، وامتزجوا فيما بينهم ، ونشأت
طبقة جديدة — المولدين — من تزاوج العرب والبربر بالاسبان . أما أهل
اسبانيا الذين تعلموا اللغة العربية ، فسموا بالمستعربين ، وكانت الثقافة
الاسلامية في الوطن الأم — الوطن الاسلامي — تتواءم على الأندلس مع
المهاجرين الجدد ، وحدث امتزاج بين طبقات أهل الأندلس ، وضيوع الثقافة
الاسلامية بين هذه الطبقات الأمر الذي كان له أثره في حضارة أوروبا
عموما . ويلاحظ أن التأثير الشامى في الأندلس كان واضحا في عصر
الولاء ، لأنه وفد عليها مع الجند والمهاجرين من الشام حتى أن الحياة
الأدبية كانت صدى لحياة الشام الأدبية ، فالشعر الأندلسي في هذه الفترة
كان شعرا كلاسيكيا يحاكي شعر الفرزدق والأخطل وجريز وكان الأمير
عبد الرحمن شاعرا ، مثل أمراء بني أمية السابقين ، وله شعر فيه حنين الى
وطنه الأول الشام .

أيها الراكب الميمم أرضى أقر من بعضى السلام لبعضى

ان جسمي كما علمت بأرض
قد قضى الله بالفراق علينا
وفسؤادي وما لي كسبة بأرض
فعتنى باجتماعنا سوف يقضى .

عنى الداخل بقرطبة - حاصرة المسلمين فى الأندلس - وحصنها
وزيخها بالمنشآت الفخمة والرياض اليبانة ، وأول أنشائه منية الرصافة ،
وقصرها المنيف وكان قصر الامارة قد تقادم به الزمن وولت أيامه ، فأنشأ
عبد الرحمن ضاحية ملوكية فى شمال غربى قرطبة ، بها قصر منيف ، جلب
له مختلف البذور والغروس من الشام وأفريقية ، وسنماها
الرصافة ، كما فعل جده هشام بن عبد الملك من قبل ، الذى نقل مقر أمارته
الى ضاحية جديدة سماها الرصافة فى الشمال الشرقى من الشام ، وجبر
الماء الى هذه الجنة الغناء وغرس بها نخلة أتى بها من الشام ، وقد جذبت
هذه النخلة منباير عبد الرحمن فقال فيها .

تهبت لنا وسط الرصافة نخله
فمثلك فى الاقصاء والنتأى مثلى

والرصافة من الرصف أى المدينة الجانبية مثل رصافة بغداد ، وهى
بغداد الشرقية . على كل حال ورث عبد الرحمن عن أجداده فى المشرق
اقتاذاً قصور فى الضواحي والصحارى بعيداً عن صخب المدن والاهتمام
بالمشآت المعمارية وسار خلفاؤه على هذا الأسلوب .

كذلك اعاد عبد الرحمن الداخل بناء جامع قرطبة سنة
١٦٩ هـ / ٧٨٥ م ، وتأثر فى بنائه بمسجد دمشق . كما أنشأ مساجد فى
مدن أخرى فى الأندلس . وقد أنفق عبد الرحمن أموالاً كثيرة فى تشييد
هذه المساجد ، لكنه توفى قبل اتمام بناء جامع قرطبة ، فأتمه خلفاؤه
من بعده ووسعوه وجددوه ، وزادوا فى زخرفته حتى أصبح قبلة المسلمين
فى الغرب ، وقال بعض المؤرخين : ليس فى بلاد الاسلام أعظم منه ،
ولا أعجب بناء ، ولا أتقن صنعة .

وعنى عبد الرحمن بأعداد جيش قوى من الموالى والبربر والرقائق
واتخذ قواعد بحرية لبناء السفن في عدة موانئ بالأندلس ، وحصن مدينة
قرطبة ، واتخذ لها سور قرطبة الكبير .

ونختم هنا عهد عبد الرحمن ، ونقول انه قضى أكثر من ثلاثين سنة ،
في حروب مستمرة مع أعدائه في الداخل والخارج ، يقهر خصما ، ليصارع
خصما آخر ، وتغلب على كل هذه العقبات التي أعتضت حكمه . وبذلك
أسس الدولة الأموية في الأندلس ، ووضع القواعد والأسس التي استمرت
ثلاثة قرون .

هشام بن عبد الرحمن

(١٧٢ - ١٨٠ هـ / ٧٨٩ - ٧٩٦ م)

ترك عبد الرحمن أكثر من عشرة أبناء تخص بالذكر منهم ، سليمان وهشام وعبد الله ، أما سليمان فقد ولد في الشام ، وكان يحكم طليطلة في ولاية أبيه ، ويحظى بمحبة أهل الشام وعبد الله ، وكان يحكم بلنسية وكان سليمان أكبر أبناء عبد الرحمن ، الا أن عبد الرحمن كان يفضل ابنه هشام - حاكم ماردة - وأمه أم ولد تسمى حلل و حلال وعرف عن هشام الورع والتقوى والتواضع وحب الخير لم يعرف عنه كما يقول ابن حبان : هفوة في حدادته ولا زلة في أيام صباه .

سار عبد الرحمن سيرة آبائه الأمويين بتوريث الحكم أبنائهم ، وترك قبل وفاته وصية غامضة لابنه الثالث عبد الله ، يوصيه فيها بتسليم الحكم لمن يدخل العاصمة قرطبة أولاً من الأخوين ، سليمان وهشام ، فقال . فان سبق إليك هشام فارم اليه الخاتم ، فله فضل دينه ، واجتماع الكلمة عليه ، وان سبق إليك سليمان فله فضل سنه ونجدته وحب الشاميين له .

ووصل هشام الى العاصمة قرطبة قبل أخيه سليمان ، وولى الخلافة . ولكن سليمان لم يعترف به ، ودعا لنفسه في طليطلة وما جاورها ، وانضم اليه أخوه عبد الله ، ولحق به في طليطلة ، وأعلن الاخوان الثورة ، وانضم اليهما الكثير من أهل الشام ، وهاجم سليمان قرطبة ، ولكن الجند ، ردوه على أعقابه ، فذهب الى ماردة ، ومنها الى بلنسية ، وعاث في البلاد نهبا وفسادا ، ولكن كل محاولاته باءت بالفشل ، فلجأ عبد الله الى قرطبة وطلب من أخيه هشام العفو والصفح ، فعفا عن أخويه سليمان وعبد الله على أن يعبر كل منهما بأهله وولده الى المغرب وأقاما بحدوة المغرب . وأنتهت بذلك ثورة الاخوين (١٧٤ هـ / ٧٩٠ م) .

استطاع هشام بن عبد الرحمن التصدي لكل المحاولات التي

استهدفت النيل من ملكه ، ودخل في حروب عديدة مع معارضية ، فبعد أن قضى على ثورة أخويه — كما قدمنا — أخضع نورتن يمينتين قامتا في نواحي سرقسطه وبرسلونه ، الأولى كانت بقيادة سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصارى والثانية بقيادة مطروح بن سليمان بن يقظان (ابن الأجرابي) وسبق القول أنه هاجم مؤخرة جيش نساارلمان أثناء انسحابه الى فرنسا . الأولى قضى عليها المضرية ، ودعوا لهشنام ، والثانية قضى عليها عبيد الله ابن عثمان — قائد الأمير هشام — بعد ان استولى على طرطوشه ، وخاصر سرقسطه ، وفيها مطروح وصحبه ، وظل يواصل الحصار حتى استسلمت سرقسطه ، وقتل مطروح سنة ١٧٥ هـ . وبذلك فتسلت الثورة في تلك الأثناء . كما جرد هشام عدة حملات على جموع البربر النائرة في رنده أو تاكرنا سنة ١٧٨ هـ ، وثبتت جموعهم ، وأرغمهم على الطاعة والولاء .

الموقف من نصارى الشمال

بعد أن قهر هشام الفتن الداخلية في دولته ، اعترم تأديب نصارى الشمال الذين لجأوا الى العنف واقتطاع الأراضى والاغارة على ممتلكات الدولة الإسلامية منتهزين فرصة موت عبد الرحمن ، والقلقل التي أعقبت وفاته ، وللنصارى جبهتان في اسبانيا تقاوم كل منهما الحكم الاسلامى ، جبهة شرقية وهى منطقة القلاع ، التي صارت فشتالة فيما بعد ، وجبهة غربية وهى منطقة جليقية ، وشجع النصارى في الجبهتين الفرنجة والبشكنس ، فأرسل هشام الجيوش التي اخترقت قلاع فشتاله وأغوار جليقية ، وهزم عبد الله بن عثمان برمند — ملك جليقية — سنة ١٧٥ هـ / ٧٩١ م ، واصل المسلمون غاراتهم على جليقية حتى تنازل الملك عن عرشه لولده ألفونسو الثانى .

ولم يكتف هشام بذلك بل سار سنة ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م حملة أخرى الى جليقة بقيادة عبد الكريم بن الواحد بن مغيث فلخترق المسلمون معاور جليقية ، ففر السكان الى رؤوس الجبال ، ودارت رحى معركة رهيبه بين ملك جليقية والقائد المسلم ، انتهت بهزيمة الجلائقة ،

وغنم المسلمون مغنم كثيرة . وبذلك عادت الولايات الشمالية الى الهدوء والطاعة :

وأراد هشام إعادة عهد انجهد فيما وراء انبرتات ، فأرسل حملات صيفية على ولاية سيتمانيا الفرنجية في جنوب فرنسا وغنم منها مغنم كثيرة ، مكنته من بناء عدة مساجد على شاطئ الوادي الكبير ، ونوسيح نطاق مسجد قرطبة الذي أسسه والده ، كذلك أعاد بناء الجسر القديم الممتد على الوادي الكبير ، والذي يربط العاصمة بأراضيها الجنوبية ، وصار يعرف بجسر قرطبة .

وقد كتب المؤرخ الفرنسي رينو يقول أن هشاماً أراد أن يوجه المسلمين الى الجهاد ، بدلا من أن يحارب بعضهم بعضاً ، ويجمع ثملهم يشرف الجهاد ، ويشغل المسلمين عن إثارة القلاقل والاضطرابات ، وأراد في نفس الوقت أن يثبت لنصارى الشمال قوة المسلمين ، وتدة بأسهم ، وأن يعوض ما ضاع من المسلمين من أرض نتيجة لغزوات بين وشارلمان ، وأصدر هشام منشورا قرىء في الجوامع يدعو الناس الى الجهاد بالنفس أو بالمال ، ولقيت دعوته قبولا وحماسا من الأهلين ، فنفروا الى قرطبة خفاها وثقالا من كل فج عميق حتى تجمع لديه مائة ألف مقاتل ، وأموال جمه ، فسير الحملات الى الشمال والى جنوب فرنسا ، كما سبق القول .

مذهب مالك في الأندلس

من المعروف أن المذاهب الفقهية الرئيسية ، هي المالكي ، والحنفي والشافعي والحنبلي . وأنتشرت هذه المذاهب في البلاد الاسلامية ، كل فيما يناسبه من مذهب ، وقد أنتشر المذهب الحنفي في العراق ، لأنه عراقي ، ولم ينتشر في الأندلس لأنه مذهب الدولة العباسية المعادية ، ولأن مالك نفسه كان يعارض سياسة العباسيين ونقل عن الامام مالك ارتياحه الى سياسة هشام وورعه وتقواه ، وتطبيق أحكام الاسلام بأمانة ودقة ، وكان الغاتمون العرب والمهاجرون اليها من العرب أهل من

أهل الشام أو من أهل الحجاز ، وأهل الشام تأثروا بمذهب الأوزاعي الذي انتشر في الأندلس بعد الفتوح ، أما الحجازيون فقد حملوا مذهب مالك معهم إلى الأندلس وكان من بينهم فقهاء ، حملوا أفكار هذا المذهب إلى أهل الأندلس ، وسافر طلاب علم إلى المدينة المنورة ، وتتمذوا على أيدي هذا العالم الجليل ، وعادوا إلى الأندلس فقهاء ينشرون هذا المذهب بين الناس ، ومن بين هؤلاء زياد بن عبد الرحمن ، وأخذ عنه يحيى بن يحيى البليثي الذي رحل إلى الحجاز ، ليأخذ عن الشيخ ، وعاد إلى الأندلس ليتم ما بدأه أستاذه زياد ، فانتشر المذهب في الأندلس ثم عبر بلاد المغرب ، وانتشر فيها ، وحل مذهب مالك في الأندلس محل مذهب الأوزاعي .

ويتضمن مذهب مالك آراء فقهية في القضاء والفتيا وفي العبادات والأحوال الشخصية ، فيها الحلول لكثير من مشاكل الدنيا . وهناك سبب آخر يروية ابن خلدون وهو أن البيئة الأندلسية والمغربية أو طبيعة أهل المغرب والأندلس كانت تشبه إلى حد كبير ، طبيعة أهل الحجاز من حيث البساطة والبعد عن التعقيد ، ولهذا فإن عقلية أهل الأندلس والمغرب ، كانت تغلب عليها نزعة أهل الحديث .

ويختلف مذهب مالك عن مذهب أبي حنيفة ، في أن مذهب مالك يتقيد بنصوص القرآن وبالأحاديث النبوية في استنباط الأحكام الشرعية والفتاوى . ولا يعتمدون على الرأي والقياس إلا فيما ندر . أما مذهب أبي حنيفة فيعتمد على الرأي والقياس إلى جانب النصوص . لذلك عرف أنصار مذهب مالك بأهل الحديث . أما أنصار أبي حنيفة فعرفوا بأهل الرأي والقياس . وقد ظهرت في العراق مشكلات عديدة ومعقدة بسبب تعدد الأجناس وأزدهار الحضارة ، وظهور موضوعات جديدة في حاجة إلى الاجتهاد والرأي والقياس .

..عدت الأندلس في أيام هشام . أعجب الناس به وبسبب دماسته ، والتفوا حوله ونصروه ، وشبهوه بأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في ورعه وصلاحه وتدينه ، وزهده في الدنيا . والسهر على مصالح الرعية . وكان

يوسل عماله الى الكور والاقاليم لتفقد احوال الحكام والقضاه ، فاذا تبث ظلم وال أو قلاص ، استدعاه ، وعزله وعلقبه ، واذا ثبت للعكس حمد الله على حسن احوال الرعية • وأمر هشام بتدريس اللغة العربية في معاهد التصارى ، مما أدى الى دخولهم فيه •

ويرجع لفضل في هشام الى أنه كان يطبق الزكاه ، فيجمعها طبقا للشرح ويوزعها على المحتاجين ، وكان يطوف الشوارع ، ويتفقد احوال الرعية ، وينظر في المظالم بنفسه ، ويزور المرضى ، ويحث الناس على تعمير المساجد حتى امتلأت بالمصلين • لذلك أشاد للإمام مالك بعدله وتقواه •

ومادما قد تحدثنا كثيرا عن الامام مالك الذى عاصر هشام فيجب أن نشير بايجاز الى هذا الامام •

مالك بن أنس رجل يمنى من قبيلة ذى أصبح ، عاش بين عامي ٩٤ — ١٨٩ هـ أى أنه أدرك العصرين الأموى والعباسى ، واشتد المدينة المنورة مقراته ، وللامام مالك كتاب فى الحديد اسمه (الموطأ) مرتب حسب الموضوعات ، رتب فيه أبواب الفقه على الحديد بمعنى أنه ذكر أبواب الفقه المختلفة كالصلاة والزكاة والصوم والحج والمعاملات • الخ ثم ذكر الأحاديث النبوية المتعلقة بكل موضوع من هذه المواضيع الفقهية •

قد عرف مالك بشدته فى تحرى الصحة فى الرواية والاسناد ولذا فكتابه من الكتب الصحيحة ، وعرف عنه سعة العلم وكان محدثا يارعا ، وأماما يعرفه للقاضى والدانى ، ويسعى الى تلقى العلم منه ، طلاب الحديث من المشرق والمغرب •

الأمير الحكم الرضى

(١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢ م)

تجنب هشام بن عبد الرحمن المشكلة التي حدثت بعد وفاة أبيه بسبب ولاية العهد ، والتي أشرنا اليها • لذلك عهد الى ابنه الحكم بالحكم من بعده ، وسمى بالربضى لموقف بينه وبين أهل الربض من نواحي قرطبة •

تختلف شخصية الحكم اختلافا واضحا عن شخصية أبيه فبينما كان أبوه يعتمد على الفقهاء في إدارة شؤون الدولة رفض الحكم هذه السياسة • وأثبتت الأحداث التاريخية أن رجال الدين لا يمكن الاعتماد عليهم في الشؤون السياسية وإدارة أمور الدولة ، حتى أن العباسيين كانوا يرفضون تولية أصحاب الطيالس مناصب الوزارة •

نعود الى الحكم وموقفه من رجال الدين ، فقد أبعدهم عن مناصب الدولة ، ورفع عنهم الامتيازات التي منحها لهم هشام فأتهموه بالكفر والخروج على الدين ، وحرصوا عليه فئات الشعب ، وناصروه العداء ، ووضعوا العراقيل في سبيل حكمه • ولكنه لم يأبه بمعارضتهم ، بل تصدى لهم بقوة •

الفتن والثورات الداخلية

نم يهدأ سليمان وأخوه عبد الله في المقر الجديد بالمغرب ، فكان سليمان يقيم في طنجة ، على حين يقيم عبد الله في المغرب الأوسط ، وكل من الأخويين يترقب الفرصة المواتية للعودة الى الأندلس ، والمطالبة بالحكم ، وأنتهز الأخوان فرصة وفاة أخيها هشام ، وعبر سليمان الى الأندلس على رأس جموع من البربر والمرتقة ، وحاول الاغارة على قرطبة عدة مرات ، ولكن الحكم هزمه سنة ١٨٢ هـ • وهزمه الحكم في العام التالي بالقرب من استجة ، ففر في أصحابه متجها الى ماردة ، فبعث الحكم الجند في أثره وأرسل الحكم اليه جيشا هزمه ، وقبض عليه ، وسبق هو ورفاقه

الى قرطبة ، وأمر الحكم بأعدامهم ، وطيب برؤوسهم في شوارع قرطبة ، ثم أمر بتشييع جنازة عمه في احتفال مهيب ، ودفنه بالروضة بقصر الامارة بجوار والده عبد الرحمن .

أما عبد الله ، فقد أحتفى في بلنسية بعد هزيمة أخيه سليمان ، ولكنه في النهاية لم ير مناصا من طلب العفو والصفح ، فصدر احكم له أمانا ، على أن يبقى في بلنسية ، وتجري عليه أرزاقه ، وزوج الحكم احدى بناته لعبيد الله بن عبد الله وركن عبد الله الى الطاعة والسكينة طوال عهد الحكم ، وأظهر عبيد الله بن عبد الله الولاء للحكم ، ودخل في خدمته ، وتدرج في سلك الجيوش وطهر نبوغه في تلك الصوائف التي تسنها على المسيحيين في الشمال ، ولذا لقب بصاحب الصوائف .

ثورات المولدين

المولدين — كما علمتم — هم طبقة نشأت في الأندلس من زواج المسلمين بالاسبانيات ، وسكنت هذه الطبقة بمرور الزمن الغالبية العظمى من سكان الأندلس ، فمنهم المزارعون والطلبة والتجار والفقهاء والصفائح ، وقد سعروا بالغبن من حكومة الأندلس التي كانت تحرمهم من المناصب الكبيرة ، وتنقل كاهلهم بالصرائب المادحة ، فقاموا بثورات تهدف الى تحسين وضعهم السياسي والاجتماعي وأهم هذه الثورات ، ثورة في قرطبة ، وأخرى في طليطلة ولنتحدث الآن عن ثورات أهل طليطلة عاصمة القوط القديمة وقاعدة التخر الأدي ، وكان بين أهلها للكثير من المولدين والمستعمرين الذين يشعرون بصيرورة التخلص من سلطان قرطبة الذي سلبهم حقوقهم السياسية والاجتماعية ، ولم ينسوا سالف عزهم ومجدهم أيام أن كانت مدينتهم دار ملك القوط ، وكانوا يعتزرون بروثتهم وكثرتهم وحصانة مدينتهم ، ونشبت في طليطلة عدة فتن ، أجهدت جند الحكم ، ولم يستطع الحكم اعادة البلاد الي الهدوء والطاعة فلجأ الي الحيلة والتدبيرة ، وعين عمرو بن موسى بن موسى — وهو من المولدين — واليا على طليطلة . وكان عمرو بن موسى نبيها انحكم ، وكان الحكم موافقا في هذا

الاختيار ، لأن عمروس ثسانه نسان معظم أهل طليطلة من المولدين ، ويطمأنون اليه ، لذلك بعلاقته بالحكم من ناحية ، وبالمولدين من ناحية أخرى ، يستطيع أن يلعب دورا ناجحا في إزالة التوتر من المدينة أثناءه . وكتب الحكم الى أهل طليطلة يقول : أسى قد اخترت لكم ملانا وهو منكم لتطمئن قلوبكم وأعفيتكم ممن تكرهونه من عمالنا وموالينا ، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم ، ودخل عمروس طليطنة ، وتظاهر أمام أهلها ببعض بنى أمية حتى استمالهم اليه ، تم سيد خارج المدينة قلعة جديدة ، منظارا أنه سيدها ليقيم فيها الجند بعيدا عن المدينة ، حتى لا يفتنوا الأهل .

عول عمروس التخلص من زعماء الفتنة ، فأقام وليمه في القلعة الجديدة ، ودعا اليها رؤساء وسادة أهل طليطلة انعارضين لحكم الحكم : وأمر بقتلهم جميعا ، والقاء جثثهم في مكان أعده لهم سنة ١٩١ هـ / ٨٠٧ م وكان لهذه الجريمة النسنعاء أثرها في ضعف أهل طليطه ، فكفوا عن العصيان ، وعادوا الى الطاعة وانولاء لحكومة قرطبه وأنتهت الفتنة والقتال في هذه المدينة العتيقة .

وثورة المولدين النانية ، كانت أشد خطرا من الأولى ، وأبعد أثرا ، وتعرف هذه الدورة ، بثورة الربضيين ، نسبة الى الربض ، ضاحية من ضواحي قرطبة ، يقيم فيها العمال والزراع والصناع وأصحاب الحرف المختلفة ، وكانت قرطبة قد ازدحمت بالسكان خصوصا من المهاجرين العرب والبربر ، وقد سيد هشام بن عبد الرحمن الجسر على نهر الوادي الكبير ، ليربط المدينة بأراضبها الجنوبية ، قامت العمران الى انصفه الأخرى المواجهة للمدينة ، فنشأ حي الربض - الذي سبقت الاساره اليه - وأمتد الى مدينة شقنده ، وهذه العناصر التسعبية التي أقامت في هذا الحي ، كانت تقع تحت تأثير الفقهاء الذين أغضبهم تحديد الحكم لنفودهم ، كما أن أهل الربض - ومعظمهم من المولدين - سعروا بالظلم الاجتماعي ، وأنهم كطبقة اجتماعية لم يكن لها حقوق تجعلهم على قدم المساواة مع العرب أو البربر .

وقد حدث حادث بسيط ، ولكن نظرا لجو السخف العام الذي كان مسيطرا على المجتمع حينذاك ، فقد أدى الى ثورة كانت لها نتائج بعيدة في الشرق والغرب . وملخص هذا الحادث أن جنديا من حرس الأمير ، ذهب الى حداد بحى الربض ليصلح سيفه ، فتباطأ في إصلاحه ، وحدث خلاف بينهما لم يلبث أن تطور الى جدال عنيف ، فما كان من الجندي الا أن قتل الحداد ، الذي كان من طبقة المولدين ، وكان هذا بمثابة الشرارة التي أشعلت الحريق ، فقد انفجر السخف وتجمع الناس على الجندي فقتلوه ، ولم يكتفوا بذلك ، بل خرجوا جماعات كبيرة مسلحة بالبلط والعصى والسكاكين ، وما وصلت اليه أيديهم من سلاح ، وأندس بينهم الفقهاء وأغلقت المتاجر والحوانيت ، وأتجهوا الى قصر الامارة عبر الجسر ، وترعمهم الفقهاء ، ومن بينهم يحيى بن يحيى الليثي ، وحاصرت هذه الجموع الثائرة قصر الحكم ، وحاولوا اقتحام القصر وقتل الامير .

تصدى الحكم بسرعة لهذا الخطر انداهم الذي يهدده ويهدد ملكه ، فأستدعى رئيس حرسه الخاص ، وأمره بالدفاع عن القصر ، كما أستدعى ابن عمه عبيد الله بن عبد الله البلنسي — صاحب الصوائف — وأمر أن يبذل هصارى جهده ، ويشق طريقه الى حى الربض ، واشعال النار فيه ، ونجحت الخطة ، فأحترق جند الحكم النهر على مخاضة ، لأن الجسر كان مزدحما بالثوار ، وأحرق جند الحكم مساكن الثوار ، ولما رأى أهل الربض مساكنهم تحترق ، أسقط في أيديهم ، وفزعوا وأسرعوا الى الربض تاركين قصر الحكم لانقاذ أولادهم ونسائهم . وعلى الجسر هاجمتهم القوات من خلفهم ومن أمامهم ، وأوقعت جند الحكم الثوار بين نارين ، وأحاطت بهم من كل جانب ، وأعملت فيهم السيف ، حتى مزقتهم كل ممزق ، وكانت هذه الواقعة حوالى سنة ٢٠٢ هـ ولم يكتف الحكم بذلك ، بل أمر أهل الربض بالرحيل من الأندلس ، وأمهلهم ثلاثة أيام ، فمن تخلف ، أمر بقتله ثم أمر بالربض ، وهدمت وحرثت مكانها وزرع ، وأوصى بالألا يسكن هذا الحى بعد وفاته .

واقترن اسم الحكم بالربض ، فسمي بالربضى ، ونفذ خلفاؤه

فوصيته ، ولم يعمر هذا المكان حتى أواخر القرن الرابع الهجرى .

ومن أهم نتائج هذه الثورة ، أثبات مقدرة الحكم وكفائه فى إخضاع الثورات ، ودانت له البلاد بالولاء والطاعة ، وتقلص نفوذ الفقهاء ، وخشوا بأسه ، وفر بعضهم خارج الأندلس . وكفوا عن مهاجمة الحكم فى الشوارع والأسواق والمساجد والاجتماعات ، وأتهامه بالكفر والالحاد .

أما النتائج الخارجية ، فهى خروج الربضيين من الأندلس بحثا عن موطن جديد وحياة جديدة ، وأرضا يهاجرون إليها ويستقرون فيها ، بعد أن طردهم الحكم من بلادهم .

عبر الربضيون مضيق جبل طارق الى العدو المغربية حيث استقروا بين قبائل البربر فى الريف شمالى المغرب ، ورحب بهم أدريس الثانى — أمير دولة الأدارسة النانسة — وكان وقتئذ يؤسس مدينة فاس ، وفى حاجة الى صناع وعمال وفنيين يعاونونه فى تأسيس المدينة الجديدة ، فرحب بالربضيين ، ونقلوا الى فاس مظاهر الحضارة الأندلسية لا سيما وأن معظمهم كانوا — كما قلت — من أهل الصناعات والحرف ، فأعطوا المدينة طابعا أندلسيا جميلا سواء فى أبنيتها البيضاء ذات الحدائق الداخلية فى أحواشها ، ونزل فريق منهم بحى ، بحرف بحى الأندلسيين .

أما المدينة العالية التى أسسها أدريس الثانى على الضفة المقابلة فقد أسكنها لجماعة من أفريقية من نواحي القيروان ، وسميت مدينة القرويين ، وبمرور الزمن غلب اسم فاس على المدينتين ، وصار يشتمل عدوة القرويين ، وعدوة الأندلسيين ، وقد اشتغل القرويون بالتجارة ، واشتغل الأندلسيون بالزراعة والصناعة .

أما الفريق الآخر ، فقد سارعوا نحو الشرق برا وبحرا ، وهاجموا الاسكندرية ، وأستولوا عليها بمساعدة بعض العربان ، وأستقروا فيها ، وأقاموا لهم فيها واليا منهم . ولكن والى مصر عبد الله بن طاهر

ابن الحسين ، لم يتغاض عن أهل الربرض في الاسكندرية ، وانقراضها من ولاية مصر ، بل صار ابى الاسكندرية ، وشدد عليها الحصار ، ودارت عدة معارك بين افريقيين ، انتهت بتسليم أهل الربرض الاسكندرية لعبد الله بن طاهر ، وعقد معهم صلحا ، بمقتضاه ، ينسحب أهل الربرض من الاسكندرية الى أى أرض غير أرض العباسيين وأعد لهم مراكب لاجلائهم ، فقصدوا جزيرة كريت وانقروها من أيدي البيزنطيين وأقاموا لهم فيها دولة اسلامية . عرفت بالدولة اكلبيه ، وظلت هذه الدولة مصدر تهديد لجزر وسواحل الدولة البيزنطية ، وحاول البيزنطيون اجلاء هؤلاء المسلمين من جزيرة كريت دون جدوى ، وكان المسلمون في كريت يتلقون المساعدات من مصر وانسام وافريقية الى هذه الجزيرة المجاهدة التي تتصدى للخطر البيزنطى . واستمرت دولة الكليبيين الصغيرة زاهرة زهاء قرن وثلاث (٢١٢ هـ — ٣٥٠ م) حيث استعاد البيزنطيون الجزيرة .

العلاقات الخارجية

لم تكف دولة الفرنجة المتأخمة لدولة المسلمين في الأندلس عن محاولة غزو هذه الدولة ، والقضاء عليها ، وذلك لتأمين حدودها ، واستطاعت بالحرب والقتال انشاء ثغر قوطى في أقصى اسبانيا الشمالية الشرقية ، مما يلى جبال البرتات وكان الثغر القوطى يتكون من مدن جيرونه وأوزونه وسولسونه ، ولم يكتف تسارلمان بذلك بل عول على توسيع الثغر القوطى ، وتطلع الى فتح ثغر برشلونه المنيع ليكون معقلا لحماية أملاكه الجنوبية ، وحلقة اتصال بحرى سهل بينها وبين فرنسا ، ولتحقيق هذا الغرض عقد تسارلمان تحالفا مع الفونسو الثانى — ملك جليقيه — لضمان ولاء البشكتس . وفي سنة ١٨٥ هـ أرسل تسارلمان جيشا لتحقيق هذه العاية بقيادة لويس بن تسارلمان — أمير أكوطين — وكانت الفرصة مواتية ، بسبب انشغال الحكم بمقاومة البورات التي استتلت ضده ، وقد واجه سعدون الرعينى — والى برشلونه — الحصار بشجاعه وبساله ، وكانت حكومة قرطبة مشغولة عنه بمساكنها الداخلية ونم تصله أية آمدادات ، وسدد الفرنج الحصار على برشلونه حتى هلك معظم سكانها .

ويجد سيمية أشهر أقتحم العدو المدينة الحصينة • وأخذ الفرنج برتلونه بدلا من جيرنده قاعده لننغر انطوى الذي بما فيما بعد • وغد هذا البحر الفرنجى أمارة نصرانية تسمى قطلونيه ، التي أندمجت فيما بعد فى مملكه أراجون • وخسر الاسلام بفقد برتلونه أمنع بعورة فى قاصيه أسبانيا ، وأرتحت حدود الأندلس الى الثغر الأعلى ، بعد أن كانت تجاور جبال البرتات • ونس الفرنج بقياده لوبس بن شارلمان هجمات على ولاية النغر الأعلى سنة ١٩٢ هـ عدة مرات ، وحاصروا مدينه طرطونة ولكن المسلمين ردوهم على أعقابهم حاسرين •

كذلك أنتهز الفونسو الثانى — ملك جليقية — سنة ١٩٤ هـ فرصه انتغال المسلمين بالبيرات ، وعمر الى بلاد المسلمين عدة مرات وعاث فى البلاد نوبا وفسادا ونخرابا ، ندى لجيسه احكم ، وصد هجماته ، وهزم النصارى فى عدة وقائع واطمان المسلمون رأهوا من هذه الغارات المتلاحقة ، وهاجم الحكم برسلونه ، ودارت حروب بين الفرنج والمسلمين بدون طائل ، دلجأ الطرفان الى ا صلح ، وعند انحكم وشارلمان دلحا ، أستمر حتى وفاة شارلمان سنة ٨١٤ م

وفى سنة ٢٠٠ هـ شن الحكم عدة هجمات فى جليقية وعلى البشكنس ، أضعفهم ، وأنهك قواهم ، وأمن مكرهم ، وأعتصم النصارى بالوهاد والرهبى •

كان الحكم حاكما قويا مستتبرا ، يصل الى غايته باى وسيلة ، صارما قاسيا ، شغوفا بأبهة الملك ، يترفع عن الرعية ، وهو فى ذلك يخالف عن أبيه وحده ، وكان يحسن اختيار رجال دولته ، ممن عرفوا بالعدل والورع والاستتارة • وهو أول من أظهر فخامة الملك ، وأول من أنشأ بالأندلس بلاطا اسلاميا ملوكيا ، ورتب نظمه ومراسمه ، واستكثر من الموالى ، وجعل منهم حرسه الخاص ، واستكثر من الصقالية وعهد اليهم بمعظم شؤون القصر ، وكانوا من الرقيق الخصيان يؤتى بهم من بلاد الفرنج وحوض الدانوب وبلاد اللومبارد ومختلف نغور البحر المتوسط النصرانية وكان

يؤتى بهم أطفالاً ، ويربون تربيةً إسلاميةً ، ثم يدرّبون على أعمال القصر ،
وتدرّجوا في سلك الوظائف حتى بلغ بعضهم الرياسة والقيادة .

وأستطاع الحكم تنظيم البلاد إدارياً ، فكانت تسرطقه منظمة ومدرّبة
على تأدية مهامها على أكمل وجه ، وله عيون وحواسيس يطلعونه على
الأخبار . وعلى الجملة كان الحكم عظيم السلطان والهيبة .

الأمير عبد الرحمن الأوسط

(٢٠٦ - ٢٣٨ / ٨٢٢ - ٨٥٢ م)

يتميز عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، بالنقلة الحضارية التي انتقلت الى الأندلس في أيامه ، فقبل عهد الأمير عبد الرحمن كانت المؤثرات الحضارية الاسلامية في الأندلس ، مبعثها بلاد الحجاز أو بلاد الشام ، وكان انتشار الحضارة في هذه البلاد محدودا ، وبالتالي فالقوات الحضارية التي انتقلت الى الأندلس من تلك البلاد كانت محدودة ، ولما ولي الأمير عبد الرحمن الأوسط رأى ضرورة نقل بلاد الأندلس من شظف البداوة الى رونق الحضارة ، فتطلع الى بلاد العراق ، وهو الأمر الذي حرص أسلافه الأمراء على اغلاق هذا الباب ، نظرا للعداء الشديد بين الأمويين في الأندلس ، والعباسيين في العراق ، ولكن عبد الرحمن الأوسط أدرك بثاقب نظرة أنه لا يمكن تنمية بلاده حضاريا الا بفتح الباب على مصراعيه لاهل العراق ، وثقافة أهل العراق .

وكانت بلاد العراق بالذات في العصر العباسي قد بلغت شأنها كبيرا في مضمار الحضارة ، وانتقل الى بغداد الفرس ، وغيرهم من الأجناس الأخرى ، وأبرزوا علومهم ومعارفهم ، وحظوا بتشجيع الخلفاء ، وانتشرت في بغداد الكتب والمكتبات في كل فرع ، وترجمت الكتب الاجنبية الى العربية في مختلف العلوم والفنون ، ونبغ في بغداد الشعراء والادباء والعلماء .

وشجع عبد الرحمن الأوسط العلماء على الانتقال والهجرة الى بلاده ، وساهموا في ازدهار الحركة الثقافية ، كما أرسل الى العراق يشتري نفائس الكتب والمصنفات ، ولا غرو فقد ورث ملكا موهوبا ثابتا ، ودولة أمورها هادئة وخزائنها عامرة ، فحرص على أن يجعل الأندلس من قوالم العالم الكبرى تخطب ودها الدول الكبيرة مثل الدولة البيزنطية . ودولة الفرنجة وانتقلت الى الأندلس حضارة للعراق ، ومن قبل ذلك الحضارة

النساجم والحجار ، وبالجملة حضارة الشرق ، وأمتزجت بحضارات العرب . ودهرها الأندلسيون ، وأخرجوا منها حضارة مميزة .

هاجر انى الأندلس — كما قنيا — علماء فى مختلف الفنون ، وذل من لم يبرز بعلمه فى المشرق ، كان يهاجر إلى الأندلس ، حيث يجد التقدير ، ويعيش فى بند بكر فى حاجه إلى العلم وأهله ، ونسب الأندلسيون فى شراء تحف قصور المشرق وانجوارى من ذوات الصبب الحسن ، فمرت الأندلس برجال اعلم وتحف المشرق ، ورسب الحضارة ، لذلك تحول هذا المجتمع من البداوة إلى حياة مترفة راقنة .

ومن أبرز مظاهر هذا الانتقال أيام عبد الرحمن الأوسط هو برور شخصيات فى عهد هذا الأمير ، بدل على سعة أفق هذا الرجل ، وعلى أناحه الفرصة لىؤلاء العلماء لاظهار معارفهم على مسرح الحياة الأندلسية ، واهتمامه بأفادة بلاده من مواهب هؤلاء الرجال ، وليس — كما بدهب المؤرخ دوزى من أن ظهور هؤلاء الرجال فى بلاد الأندلس ، وتمكنها من الله لطان ، انما يدل على ضعف هذا الأمير .

ولتأذنوا لى بالحديث عن أبرز هؤلاء الرجال :

يحيى بن يحيى اللببى

وهو الفقيه المشهور الذى لعب دورا رئيسيا فى نشر مذهب مالك فى الأندلس ، وكان من المقربين لهشام بن عبد الرحمن وحظى بمكانة رفيعة عنده ، ولكن نفوذه تضاعف فى عهد الحكم ، وترعم الثورة ضده ، ولكن الأمير عبد الرحمن الأوسط قربه إليه ، وأسند إليه منصب قاضى انفضاه ، وكان أنسبه بوزير العدل فى أيامنا هذه ، يعين القضاة فى النواحي ، ويشرف عليهم ، ويتفقد أعمالهم ، وربما فى بعض الأحيان ، يلى قضاه بعض النواحي ، ويعين من القضاة من ينيب عنه ، وكان نفوذه كبيرا فى الأندلس ، حتى أنه كان يتدخل فى الشؤون السياسية فى الدولة ، ويفرض رأيه على الأمير .

الحسين بن نافع زرياب

وحل زرياب الى فرطيه في أوائل عهد عبد الرحمن الاوسط وهو معنى عراقى فارسى الأصل ، ولقب زرياب ، وهي كلمة تطلق على طائر أسود حس الصوت ، وسخصه زرياب فريدة في بابها ، لا في تاريخ الأندلس فحسب بل في تاريخ الاسلام عموما ، وكان زرياب تلميذ للموسيقى العراقى الكبير اسحاق الموصلى - كبير المغنين والموسيقيين في أيام الرشيد - وقد ببع في عن الألحان على يد أستاذه مم حدث أن عسى زرياب أمام الخيفه العباسى هارون الرشيد ، فأعجب الحليفة بفنه وبراعته ، وقد عزف زرياب أمام الرشيد بعود صنعه لنفسه ، ورفض أن يعزف على عود أستاذه ، وأعجب الرشيد بزرياب وأنتى عليه ، فأدرك اسحاق أن تلمذه ربما يحتل مكانته في يوم ما ، فهدده ، وطب منه الرحيل عن انحران الى أى بند ينشاء . . فقرر زرياب الهجرة الى الأندلس ، فبلعها في سنة ٢٠٧ هـ في أوائل عهد عبد الرحمن ، فأكرمه ، ورحب بمقدمه ، وأنزله في منزل يليق به ، ومنحه الرواتب والافطاعات وأفسح له المجال لاظهار نبوغه وقد على أوسع نطاق .

أحدث زرياب تطورا كبيرا في الموسيقى الأندلسية ، ونقل معه الحياة العراقية بمظاهرها الفنية والاجتماعية ، ونجح في أحلال الموسيقى العراقية محل الموسيقى الحجازيه ، وجدد في الألحان تجديدا لم يعرفه أحد من معاصريه ، وجعل مضرب العود من قوادم الفسر بدلا من الخشب ، مما يساعد على نقاوة الصوت وسلامة الوتر ، وكان العود : آلة الطرب الرئيسية ويرمز الى طبائع النسر مختلفه ، وطبايع المواد الأولى في نفس الوقت ، والطبائع هى الهادى والعصبى والصفراوى والبارد ، والمواد الأولى هى الماء والهواء والتراب والنار ، فأضاف زرياب للعود وترا خامسا جعله في الوسط ، وهو يقابل النفس من الجسد ومازانت موسيقى زرياب ممثلة في الموسيقى الأندلسية المعروفة حتى اليوم في المغرب والجزائر وتونس . وزرياب أول من غنى في وسط مجموعة من المنتسدين والمنشدات ، ورثب طلابه على تنقية الصوت وتصفيته وظبطه

وتقويته ، والغناء طبقا للقواعد الموسيقية ، والتمشى مع الموسيقى في
الغناء . وبذلك أصبحت الموسيقى الأندلسية — بفضل زرياب — أرقى
أنواع الموسيقى شرقا وغربا .

وكان لزرياب ذوق رفيع في كل ما يتصل بشؤون الحياة والمجتمع
فعلم الأندلسيين طريقة الطهي العراقي ، وضرورة الترتيب في تقديم
الأطعمة ، بدلا من وضعها دفعة واحدة ، فبدأ الانسان بالمقبلات ثم
بالخضراوات واللحوم ثم بالحلوى أو الفاكهة ، وأشار على الأندلسيين ،
استعمال الأواني الزجاجية في الطعام بدلا من الذهبية أو الفضية ، وعلم
الأندلسيين ، كيف يضعون في الطعام التوابل ، وترتيب المائدة .

وزرياب علم الأندلسيين ، اتخاذ ثياب للصيف ، وثياب للشتاء ،
وكان الناس قبله يتخذون الصوف صيفا وشتاء ، أما هو فقد علمهم لبس
القطن صيفا ولبس الصوف ساءا ، وكان له ذوق رفيع في اختيار ألوان
الثياب وأنواعها .

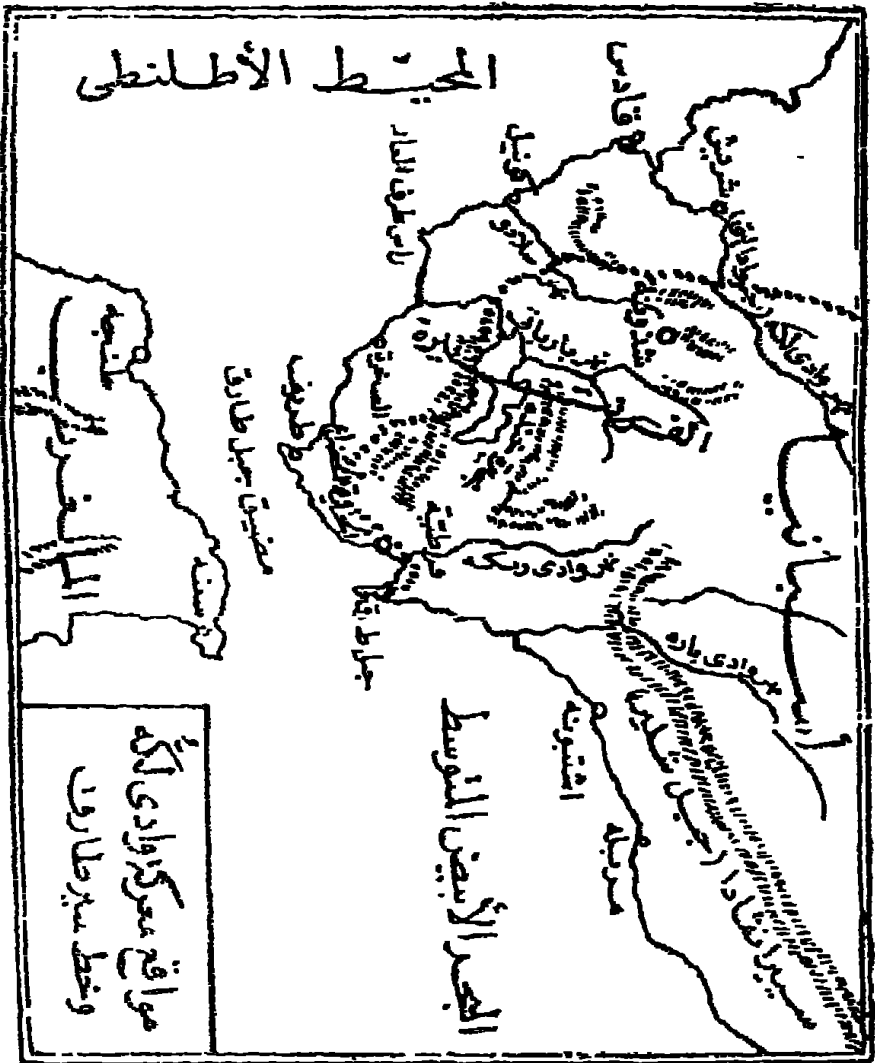
.. كذلك علم زرياب الأندلسيين طريقة تصفيف شعورهم ورفع خلع
الآذان ، بدلا من تركه مسدولا على جباههم وأعينهم ، وقد تبعه أهل
الأندلس في هذا التصفيف ، والجدير بالذكر أن أهل الأندلس كانوا
لا يستعملون العمائم ، إنما كانوا يتركون رؤوسهم دون غطاء ، شأنهم
في ذلك شأن جيرانهم الذميين . وعرفت هذه المراسم بمراسم زرياب ،
وتمثل انتقال نزعة التجديد والاناقة في ذلك العصر . وقد أثار وجود
زرياب وآرائه ، وما أحدثه من تغيرات في المجتمع ثائرة وحنق الوزراء
وكبار رجال الدولة مثل يحيى الغزال ، وأنكروا على الأمير عطايه له .
ولكن الأمير لم يقبل الاقلال من شأن زرياب وقرب بيته وبين الوزراء .
ومن عوامل صعود زرياب أمام منافسية عدم تدخله في السياسة .

عباس بن فرناس

ومن أعلام ذلك العصر عباس بن فرناس ، وهو فليسيوف وعلامة رياضي من نوع فريد في بابيه ، ويرجح أنه من البربر وقد نسف بدراسه الفلسفة والفلك والكيمياء الصناعية ، حتى برع فيها ، وصار من أكبر علماء عصره ، وهو أول من أستتبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة ، وبرع أيضا في الموسيقى ووضع آلة فلكية لتحديد الوقت ومعرفته سموها الميقاته وله اختراعات كثيرة أخرى ، ورسم في بيته شكل القبة السماوية ، وقسمها الى بروج ومنازل للشمس وللأفلاك على مدار السنة ، وحاول أن يوضح اختلاف الفصول ، وأوجه القمر بآلات صنعها لهذا الغرض ، وكان يجري تجاربه على ملا من المقربين اليه ، والمهتمين بالعلم ، فمنهم من أستفاد ومنهم من رماه بالسحر والشعوذة وروى بعضهم أنه حاول أن يخترع أداة للطيران ، فصنع لنفسه جناحين على شكل معين ، وحاول الطيران من ناحية الرصافة ، فحلق في الهواء ، ولكنه لم يلبث أن سقط على الارض . وكان هذا سبقا لم يسبقه اليه أحد من رواد الطيران . وأدى كثرة اشتغاله بالكيمياء الى اتهام الناس اياه بالسحر ، فرموه بتهم القتل والضلال ، ورفعوا أمره الى القاضي . ولكن ثبتت براءته ، والخلاصة أن أحد انوزراء قدر لهذا الرجل علمه وفضله ، وأثره في الحضارة فقال : أبدع عباس بن فرناس طول أمداه ابداعات لطيفه وأختراعات عجيبه ، وضرب بالعود ، وصاغ الألحان الحسنه وكان مع ذلك مجيدا للشعر ، حسن التصرف في طريقته كثير المحاسن ، جم الفوائد .

يحيى الغزال

وينسب الى بكر بن وائل ، وأصله من مدينته جيان ونقب بالغزال لجماله وظرفه وتأنقه ، وكان شاعرا جزلا مطبوعا ، ونبغ في شعر الغزل ، عالما بالفلك وانفلسفة وقد أكثر من التعرض للفقهاء ، وانتقادهم ، حتى سخطوا عليه ، وأتهموه بالكفر والالحاد ، وعرف عنه أصالة الرأي وحسن التصريف للأمور ، وقد رشحته هذه الصفات للقيام بمهام دبلوماسية كبيرة .



ويحتي الغزال ناعرا لا بكسب بسعره .- انما يقول الشعر للشعر ذاته ، ولا يتردد على الأمرء لدحهم واستجداء عطائهم ، بل لا يتردد في هجائهم وهجاء كبار رجال الدولة لذلك كثر خصومه . واضطرته ظروف المعيشة الى تقلد بعض الوظائف الصغيرة ، ولكنه لا يتقيد بواجبات الوظيفة والتزاماتها ، ويسير في عمله وفق هواه ، ويهمل في أداء عمله ، فيفصل من الوظائف ، وتفرغ لأهل قرطبه فكان يهجو كل من لا يحطى باعجابه وتقديره ، فكبرت ضده اشكاوى للأمير فطرده من الأندلس ، فلجأ الى بغداد وحضر مجالس الأدب التي ترخر بها العاصمة العباسية ، فتحدى العلماء والطلاب ، وأصابهم بلسانه ، فكثر أعداؤه في بغداد ، فغادرها ، واستأذن الأمير عبد الرحمن في انعوده الى قرطبه ، فأذن له . وعهد اليه بعمل يتناسب مع قدراته ، وهي السفارة الى الملوك .

سعيد بن عبد ربه

ومن أبرز أدباء ذلك العصر ابن عبد ربه ، صاحب كتاب العقد الفريد ، وكان على نمط يختلف عن يحيى الغزال ، فكان يتكسف بسعره ، ويتقرب الى الأمرء ، ويلود بهم ، ويمثل الأدباء التقليديين الذين يدرسون انتراب العربي القديم ، وبديعونه في مجاد كبير ، يستعمل الشعر والتاريخ وأخبار العرب وأيامهم ، ومن يقرأ هذا الكتاب شعر أن المؤلف قد جمع له معلومات متنوعة ، أو أنزله في عدة بسساتين ، بحيث يأخذ من كل بستان زهرة . والعقد الفريد كتاب أدب نموذجي ، سماه صاحبه العقد لأنه جعل انفصول جواهر ، أشار فيه - كما هو الحال في كتابه الكامل لأبي العباس المبرد الى أيام العرب وأسواقها والخيل وأصنافها والشعراء الجاهليين وشعراء صدر الاسلام والعهد الأموي ، الى غرائب ما قيل في الكرم أو النسجاءه أو الفضيلة ، كل ذلك في لغة صحيحة ، تفيد القارئ ، وتوسع مداركه في اللغة .

وظهور هذا الكتاب في الأندلس بدل دلالة واضحة على أن الأدب في الأندلس استقى مادته من الشرق وأن الأندلسيين في دراستهم

الادبييه ، تلمسوا النشاط الملحوظ في الشرق ، والمادة العلمية الغزيرة منه وبذلك توطدت الثقافة العربية الاصيلية في الاندلس أو بعبارة أخرى عاتس أدباء الاندلس في جو عربي شرقي خالص ، لا يتأثر الا قليلا بالحياة الاندلسية ، بدليل أن من يقرأ كتاب العقد الفريد ، لا يعتقد أن صاحبه أندلسي ، لقلة الاشارات فيه عن الاندلس . في حين أن كل ما فيه من معلومات عن الشرق .

الثورات الداخلية

حدثت في الاندلس عدة ثورات داخلية ، تغلب عليها الامير عبد الرحمن الأوسط ، ففي مستهل عهده ، عاد عبد الله البلنسي الى الثورة ، واحتل كورة تدمير سنة ٢٠٧ هـ وانضم اليه الكثير من الانصار والأعوان . وقوى بأسه ، وعول الزحف الى قرطبة على الرغم من شيخوخته ، ولكن المرض فاجأه ، وتوفى سنة ٢٠٨ هـ ، وأنتهت بذلك آخر فتنة ، كانت تحدث بعد تولية الأمراء الذين أعقبوا عبد الرحمن الداخل .

على أن فشل هذه الثورة لم يؤد الى هدوء تدمير ، بل عادت الى الاضطراب من جديد ، بسبب فتنة بين اليمانية والمضرية سببها أن يمانيا قتله مضري ، وفنسلت حكومة قرطبة في اخضاع المدينة النائرة ، وأزداد الأمر اضطرابا بعد أن تغلب أبو الشماخ اليماني على تدمير ، ولم تلبث أن هدأت الفتنة سنة ٢١٣ هـ ، بعد أن نسغت حكومة قرطبة وأرهقتها .

كذلك قضى عبد الرحمن الأوسط على ثورات في قرطبة وفي طليطلة

ومارده .

وأستأنف عبد الرحمن سياسة أسلافه في غزو بلاد الفرنجة ، فهاجم سنة ٢٠٨ هـ / ٨٢٣ م ألبة والفلاح وهزم النصراني في عدة وقائع ، ودمر مدييه ليون ، ولقن أهلها درسا قاسيا . وفي غضون ذلك صد جيش عبد الرحمن الأوسط جينسا للفرنجة ، أرسله لويس — ملك الفرنج — وتحالفت البنسسكنس معه في هزيمة الفرنجة عند بنبلونه ، كذلك أحيط

عبد الرحمن محاولات الفرنجة في النغر القوطي، انتوسع في أراضي المسلمين .

حرص عبد الرحمن على تسيير الصوائف أو حملات الغزو الصيفيه متعاقبة في كل عام الى الشمال ، تارة الى أطراف النغر الأعلى ، حيب تشتبك مع الفرنج ، وتخرّب أراضيهم وتارة الى ألبنة والقلاع ، حيث تغير على أراضي البشكنس أو أطراف ممكة ليون (جنريقيه) ، واضطر البشكنس الى طلب الامان والصلح ، ووطد عبد الرحمن من خلال حملاته نفوذه في تلك الأنحاء سنة (٢٢٨ هـ / ٨٤٢ م) ولم يكن لهذه الغزوات نتائج مستقرة ، وكانت تقصد في الغالب الى ايقاع الرعب في قلوب نصارى الشمال ، وتخریب بلادهم ، وانهاك قواهم ، حتى يلزموا السكنيه ، ويكفوا عن عدوانهم .

غارات النورمان

من المعروف أن شبه الجزيرة الأيبيرية لها سواحل طويلة على مياه البحر المتوسط والمحيط الأطلسي شرقا وغربا وجنوبا ، وعرضها هذا لغزوات بحرية كثيرة ، وقد فطن المسلمون الى ذلك ، فأنشأوا دور الصناعة في الموانئ المختلفة ، وتولى اليمينيون حراسة الموانئ ، وحفظ السواحل من الغارات البحرية . واعتمدوا كذلك على جماعات بحرية أندلسية من المولدين والبربر والمستعربين ، وكان لهؤلاء البحريون الأندلسيون مغامرات ومحاولات في المحيط الأطلسي لكشف مجاهله وظلماته في منتصف القرن الثالث الهجري ، ولهذه الجماعات البحرية نشاط ملحوظ في البحر المتوسط ، تمثل في الغارات التي شنتها على جزر البحر المتوسط المتاخمة للدولة البيزنطية أو الدولة الكارولنجية .

ساهمت القوات البحرية لعبد الرحمن الأوسط في غزو جزيرة صقلية بالتعاون مع دولة الاغالبة في أفريقية ، ولكن عبد الرحمن الأوسط توقفت عن هذا الغزو بسبب المعاهدة التي عقدها مع الامبراطور البيزنطي ، وتتضمن عدم مناصرة أي عدوان ضد الدولتين .

لكن موقف الأمويين من الفرنجة ، كان يختلف عن موقفهم من البيزنطيين ، ذلك أن الأعداء التقليديين للأمويين ، كانوا الفرنجة ، المجاورين لأراضيهم ، والطامعين فيها ، ولما أيقن عبد الرحمن الأوسط أن قوته البحرية أقوى من قوات الإمبراطور لويس القوي أو الحليم — إمبراطور الفرنجة — شن غارات بحرية متوالية من ٨٣٩ — ٨٥٠ م على شواطئ دولة الفرنجة في جنوب فرنسا ، حتى قضى على قواعد المقاومة فيها مثل مرسليليا وغيرها ، وشملت هذه الغارات جزر البليار ، التي كانت في حوزة الفرنجة ، ومازال المسلمون يهاجمونها ، حتى سيطروا عليها ، وخضعت لسيطرة الحكومة ، القرطبية سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م .

على أنه ينبغي أن نلاحظ أن البحرية الأندلسية لم تكن بالقوة اللازمة التي تكفي لصد الغارات البحرية القوية ، خصوصا على السواحل الغربية ، ولهذا لم تستطع البحرية الإسلامية رد هجمات النورمان أو الفايكنج السريعة ، وأسهمها النارية الخاطفة ، وأسرعها السوداء ، التي جعلت بعض المعاصرين ، يراها وكأنها ملات البحر طيرا أسود .

وهؤلاء المهاجمون ، يسمون النورمان أو سكان الشمال أي سكان الدول الاسكندنافية ، وسماهم العرب بالمجوس أي عباد النار ، لأنهم كانوا يشعلون النار في كل مكان يحلون به ، بل كانوا يحرقون جثث الموتى من زعمائهم بسفنهم فظن العرب أنهم يعبدون النار كالمجوس ، وسموا كذلك بالفايكنج ، وكان هذا الاسم يطلق على سكان الخلابان الاسكندنافية .
ولكن المراجع الاسبانية تفسر كلمة فايكنج بمعنى المحاربين .

والشعوب الاسكندنافية — كما هو معروف — تنقسم الى سويديين ونوريجيين ودينماركيين ، والدينماركيون هم الذين هاجموا سواحل انجلترا وفرنسا والاندلس والمغرب وترعموا حركة القرصنة في البحار ، وألقوا الرعب والذعر في نفوس أهل السواحل ، وعانوا فسادا ونهباً في البلاد السواحلية .

ولم تكن تجمع غارات النورمان قيادة واحدة أو خطة مشتركة ، بل كانوا مجموعات متفرقة ، كل مجموعة تعمل لحسابها الخاص . وكانت هذه الجماعات تتجنب مهاجمة السواحل المحصنة التي بها حراسة ورقابة بحرية ، كالسواحل الشرقية ، وإنما تهاجم السواحل غير الحصينة ، كالسواحل الغربية ، ومن هنا اشتدت هجماتهم على قانس ، واحتلوا وأخترقوا نهر الوادي الكبير من مصبه ، وصعدوا فيه لسفنهم ، واستولوا على مدينة أشبيلية ونواحيها سنة ٢٣٠ هـ ، وأمعنوا في السكان قتلا وتكديلا وعاثوا فيها فسادا ، وعسكروا في ظاهرها ، وأرسل عبد الرحمن الأوسط قوات لصددهم ، ودارت بين الفريقين معركة حامية ، هزم النورمانيون بعد قتال عنيف ، وقتل منهم نحو ألف ، والأسرى أكثر من أربعمئة ، وأحرق من سفنهم ثلاثون ، وارقد النورمان خاسرين ، بعد أن فقدوا قائدهم ، ونحصنوا بسفنهم ، ثم غادروا السواحل الأندلسية ، والمسلمون من ورائهم يتعقبونهم ، ويفتدون أسراهم ، وانتقم النورمان لانفسهم أثناء انسحابهم بالاغارة على بعض البلدان بعد أن قضوا في البلاد أياما عديدة ألقوا فيها الرعب في نفوس أهلها .

أما الأسرى النورمان ، فقد اعتنق بعضهم الاسلام واختلطوا بالاهالي ، وتكونت منهم جالية نورمانية اشتملت بتربية المواشى وصناعة منتجات الألبان ، نبهت هذه الهجمات الأمير عبد الرحمن الأوسط الى تحصين الموانى والسواحل ، واعداد العدة لمواجهة أى هجوم فى المستقبل ، فأحاط مدينة أشبيلية بأسوار حجرية عالية ، وبنى فيها دار صناعة لبناء السفن الحربية وزودها بالأسلحة الى جانب المنارس والرباطات ، وزود هذه التحصينات برجال مدربين على القتال ، وصد الغارات البحرية ، وزود السواحل بالمنارات وبث عيون المراقبة على أماكن عالية ، للكشف عن العدو اذا اقترب ، وقويت البحرية الأندلسية ، التي لم تلبث أن سيطرت على الحوض الغربى للبحر المتوسط ، وكان للأندلسيين أسطولان أسطول البحر المتوسط ، وأسطول المحيط الأطلسى ، وكان للأسطول مراكز كثيرة على الساحل الغربى والجنوبى والجنوبى الشرقى

بصفة خاصة ، وكان رجال البحر يعتبرون سلاحا خاصا من أسلحة الجيش ،
ولهم أجور عالية ونظام خاص في الإندلس .

فتنة المستعربين المتطرفين في قرطبة

المستعربين هم النصارى الذين بقوا على دينهم ، ودخلوا في ذمة
المسلمين وتعلموا اللغة العربية ، واندمجوا في الحياة الاسلامية ، وتولوا
الوظائف الحكومية ، وتمتعوا بتسامح المسلمين ، فبقوا على دينهم .
يمارسون شعائرهم الدينية بحرية تامة ، ولكن بعض القساوسة المتعصبين
في قرطبة نفروا من الاسلام ، وحرصوا اخوانهم المستعربين على الثورة
ضد دوة الاسلام وأبرز هؤلاء القساوسة هو الراهب القارو انقرطبي
وكان ثابا غنيا ، فأعلن الثورة على المسلمين ، واستنكر من اخوانه
النصارى أقبالهم على الثقافة العربية ، ونسيانهم اللغة اللاتينية وكتابات
آباء الكنيسة وسفراء اللاتين .

أخذت هذه الفتنة طابعا خطيرا باسم الدين ، فكرهوا المسلمين
وسخروا من دينهم ونبيهم وتعاليمه ونسبوا الى الاسلام خرافات
وأباطيل .

ثار المتعصبون في المدن الاسبانية - خصوصا قرطبة - وقائلو
الحكام ، وحاولوا الاستشهاد بطريقة التحدى والانتباك ، وعمد القسوس
والمتعصبون الى تحقيق غايتهم بوسيلة خطيرة ، وهى سب الاسلام ونبي
الاسلام علنا ، وهى جريمة تعرض مرتكبها للقتل ، وقاد زعماء الثورة من
القساوسة الثوار ، وساروا في شوارع قرطبة في سب نبي الاسلام
جهرا ، واذا ما قبض عليهم ، حاول انقضاه انقراض اجتذار منهم على
خطئهم ، ولكنهم كانوا يصرون على سب نبي الاسلام أمام القاضي ، لذلك
كان جزاؤهم الموت . وأدى اعدام بعض الثوار ، الى زيادة اشتعال
الفتنة ، وأضفوا على المقتولين صفة الشهداء ولم يتورع الكثير من الثوار
المتعصبين عن اعلان السب لنبي الاسلام للبا للشهادة فرادى أو قبا
موالكا .

اعتزم عبد الرحمن الأوسط على معالجة هذا الخطر الداهم بالحوار البناء والتفاهم ، فاستدعى مجلسا من الاساقفة ، عقد في قرطبة برئاسة مطران أشبيلية وبالمجلس ممثل للامير ، وأصدر المجلس بعد مناقشات مستفيضة قراره بعدم جدوى هذه الفتنة الطائفية التي ستتؤدي الى الخراب والدمار وازهاق الانفس والاموال ، واستنكر المجلس مسلك أولئك المتطرفين وتحذير النصارى من السير في طريق الثورة ، ولكن قرار هذا المجلس لم يؤد الى انتهاء الثورة ، بل ظلت مشتعلة واعتقل الكثيرون ومنهم فتيات مسلمات ، وقعوا تحت تأثير الثوار ، وقاتلوا ، وتمادوا في سب النبي ، ومن بين هؤلاء الفتيات فتاة رائعة الحسن تدعى فلورا نسف بها الأسقف أولوخيو حيا .

كانت فلورا ابنة مسلم من زوجة نصرانية ، وتوفى أبوها وهي صغيرة ، فربتها أمها على مبادئ النصرانية ، ودخلت في النصرانية ، ولما علم أخوها المسلم شديد التعصب بتتصرما ، حاول اعادتها الى الاسلام بكل الاساليب ولكنه لم يستطع ، فأخذها الى القاضي ، وأخبر القاضي بأن أخته تنصرت ، وسبت النبي ، واعترفت فلورا وعاقبها القاضي بالضرب ، ولكنها لم تكف عن عصيانها وأشعلت الثورة من جديد ، وتحدث المسمين في كل مكان بسب النبي ، وأظهرت من ضروب الشجاعة والبسالة والتفانى في سبيل العقيدة ما جعلها من قديسات الكنيسة الاسبانية ، وحاول القاضي نصحتها ، ولكنها أصرت على الضلال ، عندئذ حكم عليها بالاعدام .

واستمرت هذه الفتنة الخطيرة روحا من الزمن ، ونذرت حكومة قرطبة في قمعها بالحزم والنسدة ، وهكذا انتهت هذه الفتنة التي أفلقت حكومة قرطبة ، ولم يجد فيها المتعصبون أملا ، وقد استنكر عامة النصارى ورؤساؤهم هذه الحركة ، وأيدوا الحكومة في موقفها من أولئك الثائرين ، ولم تظهر هذه الفتن في التاريخ الاندلسي الا في القليل النادر وبشكل طفيف جدا .

العلاقات الدولية في عهد عبد الرحمن الأوسط

صارت الأندلس في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، إحدى دوا العالم الكبرى ، والدول الأربع الكبرى في ذلك العصر ، الدولة العباسية في المشرق ، ودولة الفرنجة ، والدولة البيزنطية ، والدولة الأموية الأندلس . وانقسم العالم إلى معسكرين ، الدولة العباسية ودولة الفرنج في جانب ، والدولة الأموية في الأندلس والدولة البيزنطية في جانب ، ذلك لأن مصلحة الفرنجة تتحد مع مصلحة العباسيين في الضغط على الدولة الأموية في الأندلس ، واتحاد الدولة البيزنطية مع دولة الأمويين في الأندلس للضغط على دولة الفرنجة ، ولكن اتحاد في كلا الناحيتين يتعد تبادل السفارات والهدايا . ولكننا نلاحظ أن الحروب في ذلك الوقت ، نشبت بين العباسيين والبيزنطيين في عهد الرشيد والمأمون والمعتمد ، كما نجد تشارلمان في ذلك الوقت يعبر على أسنانيا من الشد وكذلك ابنه ، مما يدل على أن الدبلوماسية الدولية ، كانت قائمة على التفاهم .

وكانت الإمبراطور به البيزنطية منذ مطلع القرن الثالث الهجر تقاس من غارات المسلمين على سواحلها وممتلكاتها ، والأغالبة حكا أفريقية ، انتزعوا منها جزيرة صقلية ، وشنوا غارات على سواحل إيطاليا وواصلوا زحفهم في الأراضي الإيطالية حتى طرقت أسوار مدينة روم والربضيون — كما علمتم — استولوا على جزيرة كريت ، وشنوا غارات على جزر بحر إيجه وساحل تراقيا ، هذا إلى جانب حملات العباسيين على الأراضي البيزنطية .

وفي سنة ٢٢٥ هـ / ٨٤٠ م ، أرسل ثيوفيل الإمبراطور البيزنطي الأمير عبد الرحمن الأوسط السفير اليوناني قرطيوس ، بهدايا فاخرة ورسالة ودية .

وفي سنة ٢٣٥ هـ / ٨٤٠ م ، أرسل ثيوفيل الإمبراطور البيزنطي إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط السفير اليوناني قرطيوس ، بهد

فاخرة ، ورسالة وديه ، يسأله عقد محالفة معه ضد أعدائه العباسيين ،
الذين قضاوا على ملك أجداده الأمويين في المشرق ، وطلب مساعدته ضد
الاغالبية في صقلية ، والربضيين في كريت .

ورحب عبد الرحمن بالسفير ، ورد على رسالته ، ورد على الهدايا
بمثلها ، وارسل الى الامبراطور البيزنطى السفير يحيى الغزال ، فقابله
بالترحيب ، وأكرم وفادته ، وسلمه رسالة الامير وتضمن السيفط على
العباسيين والربضيين ، ولكن الرسالة لا تضمن وعودا بالاتضمام انيه في
محاربة المسلمين . وتحدث فى الرسالة عن الأغالبة فى صقلية ، فوصفهم
بأنهم مجاهدون فى سبيل الله ، واعتذر عن الوقوف ضدهم ، وعاد الغزال
الى قرطبه ، يتحدث عن مشاهداته فى القسطنطينية وبلاط الامبراطور ،
وأحوال رحلته فى البحر .

والخلاصه ان العلاقات الدبلوماسية اتى قامت لأول مرة بين قرطبة
والقسطنطينية ، توضح لنا أن كلا من العالمين المسيحى والاسلامى ، قد
بدأ يخرج عن تقاليد القديمة تحت تأثير مصالحه الخاصة التى أصبحت
هى المتحكمة فى سياسته لا الاعتبارات الدينية ، كما كان الحال من قبل .

أعماله الادارية والعمرانية

أنظمت الادارة فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وأعاد ترتيب وتنظيم
الجهاز الحكومى ، وأجرى تعديلات فى الوظائف العامة ، ومن أهمها خطة
الوزارة ، اذ قسمها الى عدة وزارات مختلفة ، وكان الوزراء يترددون
على الأمير يوميا لمناقشتهم فى أعمالهم ومهامهم وانجازاتهم ، وكان هناك
وزيرا للمالية ووزيرا للمراسلات ووزيرا للادارة . الخ وأنحصرت
الاعمال الوزارية فى بيوت معينة .

وأما أصحاب المناصب الادارية فهم :

صاحب السوق ، وصاحب الشرطة العليا وصاحب الشرطة السفلى
وصاحب المدينة ويشرف على المرافق العامة للمدينة ، وكانت الأتدلس حتى

عهد عبد الرحمن الأوسط تعتمد على الدراهم الفضية والدنانير الذهبية من المشرق ، ولم تكن تضرب الا عملة برنزية محدودة ، وكان التعامل بين الناس في كثير من الحالات يتم بطريقة المقايضة . فأنشأ عبد الرحمن الأوسط في قرطبة دار للسكة لضرب عملة أندلسية خاصة بالبلاد .

وعنى عبد الرحمن الأوسط بالمنشآت العامة ، فزاد في مسجد قرطبة الجامع وما زال هذا الجامع قائما حتى يومنا هذا بعقوده الاسلامية وأرضه ومخاربه ، وحول الى كنيسة في القرن السادس عشر ، وعلى الرغم من ازالة قبابة ومعظم زخارفه الاسلامية لتحل محلها الزخارف النصرانية الا أن مخاربه الفخمة ، مازالت تحتفظ بنقوشها الاسلامية وآياتها انقرآنية ، ولا يزال يحمل اسمه الاسلامي القديم (المسجد الجامع) .

كما أنشأ عبد الرحمن مسجد اشبيلية الجامع ، وشيد سورها الكبير عقب غارات النورمان ، وفي عهده حفلت قرطبة بطائفة من المساجد والقصور والقناطر والمنشآت المختلفة ، وقد وصف القديس أولوخيو قرطبة بقوله : ان عبد الرحمن أسبغ على عاصمة مملكته ثوبا خارقا من العظمة ، وأغدق عليها الثروات ، ورفع من شأنها ، وحقق لها الرفاهية والمجد والسؤود ، وسبق انقول أن عبد الرحمن الاوسط اجتذب العلماء والإدباء الى قرطبة ، وكان أدبيا عالما اشترى كثيرا من الكتب والمصنفات من المشرق .

وأسكن عبد الرحمن الاوسط من الصقالبه والموالي واستبدلهم بجندهم « المعجم » وتدرجوا في سلك الوظائف حتى بنح نصر منصبا ساميا في بلاط قرطبة .

والخلاصة أن المدن عمرت في عهد عبد الرحمن الأوسط ، وزاد الخير في الريف ، وأزدهرت الحياة في المدن الأندلسية وظلت سمة هذه المدن طوال العصور الاسلامية .

مصر - حويلات الطوائف الأولى

(٢٢٨ - ٣٠٠ هـ / ٨٥٢ - ٩١٢ م)

أشتد الاضطراب في الأندلس ، عقب وفاة عبد الرحمن الأوسط ، وقد رأينا كيف نقل عبد الرحمن الأوسط بلاده من البداوة الى الحضارة ، ووحد البلاد ، وقضى على الفتن اداخلية ، الا أن خلفاؤه فشلوا فيما نجح فيه عبد الرحمن وحكم البلاد في فترة المفوضى والاضطراب ثلاثة أمراء وهم على التوالي :

محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦ م)

المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٢٥ هـ / ٨٨٦ - ٨٨٨ م)

عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م)

أى أن فترة الاضطراب هذه بدأت منذ نهاية عبد انرحمن الأوسط ، وأنتهت بتولية عبد الرحمن الناصر ، وقد ضعفت خلال هذه الفترة حكومة قرطبة ، وعجزت عن القيام بأعباء الحكم في الأندلس الموحدة .

طبيعة بلاد الأندلس الجغرافية تجعل الوحدة بين سكانها أمرا صعبا . كما أن هذه البلاد في ظل الحكم الاسلامى ، خدمت شعوبا متعددة ، فسكان الأندلس الاصليين ، انقسموا الى نصارى تعلموا اللغة العربية ، وسموا مستعربين ونصارى أسلموا ، واحتكوا بالعرب والبربر ، ونشأ عن التزاوج بين هذه العناصر جيل جديد ، يسمى المولدين ، أما الوافدون على الأندلس ، فانقسموا الى عرب ، والعرب أنقسموا الى قيسية ويمينية ، وبين هذه العناصر عداء شديد وحروب مستمرة ، والبربر وهم أكثر من العرب بحكم قرب وطنهم الأصلى (المغرب) من الأندلس وبين العرب خلاف مستمر ، ذلك أن العرب أستأثروا بأجود الاراضى ، واستحوذوا على المناصب الرفيعة ، أما البربر فقد ترك لهم العرب الأرض القاحلة المشحيدة البرودة .

هذه العناصر التي يتركبها المجتمع الأندلسي تجعل من الصعب على أمراء قرطبة فرض الوحدة فرضاً ، لذلك كلما قويت الحكومة المركزية ، خضعت هذه العناصر ، وكلما ضعفت رفعت هذه العناصر شعار الاستقلال ، وهذا ما حدث بعد عهد عبد الرحمن الأوسط إذا انقسمت البلاد الى دويلات مستقلة .

ظهرت في الأندلس خلال تلك الفترة دويلات يمنية ، ودويلات مصرية ، ودويلات من المولدين ، وأخرى من المستعربين ، أى أن وحدة البلاد تمزقت الأمر الذى أدى الى خطورة الوضع السياسى فى الأندلس ، وسيؤدى ذلك فى النهاية الى ازدياد نفوذ النصارى فى الشمال ، وانهايار الحكم الاسلامى ودولة المسلمين فى الأندلس .

ومن أبرز هذه الدول ، دولة قامت فى أسيبيليه ، أقامها بنو الحجاج اليمانية من قبيلة لخم ، وحرص أمراؤها على اظهار هيبتهم فى البلاط والتنسبه ببنى أمية فى الترف والفخفة ، ورمعوا من سائر دولتهم ، وسعوا الى تقويتها ، وبسط نفوذها على البلاد المجاورة ، وقويت هذه الدول ، بحسبة خاصة فى عهد ابراهيم بن الحجاج الذى كان له بلاط وخدم وحشم وجيوش منظم ، وأضفى على بلاطه هيئة ورونقا ، بعد أن اجتذب اليه رجال الفن والعلم والشعراء والأدباء ومن أبرز رجال العلم الأديب المؤرخ ابن عبدربه صاحب كتاب العقد الفريد ، واس تقدم الى بلاطه قمر البغدادية وهى أدبية مغنية ، أستقدمها من العراق ، ونشرت ثمنها فى الأندلس ، ومن جميل ألقائها .

(ما فى المغارب من كريم يرتجى الا حليف الجود ابراهيم) (انى حطت لدية منزل نعمة كل المنازل ما عداه ذميم) ، ومن دويلات البربر المستقلة فى ذلك العصر ، دويلة قامت فى الولايات الغربية وجنوب البرتغال ، وكانت أسرة ذى النون البربرية من أقوى الدويلات التى استقلت عن قرطبة ، وقويت فى عهد زعيمها موسى ، وعرف عثه هو وأولاده الشدة والبطش والظلم ، فأغارت هذه الأسرة على بلاد الأندلس ،

ونشروا الخراب والدمار في كل مكان وأعملت السيف في رقاب الإهليين ،
وألقت الذعر والرعب في نفوس الأندلسيين •

على ان أخطر هذه الدويلات ، دوله بنى حفصون التي بلغت سانا
كبيرا في عهد زعيمها عمر بن حفصون — وهو من المولدين — وكان من
أسرة فقيرة وكان يجالس في شبابه ، المولدين الناقمين على الحكم الأموي .
والذين يقاسون في ظل الحكم الأموي انشدائد ، والمتاعب الاقتصادية ،
وعدم مساواتهم بالعرب الحاكمين ، وتحمس تحمسا شديدا لقضية
المولدين ، وجمع حوله شباب المولدين ، ثم استولى على حصن رومانى
قديم لاسم بيشتير في أعلى الجبال الاسبانية الجنوبية ومن هناك أخذ
ييسط نفوذه على البلاد المجاورة حتى أقترب من قرطبة ، ولم يستطع
الأمراء الأمويون الثلاثة محمد بن عبد الرحمن والمنذر بن محمد ،
وعبد الله بن محمد ، القضاء عليه ، لكثرة أنصاره ، وقوة بأسه ، وأستثار
أنصاره ، ووعدهم بأنه يعيد اليهم أموالهم التي أعتصبها العرب ، وظل
ابن حفصون في قوته حتى ارتد عن الاسلام ، ليغري المستعمرين
بالانضمام اليه ، ولكن خطته هذه ، عجلت بنهايته ، وضعف أمره ، فانفض
من حوله المسلمون ، ولم ينضم اليه النصراني وبقوا النقه به ، فلا حصل
مسلموا ولا حصل نصرانيا •

وظل ابن حفصون يحكم في ولايته التي انتزعها من قرطبة حتى وفاته
سنة ٣٠٥ هـ ، وحكم أبناؤه الولاية من بعده حتى قضى عليها الناصر ،
واستولى على القلعة بيشتير •

هكذا كانت الأندلس خلال تلك الفترة التي نحن بصدد الحديث
عنها ، ممزقة الاتسلاء ، ولم يعد لحكومة الأندلس المركزية من النفوذ
والسلطان الا قرطبة العاصمة ، وصارت الاندلس دويلات مستقلة عن
بعضها ، كل ولاية تحارب الأخرى ، وتبسط سلطانها على حساب جاراتها ،
وظل الأمر كذلك حتى ولى عبد الرحمن الناصر الاندلس فأعاد للبلاد
حريتها وندولة الاندلس قوتها وهيبتها •

• إلا أن ركبة التضاراة لم يتأخر على الرغم من التدهور السياسي فظهر ابن عبدربه الذى تحدثنا عنه والفيلسوف ابن ضاعد ، صاحب كتاب طبقات الأمم ، يتكلم فيه المؤلف عن الأمم من حيث عنايتها بالثقافة والعلوم والفنون والآداب ويتكلم عن العلوم فى الأندلس بشئ من التفصيل ، ويوضح كيف ومتى ظهرت فى الأندلس ، ويقول أن أول ظهورها كان فى عهد الأمير محمد ، الذى يميل الى العلوم والفنون والآداب •

• وإذا كانت الحروب والعداوات بين عناصر السكان فى الأندلس ، قد أدت الى تدهور اقتصادى وانحيار اجتماعى إلا أنها على المدى البعيد ، مزجت بين عناصر السكان فى بوتقة واحدة ، وظهرت الشخصية الأندلسية ، تمثل نتيجة المزج بين هذه العناصر ، ولم تعد الأرسطراطية العربية متسلطة على العناصر السكانية فى الأندلس ، وظهرت فى الأندلس لغة مزدوجة العربية والإسبانية القديمة نتيجة لهذا الاختلاط الكبير بين العرب والإسبان •• وكان كبار رجال الدولة العرب يتكلمون مع الإسبان باللغة الإسبانية الى جانب اللغة العربية • ومعنى ذلك أن أهل الأندلس عرب وإسبان ، كانوا يتكلمون اللغتين العربية والإسبانية •

• ونشأ عن انتشار اللغتين بين الأندلسيين ، ظهور فن الموشحات وهو فن شعبي أندلسى •

• ويعتبر هذا الفن الجديد ثورة فى الشعر العربى ، وحركة من حركات التجديد فيه ، وإذا كان المشرق قد أعطى المغرب فن القصيدة الشعرية ، فإن المغرب أى الأندلس أعطى المشرق فن الموشحة التى لا تلتزم بنظام القوافى الموحدة ، كالقصيدة الشعرية وإنما تسير على قوافى متعددة ، ووحدها المقطوعة الشعرية ، وليس البيت الشعرى ، ويدخلها كلمات إسبانية ، أو عامية أندلسية دارجة •

• ولم يلبث هذا الفن الجديد أن أنتشر فى المغرب والمشرق ، وأستخدمه الصوفية فى مدائحهم وأذكارهم والموشحة تطور منها الزجل ، وأثرت فى الشعر الشعبى الأوروبى المعروف باسم الشعر •

والخلاصة أنه ظهرت طبقه جديدة في المجتمع الأندلسي على طبقه المستعربين التي أشرنا إليها من قبل تكلمت اللغتين العربية والاسبانية ، وتأثرت بالعادات والتقاليد والثقافة العربية والحياة العربية ، بل اتخذوا أسماء عربية •

وقد قام هؤلاء المستعربين بدور هام في نقل الحضارة الاسلاميه الى الممالك المسيحية في شمال الأندلس ، وأدت الى نشر الثقافة والتقاليد الاسلامية في تلك الجهات ويظهر ذلك جليا في اللغة الاسبانية ، التي لها أعداد تقدر بالآلاف من الالفاظ العربية •

المملكة النصرانية في الشمال

ترك المسلمون - كما قدمنا - جليقية اهمالا لأمر سكانها المستضعفين الذين لجأوا الى هذه البقعة الجبلية الوعرة المسالك تقهقرا أمام غزوات المسلمين ، ولكن هذا البند نما وترعرع دون أن يشعر المسلمون ، معتصمة ومتحصنة بالجبال الوعرة والمسالك المعلقة ، وقامت جنبا الى جنب مع مملكة المسلمين في أسبانيا .

لجأت الجماعات المهزومة من انقوط والاسبان الى الجبال الشمالية ، وامتدت في مفاوز جبال استورية ، وقامت امارتان نصرانيتان صغيرتان في كانتيريا وجليقية وكانت الامارة الاولى التي أسسها البعض بتروس لوفوعها في الطريق الغربي من جبال البرانس في سهول ناغار ويسكونيه عرضة لهجمات المسلمين في حملاتهم على جنوب فرنسا ولكن امارة جليقيه كانت نعم في أعماق جبال أشتورث الوعرة ، بعيدا ، غزوات الفاتحين ، وفي هذه الهضاب اجتمع بلايو وأحصاره ، ولجأ الى معاور منيعة ، ويسمىها العرب بالصحرة .

وقد تعدد حملات المسلمين على جليقيه ، لما طهر المسلمون موطنهم بتحارب أهلها مع البسكتس في عصر الولاة ، ولكن هذه الحملات كانت نوقع بالنصارى الذعر والرعب دون أن تتمكن من القضاء على جليقية نهائيا لوعورة هذا البلد ، وصعوبة مسالكه .

ولكن انسحاب المسلمين قوي من شان بلايو : وعظم بأسه وأنضم اليه كثير من النصارى في كانتيريا وسهول جليقيه ، ورأوا فيه خير دن وجودهم في مواجهة الخطر الاسلامي : والتحصدي له ، وانتهر الفرصة لندسج رتمة دولته ، فأغار على بعض البلاد الاسلاميه المجاورة ، منفيزا فرصة انشغال المسلمين بحروبهم الأهليه ، وقمع الفتن والدسائس . ومع ذلك فقد نصدي بلايو للحملات التي أرسلها ولاء المسلمين الى بلاده ،

بل هزم هذه الحملات هزائم منكسرة ، عندئذ ازدادت قسوته ، وعظمت هيبته ، وتحول من الهجوم الى الدفاع ، فاخترق بسكونية . وسن عدة غارات على المسلمين .

ولما انشغل المسلمون بغزواتهم في جنوب مرنسا ، وكفوا عن مهاجمة جليقية ، تعددت غارات أهل جليقية على البلاد الاسلامية في شمال نهر دويده ، وفي منطقته استرقة ولم يستطع عقبه بن الحجاج في حملته على جليقية الانتصار عليهم ، لاعتصامهم في الجبال والمعقل .

ولما كثرت الفتن الداخلية في الاندلس في عصر الولاة ازدادت فوه أهل جليقية ، وكثرت غاراتهم على الاراضي الاسلامية ، وكانت مقاومة قرطبة من الضعف بحيث لم تستطع قهر هؤلاء المغيرين . لذلك قويت هذه الامارة النصرانية ، ورأى فيها نصارى اسبانيا الحصن الحصين والملاذ المنيع الذي يحيد اليهم بلادهم التي استولى عليها المسلمون ، فلجأ النصارى من أنحاء الاندلس الى بلايو يقدمون له العون والتأييد^(۱) .

لما توفي بلايو سنة ۷۳۷ م على الأرجح ، خلفه ابنه فافبلا ، ولكنه لم يلبث أن توفي سنة ۷۳۹ م ، فخلفه ابنه الفونسو — دوق كانتبريا ، واتحدت الامارتان في مملكة واحدة ، هي مملكة ليون النصرانية أو مملكة جليقية ، وتمتد من بلاد البندكنس شرقا الى ساطي ، المحيط غربا ، ومن خليج بسكونيه شمالا الى نهر دويده جنوبا^(۲) .

ويعتبر الفونسو الاول المؤسس الحقيقي لمملكة قشتالة الذين خاضوا معارك متعددة عبر القرون انتصرت باستردادهم اسبانيا من المسلمين بسقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين سنة ۱۴۹ م

وأنت الفرص لالفونسو الاول لتوسيع رقعة دولته ، فقد اسندت

-- (۱) اثنان : دولة الاسلام في الاندلس ۲۱۶ .

. (۲) نفس المصدر ۲۱۴ .

الفتن الداخلية في الأندلس ، وكان من نتيجتها خراب الاراضى المجاورة لجلبقية في شمال غرب الأندلس ، وفي سنة ١٣٣ هـ - ٧٥٠ م حدث في البلاد قحط شديد ، حتى هجر الكثير من سكان شمال غرب الأندلس من المسلمين بلادهم لذلك شن الفونسو غارات على هذه البلاد ، واستولى عليها في غفلة المسلمين ، وفي صراعاتهم المريرة مع بعضهم البعض ، واستولى الفونسو على استرقة وعلى كثير من البلاد والضياح المجاورة وضمها الى حوزته ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م . وبذلك اتسعت رقعة المملكة النصرانية ، وأصبح في أماكنها التصدى للمسلمين بل وضم المزيد من أراضهم الى مملكتهم الناشئة .

وعهد الفونسو بامارة كانتيريا - وهي القسم الشرقى من مملكته - الى أخيه فرويلا ، فتشدد هجماته على أراضى المسلمين منتهزا الحرب الأهلية في الأندلس في عهد واليها يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، وغزا الفونسو مدينة لك الحصينة ، واستولى عليها ، وهي أقصى معاقل المسلمين في الشمال الغربى ، ١٣٧ هـ / ٧٥٤ م ، وعبر الفونسو نهر دويره أكثر من مرة ، وعاث في أراضى المسلمين فسادا وتخريبا ، وظل يحارب مع أخيه فرويلا المسلمين ويوسع ملكه على حسابهم حتى توفى فرويلا سنة ١٤٦ هـ / ٧٦٤ م ولم يلبث أن لحق به أخوه الفونسو الاول سنة ٧٦٥ م ، فخلفه ابنه فرويلا الاول .

عاصر فرويلا الاول ، عبد الرحمن الداخل ، وكان هذا الامبر الاموى مشغولا بالثورات التى قامت ضده في الأندلس ، فانتهاز فرويلا الفرصة فغزا لك وبرتقال وشلمنقه وسفوييه وآبله وسحوره وقشتاله ، واستولى عليها وانتزعها من المسلمين ، واتساع الخراب والدمار في البلاد المجاورة ، وضمها الى ملكه . وبذلك قويت المملكة النصرانية ، وأصبحت تسلك خطرا جسيما على ملك المسلمين في الأندلس .

تتبعه عبد الرحمن الداخل الى الخطير الجسيم لهدده المملكة النصرانية . فشن عليها عدة غارات ، منها حملة بقيادة مولاة بدر أغاربت

عنى آلبه والقلاع وتقع بين بلاد البشكنس وجبال كانتيريا ، وأرغمها على أداء الجزية^(١) ولكن هزم النصارى المسلمين فى غزوات شنوها عليهم وقتلوا منهم الكثير .

وكان فرويلا شديد البطش فنار ضده رعاياه ، ولكنه كان يخمد الثورات بشدة وعنف ، وحدث انقسام فى المملكة النصرانية بعد وفاة فرويلا ، انتهت بعودة الوحدة إليها وحكم سيلو جليقية المتصدده ثلاث سنين وتوفى سنة ٧٨٤ م

انقسمت المملكة بعد موت شيلون وفى بداية عهد خليفته مورقاط (٧٨٣ — ٧٨٩ م) الذى حكم جليقية ، بينما الفونسو المطالب بالعرس تمركز فى الجزء الشرقى من الدولة فى نبره ، وهناك ، واستعان بالفرنجة ، فاستعان مورقاط ضده بالمسلمين الذى يشعر بالقرب منهم ، لأن أمه جارية عربية .

استطاع الفونسو ولد فرويلا أن يسترد عرش أبيه بعد وفاة مورقاط ، ولكن حيث انقسام فى البيت الحاكم انتهى بتولية برمند (٧٨٩ — ٧٩١ م) ومن بعده الفونسو الثانى (٧٩١ — ٨٤٢ م) . وكانت الدولتان المسلمة والنصرانية فى عهد هشام بن عبد الرحمن مشغولتين عن الصراع بينهما بالفتن والثورات داخلها .

انقسمت المملكة النصرانية بين برمند الذى استقل بالجزء الغربى من المملكة بتأييد الأشراف ، واستقل الفونسو بالجزء الشرقى ، لكهما تصالحا واتحدا فى وجه العدو المشترك ، وهو هشام بن عبد الرحمن الذى أعلن الجهاد ضد النصارى . ولم يلبث أن توفى برمند ، وتولى الفونسو حكم مملكة النصارى كلها : وبذلك عادت الى المملكة النصرانية وحدتها .

كان الفونسو يلقب بالعفيف ، وكان ملكا قويا تولى الملك سنة ٧٩١م ، فأعاد الهدوء والسكينة الى البلاد ، وأصلح أحوالها وادارتها ، وحصن

(١) عنان : دولة الاسلام فى الاندلس ط ١ ص ٢١١ — ٢١٢ .

ثغورها وقواعدها ، واتخذ أوبيدو Oviedo عاصمة له وكانت مملكة جليقية تمتد من ولاية بسكوية شرقا الى المحيط غربا ، ومن خليج بسكويته شمالا حتى نهر دويره جنوبا ، واستقلت عنها نافار وبلاد البشكتس ، وقامت بها مملكة نصرانية .

طال حكم الفونسو الثانى حتى تجاوز النصف قرن ، عاصر خلالها هشام بن عبد الرحمن ، والحكم بن هشام ، وحفيده عبد الرحمن ، وفي خلال هذه الفترة ، نتسبت بين الفريقين حروب متعددة ، ومن أهم هذه الاشتباكات التى هزم فيها النصارى شر هزيمة ، موقعة الصخرة فى أقصى بلدان ومواقع جليقية سنة ٧٩٥ م / ١٧٩ م . وفى عهد الحكم بن هشام تجاوز الفونسو نهر دويره سنة ٨١٠ م / ١٩٣ هـ ، وهاجم الاراضى الاسلامية ، وتوغل فيها حتى قلمريه وأشبونه ، وعاث فى بلاد المسلمين فسادا فرد عليه الحكم بغزوة فى جليقيه ، ضرب فيها المواضع التى اجتازها .

ولما غزا الفونسو الثغر الأعلى فى عهد عبد الرحمن الأوسط أرسل هذا الامير حملة بقيادة الحاجب عبد الكريم بن مغيث فى سنة ٨٢٣ م / ٢٠٨ م ، فغزت ألبه والقلاع ، وأغارت على مدينة سالم ، ونكل المسلمون بالنصارى ، وخربوا بعض أراضى جليقية ، ودمروا مدينة ليون ، وأجبروا النصارى على صلح مهين .

ولما توفى الفونسو الثانى سنة ٨٤٢ م خلفه ابنه راميرو ، وقد شغل راميرو منذ توليه الحكم بقمع الثورات التى قامت ضده خصوصا ثورات الاشراف ، كذلك شغل عبد الرحمن الأوسط بصد انورمان ، ودرء خطرهم عن المملكة الاسلامية ، ولما انتهى عبد الرحمن الاوسط باصلاح التخريب الذى ألحقه النورمان ببلادهم ، انصرف الى غزو النصارى والجهاد فى سبيل الله ، فسير ولده محمد فى سنة ٨٤٨ م الى جليقية ، فاخترق بساطها ، وحاصر مدينة ليون ، وأحدث الخراب والدمار فى هذه البلاد ، وتوفى راميرو سنة ٨٥٠ م بعد حكم دام ثمانية أعوام .

ترجع أورد رينو على عرش أبيه ، وحرص في بداية عهده على تحصين بلاده من أخطار وهجمات المسلمين وأصلح القلاع والحصون ، وساعد بعض الثوار ضد حكومة قرطبة في بداية عهد الامير محمد بن عبد الرحمن ، ولكن المسلمين أحبطوا محاولته ، وقضوا على الثورة •

ولما اشتدت الفتن في الدولة الاموية في الاندلس ، انتهز أوردرينو انفرصة ، وغزا مدينة قورية ، ثم غزا شلمنقه وهزم المسلمين ، وعاث فسادا وتخريبا في ديارهم ، فسير الأمير الاموي محمد جيشا الى الشمال بقيادة ولده المنذر ، فسيطر على ألبه والقلاع ، وألحق عدة هزائم بالنصارى ، وهزم المسلمون النصارى عدة هزائم واعتزم الامير محمد القضاء نهائيا على مملكة جليقية فسير السفن الى المياه الغربية لتغزوها من البحر ، ولكن الاسطول لم يستطع تحقيق هدفه بسبب الأحوال الجوية •

وفي سنة ٨٦٦ م توفى الفونسو الثانى ، وخلفه ولده الفونسو الثالث • وقد نشبت ضده عدة ثورات في بداية حكمه ، ولكنه أخمدها ، وظل يحكم البلاد قرابة أربعة وأربعين عاما ، اتحدت البلاد في عهده ، وقويت المملكة ، واستطاع خلال حكمه الطويل ان يوصل حدود مملكته الى جبال البرانس شرقا ، وعبر نهر دويره كثيرا الى أراضى المسلمين ، ووصل في غزواته الى ضفاف انتاجه ، وغزا عددا من المدن الاسلامية المتاخمة مثل مارده وقلمريه وبازو وقوريه وشلمنقه وبذلك أصبح في مركز قوى يستطيع به مواجهة المسلمين ومنعهم عن بلاده ، وهزم المسلمين في سموره بعد أن حاولوا مهاجمة ليون واسترقه ، وبلغت غزواته في بلاد المسلمين مارده ووادى آته •

كان امراء البيت الحاكم يعارضون حكم الفونسو ، ودبروا عدة

مؤامرات للتخلص منه ، وقبض على المتآمرين ، ومن بينهم ابنه غرسية ، ودبرت مؤامرة أخرى ضده قادها زوجها خمينا ، واشترك فيها أولاده ، وسيطروا على بعض بلدان المملكة • وخشى الفونسو من مغبة هذا الانقسام ، فتنازل عن العرش لولده الأكبر مرسية ، ولم يلبث أن توفى •

سميت مملكة جليقية بعد وفاة الفونسو مملكة ليون ، وانتقلت عاصمة الدولة من أوبيدو الى ليون المجاورة لأن نافار كانت تخشى من مطامع ليون في أراضيها ، وقد حارب غرسية انيجيز أردونيو ملك ليون الى جانب صهره موسى بن موسى في موقعة البلدة وقتل سنة ٨٦٢ م

وخلف غرسية ولده فرتون ، ثم خلفه ابنه سانتشو غرسية ، وهو أول من تلقب في نافار بلقب ملك وبه تبدأ مملكة نافار الحقيقية • وقد حكم سانتشو حتى سنة ٩٢٦ م ، وخاض ضد الامير عبد الله عدة حروب ووقائع ، ومع الامارات المجاورة كذلك •

ظهرت نبره على المسرح السياسى منذ بداية القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى ، وكانت قبل ذلك تسير في فلك ملوك جليقية أو مملكة الفرنجة ، واشتركت مع جليقية في الهجوم على منطقة الثغر الأعلى عام ٢٠٠ هـ - ٨٤٥ م ، فخرج اليهم الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن منيث في عدة معارك •

كانت مملكة نبره تقوم في غربى البرانس في بلاد البشكنس الجبلية وتسمى نافار ، وكانت بلاد البشكنس أو نافار منذ الفتح الاسلامى مسرحا للعمليات الحربية بين المسلمين والفرنجة وقد حاول أمراء جليقية غزوها غير مرة ، وضمها الى المملكة النصرانية ، ولما انصرف عنها الجلائقة بصراعاتهم الداخلية ، وبعدت غزوات المسلمين ، هاجمها المسلمون مراراً •

وقد استقل بها أحد الزعماء والقادة سنة ٧٩٩ م ويدعى أزوار ،

وأعلن نفسه أميراً على البلاد ، ولما توفي سنة ٨٣٦ م خلفه أخوه
سانشو ، ولكن أحد الزعماء البشكنس عزله ، وولى مكانه ، ويسمى
انيجيز أريستا ، وفي عهده اتخذت نافار شكلاً للملكة المستقلة ، وتعاقب
الملوك على الحكم في هذه الملكة .

وقد تحسنت العلاقات بين مملكة نافار النصرانية والمملكة
الإسلامية المجاورة وتسمى إمارة بني قسي ، وأرتبطت الدولتان
الحليفتان بعلاقة المصاهرة ، وقد رأى غرسيه انيجيز أن يتألف مع عمر
ابن حفصون الثائر ضد الحكم الأموي في الأندلس .

المغرب الاسلامى فى القرنين الثانى والثالث للهجرة

١ - المغرب من سقوط الدولة الأموية حتى قيام دولة الأغالبة :

سقطت الدولة الأموية فى سنة ١٣٢ هـ فأعلن عبد الرحمن بن حبيب دخوله فى طاعة أبى العباس ، فلما توفى أبى العباس فى سنة ١٣٦ وبويح أبو جعفر المنصور بالخلافة ، أقر ابن حبيب على ولاية أفريقية وأرسل اليه خلعة سوداء ، وهو أول سواد دخل أفريقية ، ثم كتب الى عبد الرحمن بن حبيب يدعوه الى الطاعة ، فأجابه ودعا له ، ولكنه أرسل اليه رسالة أوضح له فيها سوء الاحوال الاقتصادية فى أفريقية ويطلب منه ألا يطالبه بمال ، فغضب المنصور وكتب اليه يتوعده وعندئذ أعلن ابن حبيب خروجه عن طاعته وأحرق خلع المنصور ، ثم تعرض عبد الرحمن بن حبيب لمؤامرة دبرها أخوه الياس ، اذ دخل عليه وهو مريض وطعنه بسكين فى صدره وقتله فى سنة ١٣٧ هـ ، وتولى الامارة مكانه بينما فر حبيب بن عبد الرحمن الى عمه واتفق مع عمه عمران على محاربة عمه الياس قاتل عبد الرحمن ، فأعد جيشا لذلك الغرض ، ولكن الياس بادر ابن اخيه بالهجوم ، واشتبك الفريقان فى قتال يسير انتهى فى سنة ١٣٨ بالصلح على أن تكون أفريقية كلها لالياس وتكون قفصة وقسطنطينية ونقطة لحبيب وتونس لعمران ، ولكن الياس كان يظمر السوء بأخيه عمران ، اذ كان يخشى منه على امارة افريقية ، فعمل على التخلص منه أولا ، ثم يتفرغ بعد ذلك للتخلص من حبيب ، فلما رحل حبيب الى مقر ولايته ، غدر الياس بعمران فقتله وقتل أنصاره من أشرف العرب وأسترجع تونس وعاد الى حاضرتة القيروان وقد اطمأنت نفسه ظنا منه أنه أصبح سيد الموقف ، وبعث بطاعته لأبى جعفر المنصور ، لتطهيرها من دنس ورفجومة وتحسير أهل القيروان من طغيانها ، فتصدى له الصفريه بقيادة عبد الملك الورفجومي فى صفر سنة ١٤١ هـ ودارت

الدائرة على عبد الملك وأنهزمت جموعه وسقط صريحا ، وتمكن عبد الاعلى من دخول القيروان . ثم ترك عليها زميله عبد الرحمن بن رستم الفارسي أحد كبار علماء الاباضية وعاد الى طرابلس استعدادا لملاقاة القوات العباسية التي سيرها أبو جعفر المنصور لمقاتلته .

أما المغرب الأقصى فقد اضطرب أمره بعد انهزام الصفرية في موقعتي القرن والاصنام على يدي حنظلة بن صفوان ، وتفرقوا في نواحي المغرب الاقصى وأنضم معظمهم الى عسكر برغراطة بزعامة طريف بن ثسمعون وكان هرطقيا ادعى أنه أنزل عليه قرآن الصفرية . كذلك أنضم فريق آخر من الصفرية الى أبي القاسم سمغون بن واسول المكتاسي في الموضع الذي أسست فيه سجلماسة ، وأبو القاسم هذا هو جد بني مدرار أصحاب سجلماسة .

وكان أبو جعفر قد بلغه ما ارتكبه قبيلة ورفجومة في القيروان من المحرمات والفظائع فولى على مصر وأفريقية محمد بن الاشعث الخزاعي ، وسير من مصر جيشا عباسيا يقوده أبو الأحوص العجلي لاسترجاع أفريقية . فاشتبك العباسيون مع جيش عبد الاعلى في سرت في سنة ١٤٢ فانهم هزم العباسيون . فعزل المنصور محمد ابن الاشعث عن ولاية مصر وولاه قيادة الجيوش في المغرب . فخرج ابن الاشعث على رأس جيش كبير عدته خمسون ألف مقاتل ، وكان في جملة عسكره عدد من كبار القادة العباسيين منهم الاغلب بن سالم والمحارب بن هلال وفاجأ ابن الاشعث قوات عبد الاعلى على غير استعداد للحرب فوضع العباسيون السيوف في الخوارج وأسفرت الموقعة عن مصرع عبد الاعلى ومعظم أتباعه في سنة ١٤٤ وكان عبد الرحمن بن رستم قد تأهب لنجدة أبي الخطاب فلما وصل الى قابس بلغه ما انتهى اليه مصرير أبي الخطاب ، فحمل ولده وخرج من القيروان ولحق باباضية المغرب الاوسط ، فالتقوا حوله وبابيعوه بالامامة ، فأسس مدينة تاهرت في سنة ١٤٤ هـ وأستقر بها في سنة ١٤٥ مؤسساً دولة بني رستم أول الدولة الرستمية .

أما ابن الأشعث فقد دخل القيروان في أول جمادى الأولى سنة ١٤٥ ، وأذعن له أهل أفريقية بالطاعة وأكتفى ببسط نفوذه على أفريقية إذ كان العباسيون يحرصون على الاحتفاظ بها لتكون سدا منيعا أمام حركات الخوارج وتتابع على ولاية أفريقية من قبل ولكن ذلك لم يمنع حبيبا من اعداد العدة للاستيلاء على القيروان ، والتف حوله موالى أبيه وأنصاره ثم زحف الى القيروان وأستولى على الاريس فخرج اليه عمه الياس لمقاتلته وأشتبك معه اشتباكا خفيفا ، فلما جن الليل وتوقف القتال أوقد حبيب النار في معسكره وأوهم عمه في المعسكر المقابل أنه مقيم في معسكره ثم أسرى وأسرع بدخول القيروان فأستولى عليها ، وأخرج من السجن من كان محبوسا ، فكثرت جموعه ، فلما عاد الياس اليه تصدى له حبيب ثم نازله فقتله . فهرب أخوه الياس بعد قتله الى قبيلة ورفجومة وكانوا من غلاة الخوارج الصفرية ونزلوا في كنف أميرها عاصم بن جميل . فكتب اليه حبيب يأمره برد أعمامه ولكن عاصم امتنع عن اجابته ، فزحف اليه حبيب وأصطدم معه في موقعة انتهت بهزيمته ، فقوى أمر ورفجومة وتقدموا نحو القيروان وسحقوا من تصدى لهم من أهلها ثم دخلوها في ذي الحجة ١٣٨ هـ فأستحلوا المحارم وأرتكبوا الكبائر . ثم ترك عاصم نائبا عنه في القيروان يسمى عبد الملك بن أبي الجعد وسار لمقاتلة حبيب في قابس فأنهزم حبيب وأحتمى ببربر جبل أوراس ، فطارده عاصم وأشتبك معه من جديد في قتال عنيف أسفر عن هزيمة عاصم ومقتله . وعندئذ تقدم حبيب الى القيروان وحاول اقتحامها ، فهزمه عبد الملك وقتله في المحرم سنة ١٤٠ هـ . وبمقتل حبيب تمت سيادة البربر الخوارج على أفريقية والمغرب وفقد العرب كل سلطان لهم في هذه البلاد وأنقرضت بذلك دولة بني حبيب الفهري .

وفي هذه الاثناء انتهز الخوارج الاباضية بنواحي طرابلس هذه الفرصة وبايعوا أبا الخطاب عبد الاعلى بن السمع المعافري اماما عليهم

في طرابلس سنة ١٤٠ هـ من خليج سرت الى قابس ، وانضم اليه معظم سكان المغرب الأوسط المتشبعين بتعاليم الخوارج الاباضية وبايعوه أيضا بالامامة . أما افريقية فقد ظلت خاضعة لقبيلة ورفجومة الصفرية المتطرفة وكان أميرهم المقتول عاصم قد ادعى النبوة والكهانة ولذلك قاست ورفجومة من الفساد والظلم والاستهتار بالدين بحيث استحلوا المحرمات واستهانوا بالمساجد وارتكبوا كثيرا من الفظائع في القيروان . وذكروا ان رجلا اباضيا شاهد في القيروان قوما من ورفجومة أخذوا امرأة قهرا والناس ينظرون فأدخلوها الجامع ، فغضب الاباضى وقصد أبا الخطاب في طرابلس فأعلمه بذلك ، فخرج أبو الخطاب وهو يقول : « بينك اللهم بينك » فاجتمع اليه حشد كبير من الاباضية في طرابلس الغرب وزحف بجموعة نحو القيروان وانتزعاها من العباسيين بعد أن خلع ابن الاتسعت عن ولايتها في سنة ١٤٨ ووليها عدد من الولاة هم : الأغب بن سالم التميمي (١٤٨—١٥٠) الذي استشهد في تونس ، وعمر بن حفص الذي قتله الصفرية في ١٥٤ ، ويزيد بن حاتم الذي توفى سنة ١٧٠ وأخوه روح بن حاتم حتى وفاته سنة ١٧٤ ثم الفضل بن روح الذي قتل في سنة ١٧٨ ، ثم هرثمة ابن أعين (١٧٨—١٨١) ثم محمد بن مقاتل العكى (١٨١—١٨٤) الى أن تولى ابراهيم ابن الأغب على امارة افريقية واستقل بامارته استقلالا جزئيا عن الخلافة العباسية في سنة ١٨٤ هـ .

وبولايه ابراهيم بن الاغب يبدأ عهد جديد في تاريخ افريقية والمغرب .

٢ — دولة الاغالبة في المغرب الادنى (١٨٤—٢٩٦) :

شهد المغرب الاسلامى منذ أواخر القرن الثانى الهجرى قيام دويلات مستقلة في سائر أجزائه : ففي المغرب الادنى (أفريقية) قامت دولة الاغالبة ومركزها القيروان ، وفي المغرب الاوسط (الجزائر) قامت

دولة الرستمين ومركزها تاهرت ، وفي المغرب الاقصى قامت أربع دويلات صغيرة هي دولة الأدارسة الحسينيين (نسبة الى أدريس بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب) في فاس ودولة بني المذرار في سجلماسة ودولة بني صالح في نكور ودولة بني صالح بن طريف البرغراطي في شالة وتامسنا • ودولة الاغالبة هي أهم هذه الدويلات جميعا ، والاغالبة أسرة مستتيرة حكمت أفريقية طوال القرن الثالث الهجري ، أسسها ابراهيم بن الاغلب بن سالم التميمي الذي ثبته الرشيد في ولاية افريقية في سنة ١٨٤ هـ ، وهي أسرة عربية راقية عملت على نشر بذور الحضارة الاسلامية في البلاد التي خضعت لنفوذها أي في أفريقية وصقلية وأقام امراؤها المدن والقصور وشيدوا المساجد والحصون وشجعوا الآداب والعلوم والفنون •

وأول أمراء هذه الدولة ابراهيم بن الاغلب (١٨٤—١٩٦ هـ) وكان من أفضل ولاة أفريقية ، فقد كان يجمع الى علمه وتفقهه في الدين وأدبه حسن الرأي والنجده والبأس والحزم والقيادة ، ولم يل أفريقية أحسن سيرة ولا سياسة ولا أسفق على رغبة ولا أوفى بعهد منه •

وأخذ ابراهيم مدينة القيروان عاصمة لولايته ، وأخذ يعمل منذ استقلاله عن الخلافة العباسية على تكوين قوة بحرية هائلة مكنت أعقابيه من بعده من غزو جزيرة صقلية وافتتاحها منذ سنة ٢١٢ هـ وغزو مالطة وسواحل ايطاليا الجنوبية الغربية • ولقد أهتم ابراهيم بن الأغلب بالعمران اهتماما خاصة ، فشرع في سنة ١٨٥ في بناء مدينة القصر القديم التي تقع أطلالها على بعد ثلاثة أميال جنوبي القيروان وسماها العباسية تعبيرا عن ولاءه للعباسيين • ولم يخل عهد ابن الاغلب من الثورات والفتن ولكنها كانت لا تقاس بالثورات التي كانت تضطرم في أفريقية في العهود السابقة •

وأعظم انجاز قام به الاغالبة هو فتح صقلية في عهد دولة زيادة الله ابن ابراهيم (٢٠١ — ٢٢٣) أعظم أمراء بنى الاغلب وأفضلهم على الاطلاق ولم تنعم البلاد التونسية في عهودهم كما نعمت في عهده ، وكان رجل بناء وتشبيد فقد ترك لنا آثارا كثيرة بالقيروان والعباسية وتونس وسوسة ، وكان يجمع الى جانب حبه للفنون والعمارة والآداب مقدره وكفاية حربية ، فقد تمكن من اخماد الثورات التي اشتعلت بمجرد تولية الامارة وعكف على الاصلاح والبناء والتشييد ، وتشهد بذلك آثاره في سوسة والقيروان وتونس من مساجد وقناطر وأربطة وخزانات • ومن مآثر زيادة الله غنايته بالاسطول الاسلامي وقيامه بغزو بعض الجزر القريبة من تونس • ففي سنة ٢٠٦ بعث أسطوله الى جزيرة سردانية فغزاها ، وغنم منها غنائم كثيرة وأهم الغزوات البحرية التي تمت في عهده فتح جزيرة صقلية • وترجع أسباب فتح صقلية الى العوامل الآتية :

١ — القضاء على غارات الروم وعودة الى سياسة الجهاد البحري التي جرى عليها ولاية بنى أمية •

٢ — كانت صقلية بالنسبة للمسلمين بلادا غنية في الوقت الذي أقتفرت بلاد المغرب من الخيرات وكانت صقلية لذلك تمثل أراضى جديدة يمكن استغلالها •

٣ — هناك عامل ديني هو الجهاد في سبيل الله ، ولا ننسى أن أهل أفريقية كانوا قد تفهموا الدين وأصبح منهم العلماء والفقهاء ، وساعدت الرباطات على تكوين طبقة من الصالحين الذين كرسوا حياتهم للجهاد ضد الروم •

ومن أسباب الفتح العربي لصقلية سبب مباشر يتلخص في ان رجلا يسمى فيمى عارض حكم قسطنطين — بطريق صقلية وأعلن الثورة ، وشق عصا الطاعة ، ذلك لان حكومة بيزنطة كانت تشك في نوايا فيمى الانفصالية ، وحرصت بطريق صقلية على التتكيل بفيمى • وأعلن فيمى الثورة في سرقوسة ، ولكنه فشل ، فأعترم التخلص من البطريق ومن حكم بيزنطة ، فاستجد بالعرب •

اذن نوايا فيمى الاستقلالية والانفصالية كانت من أسباب استعانتة بالعرب لتخليصه من بطريق صقلية • وتضيف الروايات التاريخية عاملا آخر ، وهو أن فيمى احب اومونيزا الجميلة ، ولكن صاحب صقلية ، اغتصبها منه ، فأعلن الثورة ، واستجد ببنى الاعلب • وهذه الرواية قد تبدو ضعيفة • ولكننا نستطيع أن نقول بان هذا القائد فيمى كان طامعا في الملك وفي حكم صقلية • وكانت جزيرة صقلية قد تعرضت من قبل لغارات عربية ، فنبهت الروم الى هذا الخطر الداهم ، واتخذوا من صقلية قاعدة لحماية الامبراطورية عند حدودها الجنوبية ، فحصنوها بالقلاع ، ولم يتركوا جبلا الا وبنوا عليه حصنا ومن وقت لآخر كانت تخرج دوريات عسكرية تطوف بالجزيرة لمراقبة ، ما قد يشنه العرب من حملات على سواحل الجزيرة •

كانت بين أفريقية وصقلية هدنة ، ولكن استجد فيمى بأمر أفريقية — زيادة الله — شجع هذا الأمير على نقضها ، ورآى انه آن الاوان ، وتهيأت الفرص لتحقيق حلم بيته المنشود في فتح صقلية ، وضم أراض جديدة الى دولة الاسلام ، الامر الذى يكسبه تأييدا ومكانة ومهابة في نظر المسلمين عامة والعباسيين خاصة ، كما انه آن الاوان لتأمين حدود بلاده من غزو بيزنطى عن طريق صقلية •

ومهما يكن من أمر جمع زيادة الله كبار رجال أهل القيروان والفقهاء والقضاة ، ومن بينهم اسد بن الفرات ، واستفتاهم في أمر الهدنة ، وتقرير مصير صقلية ، هل يبقيا تابعة للدولة البيزنطية ، أم يضمها الى

الدولة العباسية ودنيا الاسلام ، وانقسم المجتمعون قسمين ، فريق يرى ضرورة الجهاد ، وغزو أراضى صقلية ، وفريق يرى التريث وعدم نقض الهدنة ، ولا يوافق الفريق الأول في نقض الهدنة ، ولكن في النهاية تغلب رأى أسد بن الفرات بنقض الهدنة ، وقال لهم :
ولا تهنوا وتدعو الى السلم وأنتم الاعلون •

وأنتصر رأى اسد حينما تأكد للامير زيادة الله وجود اسرى مسنمين في جزيرة صقلية ، فلا بد من فداء اسرى المسلمين ، والجهاد فريضة على المسلم • وأسند زيادة الله لاسد بن الفرات بقيادة جيش لغزو جزيرة صقلية ، وأقبح الاسطول الاغلبى الاسلامى من مدينة سوسة في منتصف ربيع الاول سنة ٢١٢ هـ في نحو مائة مركب ، وانضم الى هذا الاسطول
مراكب فيمى •

وتعرض المسلمون لخطر داهم ومشقات وأهوال ، فأنتشر بينهم الوباء وأهلكهم الجوع ، فمات الكثير من جند المسلمين ، وكل ذلك وزيادة الله في انشغال عنهم بفتن داخلية ، ومتاعب خارجية ، ولما انتهى من مشاكله ، أرسل نجدة للمسلمين مكنتهم من فتح بلرم — عاصمة صقلية — وكان فتح بلرم خطوة كبيرة وهامة في فتح باقى بلدان صقلية ، ذلك ان بلرم تقع على البحر ، ومن خلال البحر يستطيع المسلمون تلقى الامدادات من أفريقية ، كما أن بلرم صارت قاعدة عسكرية للمسلمين ، يتخذها المسلمون لشن الغارات على باقى بلدان صقلية وفتح مدنها وقراها ، بدلا من القلاع التى كانوا يعسكرون فيها من قبل ، ثم ان المنطقة حول بلرم خصبة ، ويكفيها ان ترود عساكرهم بما يحتاجون اليه من مسيرة وعلوفه ، ومن بلرم كانت السرايا تخرج كل يوم فتشن الغارات في انحاء الجزيرة ، وتعود محملة بالغنائم والاسلاب وخاصة الرقيق • وأدت هذه الغارات المتكررة في أنحاء الجزيرة ، الى ضعف المقاومة الوطنية فأستسلموا للمسلمين ، وطلبوا منهم الامان ، ودخلوا في طاعتهم •

واجه المسلمون مقاومة عنيدة ومريرة من بطريق صقلية من ناحية ،
وجيوش الدولة البيزنطية من ناحية أخرى وكانت أقوى مراكز المقاومة ،
وأكثرها ثباتا قصريانة وسرقوسة وطبرمين ومنطقة دمنش •

واجه المسلمون كل هذه الاخطار ، وحاولوا جاهدين اضعاف
مراكز المقاومة ، واستولى المسلمون على مسينة فأُنفِثَ أمامهم الطريق
الى جنوب ايطاليا ، وقد صرفتهم هذه الجهود نحو جنوب ايطاليا
عن تثبيت أقدامهم في صقلية ، وعن اتمام فتحها ، وأتاحت لادن صقلية
فرصة لاسترداد قوتها ، وتقوية وسائل الدفاع عن استقلالها ، واعداد
العدة لشن الهجوم على المسلمين ، ورغم ذلك ظلت السرايا الاسلامية
تشن هجماتها صيفا وشتاء ، ونتيجة لاصرار المسلمين على مواصلة
الفتح ، سقطت قصريانة بيد العرب ، ذلك ان العباس بن الفضل حاصرها
ثلاثة أشهر متوالية ، قاسى خلالها أهل المدينة الجوع والعطش
والحرمان ، وفي فصل الشتاء غطى الدلج البقاع ، وأعتقد أهل قصريانة
انهم آمنون من هجمات المسلمين ، وجعلهم البرد غير مستعدين للقاء العدو ،
ولكن أحد البيزنطيين أتصل بالعباس ، ووعدته بتيسير مهمة المسلمين في
فتح قصريانة ، فأمدده العباس ببعض فرسانه وقاد الرومى الفرسان الى
مدخل المدينة ، ودخل المسلمون قصريانة ، وشيد العباس بها مسجدا ،
واسر من فيها من بنات البطارقة ، وغنموا منها مغانم كثيرة • وبسقوط
قصريانة أصبح المسلمون أكبر قوة في صقلية يعمل لها كل حساب • ويات
واضحا أن الحكم البيزنطى بصقلية على وشك الزوال • لذلك أرسلت
بيزنطة الأساطيل لطرده المسلمين ولكن المسلمين قهروا كل مقاومة
بيزنطية •

وحصن المسلمون قصريانة ، حتى يتحصن المسلمون فيها من
العدو ، وأتخذ الروم من سرقوسة مركزا للمقاومة وشنن الهجمات على
المسلمين ، وكان القسم الشرقى من صقلية لا يزال مستقلا عن العرب ،
ولما كان هذا القسم أقرب الى القسطنطينية ، فقد أتخذة أهل صقلية

مركزا للمقاومة ، مستعينا بالامدادات البيزنطية ، وعادت القلاع التي استسلمت للمسلمين الى الثورة من جديد سنة ٢٤٦ هـ ومات القائد المسلم العباس بن الفضل في ساحة القتال ولكن ظل المسلمون يسنون الغارات على سرقوسة وغيرها ، وكادت طيرمين تسقط في أيديهم .

ولى جعفر بن محمد أمر صقلية ، وظل يقاوم الاخطار التي واجهته في صقلية ، ويعمل على اتمام فتح البلاد ، وظلت سرقوسة تقاوم منذ أيام أسد بن الفرات حوالى نصف قرن ، وصمدت في مواجهة هجمات المسلمين القوية ، ولكن اهلها ضعفوا ووهنوا في عهد جعفر ، حينما استولى على بعض أرباض المدينة ، ودمر المسلمون مراكب الروم التي جاءت لنجدة سرقوسة ، وحاصر المسلمون البلدة تسعة أشهر قاسى فيها الأهليون البؤس والجوع والحرمان واعد المسلمون معدات كثيرة لحصار البلدة ، وضعف الأهليون بسبب نفاذ المؤن والمعدات ، واضطرب أهل البلدة وعم فيها الاضطراب بسبب البحث عن القوات ، ونهب الناس بعضهم بعضا ، وضعف أهلها ووهنوا ، وكان جيش صقلية ضعيفا ، اختلطت فيه جنود من جنسيات تسمى • بينما يسود الجيش المسلم النظام والطاعة لاوامر قائدهم الاعلى • وخربت المدينة ، وتمكن المسلمون من أسر الكثير من أهل البلدة ، والحصول على الغنائم ، ونقل العرب غنائمهم واسراهم الى بلرم ، وثارت في نفوس هؤلاء الاسرى عواطف الوطنية ، وتطلعوا الى مقاومة العرب •

ويحدثنا صاحب كتاب العرب في صقلية بأن ثيود وسيوس نقل مع الاساقفة ورئيسهم صوفرننيوس بعد خمسة أيام الى الامير الاعلى ، ويعنى به والى • صقلية ، فوجدوه «جالسا في رواق وقد احتجب عن الاعين خيلاء وجبروتا» • وتحدث الامير الى رئيس الاساقفة والمترجم يوجه الحديث بينهما في جدل دينى قصير ، ثم أذن لهم فأنصرفوا^(١) •

(١) انظر : احسان عباس « العرب في صقلية » .

كان سقوط سرقوسة نهاية محاولات طال مداها ، وقد بقى القسم الشرقى غير خاضع للمسلمين ، وظل الروم يجددون محاولاتهم لاسترداد ما فقدوه ، وظلت قطنانية وطبرمين وغيرها من المدن الشرقية شوكة في جنب الدولة الاسلامية ، وكانت الروح الدينية في هذه المنطقة ذات أثر في اذكاء روح المقاومة ، وظل والى بلرم يخرج بجيشه أو يبيث سراياه ، ويفسد الزروع والثمار ، ويحرق الكروم ، ولما قرر ابراهيم بن الأغلب الخروج للجهاد سنة ٢٨٩ هـ ، استنطاق فتح طبرمين وكان وقع الخبر على سماع الامبراطور مؤلماً ، وارتكر عمل ابراهيم في منطقة دمنش ، ولكن منيته لم تمهله ليتم فتح هذه المنطقة وأخذت الفتن المحلية تشغل بال المسلمين ، ووافق ذلك ظهور العبيديين وسقوط الأغالبة ، وكانت مهمة أول والى عبيدى على صقلية أن يحارب دمنش ، ولكن استمرار الفتن مدة طويلة أراح شبه الجزيرة من الحاح الجيش الاسلامى ، حتى طبرمين التي فتحها ابراهيم عمرت من جديد ، واضطر أحد ولاة الكلبين على الجزيرة أن يعاود فتحها سنة ٣٥١ هـ ويدمرها ، وبقيت المنطقة الشرقية غير معترفة تماما بسطان المسلمين الى آخر أيامهم بالجزيرة ، وقنع منها الولاة بالجزية ، ووجهوا جهودهم الى الفتح جنوبى ايطاليا •

وخضع أهل صقلية للأنظمة المالية الاسلامية المتعارف عليها في افريقية ، وازدهرت أحوالهم الاقتصادية على الرغم من كثرة الحروب وتعيرت الاحوال الاجتماعية ، باختفاء العنصر البيزنطى صاحب السيادة على الجزيرة ، وتحرر العبيد بدخولهم في الاسلام ، وظهرت عناصر جديدة في المجتمع من العرب والبربر والفرس والخراسانيين ، كما شهدت صقلية ازدهاراً في الثقافة الاسلامية ، وأصبحت المساجد بمثابة مدارس لتعليم الفقه المالكى ، وألف سالم بن سليمان الكندى قاضى صقلية كتابه في الفقه المعروف بالسليمانية •

وانتشر علما للقراءات والتصوف ، وعمت الرباطات سواحلها
ومن أبرز نتائج الفتح الأغلبي لصقلية انشغال الجند بحركة الجهاد
في الجزيرة بدلا من انصرافهم الى الخلافت والمشاحنات فيما بينهم ،
الأمر الذي جنب دولة الأغلبة ويلاتهم •

يضاف الى ذلك انتعاش الأحوال الاقتصادية في افريقية بعد
حصول العرب الفاتحين على الكثير من الغنائم وتحف الكنائس ولم يعد
البيزنطيون أصحاب السيادة الحقيقية في حوض البحر المتوسط ، وفقدوا
موردا ماليا هلما بانفصال صقلية عنهم وأدى اللقاء بين البيزنطيين
والأغلبة ، الى استفادة الاغلبة من الفن البيزنطى ويتجلى ذلك بوضوح
في القلاع والحصون والعمائر التي شيّدت في افريقية في عصر الاغلبة •

الأغلبة والفرنجة :

بدأ العداء بين الاغلبة ودولة الفرنجة سنة ٢٠٦ ٨٢١ م وشنت
السفن الاغلبية عدة غارات على سردينية عادت محملة بالغنائم وشن
الفرنجة بدورهم غارات على افريقية ، واشتدت غاراتهم حتى بلغت
أبواب القيروان ، ولم ينسحبوا الا بعد جهود مضية قادها محمد بن
سحنون ، واشتد العداء بين الاغلبة والفرنجة بعد حملة الاغلبة على
صقلية ، وعبورهم مضيق مسينا الى شبه الجزيرة الايطالية ، التي كان
يخضع معظمها للكروونجية •

شجعت العناصر المناوئة لنظام الحكم في ايطاليا الاغلبة على غزو
الجزيرة ، فقد نشب نزاع بين دوقية نابلى ودوقية بنيفنت اللومباردية
وانتهى هذا النزاع بعقد هدنة بين البلدين بمقتضاها وافقت نابلى على
أداء جزية للدوق سيكر اللومباردى ، ولم يوافق لويس التقي امبراطور
الفرنجة على مساعدة نابلى في نزاعها ضد اللومبارد • لذلك لم ير دوق
نابلى أندريه بدا من الاستعانة بالأمر الأغلبي في بلرم بصقلية ، واستطاع
أسطول الأغلبة أن يرفع الحصار عن اللومباردى الذي كان مفروضا على

نابلى ، لذلك أضطر سيكر على عقد صلح مع دوق نابلى ٢٢١/٨٣٧ ،
ومن ثم بدأ التحالف بين نابلى والاغالبة .

ورأى الاغالبة فى وجودها فى جنوب ايطاليا تأميننا لجزيرة صقلية
من غارات البيزنطيين عليها ، لذلك رأى الاغالبة ضرورة ضرب معاقلهم
فى الطرف الآخر من مضيق مسينا ، وبصفة خاصة أسطول البندقيين
الذى كان يهدد شمال صقلية . وتوفى سيكر سنة ٢٢٥ وانقسمت مملكة
اللومبارد الى امارتين متنازعتين هما بتيغنت وسالرن ، وشجع ذلك
الاغالبة على العبور الى شبة الجزيرة مرة أخرى ، واتجهوا الى الفتنة
المنظمة وقد اتت لهم المدن والمعقل فى أرض قلوريه وأنكبرده ، وانكسرو
فيها بصفة دائمة ، ومن أهم هذه المدن مدينة تارنت الشهيرة كما ضربوا
كابوا فى غزوة خاطفة ، وأحرق الاسطول الأغلبي سفن البندقية التى
حاولت استعادة تارنت سنة ٢٢٦ / ٨٤٠ م .

وواصل الأغالبة زحفهم حتى وصلوا نهر ألبو ، واستولوا على
بارى ، واتخذ الأغالبة من بارى قاعدة عسكرية تخرج منها السرايا لشب
المغارات على سائر أنحاء شبة الجزيرة .

وأثبت دوق نابلى حسن نواياه من الاغالبة ففى سنة ٨٢٨ — ٨٤٢
وقف الى جانب الاغالبة أثناء حصارهم مدينة مسينا فى صقلية ولك
نابلى عادت عن موقفها الودى من الاغالبة ، وناصر دوقها العدو
للاغالبة ، وواصل الاغالبة غاراتهم على شبة الجزيرة الايطالية حت
استولوا على أربعة وعشرين حصنا .

وتعرضت روما نفسها لغزو الاغالبة بعد أن استطاع المسلمون ا
صقلية الاستيلاء على مسينا ، ويبدو أن هدف الاغالبة فى ذلك الوقت
فتح جنوب ايطاليا ، وقد باغت الاغالبة مدينة أوستى على
التتير ، ووصلوا الى أسوار روما سنة ٢٣٣ ، وهاجموا الجانب الغربى
لأنه لم يكن محصنا وغنموا غنائم كثيرة ، واستولوا على كنوز القديس

بطرس والقديس بول ، وعادت الحملة الاغلبية الى أفريقيا ، حين تعرض لها قيصر بن الدوق سيرجيوس حاكم نابلى •

وانشغل الملك الكارولنجي عن الأغلبة بغزواته خارج ايطاليا وازداد الخطر الاغلبى على جنوب ايطاليا بتخريب بنيفنت وحصار جانيه حول منتصف عام ٢٣٣ / ٨٤٦ ، لذلك ظهر لويس الثانى فى جنوب ايطاليا على جيش قوى لمقاومة الأغلبة ولكن الاعالبة انتصروا عليه ، ولم يستطع الملك أن يجمع شمل الامراء الايطاليين لدفع خطر الاغلبة عن ايطاليا •

وانتهز الاغلبة الفرصة فأغاروا على سواحل الكارولنجية فى ايطاليا وخارجها ففى سنة ٢٣٥ / ٨٤٩ سقطت مدينة آرل فى أيديهم كما عاودوا غزو روما وجهزوا لذلك أسطولا كبيرا فى جزيرة سردينيه ، وأبحروا تجاه مدينة أوستى ، ولم يستطع المسلمون اقتحام مصب التير لحصانته ومناعته ، ودمرت عاصفة عاتية الاسطول الاغلبى •

وأظهرت تهديدات الاغلبة ضعف البابوية وعدم قدرتها على مواجهة الغزو ، لذلك لم يجد البابا مناصا من التسليم للويس اثنى بتبنى الدفاع ضد المسلمين فى الغرب ، خصوصا وأن الامارات الايطالية لا تستطيع الاضطلاع بهذا العبء بسبب ما بينها من خلافات • ولم يستطيع لويس الثانى مواجهة الاعالبة فى جنوب ايطاليا ، لذلك تمكن الاغلبة من الاستقرار فى جنوب ايطاليا ، وعسكر الجند الاغلبة فى المنطقة • فتدخل البيزنطيون لطرد العرب من ايطاليا ، واستولى الامبراطور البيزنطى على بارى ، لذلك ضعف شأن الاغلبة فى جنوب ايطاليا وشنوا الغارات على السواحل الغربية لشبه الجزيرة •

وبتولى شارل الاصلح حكم الامبراطورية وبتخليه عن أمور ايطاليا ازداد نفوذ الاغلبة فى جنوب ايطاليا من جديد ونجح الاغلبة فى صناعة بعض الامراء اللومبارد الصغار فى الجنوب ،

بل ظهروا في دوقية نابلي ، وهددوا روما نفسها ، وتواطأ معهم بعض موظفي البلاط البابوي على تسليم المدينة اليهم عام ٨٧٦/٢٦٣ م ، ولما ضعف البابا عن صد الاغالبة ولم يجد عوناً من الامراء والملوك ، دفع للاغالبة اتاوة مالية كبيرة مقابل الكف عن روما . وفي نفس الوقت اتجه البابا لبيزنطة لتخليص بلاده من الاغالبة .

وكان في امكان الاغالبة الاستيلاء على ايطاليا كلها لولا ضعف الاغالبة بعد موت ابراهيم بن أحمد ، واضطربت دولة الاغالبة في أفريقية في عهد ابنه أبي العباس عبد الله ، وانشغال خليفته زيادة الله الثالث بمقاومة الخطر الشيعي ، وأدى ذلك الى انصراف الاغالبة عن أعمال الفتح في ايطاليا ، وكان سقوط الدولة الاغلبية على يد الفاطميين الشيعية خلاصاً لايطاليا من الخطر الاغلبى ومع ذلك فقد احتفظ الاغالبة حتى سقوط دولتهم بعدة قواعد حصينة في ايطاليا مثل سابينو شمال بنيفنت وجنوب بسطوم .



كان عصر الاغالبة عصر ازدهار في تاريخ أفريقية ، فلم تعرف هذه البلاد منذ العصر الروماني ازدهارا اقتصاديا كما عرفت أيام الاغالبة ، فقد أصيب اقتصادها منذ النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي حتى أواخر القرن السابع باضطراب شديد بسبب تعاقب الغزاة على أفريقية وقيام البربر بالثورات على حكامهم ، والفتن الموكبة لغارات سكان الجبال والبدو على المدن والسهول . وعلى هذا النحو لم تكن المزارع الافريقية تعرف الامن اللازم لقيام الزراعة واتصال عبور القوافل التجارية . وكان البناء الاقتصادي في أفريقية عند بداية الفتح العربي للمغرب في غاية التصدع وعجلت ثورة كسيلة والكاهنة على هذا التصدع وأتى عليه تشدد أمراء بنى أمية في جباية الضرائب ومانع ذلك من حركات بين حشود البربر الخوارج المتسادين بالمساواة . ولما قامت أسرة الاغالبة بامارة أفريقية أحض المزارعون بنوع من الاستقرار النسبي كانوا يفتقدونه منذ عهود طويلة وفي ظل هذا الامن الذي ساد

في معظم عهود الاغالبية زادت المحاصيل الزراعية ولم تتعرض أفريقية للقط . وقد أبدى اليعقوبى الجغرافى دهشته لمظهر الخضرة وكثافة الاشجار في المنطقة الممتدة من قعودة الى الساحل ، حين تسود زراعة الزيتون والنخيل والكروم أما المنطقة الواقعة شمال قعودة فكانت مراع للحبوب . ومن حيث ثروة أفريقية المعدنية فقد اشتهرت مجانة بمعادنها الكثيرة لا سيما الفضة والحديد والرصاص . ويفضل توفر المعادن ازدهرت الصناعات في عصر الاغالبية ومنها صناعة الالات الحديدية اللازمة لصناعة السفن والسيوف والسروج ولجم الخيل وصناعة التحف الزجاجية وكان في القيروان حى خاص بالزجاجين مما يدل على شهرة القيروان بهذا النوع من الصناعات . أما صناعة الخزف فقد تأثرت في أفريقية بالتقاليد العراقية حيث كانت ترد على القيروان القراميد المذهبة البغدادية لترين قصور الأمراء . كذلك اشتهرت أفريقية بصناعة السجاد والمنسوجات وأهمها الثياب السوسية الرقيقة ناصعة البياض .

وأزدهرت الحياة التجارية في القيروان أزدهارا عظيما وكثرت في أيدي أهلها الاموال بسبب التجارة وكانت القوافل التجارية تسير في الطرق المؤدية الى أفريقية والمغرب آمنة مما يدل على الرخاء الاقتصادي والاستقرار .

تطور المجتمع الاسلامى في أفريقية في العصر الأغلبى ، واستقرت البلاد ، وانتعشت الحياة الاقتصادية فنمت المدن ، واتخذت طابعا اسلاميا مثل القيروان وتونس وسوسة ، فازدانت بالمساجد والمنشآت العامة كصهاريج الماء ودور الصناعة ودور الحكم وقصور الأمراء وكبار رجال الدولة .

ومن أبرز سمات المجتمع الاسلامى في أفريقية في العصر الاغلبى تماسك هذا المجتمع في عقيدة واحدة ومذهب واحد ، هو مذهب أهل السنة ، أما الخوارج فكانوا قلة في هذا المجتمع لا تأثير لهم في تطور شؤونه .

واهتم الولاة المهالبة بتطوير جامع القيروان وانشاء أسواق في القيروان وتونس ، وانشاء الدور للمرابطين والزهاد ، والمحارس على الساحل .

ولكن د . حسن مؤنس^(١) يقول بأن بنى الاغلب هم الذين أدخلوا الحضارة الاسلامية في افريقية والمغرب الاوسط ، وجددوا مسجدي القيروان وتونس الجامعيين ، وهما مسجد عقبة ، ومسجد الزيتونة ، وقد أنفق زيادة الله بن الاغلب الاموال الطائلة في تجديد مؤذنته ، واعطائه الصورة الرائعة التي هو عليها الآن ، وكان يقول : ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحبتي أربع حسنات : بنائى المسجد الجامع بالقيروان وبنائى قنطرة أم الربيع ، وبنائى حصن مدينة سوسة وتوليئى أحمد بنى أبى محرز قضاء أفريقية . وهذا يدل على اهتمام زيادة الله بتعمير بلاده ، واصلاح أحوالها ، ونشر العدل بين ربوعها . واهتم ذلك باصلاح جامع تونس فأمر ببناء قبابه المضلعة ، ووضع فيه أعمدة الرخام ، وزينه بالزخارف والنقوش والكتابات الكوفية الجميلة ، كما أمر ببناء القببة الكبيرة في جامع القيروان التي تعتبر من أجمل القباب في تاريخ المساجد .

ومن الآثار المعمارية الرائعة التي خلفها الأغالبة ، جامع سوسة الذى جدد بناؤه خامس الأمراء الأغالبة ، أبو العباس محمد بن الأغلب .

كذلك أهتم أمراء الأغالبة بالمنشآت العسكرية مثلما اهتموا بالمنشآت الدينية ، فأقاموا دار صناعة في تونس وسوسة ، كما شيد الأغالبة الرباطات ، وهى بيوت يقيم فيها المجاهدون فى سبيل الله ، سواء رجال تطوعوا للجهاد أو جند فى جيش الدولة ، وقد تضخم الرباط بمرور الزمن حتى تحول من معسكر للمجاهدين الى مدينة كبيرة تتضمن معسكرات ومساكن وأماكن للحراسة وأخرى للعبادة ، ويرعى هذا الرباط ويديره شيخ من رجال الدين والتقوى والجهاد ، ينظم شؤونه ، ويقود

(١) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ص ٩٦ .

رجالهم ، ويصبرهم بشؤون دينهم ، ويحدد واجباتهم نحو الله والوطن .
كان الشيوخ والفقهاء والزهاد رؤساء الناس والمتحدثين باسمهم
أمام الحكام ، لأن بنى الاغلب لم يختلطوا بالبربر ، وانعزلوا في مدنهم
الموكية ، يحيط بهم جندهم وعبيدهم وحواشيهم ، ولا يتصلون بالعامّة
الا عن طريق الشيوخ وأهل العبادة ، وكان الفقهاء في الغالب يكرهون
التردد على الحكام ومجالستهم ، لانهم في نظرهم أهل ظلم ، ولا يتقون
الله في القول والعمل ، لذلك كرهوا منصب القضاء ، وان كانت السلطات
ترغمهم عليه أحيانا .

ومن أبرز الفقهاء في ذلك العصر سحنون وهو أبو سعيد عبد السلام
ابن سعيد بن حبيب النتوخي ، كان يجلس في جامع القيروان يعلم الطلاب
الفقه ويفتي ، ويعلم طلاب العلم علوم الدين وآداب السلوك ، وقد عاصر
الامراء الاغالبية الاربعه ، وكان لا يخشى في الحق لومة لائم ، وينوم
للحاكم على ظلمه ، وينصحه ، ويحذره من معصية الله ، لذلك تعرض
للاضطهاد من قبل زيادة الله الاول ، وفي عصره أصدرت الدولة العباسية
أوامرها بامتحان الفقهاء والقضاة في قضية خلق القرآن ، وكان سحنون
هو وكثير من فقهاء المغرب يرفضون القول بخلق القرآن ، وقبل أن يتعرض
سحنون للمذاب انتهت المحنة ، وتوقف تعذيب المعارضين للقول بخلق
القرآن .

والى سحنون ينسب أحسن تدوين عرف للسمع عن مالك بن أنس ،
وهو المعروف بالمدونة ، وهي كتاب فقه على المذهب المالكي ، يعرض لمسائل
الفقه الرئيسية من العبادات والمعاملات عرضا بليغا وموجزا ، وتعتبر
المدونة من أشمل كتب الفقه الاسلامي (١) .

ويعتبر حكم الاغالبية فترة انتقال في تاريخ افريقية ، فقد تحولت
البلاد من مجتمع مضطرب الى مجتمع له سماته وخصائصه من البربر

(١) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ص ٩٦ .

والعرب الوافدين والخراسانيين والاندلسيين يعملون جميعا بالزراعة والتجارة والصناعة ، ويندمجون مع بعضهم البعض ، ليظهر من هذا الاندماج مجتمع جديد ، يضم خلاصة هذه العناصر ، وخصائصها وميزاتها ، ويبرز شخصية هذا المجتمع المتميزة .

وفي أفريقية ظهرت المدن بكل امكاناتها بها المساجد الفخمة والقلاع الحصينة والاسوار والقصور المنيفة ، وظهرت هذه البلاد في أواخر القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي شعبا اسلاميا عربيا مكتمل التكوين ، وله مكانه الواضح المتميز على الخريطة العامة للعالم الاسلامي في عصره الذهبي (١) .

٣ - دولة الادارسة في فاس

استطاع العلويون بعد ثورات متعددة في العهد الاموي وفي العصر العباسي الاول تحقيق هدفهم الرامي الى اقامة دولة يحكمها امام من ال بيت رسول الله ، ذلك هو ادريس بن عبد الله وهو الاخ الرابع لابناء عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب ، واستشهد اخوته الثلاثة في ثوراتهم ضد الخلافة العباسية ، وأولهم هو محمد ذو النقبس الزكية ، وثانيهم ابراهيم شهيد باخمري ، وثالثهم يحيى بن عبد الله ، ورأى ادريس البعد بثورته عن مركز الخلافة العباسية ، فلجأ الى المغرب الاقصى وأيده البربر . وأقام دولة الادارسة .

ودولة الادارسة هي دولة طويلة العمر ، قامت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، واستمرت حتى أواخر القرن الرابع الهجري أي أنها استمرت قرنين ونصف قرن أي ضعف ما عمرته دولتا الاغالبة والرمثيين ، واستطاعت أن تصمد في وجه دعاة الفاطمية ، وحافظت على استقلالها من دولة الامويين في الاندلس ولكنها رغم صغرها أدت دورا حضاريا بارزا في تاريخ المغرب سواء في نشر الاسلام أو في تعريبه .

(١) المصدر السابق . ص ١٠٠ .

البلاد وفد ادريس الى الغرب الاقصى ومعه مولاة راشد يقال انه من أصل بربري ، وكان راشد يتربى بالتجارة ويتظاهر بأنه السيد وادريس خادمه ، يأمره أمام الناس فيطيع أمره ، ذلك ليخفي شخصيته أمام الناس وفي خلال سنة ٧٨٨/١٧١ ظهر الاثنان في طنجة وأخذ راشد يدعو لامير علوي يحمل راية الاسلام ، ويخلص الناس من الظلم والزندقة .

وقد التفت الناس حول راشد حيث جذبتهم الدعوة لرجل من آل بيت رسول الله ، وواصل راشد الدعوة بين أفراد قبيلة أوربه ، وكثر أتباعه ومؤيدوه في بلده وليلى ، وهي أصلح ما تكون كمركز لدعوة سياسية ، لانها مركزا تجاريا ممتازا وسوقا عظيما للقبائل ، وتشهد تجمعات كثيرة من البربر ، ونزل ادريس مدينة وليلى حوالي ١٧٢ ، وبدأ يدعو لنفسه ، وأيده شيوخ أوربه ورأوا فيه خير منقذ لهم من سلطان برغواطه ، وتطلعوا الى أن يقيم بهم دولة مستقلة مثل دولة بني رستم في تاهرت خصوصا أن هذا الداعي من آل البيت ، وبعد جهد ليس باليسير عهد شيوخ القبائل الى ادريس بحكم وليلى وزعيم الجناح الغربي من قبيلة أوربه ، وتبعه بعض أفراد القبائل الصغيرة المقيمة في تلك النواحي ، وكانت ناقمة على برغواطه ، وواصل ادريس بث سلطاته في تلك النواحي سلما أو حربا حتى امتد سلطانه في أقل من عام الى بقعة كبيرة في الشرق الاقصى .

وقد استاء الرشيد من اقامة دولة الادارسة ، فقد اقتطع ادريس جزءا من دولته ، ورأى الرشيد أنه من الصعب ارسال جيش للقضاء على هذه الدولة لبعده المسافة ، ولأن ادريس يتمتع بتأييد البربر ، وينسب المؤرخون الى المرثنيدي بأنه لجأ الى التآمر للتخلص من غريمه ، فأرسل طبيبا يقال له الشماخ ، قدم لادريس حواءا فيه مادة سامة قضى عليه ، وتوفى ادريس بعد حكم دام ثلاث سنوات سنة ٧٩١ / ١٧٥ م .

حافظ راشد على استقرار حكم الدولة الجديدة في آل ادريس ،

وقد ترك ادريس جارية له حاملا ، فاتفق ادريس مع شيوخ القبائل على الانتظار حتى تلد الجارية ، وأنجبت ولدا ، فظل ادريس وصيا عليه حتى بلغ العاشرة من عمره وولاه سنة ١٨٦ م حكم الدولة الجديدة .

ولى ادريس الثانى الحكم خلفا لابييه — وهو طفل — فكفله راشد ، وأحفظه القرآن فى طفولته وعلمه الحديث وعلوم اللغة وسير الملك وأخبار الماضين وأيام الناس وركوب الخيل والرماية ، والخلاصة أعده للملك خير اعداد .

ولما تهيأ ادريس للملك ، أخذ راشد له البيعة من سائر القبائل سنة ١٨٦ هـ ، ولكن ابراهيم بن الاغلب خشى على ملكه من دولة الادارسة ، وكان يرى أن راشد هو المدير الحقيقى لهذه الدولة ، لذلك دبر مؤامرة للتخلص منه ، على أن هذا العمل لم يؤثر ولم يضعف دولة الادارسة ، بل تولى أبو خالد يزيد بن الياس العبدى الاشراف على المملكة واستقرت الامور ، وقويت الدولة .

ازدادت قوة ادريس بتوافد العرب عليه ، وقربهم ورفع منازلهم ، وجعل منهم بطانته دون البربر . وبذلك خرج ادريس من سيطرة البربر على الحكم .

قرر ادريس الثانى بناء مدينة ليقيم فيها هو وخاصته وجيشه ووجوه مملكته ، واشترى أرضا فى موضع مناسب لبناء مدينته ، وشرع العمال فى البناء فى موقع يقع بين جبلين صغيرين ، على ضفتى نهر صغير وهو نهر فاس ، وبدأ البناء فى سنة ١٩٢ هـ بعدوة الاندلس ، وقد سمى هذا الشق من المدينة فيما بعد باسم المهاجرين الذين أجلاهم الحكم ابن هشام عقب الفتنة الربضية ، وشيد ادريس سور المدينة ، والمسجد الجامع ، وأما عدوة القرويين فانها أسست سنة ١٩٣ هـ ، وأذن ادريس للناس ببناء الدور وغرس الأشجار والبساتين حولها ، وبنى جامعا

متصلا بمنزله ، وهو المعروف بجامع الشرفاء ، وعقب اتمام أسوار شقى المدينة والجامعين ، أنزل ادريس الثانى الوافدين عليه من الاندلس بالعدوة الشرقية ، فسميت عدوة الاندلس وأنزل الوافدين من القيوان الذين كانوا معه بالعدوة الغربية ، وسميت عدوة القرويين ، ثم أمر بزيادة البناء والغرس والدور والمساجد والخوانيت ، وعمرت الارض وكثرت خيراتها ، وقصدها الناس من مختلف المناطق للإقامة والتملك ، وسكنها العلماء والادباء والتجار والصناع . وهكذا كانت مدينة فاس عبارة عن مدينتين منفصلتين مسورتين ، كفتاهما فى سفح جبل ، ويفصل بينهما نهر ، تمتد عليه جسور ، ويستمد مياهه من عين غزيرة ، وقد احتفظت كلتا العدوتين بكيانها على النمط الذى خطه ادريس الثانى حتى عهد ملوك زنانه فى أواخر القرن الرابع الهجرى . فكان لكل من المدينتين مساجدها وأسواقها وولاتها .

حاول ابراهيم بن الاغلب التخلص من ادريس الثانى ، وذلك بالحداد الفرقة بين أصحابه وحملهم على مبايعة الرشيد ولكن هذه المؤامرات باءت بالفشل ، ثم خرج ادريس سنة ١٩٧ هـ لغزو من بقى من الكفار بنفيس ، ودخل هذه المدينة ثم اتجه الى الجنوب ، واستولى على مدينة أغمات ، وبعدها أخضع البلاد بين المنطقتين ، ثم دخل تلمسان صلحا وقضى فى تلمسان ثلاث سنوات نظم أمورها ، وأضعف الخوارج ، وبعدها عقد هدنة مع الاغالبة ، أمن بها من بطش الاغالبة وتوفى ادريس الثانى سنة ٢١٣ هـ .

ويعتبر ادريس الثانى بحق المؤسس الحقيقى لدولة الادارسة وهى أول دولة كبيرة فى المغرب منذ الفتح الاسلامى — فقد تمكن من درء خطر الاغالبة ، وسيطر على البربر سيطرة كاملة ومد حدود مملكته — التى كانت تضم أوربه — عبر جبال الاطلس الاعلى فى جنوب مراكش حتى درعة ولذلك ضمن لنفسه الاستفادة من موانئ المحيط الاطلسى والسيطرة على مضيق جبل طارق من طنجة وسبته قاعدتا الزحف الى الاندلس .

ومن أهم انجازات ادريس الثانى التوغل عبر الجبال المنيعه ومواجهة القبائل شبه المتوحشه المعتصمة بهذه الجبال ، والتي ظلت في معزل عن الدنيا ، واجتاز ادريس الثانى هذه الصعاب ، ونشر الاسلام بين أهل هذه الجبال الذى امتد منها الى الصحارى الواسعة التى تمتد وراءها . ومن أهم انجازات ادريس القضاء على الخوارج الصفرية الذين أضعفوا بلاد المغرب سياسيا واجتماعيا واقتصاديا أما خوارج بنى مدرار والدولة الرستمية فقد تعايش ادريس معها سلميا .

بلغت دولة الادارسة — كما قلت — أوج عظمتها في عهد ادريس الثانى ، وأما عهد ابنه ممد بن ادريس ، فهو يمثل استقرارا للامور ، والمحافظة على المكاسب التى حققها أبوه ، وأعقبه عهد تدهور كبير بقيام الدولة الفاطمية بالمغرب ، والتنافس بينهم وبين الامويين في الاندلس .

تأسيس مدينة فاس

في الواقع نشأة مدينة فاس ، هو نشأة مدينتين احدهما قريبة جدا من الاخرى ، وان بقيتا مستقلتين برغم هذا سنة واحدة ويستمرى الانتباه كيف استطاع ادريس الثانى القيام بهذا العمل الضخم على الرغم من صغر سنه ، تأسيس مدينتين متباينتين في مكان واحد ، وجعل لكل منهما سورا بدلا من احاطتهما معا بسور واحد ، وحقيقة الامر أن مدينة فاس قد بنيت في سنة ١٧٢ هـ عندما دخل المغرب ادريس بن عبد الله هاربا من تعقب أبى جعفر المنصور له حيث التف حوله البربر عند ذلك ، وجعلوه على رأسهم وبنوا له مدينة فاس على مستنقع عشبي ، وعندما حضرت الاسس — استكشفت فأس في الأرض ، وهكذا سميت بمدينة فاس ، وضربت بها النقود ابتداء من تاريخ غير محدد ، ولكنه يرجح على الاقل سنة ١٨٩ هـ / ٨٠٥ م ، ويقضى ادريس الثانى ولايته في المدينة الجديدة ولما كان ولما بالتجديد ، بنى هو الآخر في الجزء الواقع الى الغرب من نفس الموقع ، والذي وجده الافضل مدينة جديدة على

الطراز الشرقى ، أو على الطراز الافريقى ، هذه المدينة أطلق عليها رسميا اسم العالیه ، ولعلهم سموها أيضا فیا ذكر اليعقوبى اسم أفريقية وهو اسم له علاقة واضحة بالاسم الذى انتهى به الامر الى أن صار شائعا على ألسنة الناس ، فقالوا مدينة القرويين أو مدينة القيروانية ، وبعد ذلك بتسع سنين سنة ٢٠٢ هـ كان حضور القرطبيين المعروفين باسم ثوار الربض الى ادريس الثانى مؤديا الى اضعاف الصفة التى اتسمت به مؤسسة أبيه الواقعة على الضفة اليمنى من وادى فاس ، حين استقروا فيها ، وقد انشأوا مدينة فاس على النمط الاندلسى ، وما لبثوا أن أعطوها طابعا جديدا لمدينة منظمة لم يكن لها من قبل ، وهكذا لم يلبث اسم مدينة الاندلسيين أن حل محل الاسم القديم ، وهو مدينة فاس فصار يطلق بعد ذلك على كل الاقليم والمدينتين القائميتين فيه .

كانت مدينة فاس فى عصر ادريس الاول لا تبدو أكثر من أنها مدينة بربرية صغيرة ولم يزل بمراكش أمثلة عدة لهذا النوع من المدن مما يجعل طابع القرى الرغوية خاصة وهى غالباً تكتلات قليلة الكثافة الى حد ما تنشأ فى طريق جبلى أو فى الجبل نفسه ، وتكون محصنة تحصينا بدائيا ، حيث نجدها متراسة بوجه عام على سطح ينحدر الى بطن أحد الأودية ، وفيها سوق أسبوعى . أما فى الداخل بيوت متواضعة ومراع للماشية ومخازن الخلال وجامع متواضع .

وفى عهد ادريس الثانى عاشت فاس فى رخاء وضربت فيها عملة سنة ١٨٥ هـ ، واستقبل فيها ادريس الثانى المهاجرين العرب الذين لجأوا اليه من الاندلس ومن أفريقية الاغلبية وكان وجودهم فى فاس مكسبا كبيرا لادريس الذى كان يشعر أنه فى عزلة وسط البربر ، وأخذ يستعد لاستغلال هذا العنصر المهم من العرب للتخلص من البربر ، وأخذ يستعد واتخذ بلاطا عربيا له وزير وكاتم سر وقاض من أفاضل العرب .

والظاهر أن الوزير عمير الذى تزوج عاتكة — ابنة ادريس الثانى —

قام بدور مهم حاسم في تأسيس مدينة عدوة القروانيين ولا شك أنه أقنع سيده الشاب بالألا يقيم مقره في مؤسسة أبيه بمدينة فاس وأنه يستقر بقربها على الجزء الأكثر ماء من هذا الموقع ، وأن يحسن انشاءها المدنى الحقيقى الجدير بالمدن السورية والانجليزية الزاهرة في ذلك الوقت ، فأنشأ في المدينة الجديدة قصرا للامارة ، كما بنى مسجدا اسمه مسجد الاشراف وكان لابد للمدينة الجديدة من أن تنمو سريعا ، وكان أحد أحيائها خاص بيهود استقروا فيه ، وترعموا النشاط التجارى ، على أن العرب والموالى كانوا في الغالب من الفارين القروانيين ممن وفدوا لخدمة الحكومة الاغلبية بأفريقية • أما البربر فلم يكن لديهم ما يشكون منه ، اذ كانت لهم مدينتهم الخاصة ذات الطابع الذى يميز حياتهم ، وكانت قريبة من منازلهم •

ومن هنا نرى أن ادريس الثانى قد احتفظ بمدينة فاس لئى تكون سكنا لجنده البربر ولضباطهم •

وكل الدلائل تدل في النهاية على أنه بينما كانت مدينة ادريس الثانى تنمو وتزدهر اذا بمدينة فاس القديمة تظل متأخرة في مضمار المدن العربية بل وتزداد اضطرابا لدرجة أنها بعد ذلك بعدة سنين عندما سمح الامير القرطبيين من أهل الربض بالاقامة فيها — لم تكن بلا شك أكثر من مجرد تربة كبيرة تقوم عليها بيوت متواضعة من اللبن منغطة بفروع الأشجار ، وكان على الاندلسيين أن يحسنوا مدينتهم سريعا ومع هذا فقد تركوا في أحيائها المتطرفة طابعا ريفيا قويا •

حركات الخوارج في المغرب

الاباضية فرقة من الخوارج ، وقبل أن نشير الى حركتهم في بلاد المغرب في أواخر العهد الاموي ، يجب أن نتكلم بايجاز عن الخوارج .

الخوارج مفردها خارجي ، وهم أتباع أقدم فرقة في الاسلام ، وقد نشطوا في أواخر عهد علي بن أبي طالب ، وتولية معاوية للخلافة ، وأحدثوا اضطرابات كثيرة في الدولتين الاموية والعباسية ، وقد لبعض حركاتهم النجاح فترة من الزمن (١) .

نشأت فرقة الخوارج أثناء معركة صفين بين علي بن أبي طالب ، ومعاوية ابن أبي سفيان ، وطلب جند معاوية تحكيم كتاب الله في النزاع بين الفريقين ، وعارض فريق من جيش علي التحكيم على اعتبار أن الرجال لا يصح أن يحتكم اليهم في حكم الله . وهذا الفريق قوامه قبيلة تميم بالذات ، وهجروا جيش علي قائلين لا حكم الا لله ، ثم تركوا الجيش ، وانسحبوا الى قرية حروراء غير بعيد عن الكوفة ، وارتصوا بعبد الله بن وهب الراسبي قائدا عليهم (٢) .

وسمى هؤلاء الخوارج الأوائل بالحرورية (٣) ، وانتعشت هذه الفرقة ، وانضم اليها القراء في جيش علي . بعد ما شعروا بالخذلان وخيبة الأمل من نتيجة التحكيم التي كانت في صالح معاوية وفي غير صالح علي وأظهر الخوارج مذهبهم وقالوا بعدم أحقية علي في الخلافة ، وأصبحوا يعتقدون أنهم وحدهم المسلمون ، ومن ليس على عقيدتهم كافر (٤) ، وعليهم رد هؤلاء الكفار الى حظيرة الدين ، وطعنوا في مسلك عثمان ، وأبوا الثأر لمقتله ، وقوى أمر الخوارج شيئا فشيئا بترايد

(١) دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٥ .

(٣) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٥٨ — ٦٠ .

(٤) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٣٣٤ .

المساواة بين الشعوب في الاعتقاد وهو المبدأ الذي قال به الخوارج^(١) .

وكان على بن أبي طالب قد غول على الزحف الى الشام لمحاربة معاوية ، واعادة الوحدة الى دولته ، بعد أن رفض قرار الحكيم لكنه علم أن الخوارج تجمعوا في النهروان ، وقوى أمرهم واشتد خطرهم ، وقتلوا مخالفيهم ، وأشاعوا الذعر بين الناس ، وسبوا النساء وأشاعوا الخراب والدمار ، فتحول على الى النهروان ، وألحق بهم الهزيمة سنة ٣٨ هـ^(٢) ، ونكل بهم ، لكنه مع ذلك لم يتيسر له القضاء عليهم وعلى آرائهم ، فظل بعضهم يقيم معه بالكوفة ، كما أقامت جماعة منهم بالبصرة ، وقتل على بن أبي طالب بيد أحد الخوارج سنة ٤٠ هـ . ولما قامت الدولة الاموية قوى شأن الخوارج ، واعترضوا على تولية معاوية الخلافة ، لأنه لم ينلها باجماع كلمة المسلمين ، وخالف سيرة الخلفاء الراشدين باتخاذهم الحرس والحجاب وتشييده قصر الخضراء مقرا له ، وقوى أمرهم في البصرة والكوفة^(٣) .

استند ولاية بنى أمية في العراق في قمع الخوارج ، وتعقبوهم ، ونكلوا بهم لم يكنهم لم يهنوا ولم يضعفوا ، وظلوا يعارضون الحكم الاموي ، ولما أعلن عبد الله بن الزبير نفسه خليفة في مكة ، انضم اليه فريق من الخوارج بقيادة نافع بن الأزرق وذهبوا الى مكة ليجاهدوا مع ابن الزبير ضد الحكم الاموي ، ويذودوا عن البيت الحرام^(٤) .

على أن الخوارج اختلفوا مع ابن الزبير حول رأيه في عثمان فقال لهم : انى ولى لابن عفان في الدنيا والاخرة ، وولى أوليائه وعدو أعدائه ، فقالوا له : برىء الله منك يا عدو الله . ثم انصرفوا عنه .

-
- (١) نشوان الحميرى : الحور العين ص ١٧٠ .
 - (٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حوادث سنة ٣٨ هـ .
 - (٣) ابن الاثير : الكهل في التاريخ حوادث سنة ٤٠ هـ .
 - (٤) محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية ص ١٠٠ .

فسار جماعة منهم الى البصرة وفيهم نافع بن الازرق الحنفى وعبد الله ابن صفار السعدى ، وعبد الله بن اباض (١) .

ساد الاضطراب بلاد العراق بعد وفاة يزيد بن معاوية ، وعجز ولايته عن مقاومة الخوارج ، فأعادوا تنظيم صفوفهم ، وأعلن نافع بن الازرق نفسه أمير المؤمنين فى الاهواز ، وبايعه أنصاره ، وعارض بيعته عبد الله بن صفار وعبد الله بن اباض ، وأتبعهما من الخوارج .

واصل الخوارج شن غاراتهم فى شرق الدولة الاسلامية . وكانت غاراتهم أشبه بحرب العصابات . ويرجع الفضل فى معظم انتصاراتهم الى سرعة حركة فرسانهم فكانوا يتحركون فجأة لا يتوقعهم أحد ، ويكتسحون البلاد ، ويباغتون المدن غير الحصينة ، ثم ينسحبون مسرعين تخلصا من مطاردة جيش الدولة لهم (٢) .

وكان على ولاية بنى أمية بعد القضاء على ابن الزبير أن يخوضوا حربا لا هوادة فيها على الخوارج الذين كانوا أعداء لابن الزبير والامويين على السواء . وانقسم الخوارج الى أزارقة وصفرية واباضية وتعددت فنتهم فى شرق الدولة الاسلامية وازداد خطرهم نتيجة لاعمالهم التخريبية . وانتفاضاتهم التى اتسمت بطابع العنف والقسوة بل والوحشية ، ولم تفت فى عضدهم ، ولم يضعفوا ولم يهنوا من بطش الامويين وتكليفهم بهم . على أن المهلب بن أبى صفرة . والحجاج بن يوسف الثقفى . قد تمكنا بعد جهد جهيد وعناء شديد دام عدة سنوات من هزيمة جموع الخوارج (٣) .

وكانت جزيرة العرب مسرحا لحركات الخوارج وبالذات بين عاصم

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٤ ص ٤٢٣ .

(٢) فلهوزن : الخوارج والشيعة ص ٩٦ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٨٠ .

٦٥ — ٧٢ هـ حيث استولوا على اليمامة • وامتد نفوذهم الى حضر موت واليمن ومدينة الطائف ولم يمنعهم من الاستيلاء على مكة والمدينة الا خوفهم من اثاره الشكوك في دينهم • حقيقة نكل بهم الحجاج بن يوسف ولكنه لم يكن قضاء مبرما • فقد بقى أفراد من الخوارج في بلاد اليمن يتهيئون للثورة ضد الحكم الاموى حينما تتاح لهم الفرصة • فيذكر الخزرجى^(١) أن الخوارج قدموا الى صنعاء سنة ٧٢ هـ • فجمع وهب بن منبه الناس لقتالهم • • فقال له الناس : لا طاقة لنا بهم ، ونحن نخشى أن يستحلوا دماغنا فتفرق الناس • وصالحوا الخوارج على مائة ألف دينار • فاستعان أهل صنعاء بأهل المخاليف على المال • فأمدوهم بالمال • وتفرق الخوارج •

اضطربت الأمور في الدولة الأموية بعد وفاة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ وتولية الوليد بن يزيد الخلافة — الذى قضى معظم أيام خلافته في البادية • وبقى في الخلافة سنة وشهرين • ثم قتل لسوء سيرته سنة ١٢٦ هـ • وخلفه يزيد بن الوليد الذى توفى بعد خمسة أشهر وبويج أخوه ابراهيم ، وفي عهده تجلّى الاضطراب في البيت الأموى فلم يكن هناك أجماع على توليته • فكان ثاس يسلمون عليه بالخلافة ، وناس بالامارة • • وناس لا يسلمون عليه بواحدة منهما • وانتهى الأمر بعزله وقتله على يد مروان بن محمد^(٢) • ولما ولى مروان بن محمد الخلافة تعصب للقيسية وطالب اليمينين بدم الوليد بن يزيد • فنار عليه يزيد بن خالد القسرى بدمشق^(٣) وانضمت اليه اليمانية فأرسل مروان الى دمشق جيشاً أخمد الثورة كما قضى على ثورات أخرى في بلاد الشام قام بها اليمانية^(٤) •

ولم يكد يستقر الأمر لمروان بن محمد في بلاد الشام حتى خرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك • ودعا أهلها الى خلعه • وانضمت

(١) الكفاية والاعلام ص ٦٨ •

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١١٦ •

(٣) ابن طباطبا : الفخرى ، في الاداب السلطانية ص ١٢٣ •

(٤) الداينورى : الاخبار الطوال ص ٣٢٤ •

اليه اليمانية • فسار اليه مروان • وأوقع به^(١) الهزيمة ولما كانت أكثر عرب الشام من العنصر اليمنى فقد آثر مروان بن محمد أن يتخذ حران حاضرة لدولته بدلا من دمشق حيث كانت تقيم القيسية عماد دولته^(٢) •

وكان مروان بن محمد من أقدر خلفاء بنى أمية فى الإدارة والحرب والسياسة ، ولكنه ولى فى وقت كثرت فيه القلاقل والاضطرابات فى الدولة ، وتعددت الثورات ، وانقسم البيت الحاكم على نفسه ، وانتشرت الدعوة العلوية فى الكثير من أرجاء الدولة الاسلامية ، ونجحت الدولة العباسية فى إقليم خراسان نجاحاً كبيراً • وازداد نشاط الخوارج •

قيام الدولة الرستمية

قام نزاع بين حبيب بن عبد الرحمن والى العباسيين على أفريقية مع ورفجومة وما أنضم اليها من الخوارج وأضطربت الأمور فى أفريقية حيث دخلوا القيروان وربطوا دوابهم فى المسجد الجامع ، وقتلوا كل من كان من قريش وسامت أهل القيروان سوء العذاب ، وندم الذين دعوهم أعانوهم أشد ندامة فى هذا الوقت • رأى الإباضية فى منطقة طرابلس وجبل نفوسة الوقت قد حان ليكونوا لهم امارة مستقلة ينظمون فيها شؤونهم وفق تعاليمهم ومبادئهم ، ويكون على رأسها امام تتوافر فيه الشروط التى يجب أن تكون فى الامام كما يرى ذلك علماءهم ويقول المؤرخون أن الإباضية فى منطقة طرابلس صاروا فى دور (الكتمان) بعدما أقتل الحارث بن تليد وعبد الجبار بن قيس الهوارى من طرف عبد الرحمن بن حبيب ، وظلوا كذلك حتى قدم أبو الخطاب وأصحابه من المشرق ، فتطلعوا الى الخروج من هذا الدور الى دور (الظهور) وخاصة بعدما قدروا قواتهم • وقدروا مكان مدافعة عدوهم ورأوا أنهم قادرون على الدفاع عن كيانهم بعد ظهورهم •

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ١٥٦ •

(٢) المصدر السابق ج ٥ ص ١٥٧ •

وقد تطلب أمر الظهور منهم تعيين أمام يقسود حركتهم • وكان الامام الذى اتفقوا عليه هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعفرى الذى أشسار له بالامامة من قبل أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة ، وقد أشترط الأباضية عليه أن يحكم بينهم بكتاب الله وسنة رسوله وآثار الصالحين ، أما هو فقد اشترط عليهم — حتى يقبل الامامة — ألا يثيروا مسألة الحارث وعبد الجبار التى أحدثت الفرقة بين صفوفهم وقبلوا منه ذلك فبايعوه على القيام بحقوق الله ، وعلى ما فى الكتاب والسنة واتباع أئمة المهتدين ، وكان ذلك على رأس ١٤٠ هـ • وآتاه أهل القيروان داخلين فى حماه وطلعه بما ارتكبه الوريثيون من ضروب البطش والظلم والفساد ، وأستباحة الأعراض وتدنيس المساجد • فلما بلغه ذلك غضب وأنكر من ورفجومة سلوكها فتحركت فى نفسه عوامل الغيرة على الاسلام • فأستتفر أتباعه من الأباضية وشايعة بربر طرابلس وفى مقدمتهم هواره وزحف بجموعه يريد القيروان لقتال ورفجومة ، فالتقى معهم وقاتلهم ، ثم هزمهم وتبعهم يقتلهم ، ثم أنصرف الى القيروان •

ترعم أبو عبيدة حركة الأباضية السرية ، وأوجد مجتمعا متعاوننا متماسكا ، وكون جماعة تعمل فى سرية وكتمان على نشر المذهب الأباضى وأنشأ مدارس سرية لتعليم الدعاة وتوجيههم ، وهؤلاء الدعاة الذين عرفوا بحملة العلم ، انتشروا فى بقاع العالم الاسلامى لنشر المذهب الأباضى ، وعرفوا بحملة العلم ، وقد وفقوا فى نشر المذهب الأباضى فى كثير من البلاد ، ومن بينها المغرب ، التى عرفت أفكار الخوارج منذ نشأتها • وأول من دعا للأباضية فى المغرب ، سلمة بن سعد الحضرمى فى أواخر القرن الأول الهجرى •

استقر سلمة بن سعد الحضرمى فى جبل نفوسة فى منطقة طرابلس وأخذ يدعو لمذهبه بين قبائل هواره البربرية التى كانت تسكن فى تلك المنطقة ، وكان سلمة شديد الحماس ، متفانيا فى نشر مذهبه ، مضحيا

في سبيل ذلك بالنفس والنفيس ، وقد استطاع هذا الداعي اقناع بعض مؤيديه المتحمسين للمذهب بالذهاب الى البصرة للتفتحه بأصول الدعوة الإباضية على يد زعيم الحركة في البصرة الامام أبي عبيد مسلم بن أبي كريمة التميمي (١) .

وبعد أن انتشرت الدعوة الإباضية في المغرب ، توافد الطلاب على البصرة لتلقى الدروس عن فلسفة المذهب ، ومن أبرز هؤلاء الطلاب عبد الرحمن بن رستم من القيروان ، ومكثوا في البصرة عدة سنوات يتعلمون علوم المذهب الإباضي في المدرسة السرية للإباضية هناك ، وعادوا الى بلادهم لنشر المذهب ، ودعاهم الامام بالرجوع اليه في كل ما أشكل عليهم من أصول المذهب وقد نشط هؤلاء الدعاة في نشر مذهبهم بين أهلهم من سكان المغرب ، وقاموا بتأسيس المدارس السرية على غرار مدرسة البصرة ، وتخرج على أيديهم عدد من الدعاة الإباضية المغاربة يسمون تلاميذ حملة العلم ، وأخلص الأساتذة والتلاميذ في نشر دعوتهم ، واستطاعوا بعد اشتباكات ومعارك متعددة مع الولاة العباسيين في المغرب ، أن يعلنوا امامة الظهور سنة ١٤٠ هـ ، وبايعوا أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اماما عليهم ، وتمكن الإباضية بقيادة أبي الخطاب من الاستيلاء على طرابلس ، ومعظم بلاد المغرب الأدنى ، والقيروان خاصة أفريقية .

تصدى الولاة العباسيون للحركة الإباضية الناشئة ، ورأوا ضرورة القضاء عليها في مهدها ، فحاربهم الولاة العباسي محمد بن الأشعث الخزاعي سنة ١٤٤ هـ ، فقتل الامام الإباضي أبا الخطاب المعافري في معركة تاورغا سنة ١٤٤ هـ .

ويرى المؤرخون من الإباضية ما أن أبا الخطاب بعد انتصاره على زفجومة وأهل القيروان الذين ناصروه طبق مبدأ الإباضية الذي

(١) عوض محمد خليفات : النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال أفريقية ج ١٧ .

ينص على أن أموال المخالفين ودماءهم حرام أخذها ، ولا يحمل الا السلاح ، ومحاربة السلطان وجنده فقط ، لان المخالفين ليسوا مشركين ولكنهم كفار نعمة •

وآثر أبو الخطاب أن يرجع الى طرابلس ، ويتخذها عاصمة له ، فغادر القيروان بعد أن عين عليها ومن والاها من المدن عبد الرحمن ابن رستم الذى تلقى العلم معه فى مدرسة أبى عبيدة بالبصرة والذى سيصبح له شأن كبير فيما بعد عندما يؤسس دولة أباضية بالمغرب هو وأولاده قرابة المائة والخمسين سنة • ومن القيروان استطاع عبد الرحمن بن رستم أن يراقب المغرب الأوسط عن كئيب ، وأن يغذى المذهب الأباضى بالكثير من الأنصار والأتباع ، اذ رأى فى المغرب الأوسط امتداد يحمى الدولة الناشئة من طرابلس ويؤكد نظرية عبد الرحمن بن رستم الى المغرب الأوسط ، ما تحدث عنه ابن خلدون من وجود تحالف وطيد بين عبد الرحمن بن رستم وقبيلة لاية البترية التى كانت تسكن فى هذا الاقليم •

لكن عبد الرحمن بن رستم لم ينعم بمقامه طويلا فى القيروان ، وذلك لتطور الأحداث السياسية من جديد فى اقليم طرابلس • فبعد أن هزم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح ورفجومة وقد جماعة من رجالات العرب بها على الخليفة المنصور واستصرخوه على الخوارج ، وشكوا اليه تسلقهم على كرسى الامارة بالقيروان •

فولى المنصور محمد بن الأشعث الخزاعى على مصر وأفريقية • وسير من مصر جيشاً من المسودة بقيادة أبى الأحوص عمر بن الأحوص العجلى لاسترجاع المغرب وكان ذلك سنة ١٤٢ هـ فخرج اليه أبو الخطاب ، فالتقوا بمقداس على شاطئ البحر ، فانهزم أبو الأحوص وأصحابه ، وأحتوى أبو الخطاب على عسكرهم • ورجع أبو الأحوص الى مصر ، وأنصرف أبو الخطاب الى طرابلس • وكانت أفريقية كلها فى يديه •

ولم ينعم أبو الخطاب بالنصر الذى أحرزه ، اذ مالبت أن رأى

جيوش العباسيين قادمة الى المغرب لاستعادة نفوذها وسيطرتها عليه ،
ففى سنة ١٤٣ هـ أتصل بأبى الخطاب أن محمد بن الأشعث والى مصر
والذى عينه أبو جعفر المنصور كقائد الجيوش الى المغرب عازم على
مصاربته فخرج اليه أبو الخطاب فى زهاء مائتى ألف فمسك بهم فى
أرض سرت ، وأتصل ذلك بمحمد بن الأشعث • فسار اليه فى أربعين
ألفا ومعهم الأغلبن بن سالم التميمى ، فالتقوا بأبى الخطاب ، وكان قد
جمع أصحابه من كل ناحية ، وهضوا فى عدد عظيم ، فضاق ابن الأشعث
ذراعا ببقاء ابن الخطاب لما بلغه من كثرة جيوشه • وانهمز أبو الخطاب
ومن أسباب انهزامه حدوث انقسام فى جيشه ، حيث تنازعت زناته
وهوارة بسبب قتل من زناته ، فأتهمت الأخيرة أبا الخطاب بأنه يميل
الى هوارة وافترقت جماعة من المعسكر بسبب ذلك •

ويقول المؤرخون أن أبا الخطاب عندما وصل الى (تاورغا) من
أرض سرت وهى على مسيرة ثمانية أيام من طرابلس هو وعسكره تأقت
نفوسهم الى الجهاد فى سبيل الله ، وألتقى بابن الأشعث
وأشد القتال ، فكانت الرجال فى الميدان تتهدم كالحيطان ، ولم يبرح
أبو الخطاب وأصحابه حتى استشهدوا جميعا وكانوا فى أربعة عشر ألفا
أو اثنى عشر ألفا •

وكان مقتل أبى الخطاب وعامة من معه فى صفر : كما يروى ابن
الأمير أو زبيح الأول كما يروى النويرى سنة أربعة وأربعين ومائة •
فاجتز ابن الأشعث رأس أبى الخطاب وبعث به الى المنصور ببغداد •

- وعندما علم الأباضية بقتله هربوا الى الجبال ، ولجأوا الى
الحصون المنيعه والقلاع العالية ، ورجع عبد الرحمن بن رستم عامل
القيروان • عندما علم بالهزيمة بعدما انتهى الى مدينة قابس ، وكان فى
طريقه الى أبى الخطاب مع المدد الذى طلبه منه • وقبل أن يدخل
القيروان ، علم أن أهلها أوثقوا عاملها فى الحديد ، ولوا عليهم عمر بن
عثمان القرشى من المواليين للخلافة فأتجه الى تاهرت بالمغرب الأوسط
حيث جمع حوله الأباضية ، وأسس دولة هناك •

على كل حال — أثمرت اتصالات ابن رستم بأباضية المغرب الأوسط ، فأزروه في حصار عمر بن حفص بطبنة ١٥١ هـ / ٧٦٨ م وكانت هزيمتهم في تهوده في نفس العام سببا في اقتناعهم بضرورة تأسيس دولة تجمع شمل أباضية المغرب ، وانشاء مدينة تكون قسبة الدولة ومركزا للمذهب ، وكانت هذه الدولة اسلامية في قضائها ، عربية في معارفها ، بربرية في عصبيتها ، فارسية في ادارتها .

وأقام عبد الرحمن بن رستم بين قبائل لماية ، واستقر رأى الأباضية على تنصيب عبد الرحمن بن رستم لما رأوا فيه عن حميد الخصال ومجيد الأعمال وقالوا (يا عبد الرحمن رضيك الامام أبو الخطاب في ابتدائنا ونحن الان نرضى بك ونقدمك على أنفسنا ، فقد علمنا أنه لا يصلح أمرنا الا امام نلجأ اليه في أمورنا ونتحكم اليه في قضايانا فقال لهم ان اعطيتموني عهد الله وميثاقه على الطاعة فيما وافق الحق وطابقه قبلت ذلك منكم فأعطوه عهد الله وميثاقه على ذلك وشرطوا عليه مثلما شرط عليهم ، وقدموه على أنفسهم وألقوا اليه بأيديهم . ثم قالوا له لا بد لنا من امامة ظهور بعد تأسيس مدينة حصينة منيعة بعيدة عن مهاجمات العدو وتكون مأوى ومقر لامامتنا وملجأ لنا في حربنا وسلمنا فأجابهم عبد الرحمن الى ذلك واستحسن رأيهم . فأختاروا من أهل العلم والخبرة بالأرض جمعا ليرتادوا مكانا جيد الهواء كثير الحياة خصب الأرض ، قابلا للعمارة . مأمونا من العدو كما طاقوا أقطار تلك الجهات الى أن عثروا على المكان الذى بنيت فيه وهى فى سفح جبل يقال له جزول . ولما أراودا بقاء المدينة أى تاهرت كانوا يبنون النهار كله ، فاذا جن الليل وأصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدم فبنوا حينئذ تاهرت السفلى وهى الحديثة وتبعد عن تاهرت القديمة بخمسة أميال . وكانت تاهرت القديمة موجودة قبل ذلك التاريخ فالمدينة قديمة ترجع الى العصر الرومانى ثم البيزنطى ولقد جاء ذكرها أيام الفتوح الاولى سنة ٦٦٢ هـ / ٦٨١ — ٦٨٢ م .

دخول عبد الرحمن بن رستم المغرب الاوسط وبناء مدينة تاهرت :

لما علم عبد الرحمن بن رستم بمقتل أبي الخطاب عبد الأعلى عبد السمح ، وجد أن من الاسلام له ولاتباعه النجاة الى المغرب الاوسط حيث يستطيع بفضل أنصاره هناك أن يعيد انشاء دولة على المذهب الأباضي على نسق دولة أبي الخطاب في طرابلس .

فخرج مستخفيا هو وأبنيه عبد الوهاب وعبد لهما متوجهين الى أرض المغرب وليس معهم حمولة ولا مركوب غير فرس واحد فمات الفرس في بعض الطريق فدفنوه مخافة أن يقتل أثرهم أحد من حزب عبد الرحمن بن حبيب فيقطع فيهم ، فسمى ذلك الموضع قبر الفرس ، ولا كانت المسافة التي لمائة طسويلة والتي توجه اليها عبد الرحمن بن رستم لحلف قديم بينه وبينهم فقد كان من الطبيعي أن يحس عبد الرحمن ابن رستم بالتعب ، لكبر سنه وشيخوخته تعاون معه ابنه يحمله تارة ويحمله العبد تارة أخرى .

وأخترق شمال وادي سوف ، وسار الى سوفجج غاية المنعة والحصانة لصعوبة مرقاه .

وبهذا الجبل لحقه من طرابلس ستون شيخا من شيوخ الاباضية ، من أكابر العلماء وأهل الرأي ، وتنازعت قبائل هواره ولواته ، ولماية بالانضمام اليه ، والالتفاف حوله . ولما علم ابن الأشعث في القيروان يتمكن ابن رستم من الفرار الى المغرب الاوسط أقبل مجدا في طلبه فأخبر بانه في جبل منيع فقصدته حتى وصله فحاصر عبد الرحمن بن رستم بعد أن خندق على عسكره مخافة أن يأتيه ابن رستم وأصحابه ، فأطال المكث تحته ، وسئم جنده بعد أن فشى بينهم وباء الطاعون ، فهلك منهم عدد كبير ، وقد اضطر الى فك الحصار والعودة الى القيروان ، وعبر عن صعوبة فتح الجبل بقوله أن سوفجج لا يدخلها الا دارع ومدجج .

فانتقلوا بذلك الى تاهرت الحديثة وبقبيلتها لواته وهوارة
ويغربها زواغة ويجوفيها مطمامة وزناته ومكتاسة وكانت الأرض
التي بنيت تكتنفها غابة ملتفة بالأشجار ، يسكنها أنواع من الوحوش
فاستأنسوا فاتفق على بنائها وكانت أرضا صالحة للزراعة
حيث تنبع فيها العيون الطبيعية ويجرى فيها نهر لا ينقطع ماؤه اسمه
نهر مينة وهو في قبليها ونهر آخر يجرى من عيون تجتمع تسمى تاتش
ومن تاتش شرب أهلها وكانت هذه الأرض ملكا لقبوم
مستضعفين من مراسة وصنهاجة فساومهم عبد الرحمن على البيع فأبوا
فوافقهم على أن يؤدوا الخراج من الأسواق ويقول النفوسى في
روايته أنهم أمروا مناديا فنادى بأعلى صوته يا من بها من الوحوش
والسباع ان اخرجوا وارتحلوا فانا نريد عمارتها ونازلون بها ولكم أجل
ثلاثة أيام ولم تمر الاجل ولم يبق من تلك الوحوش شئ فأوقدوا
شجرها نارا ، ولما خمدت النار وتمت تنقية الأشجار . وصارت
صالحة للعمارة . شيدوا مسجدها الجامع ، وكان يتألف من أربع
بلاطات وكان لهذا الجامع مصلى للجنازة . وبديهي أن يهتموا بتحسين
المدينة وحمايتها فأقاموا سورا حولها وجعلوا لها أبواب أربعة وهي باب
الصفاء وباب المنازل وباب الاندلس وباب المطاحن وأصبحت المدينة
الجديدة في مامن من اعدائها ، ولا غرو فقد أطلق عليها معسكر
عبد الرحمن وقيل معسكر المبارك .

ولقد أعجب بهذه المدينة جميع المؤرخين . النيعقوبى الذى كان
معاصرا لائمة بنى رستم يصفها بقوله : والمدينة العظمى مدينة تاهرت
جليلة المقدار عظيمة الامر تسمى عراق الغرب ، بها أخلاط من الناس
تغلب عليها قوم من الفرس يقال لهم بنو محمد بن أفلح بن عبد الوهاب
ابن عبد الرحمن بن رستم الفارسى .

امامة الامام عبد الرحمن بن رستم (١٦٠ - ١٦٨ هـ / ٧٧٦ - ٧٨٣ م) :

كان تأخير اعلان الدولة ومبايعة امامها دهاء كبير من عبد الرحمن ابن رستم وصحبه ، أنهم لو أعلنوها قبل أن ترسخ عروقتها ، ويستعد جذعها ، وتدخل في شبابها ، لجعلها العباسيون نصب أعينهم • فلربما حشدوا لها من الجيوش الكثيفة ما حشدوا لدولة أبي الخطاب فينقضون عليها ، ولكنهم تمهلوا ، فنظموا كل أمورهم في الداخل وحلوا كل المشاكل ، ووجدوا صفوفهم ، وبنوا عاصمتهم ، فبرزت شخصية الدولة وبدت سامقة في الوجود ، وأصبح في استطاعتها الوقوف في وجه العباسيين •

وشرع عبد الرحمن بعد بيعته في العمل على توطيد حكمه وارساء دعائم دولته ومواجهة المشاكل المصاحبة لقيام الدول سواء فيما يتعلق بسياستها الخارجية أو الداخلية وآثر بسياسة المهادنة في الخارج ، فقد حرص على موادعة عمال بنى العباس وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون ورغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت سنة إحدى وسبعين ومائة في موادعة صاحب القيروان روح بن قبيصة بن المهلب فوادعه وانكسرت شوكة البربر واستكانوا وتمكن الاسلام من قلوبهم ، وفرض على البربر الضرائب الشرعية ، وصاهر بنى مدرار •

ولما أطمأن الى سلامة دولته من الاخطار الخارجية شرع في ارساء دعائمها • وكان عليه أن ييسط نفوذه على سائر القبائل داخل حدودها ويستكمل انشاء عاصمتها ويرسي دعائمها • وييسط نفوذه على سائر القبائل داخل حدودها ويستكمل انشاء عاصمتها ويرسي نظمها في الحكم والادارة •

وعكف عبد الرحمن على تنظيم وتوطيد سلطانه ، ولا شك أنه استفاد من عبقرية الفرس في الحكم والادارة ، ومع ذلك فقد غلب الطابع الديني المذهبي على ما أتخذه من اجراءات في هذا الصدد فكانت دولته مستقرة

وسيرته حسنة وقضاته مختارة ، وبيوت أمواله مستئنة
وأصحاب شرطته وعماله ، قائمون بما يجب ، وبفضل قدرته على
إيلاف العناصر والعصبيات المختلفة داخل الدولة (لم ينقم عليه أحد في
خصومة ولا حكومة ولم يكن على يديه افتراق .

وفي سنة ١٦٠ بويغ ابن رستم بالامامة بعد أن أرسى قواعد الدولة
ووطد أركانها بحيث أصبحت قادرة على الدفاع عن نفسها ، وهاجر الى
تاهرت كثير من المشاركة والمغاربة والاندلسيين وقصدها التجار والكتاب
ورجال الصناعة والفن من سائر أنحاء العالم الاسلامي وكان لذلك أعظم
الاثر في اتساع عمرانها ونمو تجارتها واتساع مواردها الاقتصادية .

ولما أحس عبد الرحمن بن رستم بقرب دنو أجله أقتدى بعمر بن
الخطاب فاختر سبعا من خيرة رجال دولته ممن يتوسم فيهم الزهد
والصلاح منهم مسعود الاندلسي ، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن
رستم ، وعمران بن مروان الاندلسي ويزيد بن فندين ثم توفي
عبد الرحمن في سنة ١٧١ . ثم اجتمع المرشحون للامامة شهرا وانتهوا
الى اختيار عبد الوهاب ، وتمت مبايعته بالامامة . ولكن ابن فندين أحد
المرشحين للامامة عارض في امامته وأخذ يعمل على اشغال نار العتنة
وأنكر امامة عبد الوهاب من أصلها بدعوى أن في المسلمين من هو أعلم
منه ، وأدى ذلك الى حدوث انقسام مذهبي عند الاباضية الى نكارية
ووهابية ، ثم دبر ابن فندين مؤامرة لقتل عبد الوهاب ، ولكن المؤامرة
فشلت ، وقامت المعارك في المدينة بين أنصار كل من الفرقتين وانتهت
بهبزيمة النكارية ومصرع رئيسها ابن فندين .

ولما توفي الامام عبد الوهاب في سنة ٢١١ خلفه ابنه الامام أفلح .
وفي عهد أفلح ساد الامن في البلاد ووصلت حضارة الرستميين الى ذروتها ،
وتوالى على الامامة بعده ولده أبو بكر ، ثم أبو اليقظان محمد ثم
أبو حاتم يوسف بن محمد وأخبرهم الامام اليقظان بن أبي اليقظان
محمد ، الذي انقرضت الدولة الرستمية على عهده .

وكان من الطبيعي أن تتوتر العلاقات السياسية بين الاغلبية
والرستميين ، اذ أن أمراء بنى الاغلب كانوا يمثلون الدولة العباسية كما
أنهم كانوا ينازعون الرستميين أملاكهم بطرابلس الغرب ، وفي مقابل
ذلك قامت بين الرستميين والامويين في الاندلس علاقات ودية ، لأن
العباسيين الذين كانوا يحاربون بنى أمية في الاندلس ، كانوا أيضا أعداء
للإباضية في تاهرت ، فقامت بين قرطبة وتاهرت علاقات تجارية ، وكانت
السفن تتردد بين وهران والمرية . وكانت تاهرت تضم جالية كبيرة من
أهل الاندلس . وكان لافلح بن عبد الوهاب مع أمراء بنى أمية في
الاندلس مواصلة وأرتباط ومودة بها يودونه بالهدايا النفسية ويهاديهم
بمثلها ، وظلت العلاقات الودية مع الاندلس قائمة في عهد ابنه أبى اليقظان
محمد ، وكان أبو اليقظان لا يتخذ قرار الا بموافقة محمد بن عبد الرحمن
الأوسط .

وازدهرت الحياة العلمية في تاهرت ازدهارا كبيرا ، فقد كان
أئمة الدولة الرستمية علماء كرسوا حياتهم للعلوم ونسرها وشاركوا
مشاركة فعالة في الحركة العلمية فكانوا يتولون التدريس في جامع
تاهرت ، وكان عبد الرحمن من كبار علماء عصره برع في علوم الدين
واللغة والفلك وأقبل على التأليف ، وكان ابنه عبد الوهاب تواقا للعلم
محبا له وكان يبعث الأموال إلى العراق لشراء الكتب ولا يمل قراءتها .
واشتهرت تاهرت بمكتبتها التي كانت تضم نحو من ٣٠٠ ألف
مجلد وقد حرقت هذه المكتبة على أيدي الفاطميين ومن حيث الحياة
الاقتصادية توسع الرستميون في الانتاج الزراعي يتوافر المياه وخصوبة
الارض وغزارة الامطار . والى جانب الثروة الزراعية اعتمد الرستميون
على التجارة البحرية مع الاندلس والبرية مع السودان وعانة وسجلماسة
والغرب الأقصى . وقد جنت الدولة الرستمية بسبب التجارة مكاسب
هائلة فازدهر العمران وأشرقت الحياة وتألقت ، وتعهدت
المباني والمنشآت وقد تبقى بعض آثار العمائر الرستمية في
الصحراء الجزائرية . حيث استقرت حتى اليوم بعض الاسرات
الإباضية .

ومن نظم الاباضية مجلس العزابة ، ويؤسس في كل مدينة أو منطقة ، يدين معظم سكانها بالمذهب الاباضى ، ولهذه الجماعة رئيس ينتخبونه من بين أعضائها ، ممن اشتهر بالسيرة الحسنة والعدل والغيرة على المذهب الاباضى ، وشؤون أفراده ، ومن بين هؤلاء الجماعة قضاة يحكمون في المنازعات التى قد تقع بين أفراد المذهب ، ومن بين هؤلاء شيوخ لتعليم أبناء المذهب ، فكانت^(١) مجالس العزابة تعقد في مقر سرى ، وكان أعضاء مجلس العزابة يستعملون في قراراتهم السرية ألفاظا غير معروفة للاحتفاظ بسرية المذهب .

ولمجلس العزابة مهام دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية مثل الاشراف على المساجد والجوامع ، وضمان تطبيق المذهب الاباضى وتعيين القضاة ، وتأليف الكتب ، وارسال الوعاظ الى تجمعات الاباضية لتفقيه الناس بأصول المذهب ، ومن مهام المجلس تنظيم العلاقات بين الاباضية في المدينة والاباضية في المناطق الأخرى سواء كانوا في شمال افريقية أو في زنجبار أو عمان ، وابرام الاتفاقيات مع الدول الاسلامية سواء في شمال افريقية أو في الدول الأخرى ، ويحرص المجلس على تكوين مجتمع اباضى يسوده المحبة والوئام ، وذلك عن طريق القاء الخطب والمواعظ واسداء النصائح والارشادات التى تدعو الناس الى التضامن والتمسك بالمذهب ، وكذلك مساعدة الاغنياء للفقراء حتى يخلو المجتمع الاباضى من الحقد والحسد ، ويحترم الاباضيون بعضهم بعضا ، وكان مشايخ الاباضية يراقبون الاسواق ، وينهون الناس عن الغش والربا وأنواع المعاملات التى لا يقرها الاسلام .

أنشأت مجالس العزابة في المناطق التى يدين فيها الناس بالمذهب الاباضى مدارس للتعليم داخلية خاصة بالتلاميذ الاباضية ، وذلك للمحافظة على المذهب .

ويرأس المدرسة الاباضية الشيخ ، وهو المسؤول الاول في المدرسة ،

(١) المصدر السابق .

ومن مهامه قبول الطلاب وتحديد المناهج وتعليم الطلاب ، والنظر في ادارة المدرسة وميزانيتها •

وقد حافظ نظام العزابة على وحدة الجماعة الاباضية وساهم في نشر اللغة العربية بين بعض القبائل البربرية وكان علماء الاباضية يرتحلون الى الحواضر العريقة لتعلم فنون اللغة العربية واتقانها ، وقد حرص مشايخ العزابة على نصح طلابهم بالترود بعلوم العربية واتقانها وذلك لفهم القرآن الكريم وعلوم التفسير والحديث وساهم شرط حفظ القرآن الكريم في مدارس العزابة على تعلم اللغة العربية •

وساهم شيوخ الحلقة وتلاميذهم الى جانب التجار الاباضية في نشر الاسلام في بعض البلاد الافريقية جنوب الصحراء ، ونشر الاسلام طبقا للمذهب الاباضى في بعض بلدان البربر ، كما ساهم هذا النظام في نشر التعليم بين أبناء المذهب الاباضى^(١) •

وقام شيوخ العزابة بنشاط كبير في تأليف الكتب التي تبحث في العلوم الاسلامية على المذهب الاباضى ونظام العزابه فيه من القسوة بحيث لا يترك للطالب فراغا ، كما عزل أتباع المذهب عن بقية اخوانهم من أصحاب المذاهب الاخرى بدعوى السرية والمحافظة على تراثهم وعدم كشف أسرارهم لمخالفين خوفا من تعرضهم للاذى والعدوان ، بل كان شيوخ العزابة يمنعون طلابهم من قراءة كتب بقية المسلمين^(٢) حتى لا يضلوا •

دولة بني مدرار

كان أهل سجلمانسة من مكاسبه يعتقدون مذهب الصفرية ، وتعلموه من مشايخ وفقهاء الخوارج الذين وفدوا على بلادهم ، وولوا عليهم سودانيا يسمى عيسى بن يزيد — من موالى العرب — ويلاحظ

(١) المصدر السابق ص ٦٣ •

(٢) المصدر السابق ص ٦٤ •

أن الصفيرية والاباضية كانوا من أكثر المذاهب الخارجية انتشارا في المغرب عقب الفتح العربي ، كما كانوا أكثر المذاهب تسامحا واعتدالا مع المخالفين لذهبهم •

ومؤسس الدولة الدرارية سوداني أسود اللون يسمى عيسى بن يزيد ، وأخذ يستأثر بالاموال في أواخر أيامه ، مما أثار معارضة مواطنيه ، وتصدى له زعيم المعارضة ويسمى أبو الخطاب الصفيري ، وقال لأصحابه في مجلس عيسى بن يزيد : « السودان كلهم سراق حتى هذا » وأشار الى عيسى ، فأخذوه وشدوه وثاقا الى جذع شجرة في الجبل بعد أن طلوه بالعسل ، وتركوه حتى قتله البعوض والنحل والنمل في سنة ١٥٥ هـ

ويشير الاستاذ الدكتور محمود اسماعيل الى أن تقليد عيسى ابن يزيد الاسود ، امامة الصفيرية ، كان مرتبطا بتفريق عنصر السودان على سائر العناصر الاخرى المقيمة والمستقرة في هذا الاقليم ، كما كانت هجرة مكثاسة الى هذا الاقليم سببا في سيطرتها على مصائر الدولة واحتكارها للامامة وتفوقها على سائر العناصر والقبائل الاخرى التي اختفى صوتها تماما فيما حدث من صراع على الامامة بين أفراد بني مدرار الكناسيين ، وبايعوا كبيرهم أبا القاسم سمكو بن واسول بن مصلان ابن أبي نزول ، وكان من أنصار عيسى بن يزيد ، وهو الذي دعا أهله الى طاعته ، وظل يحكم هذه البلاد حتى وفاته سنة ١٦٧ هـ ثم خلفه ابنه الياس ، ولكنهم خلعوا طاعته ، وعزلوه سنة ١٩٤ هـ ، وولوا مكانه اليسع بن أبي القاسم فلم يزل أميرا عليهم ، وشيد سور سجلماسة ، وفي عهده قويت دولته الصفيرية ، وأكمل بناء سجلماسه واخترت القصور ، والدور ، والأسواق •

ولقد حرص الصفيرية على انشاء هذه العاصمة في مكان حصين ، فأقاموها في موسطة الصحراء جنوبي تلمسان بعشرة مراحل ، وأسس الصفيرية حصنا في وسط المدينة أسموه المعسكر ، كما أسسوا المسجد الجامع ودار الامارة ثم أقبل الناس على بناء دورهم حول الحصن •

فاتسع العمران حتى جاوزت المدينة فرعى نهر ملوية ، وشيد لها سور وأربعة أبواب •

ومما ساعد على ازدهار الحياة الاقتصادية في سجلماسة توفر الماء فيها الصادر من نهر ملوية ، وشقت فيها الترع وغرست أشجار النخيل والفاكهة ، فتحوّلت الحياة من الرعى والبدو إلى الزراعة والاستقرار ، وقد أغرى ازدهار الاقتصاد لسجلماسة الصفرية في أنحاء بلاد المغرب إلى الرحيل إليها ، والاستقرار بها •

وتحسنت العلاقات بين الصفرية وبين الدولة الرستمية المجاورة وبزواج ابنه مدرار من ابنة عبد الرحمن بن رستم - أمير تاهرت - •

ولى مدرار حكم سجلماسة خلفا لأبيه سنة ٢٠٨ ولقبه المنتصر ، وطال أمر ولايته ، وكان لها ولدان يدعى كل منهما مأمونا ، أحدهما من زوجته الرستمية والآخر من زوجة أخرى تدعى ببيعة ، فعرف ابنها بميمون بن ببيعة وكان المنتصر يفضل ابن الرستمية على أخيه حتى أنه عهد إليه بولاية العهد ، وكان ذلك انتصارا للأباضية سجلماسية ، ودخل الإخوان في صراع مرير ، استمر ثلاث سنوات ، ولم يستطع المنتصر إنهاء هذا الصراع لذلك خلع نفسه ، وعهد إلى ابن الرستمية بعد طرده ابن ببيعة من سجلماسة ، وأغضب هذا التصرف شيوخ الصفرية في سجلماسة ، لانتهاكه تعاليم المذهب من ناحية ، ولخوفهم من وقوع البلاد تحت سيطرة الأباضية من ناحية أخرى ، فخلعوا ابن الرستمية ، وإن كان قد رفض الامامة ، لذلك أعادوا أباه مدرارا إلى الامامة •

لكن المنتصر أرسل إلى ابنه ابن الرستمية يطلب منه العودة إلى الحكم ، فخلعه تسيوخ الصفرية ، وولوا ابنه ميمون ابن ببيعة سنة ٢٢٩ هـ ، ولقبوه بالأمير ، وظل يحكم البلاد حتى وفاته سنة ٢٦٣ هـ ، وكان قد نفى

الى قرية سجلماسة ، وخلفه ابنه محمد ، وكان أباضيا وتوفي سنة
٢٧٠ هـ ، فخلفه اليسع بن المنتصر ، ووفد عليه عبيد الله المهدي وابنه ،
فزجها في السجن ، الى أن سار أبو عبد الله الشيعي ، فأفرج عنهما ،
ودخل مع أبي عبد الله الشيعي في معركة قتل فيها سنة ٢٩٦ هـ ودخلت
سجلماسة في حوزة الدولة الفاطمية النائية وبذلك سقطت الدولة المرارية
سنة ٢٩٧ هـ .

الدولة الاسماعيلية الاولى

في اليمن

ترجم جعفر الصادق العلوي في أواخر العهد الأموي ، وهو الامام السادس عند طائفة الامامية ، وترى هذه الطائفة أن الامامة يجب أن تنحصر في أبناء علي الحسينيين ، وأنها لا تنتقل من أخ الى أخ بعد أن انتقلت من الحسن الى الحسين ، ولا تكون الا في الاعقاب ، وقد انقسمت الامامية الى فرقتين بعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ ، الامامية الموسوية والامامية الاسماعيلية . وسبب هذا الانقسام ما قيل من أن جعفر الصادق ، عزل ابنه الأكبر اسماعيل — صاحب الحق في الامامة من بعده — لأنه نسب اليه أموراً تتنافى مع الدين ، وعهد الى ابنه موسى فرفض فريق من الامامية نقل الخلافة من اسماعيل الى موسى . وبذلك ظهرت فرقتان : الاسماعيلية والموسوية .

بايع الاسماعيلية محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق بالامامة ، بعد وفاة اسماعيل في حياة أبيه ، ووفاة جعفر ، وظلت الامامة الاسماعيلية ، التي ترى أن الامامة لا تنتقل من أخ الى أخ ، وأصبح محمد بن اسماعيل الامام السادس عندهم .

حرص الأئمة الاسماعيلية على نشر دعوتهم سرا ، خوفا من بطش بنى العباس فكان محمد بن اسماعيل ينتقل في البلاد الاسلامية النائية ، خوفا من أن تلاحقه عيون بنى العباس ، حتى استقر به المقام في قرية تدعى سملا بالقرب من جبل دماوند . وأطلق عليها فيما بعد — محمد آباد — .

استقر الامام عبد الله الرضى في سلمية — من أعمال حمص — وأصبحت دار هجرة للأئمة الاسماعيلية ، ولما توفي عبد الله ، تولى ابنه امامة الاسماعيلية .

وكان الدعوة ينبثون في أرجاء العالم الاسلامى يدعون الى المهدي المنتظر في سلاميه ويبتسرون بقرب ظهوره ، ولما ولى الحسين بن أحمد الامامة خلفا لأبيه ، بدل كل جهد لنشر الدعوة الاسماعيلية في البلاد الاسلامية .

بث الاسماعيليون دعواتهم في سائر أنحاء العالم الاسلامى لتحقيق حلمهم المنشود وهو اقامة دولة اسماعيلية ، ولجأوا الى الستر ، ورأى الدعوة في بلاد اليمن أرضا صالحة لنشر دعوتهم واقامه الدولة الفاطمية فيها ، نظرا لطبيعة البلاد الجبلية الوعرة وتضاريسها المعقدة ، وصعوبة سيطرة العباسيين عليها .

وكان الدعوة يلتقون بالشيعة المتحمسين في الكوفة ، ويقربون اليهم من يلتمسون فيه الكفاءة والمقدرة وقوة الشكيمة ونفاذ البصيرة . وممن قربوه اليهم ، أبو القاسم الحسن بن فرج بن حوسب بن زادا الكوفي ، وهو من ولد عقيل ابن أبي طالب ، وكان متعمقا في دراسة علوم القرآن الكريم ، والفقه والحديث مخلصا لعقيدته الشيعية ، على مذهب الابنئى عشرية (١) .

وقد التقى بالامام القساطمى الحسين بن أحمد الذى تعرف على فضله وعلمه ، ولا يمكن قبول ما ذكره بعض المؤرخين مثل الحمادى اليمانى والجندي من أنه التقى بعبيد الله بن هيمون القدادح أو بميمون القدادح نفسه ، لأنهما قد توفيا قبل مولد ابن حوشب بكثير ، كما أن ابن حوشب ، لم يذكر أنه اتصل بأحد منهما ، وقال ان الامام الحسين بن أحمد كان يخصنى ويقربنى ، ويرمز بقرب الأمر ودنو العصر (١) .

(١) الاثنا عشرية يقولون ان الامامة بعد موسى الكاظم ، تنتقل الى ابيه على الرضا ثم الى اعدائه من بعده حتى الامام الثانى عشر ، وهو محمد المنتظر ابن الحسن العسكري بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا ، وعرفت هذه الطائفة باسم الامامة الاثنا عشرية ، لانتظارهم امامهم الثانى عشر ، ويقال ان امامهم الثانى عشر دخل سردابا في مدينة سامرا سنة ٢٦٠ هـ واختفى على اثر ذلك الاثنا عشرية ينتظرون عودته ليملأ الدنيا عدلا بعد ان ملئت ظلما وجورا .

(النوبتجى : فرق الشيعة ص ٥٧ وما بعدها)

ومهما يكن من أمر فان الامام الفاطمي لقن ابن حوشب^(١) أسرار الدعوة الفاطمية ووجهه الى بلاد اليمن ، وقال له : يا أبا قاسم • البيت يمانى والركن يمانى والدين يمانى ، والكعبة يمانيه ، وعهد اليه بأمر بت الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن وأن يقتبأ للناس بأننسمس الدولة الفاطمية ستظهر في اليمن^(٢) •

وفي نفس الوقت تعرف الدعاة الفاطميون على ، على بن الفضل الجيثساني — وهو يمانى من بنى جيسان — وكان تسيبياً اثنى عشرى ، وقد أدى فريضه الحج^(٣) • وسار في ركب حجيج العراق لزيارة قبر الحسين بن على ، وتأكد الدعاة من احلاصه في التسيب ، فقبوه اليهم ، وأقنعوه بالدخول في المذهب الاسماعيلى^(٤) • واتصل بالامام الاسماعيلى المستور — الحسين بن أحمد الذى اقتنع به ، ورأى ضرورة ضمه الى ابن حوشب والدعوة في بلاد اليمن ، لأنه يمانى يتعرف على طبيعة بلاده وأهلها^(٥) وجمع بينه وبين ابن حوشب ، ودعاها الى التعاون والتضامن في نشر الدعوة ، وقال لابن حوشب : « الى عدن عليها فاقصة ، وعليها فاعتمد ، فمنها يظهر أمرنا وفيها تعز دولتنا ، ومنها تفترق دعائنا » وأمره أن يخلص للمذهب ، ويتخذ التأويل الذى هو من فلسفة التسيب ، ويقول بالظاهر والباطن^(٦) • « فما خلق الله من ظاهر الا وله باطن » ، ودعاها

(١) الصليحيون والحركة الفاطمية ص ٣٠ .

(٢) الحمادى اليمانى : كشف أسرار الباطنية ص ٢٢ .

(٣) الجندى : أخبار القرامطة المأخوذ من كتاب السلوك ص ٦٣ .

(٤) ابن سمره : طبقات فقهاء اليمن ص ٧٧ .

(٥) ادريس عماد الدين : نزهة الافكار ج ٣ ص ٢٧ .

(٦) استدلوا على ما ذهبوا اليه بقوله تعالى : (وخذوا زكواتهم) .

وباطنه) — (وقل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن) . فالظاهر ما يظهره الناس وعرفه الخاص والعام . وأما الباطن ملا يعرفه الا الا قليل . من ذلك قوله تعالى (وما آمن معه الا قليل) وجمع ما عليه الناس أمثال مضروبة لمثولات وحجوبة . فأعرض للصلاة وما فيها وقف على باطنها ومعانها ، فان العمل بغير علم لا ينتفع به صاحبه فمثلا (اتقيوا الصلاة وآتوا وآتوا الزكاة) . . فالزكاة مفروضة في كل عام مرة وكذلك الصلاة) .

الى العمل بالظاهر ، واخفاء الباطن ، ودعو الى ظهور المهدي من اليمن ، وأن يجند الرجال ويجمع الأموال ، ويظهر الصوم والصلاة والزهد ، ثم أوصاه خيرا بعلى بن الفضل ، وأوصى على بن الفضل بأن يقف الى جانب أبى القاسم بن حوشب ، ويحسن صحبته .

وفي نهاية سنة ٣٦٧ هـ غادر الداعيان الاسماعيليان الكوفة ، وتوجها الى مكة المكرمة ، وأديا فريضة الحج ، وبعدها عادرا بلاد الحجاز منوجهين الى اليمن ، وبلغا غلافقة في مستهل عام ٢٦٨ هـ ، وكانت بندير مدينة زبيد ، تقع على ساحل البحر الأحمر ، ثم افترق الداعيان ، بعد أن اتفقا على أن يتصل كل واحد منهما بصاحبه ، ليتعرف أحواله (١) .

سار ابن حوشب في صحبة التجار قاصدا عدن لآعه ، ورحل معهم وقال أنا رجل من أهل العلم ، رغبت في الخروج معكم الى بلادكم ، ففرحوا به وقدروه وأكرموه ، وقالوا : نحن أحوج الى من يبصرنا بأمر ديننا ، ونحن نكفيك المونة ، وكان في الرحلة يسامرهم ، ويروي لهم عريب الأخبار ، فأحبوه وأصغوا اليه وأكرموه حتى قدموا لآعه ، فادعى مذهب السنة والجماعة فتسامع به الناس ، وأقبلوا اليه من كل ناحية ، وهو يظهر الزهد والورع (٢) .

وانتشر أمره ، وطار ذكره في البلاد ، حتى أيدته مغارب اليمن ، والتفوا حوله ، وولوه أمرهم ، وعهد الى الثقة العَدُول منهم بجمع الزكاة عن أموالهم طبقا للشريعة الاسلامية (٣) ، ولما استقر أمره في مغارب اليمن ، وأطاعه الناس ، وأخلصوا له ، ولم يعد يخشى من القوى المحلية في بلاد اليمن — وخصوصا بعد مقتل محمد بن جعفر ، واختلاف الحوالميين فيما بينهم — وطلب من أتباعه وأنصاره بناء حصن يدع فيه

(١) ابن فيص الله الهمداني . الصليحون والحركة الفاطمية في اليمن

(٢) الحمادي اليماني : كشف اسرار الباطنية في اليمن ص ٣٥ .

(٣) النسياني : قرّة العيون ص ١٨٢ .

الأهوال التي تجمعت لديه (١) . ويتخذة معصما يعتصم به اذا هاجمه
عدو ، وقاعدة لشن الهجمات على أعدائه ، فبنوا له موضعا يقال
له عجز محرم ، وهو جبل تحت مسور ، وأقام في الحصن بعد بنائه هو
وأصحابه ونساؤهم وأولادهم (٢) .

استطاع حوشب من معقله التصدي لكل التحديات التي واجهته
وهزم صاحب صنعاء من بني يعفر — وبذلك ازدادت هيئته ، وقوى بأسه
وعظم أمره ، ودخل في طاعته من كان حوله طوعا أو كرها ، واتخذ الطبول
والرايات (٣) وهنا تخلى عن ادعائه المذهب السنى ، وكشف للناس عن
حقيقة أمره ، وأظهر أنه داع اسماعيلي يدعو الى المهدي المنتظر من آل
محمد ، فبايعه عامة الناس على المذهب الاسماعيلي ، وسيطر على
جميع مخاليف مغارب اليمن وعهد الى ولاية من قبله بحكم البلاد التي
سيطر عليها وقمع كل المؤامرات التي تعرض لها ، واستولى على شبام ،
وغنم مغنم كثيرة من أموال بني يعفر (٤) ، وكتب الى عبيد الله المهدي
سنة ٢٩٠ هـ يخبره بانتصاراته ودخول الكثير من البلدان اليمنيه
الاسماعيلية ، وأوصى له بالهدايا النفيسة (٥) .

أما على بن الفضل ، فبعد أن فارق ابن حوشب بخلافه ، قصد
سرو يافع ، ورأى أن أهلها سريعو التأثير بمذهبه ، فطلع رأس الجبل ،
وبنى فيه مسجدا ، وأظهر العبادة والورع والتقوى والزهد ، فكان
نهاره صائما وليله قائما ، فاجتذب بذلك قلوب الناس اليه ، وولوه أمرهم .
وسألوه أن ينزل عن ذلك الجبل ، ويسكن بينهم ، وليكنه رفض وقال :
لا أفعل هذا ولا أسكن بين قوم جهال ضلال ، الا أن يعطوني المعهود
والمواثيق باتباع تعاليم الدين ، ونبذ ما نهى عنه الاسلام التحنيف ،

-
- (١) الشيباني :قرة العون ص ١٨٤ .
 - (٢) الحادي اليماني : كشف أسرار الباطنية ص ٢٦ .
 - (٣) الشيباني :قرة العيون ص ١٨٩ .
 - (٤) الحمادي اليماني : كشف أسرار الباطنية ص ٢٧ .
 - (٥) المغربي : اتعاظ الحنفا : ص ٦٨ — ٦٩ .

وينكرون المنكر ، ويأمرون بالمعروف (١) .

فاستجاب لعلی ، وأمرهم ببناء حصن سرو يافع (٢) وشن عدة حملات على لحج وأبين ، وهزم سلطانها أبا العلاء ، وأخلص له الجنود لأنه أظهر لهم أنه يجاهد أعداء الدين ، ورغبوا كذلك في الحصول على غنائم الحرب ، وما زال يواصل انتصاراته حتى دخلت قبيله مذحج وغيرها في طاعته ، ودخل المذخرة سنة ٥٢٩٤ واستولى على حصن التعمر وعلى يحصب ، ودخل بنكت ، ودمرها ، ثم زحف الى صنعاء فلما بلغ عنس ، رأى ابن يعفر أن لا طاقه له بابن الفضل وجنده ، فخرج من صنعاء هاربا الى الجوف (٣) ، فدخل ابن الفضل صنعاء ، وسيطر عليها (٤) .
وبذلك استطاع ابن حوشب وابن الفضل اخضاع معظم بلاد اليمن لسيطرتهم .

وقد أبدى الرجال من التعاون وانتسيق ، ما جعلهما ينجحان في نشر الدعوة ، وكانت سياستهما واحده ، فاتخذ كل منهما حصنا لحفظ المال والاحتماء به ، واتخاذ قاعدة للهجوم على أعدائه .

وقد نال ابن حوشب تقدير الامام الفاطمي ، ولقبه المنصور ، وبلغ من ثقته به أنه كلفه بنشر الدعوة في أرجاء بلاد الاسلام ، فكان يرسل الدعوة من قبله الى مصر واليامة والبحرين والهند والمغرب ، فضلا عن بلاد اليمن .

لم يكتف الامام محمد الحبيب بنشر الدعوة في بلاد اليمن ، بل عول على بثها في بلاد المغرب ، ذلك أن بلاد المغرب أرض صالحة لنشر المذاهب الاسماعيلية لأن أهلها عرفوا بمعارضتهم لبني العباس ، وعبروا عن ذلك بانضمامهم الى الأحزاب المعارضة كالخوارج والشيعة . لذلك أرسل

(١) الشيباني : قرّة العيون ص ١٨٧ .

(٢) الحمادي اليماني : كشف اسرار الباطنية ص ٢٨ .

(٣) الحمادي اليماني : كشف اسرار الباطنية ص ٢٧ — ٢٨ .

(٤) الشيباني : قرّة العيون ص ١٨٧ .

الامام الفاطمي ابا عبد الله الحسين بن احمد بن زكريا المعروف بالسيدي الى ابن حوشب وأمره بالدخول في طاعته ، وان يأخذ عنه تعاليم ومبادئ المذهب الاسماعيلي ، ويستفيد من تجاربه ، وبعدها يتجه الى المغرب لنشر الدعوة على غرار ابن حوشب في اليمن ، وهذا يدل على أن ابن حوشب أصبح من أكبر الدعاة الفاطميين في دار الاسلام .

ظل أبو عبد الله الشيعي في اليمن عند ابن حوشب يتلقى منه تعاليم الدعوة حتى توفي الداعيان الفاطميان في المغرب ، أبو سفيان والحلواني، فأذن ابن حوشب لأبي عبد الله الشيعي بالتوجه الى المغرب ونشر الدعوة فيها (١) .

بذل أبو عبد الله الشيعي جهدا كبيرا في نشر المذهب الاسماعيلي في المغرب ، وبشر اهلهما بقرب ظهور المهدي ، وظل على اتصال بالامام محمد الحبيب ، لما توفي خلفه ابنه عبيد الله المهدي أظهر له الطاعة والولاء ، وأرسل يبشره بنجاح الدعوة في المغرب ، بل أرسل اليه وفدا من كتامة يدعوه الى القدوم الى بلاد المغرب (٢) .

على أنه في نفس الوقت الذي كان يعتقد فيه رؤساء الدعوة الفاطمية في اليمن ، أن المهدي سيظهر في اليمن ، كان دعاة الاسماعيلية في المغرب يسعون أيضا الى ظهور الدولة الفاطمية في المغرب ، وأرسل رؤساء الدعوة في اليمن ، كما أرسل رؤساء الدعوة في المغرب الى عبيد الله يطلبون قدومه الى بلدهم (٣) .

لما علم الخليفة المكتفي بازدياد نشاط عبيد الله المهدي ودعائه ، بث عيونه في سلمية حتى يتمكن من المهدي ، فغادر المهدي سلمية

(١) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ص ٧٤ — ٧٥ .

(٢) المقرئزي : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٢٥ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٦٥ .

هو وحاشيته وأسرتة ومواليه (١) ، وأظهر للمقربين اليه أنه يريد اليمن، ولما بلغ مصر ، غير وجهته ، وسار الى المغرب بدلا من اليمن في وقت در منصور اليمن ، ابن حوشب — يستعد لاستقباله في اليمن •

تختلف الروايات التاريخية حول أسباب تغيير عبيد الله المهدي وجهته الى المغرب بدلا من اليمن • فيرى البعض (٢) أن المهدي علم بخروج ابن الفضل على ابن حوشب ، فكره أن يستقر في بلد منقسم على نفسه بين الدعاة وغير موحد وتسوده القلاقل والاضطرابات • ولكن هذا الكلام بعيد عن الحقيقة ، لأن ابن الفضل لم ينتقض على ابن حوشب ، الا بعد أن علم بتغيير وجهته نظر المهدي من اليمن الى المغرب فخلع طاعة المهدي وداعيه ، وارتد عن المذهب ، واستقل بالبلاد التي في حوزته •

ولا يبعد أن عبيد الله المهدي اعترم بعد خروجه من سليلة المذهب الى المغرب بدلا من اليمن ، وقد أغراه بذلك أبو عبد الله الشيعي وزين له أمر المقام فيها • أما اعلانه لخاصته ومواليه حين مغادرته سلمية بأنه ذاهب الى اليمن ، وغير وجهته من مصر الى المغرب ، فيتمشى مع ما جبل عليه الاسماعيليون من اظهار غير ما يبطنون ، كما حرص الامام الفاطمي على ألا يتسرب الخبر الى بنى العباس فيتعقبونه وينكلون به •

غضب الداعي فيروز — الذي كان في صحبة المهدي في رحلته من سلمية الى مصر — من تغيير المهدي وجهته الى المغرب بدلا من اليمن ، فتخلى عن صحبته ، ورحل مغاضبا الى اليمن ، وأكرم ابن حوشب وقادته (٣) ولما علم ابن حوشب بخروج فيروز على الامام، شرع في قتله ، غلجاً

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٨ ق ٩٦ •

(٢) المقرئ : أتعاظ الحنفا ص ٩٠ •

(٣) ابن المؤيد اليمني : انباء الزمن في اخبار اليمن ص ٣١ •

فيروز الى علي بن الفضل ، الذي ثارت ثائثرته عندما علم بتغيير المهدي وجهته^(١) وخلع طاعته ، وارتد عن المذهب الاسماعيلي ، وكون لنفسه ملكا عريضا في ربوع اليمن ، حكمه بالقوة والعنف مستقلا عن الدولة الفاطمية ، واتخذ المذيخرة سنة ٢٩٤ هـ عاصمة لدولته^(٢) .

حاول منصور اليمن أن يعيد علي بن الفضل الى سابق طاعته للامام عبيد الله المهدي ، لكن بن الفضل أكد لابن حوشب أنه يحذو حذو أبي سعيد الجنابي الذي استقل بالبحرين ، وكتيب اليه يقول : « ان لي بابي سعيد الجنابي أسوة . وأنت ان لم تنزل وتدخّل في طاعتي نابذتك الحرب » فكتب اليه منصور اليمن يعاتبه ، ويذكره بالعهود والمواثيق التي أخذها عليه الالمام ، كما حذره عاقبه الانقسام ، الأمر الذي سيكون له اثره في اضعاف الدعوة . وقل في كتابه : كيف تخلع طاعة من لم تر خيرا الا ببركة الدعاء اليه . وقد أعطينا من العهود ماقد علمته^(٣) . فأجابه ابن الفضل بقوله : « انما هذه الدنيا تساة ، ومن ظفر بها افترسها »^(٤) . وبذلك فنسبت جهود ابن حوشب في اعادة ابن الفضل الى المذهب الاسماعيلي ، ونشأ العداة بين الرجلين .

قاد ابن الفضل عشرة آلاف رجل لحرب ابن حوشب والتخلص منه ، حتى تصفو له اليمن ، فدخل قرية شيبام ، وخرج المنصور للقاءه ، وحاصره المنصور ، وشدّد عليه الحصار في جبل الحميمة ثمانية أشهر^(٥) ، حتى مل المقام ، وأرسل اليه المنصور ابنه ، فأكرمه ابن الفضل ، وبقي عنده مدة ، ثم أطلق سراحه^(٦) . وبذلك لم يستطع

-
- (١) الحمادي اليماني : اسرار الباطنية ص ٢٢ .
 - (٢) اليماني : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٥ .
 - (٣) الحمادي اليماني : كشف اسرار الباطنية ص ٣٢ .
 - (٤) الشيباني : قرّة العيون ص ٢٠٢ .
 - (٥) المصدر السابق : ص ٢٠٥ .
 - (٦) زيارذ : أئمة اليمن ص ٣٣ .

المصور النيل من ابن الفصل ، وظل يحكم دولة كبيرة في اليمن • وكان
جبارا عاشما •

وأول من دعا الى المذهب الاسماعيلي بأفريقيه الحلواني وأبو
سفيان ، أنفذهما جعفر الصادق ، وقال لهما بالمغرب أرض بور فاذهبا
واحرثاها حتى يجيءء صاحب البذر ، فنزل الرجلان ببعض بلدان كتامة،
وبذلا جهودا مضيئه في نشر الدعوة الاسماعيلية، وكان الامام الاسماعيلي
محمد الحبيب ينزل بسلمية من أرض حمص ، وبعد هذا الامام محمد
الحبيب — كما قلنا — غلى بن الفضل وابن حوشب الى اليمن لنشر
الدعوة ، وفي غضون ذلك اتصل أبو عبد الله الشيعي بالامام الاسماعيلي،
فلاحظ فيه مواهب الداعي ، فأرسله الى ابن حوشب في اليمن ، ليتعلم
منه أصول المذهب ، وعلوم الظاهر والباطن ، وواجبات الدعاه وأسرار
الدعوة ، وبعد أن يتيقن ابن حوشب من تعلمه وتفقهه في الدعوة ، يرسله
الى المغرب ، ويقصد بلاد كتامة فيظهر بينهم الدعوة •

لزم أبو عبد الله الشيعي جانب ابن حوشب ، وشهد مجالسه
واستفاد من علمه ، ثم خرج مع حاج اليمن الى مكة ، فلقى رجالات
كتامة ورؤساءهم ، وجلس اليهم وسمعوا منه ، وألقى عليهم دروسا في
الدين والأدب ، وأعجبوا به خصوصا لما رأوا ما هو عليه من الزهد
والعبادة ، فأحبوه وأخلصوا له ، وتعلقوا به ، وصار يتعهدهم فيرحالهم،
فاغتبطوا به ، واغتبط بهم ، ولما أرادوا الرحلة الى بلادهم ، سألوه
الصحة ، فوافقهم ، وحرص على أن يخفى حقيقة مذهبه عنهم •
واستطاع في رحلته معهم أن يعرف أحوال بلادهم السياسية والاجتماعية
والاقتصادية ، ولما بلغوا مصر تظاهر برغبته في الانصراف عنهم مولكنهم
ألحوا عليه ، وأصروا على أن يصحبهم الى بلادهم •

وفي سنة ٢٨٨ هـ وصل وفد كتامة الى بلادهم في صحبة الداعي أبي
عبد الله الشيعي ، وأكرم أهل كتامة وفادة الداعي الاسماعيلي ، وكانت

الدعوة الاسماعيلية قد انتشرت بينهم من قبل بفضل الحلواني وأبو سفيان ، وكانا قد حرثا هذه البلاد ، كما انتشر التشيع من قبل في بلاد المغرب على يد الامام ادريس بن عبد الله الذي أقام أول دولة نسيجية في بلاد المغرب الأقصى بعد موقعة فخ ، التي قادها الثائر العلوي الحسين ابن علي بن الحسن بن علي ، وكان معروفاً بالطم والتقوى والكمائن ، ولكن العباسيين تصدوا له في ذي طوى بالقرب من مكة ، وقتل في مكان يقال له فخ على بعد ستة أميال من مكة .

ومما أدى الى سهولة مهمة أبي عبد الله النسيجي في المغرب انتشار التشيع بينهم ، بل اعتنق بعض وزراء الأغالبة في تونس المذهب الاسماعيلي .

تتنافس أهالي كتامة على اكرام وفادة أبي عبد الله النسيجي وبشرهم بقرب ظهور المهدي الذي سيصلح الدنيا ويعيد العدل ويمنع الظلم ويطمئنهم على حاضرهم ومستقبلهم ، ولم يلبث أن كنف أبو عبد الله النسيجي عن نواياه لأهل كتامة ، فقال لهم : أنا صاحب البذر الذي أخبر به أبو سفيان والحلواني .

انتشرت وراجت الدعوة لآل البيت بين أهل كتامة وناظر أبو عبد الله النسيجي علماءهم ، ودعا للرضا من آل محمد ، وكانوا يسمونه بالنسيجي أو المشرقي .

استخدم أبو عبد الله النسيجي التنبؤ والسحر والتبشير كوسيلة من وسائل الدعاية التي تلائم عقلية البربر في هذه البلاد ، ويروي المؤرخون أن النسيجي لما نزل افريقية سأل أين فج الأخياري ؟ وهو جبل من جبال كتامة ولم يكونوا قد ذكروه له ، فدهشوا من سؤاله ، ودلوه عليه . فقال ما سمى الا بكم . ولقد جاء في الآثار أن للمهدي هجرة تنبو عن

الأوطان ، تنصره فيها الأخيـار قوم اسمهم مستق من الكنـمان
• أي كتامه)

كذلك استخدم الداعي السحر ، وصنع من الحيل والطلاسم والرقى
والأحجية ما أذهل العقول •

لما علم ابراهيم بن الأغلـب — أمير افريقية — بأمر أبي عبد الله
الشيـعى ، أنكر ذلك ، ورأى أن وجوده فى المغرب يشكل خطرا على
ملكه ، فبعث اليه بالتهديد والوعيد ، وتتبعه عمال الأغالبة ، فخشى رؤساء
كتامه عليه ، وأخفوه عن أعين الأغالبة •

أظهر الداعي أبو عبد الله الشيـعى الولاء والطاعة للإمام الاسماعيلى
— المستور — محمد الحبيب ، وكان يرسل اليه الهدايا وأخبار الدعوة فى
بلاد المغرب •

لم يكتف أبو عبد الله الشيـعى بنشر الدعوة فى بلاد المغرب ، بل
حرص على بسط سيطرته ونفوذه على افريقية ، فأرسل رجاله الموالين
له الى بلدان افريقية ، فسقطت فى أيديهم الكثير من بلدان افريقية ،
وكانت دولة الأغالبة ، قد اعتراما الضعف والوهن ، وانتشر التشيع بين
كبار رجال الدولة ، وانقسم أفراد البيت على أنفسهم ، وفى خلال ذلك
هلك ابراهيم بن أحمد بن الأغلـب ، وقتل ابنه أبو العباس ، وقام
بالأمر ابنه زيادة الله ، وانتقل من تونس الى رقادة ، وانهمك فى
ملاذاته ، وانتشرت جيوش أبى عبد الله الشيـعى فى البلاد ، وعلا أمره ،
وطار ذكره فى الآفاق ، وبشر الناس بقرب ظهور المهدي ، « فكان
كما قال » •

لم تتقطع الحرب بين زيادة الله الثالث والشيعة على الرغم من أن
وزراءه أيدوا دعوة الداعي الشيـعى • وفى سنة ٢٩٦ هـ دارت واقعة
الاريس التى أدت للى زوال دولة الأغالبة بافريقية ، وامتد نفوذ
الفاطميين فى ذلك الوقت الى أكثر أجزاء بلاد المغرب حتى أصبحوا
مسيطرين تماما على أكثر بلدان المغرب الواقعة الى الغرب من مدينة
القيروان •

ولما توفي محمد الحبيب بن جعفر بن محمد بن اسماعيل الامام عهد الى ابنه عبيد الله ، وقال له : أنت المهدي ، وتهاجر بعدي هجرة بعيدة ، وتلقى محنا شديدة . واتصل خبره بسائر دعائه في افريقيه واليمن ، وبعث اليه أبو عبد الله رجالا من كتامه يخبرونه بما فتح الله عليهم ، وأنهم في انتظاره وشاع خبره ، واتصل بالعباسيين ، فتتبعه الخليفة العباسي المكتفي ، وبث عيونهم للاحقته والقبض عليه وعاد أنصاره واحباط الدعوة الاسماعيلية ، واستطاعت الخلافة الكشف عن الموضع الذي يختفي فيه الامام ، لذلك رأى الامام الخروج من سلمية ، وفر هو وأنصاره ومواليه وأهله من أرض الشام ، الى العراق ، ثم لحق بمصر ، ومعه ابنه أبا القاسم غلاما حدثا معترضا للحاق بأبي عبد الله الشيعي ، والنزول بأرض المغرب ، وارتحل من الفسطاط الى الاسكندرية ، ثم خرج من الاسكندرية في زى التجار ، وجاء كتاب الخليفة المكتفي الى عامله على مصر عيسى النوشري يأمره بملاحقة عبدالله المهدي والقبض عليه وعلى أنصاره واستطاع عيسى النوشري تتبع المهدي والقبض عليه ، لكن المهدي أغراه بالمال ، فأخلى سبيله ، وزعم الوالى للخليفة بأن الرجل الذي قبض عليه ليس المهدي ، ولكنه أحد التجار ، وبذلك استطاع المهدي الفرار من أعين العباسيين .

واصل عبيد الله المهدي زحفه الى بلاد المغرب ، فبلغ برقة ، ومنها الى طرابلس ، وتعرضت قافلته لهجمات قطاع الطرق ، ونهب اللصوص فيما نهبوا كتبها في الملاحم منقولة عن آباءه .

لما وصل عبيد الله المهدي الى طرابلس ، أرسل رسلا الى داعيه أبا عبد الله الشيعي ، يبلغه أنه في الطريق اليه ، ومن هؤلاء الرسل أبو العباس أخو أبو عبد الله الشيعي وجماعة من الكتاميين ، ولكن خبر هؤلاء الرسل بلغ زيادة الله وهو يسأل عنهم ، فقبض على أبا العباس ، ولم يستطع أن يعرف منه خبر عبيد الله المهدي ، والموضع الذي يقيم

فيه ، وطلب زيادة الله من عمله على طرابلس القبض على المهدي وعلى رفاقه ، ولكن المهدي كان قد غادر طرابلس متجها الى قسطنطينة ، ثم عدل عنها خشية على أبي العباس أخى الشيعى المعتقل فى القيوان ، فذهب الى سجلماسة وبها اليسع بن مدرار ، فأكرم وفادته ، وأنزله فى ضيافته غير أن زيادة الله أرسل الى اليسع يبلغه بأن الرجل الذى قدم اليه هو المهدي . لذلك قبض عليه اليسع ، وزجه فى السجن .

واصل أبو عبد الله الشيعى انتصاراته فى بلاد المغرب وسقطت فى يده البلاد ، الواحدة تلو الأخرى ، وشاع عن الشيعى وفاؤه بالأمان ، فأمنه الناس ، وسار يريد رقاده فرأى زيادة الله أنه لا قبل له بالشيعى ، ففر من رقاده الى المشرق ونهبت قصوره ، ولجأ أهل رقادة الى القيوان وغيرها ودخل أبو عبد الله الشيعى رقاده ، وأعطى للناس أمانا على أموالهم وأنفسهم ، وأكرمهم ، ورحب به أهل رقادة والقيوان ، ودخل رقادة فى رجب سنة ٢٩٦ هـ ، ونزل فى قصرها ، وأطلق سراح أخيه أبى العباس ، ونودى فى الناس بالأمان ، وقسم الشيعى الدور فى رقادة على أهل كتامه واستولى على أموال وأسلحة زيادة الله ، وحذف اسم الخليفة العباسى عن الخطبة وعن العملة .

كان لآبى عبد الله الشيعى بعد أن أسقط دولة الأغالبة واستولى على عاصمتهم رقادة ، أن يطلق سراح الامام عبيد الله المهدي المعتقل فى سجلماسة ، فاستخلف على افريقية أخاه أبا العباس ، اهتز المغرب لخروجه ، وفرت زناته من طريقه ، ثم دخلوا فى طاعته ، وأرسل الى اليسع بن مدرار - صاحب سجلماسة - يخطب وده ، لكن اليسع قتل الرسل ، ولم يقبل صداقته ، بل خرج لمحاربتة ، ولكنه لمس قوة أبى عبد الله الشيعى ، وكثرة جنده ، وقوة بأسه ، فهرب هو وأصحابه ، وخرج أهل البلاد للقاء الشيعى ، وساروا فى صحبته الى سجن المهدي وابنه ، وأفرجوا عنهما وباع للمهدي ومثى مع رؤساء

القبائل بين أيديهما ، وهو يبكى من الفرح ، ويقول : هذا مولاكم .
وأنزل المهدي في مخيم ريثما يتخلص من اليعسج بن مدرار ، وفعل
قتله ، وسار في صحبة المهدي الى رقادة سنة ٢٩٧ هـ وبويع المهدي
البيعة العلهمة ، واستقام أمره وبث دعائه في الناس ، فرضوا الا قليلا ،
وقسم الأموال والجواري في رجال كتامه ، وأقطعهم الأعمال ، ودون
الدواوين ، وجبى الأموال ، وبعث العمال على البلاد .

اتخذ عبيد الله المهدي رقادة حاضرة لدولته سنة ٢٩٧ هـ وأمر بذكر
اسمه في الخطبة من منابر البلاد ، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين ، وبذلك
قامت الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب ، وتطورت بذلك نظرية الخلافة ،
فبعد أن كانت الخلافة وحدة واحدة لا تتجزأ ، صارت هناك خلافة
جديدة ثانية ، لا تعترف بخلافة بني العباس ، وتدعى أنها أحق
لانتسابها الى آل بيت رسول الله .

أرسل عبيد الله المهدي بعد اعلان خلافته ، عمالا الى الولايات
المختلفة ، واختارهم من زعماء كتامة ، وغيرهم من أهل المغرب الذين
أظهروا الولاء والطاعة للامام ، وأمر أبو عبد الله الشيعي بتوحيد
بلاد المغرب تحت سلطانه ، واستطاع أبو عبد الله الشيعي اخضاع
بعض بلدان المغرب الأوسط والأقصى ، وفي سنة ٢٩٨ هـ أخضع قبائل
زناته جنوبي بلاد كتامة ، فدانوا له بالولاء والطاعة .

وعلى الرغم من أن الدولة الفاطمية مدينة بوجودها وقيامها
لجهود أبي عبد الله الشيعي ، الا أن المهدي تخلص منه ، ذلك لأنه
استاء من استبداد أبي عبد الله وأخيه أبي العباس بالأمر دونه ، ذلك
أن المهدي لما شعر بتحكم الشيعي في أمره ، نهاه عن مباشرة الناس ،
وقال : انه مفسد للهيبة ، وساعت العلاقات بين الأخوين من ناحية
والمهدي من ناحية أخرى ، حتى أن أبا عبد الله الشيعي أوهم الناس
أن عبيد الله ليس هو الامام المعصوم ، حتى أن رجلا من كتامه ، يعرف
بشبيخ المشايخ ، ذهب الى المهدي وقال له : جئنا بأية على أمرك ،

فقد شككنا فيك ، فقتله المهدي ، وحامت الشكوك حول امامة المهدي
واتفق الكتاميون على قتله ، ولكن المهدي استقطب زعماءهم ، وأغراهم
بالمال والمناصب ، وأرسل المهدي رجلا لقتل أبي عبد الله الشيعي وأخيه
أبي العباس ، وحينما هم الرجل بقتل الشيعي ، قال له : لا تفعل .
فقال : الذي أمرتنا بطاعته ، أمرنا بقتلك ، ثم قتلها في سنة ٢٩٨ هـ .

استاء الكتاميون من مقتل أبي عبد الله الشيعي ، وثاروا على
عبيد الله المهدي ، ولكن المهدي أخمد الفتنة ، ثم اشتبك الكتاميون مع
أهل القيروان في معارك متعددة .

ولما استقام الأمر للمهدي بعد مقتل الشيعي ، وهذأت البلاد ،
وتوقفت الفتنة ، عهد عبيد الله المهدي بولاية العهد لابنه أبي القاسم
نزار ، وولى على برقة وما إليها حباسة بن يوسف ، وعهد إلى أخيه
هروبه بولاية المغرب ، وفتح تاهرت .

لكن الكتامين لم ينسوا حادث مقتل أبي عبد الله الشيعي
ونصبوا طفلا لقبوه المهدي ، وزعموا أنه المهدي ، وأن أبا عبد الله
الشيعي لم يموت ، فأرسل عبيد الله المهدي ابنه أبا القاسم اليهم ،
فصار بهم وقاتلهم ، وهزمهم ، وقتل الطفل ، وبذلك هدأت هذه
الفتنة .

وفي سنة ٣٠٠ هـ ثار أهالي طرابلس على الحكم الجديد ، والدولة
الجديدة ، ولكن أبا القاسم أخضعهم وفرض عليهم غرامة مالية
كبيرة .

تطلع عبيد الله المهدي لفتح مصر لأنها قلب العالم الاسلامي ،
ولقربها من الحرمين الشريفين ، ولوفرة خيراتها ، ولعدم ثقته باستمرار
ولاء أهل المغرب له ، فأرسل حملة من أهل كتامة ، بقيادة أبي القاسم
سنة ٣٠١ ، يدعمها أسطول في البحر بقيادة حباسة بن يوسف ،
وامتلكت الحملة برقة ثم الاسكندرية والفيوم ، ولكن جيوش بني
العباس تصدت لهذه الحملة ، وأجلتها عن مصر .

استاء المهدي من هزيمة حباسة ، فقتله ، وانتفض لذلك أخوه
عروبه في المغرب ، واجتمع اليه خلق كثير من كتامه والبربر ، ولكن
المهدي أخذ الفتنة ، كما قضى على فتنة في صقلية .

اعتزم المهدي بناء مدينة على ساحل البحر يتخذها معصما
لأهل بيته ، لما كان يتوقمه على الدويلة من الخوارج ، وخرج بنفسه
يرتاد موضعا لبنائها ، ومر بتونس وقرطاجنه حتى وقف على مكانها ،
جزيرة متصلة بالبر ، وتقع على بعد ستين ميلا جنوبي القيروان ،
واختط المهدي هذه المدينة ، وأسماها المهديّة ، وجعلها دار ملكه ،
وحاضرة دولته ، وأدار بها سورا محكما ، وجعل لها أبوابا من الحديد ،
وابتداً ببنائها أواخر سنة ٣٠٣ هـ ، وجعل زنة كل باب ألف قنطار ،
وطوله ثلاثون شبرا ، ونقش على هذين البابين صور بعض الحيوانات ،
وأقيم بها ثلاثة وستون صهريجا ، عدا ما كان يجري فيها من القنوات ،
وبنى المهدي في المهديّة دارا للصناعة ، تسع أكثر من مائتي مركب ،
وشيد فيها الأسواق والقصور والدور ومخازن الطعام والسلاح
وصهاريج المياه ، ولما أتم بناء حاضرة دولته سنة ٣٠٦ هـ ، قال : اليوم
آمنت على الفاطميات ، يعنى بناقته ، وفي سنة ٣٠٨ رحل اليها ، وأقام
فيها ، وراحت فيها التجارة ، وكان لكل طائفة من التجار سوق يمارسون
فيها نشاطهم التجاري ، ولأرباب الحرف شوارع معلومه ، يقيم فيها
أهل كل حرفة ، وقد انتقل الناس الى هذه المدينة الجديدة ، وأقاموا
فيها ، وشيدوا بها الدور والبيوت ، فعمرت ، وانتعشت فيها
التجارة .

أقام المهدي مدينة أخرى الى جوار حاضرتة ، يفصل عنها ميدانا
فسيحا ، وأحاطها بسور وأبواب ، وسماها زويلة ، نسبة الى إحدى
قبائل بلاد المغرب .

وفي سنة ٣٠٧ هـ أرسل المهدي ابنه أبا القاسم الى مصر لفتحها
فملك الاسكندرية ، والجيزة والاسمونين ، وكثيرا من بلدان الصعيد ،

وكتب الى أهل مكة يطلب منهم الدخول في طاعته ، ولكنهم أبوا ، وكان مصير الحملة الفاطمية على مصر ، نفس مصير سابقتها ، حيث الحق جند بنى العباس بها الهزيمة .

وفي سنة ٣٠٨ هـ أخضع عبيد الله المهدي الأدارسة في المغرب الأقصى بسططانه ، وضم فاس الى حوزته ، وزالت دولة الأدارسة ، وأخضع قواد عبيد الله المهدي بنى مدرار حكام سجلماسة ، وقتلوا أميرها المدراري المكتاسي ، وتعددت الثورات في بلاد المغرب ضد الحكم للفاطمي ، فأرسل عبيد الله المهدي قادته لاخضاع الثورات خصوصا الحركات المناوئة من قبل الخوارج الاباضية والصفيرية . والخلاصة أن عبيد الله المهدي قضى سنين حكمه في اخضاع الثورات المتعددة والمتفرقة في بلاد المغرب .

وفي سنة ٣٢٢ هـ توفي عبيد الله المهدي ، وولى ابنه أبو القاسم محمد ، ولقب القاسم بأمر الله ، وكثر عليه الثوار وثار عليه بنواحي طرابلس ، ابن طالوت القوشى ، وزعم أنه ابن المهدي ، وحاصر طرابلس ، ولما ظهر للبربر كذبه قتلوه وأخضع ثورة في فاس وفي الريف ، حتى خضعت هذه البلاد للدولة الفاطمية ، وشن عدة غزوات على بعض جزر البحر المتوسط وأرسل حملة الى مصر باعت بالفشل .

وفي عهد هذا الخليفة شهدت بلاد المغرب ثورة كبيرة ، أشعلها ضد الحكم الفاطمي ، أبو يزيد مخلد بن كيداد ، وهذه الثورة دافعها قومي ، ذلك أن أبا يزيد عبير عن مواطنيه البربر الذين أقاموا ملكا اسلاميا في الأندلس ، وفتحوا هذه البلاد بسبيونهم ودمائهم ، واستأثر العرب بالثروات والنفوذ دونهم ، ولم يجنوا ثمار كفاحهم ، وكذلك الحال في المغرب فقد رأى أبو يزيد مواطنيه البربر أقاموا الدولة الفاطمية في المغرب ، ولم يحصلوا على مكاسب من جهودهم ، فرأى ضرورة الثورة من أجل اقامة حكم وبناني من البربر ، وازالة كل حكم دخيل عن بلاد المغرب .

اعتنق أبو يزيد مذهب الخوارج الصفرية ، وسافر الى تاهرت وأقام بها يعلم الصبيان ، ولما صار الشيعي الى سجلماسة في طلب المهدي ، انتقل أبو يزيد الى نقيوس يعلم فيها وكان يدعو الى ما يدعو اليه الخوارج الصفرية من استباحة الأموال والنساء والخروج على السلطان ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر سنة ٣١٠ هـ ، فكثر أتباعه ، ولما توفي المهدي خرج بناحية جبل أوراس ، وتلقب بشيخ المؤمنين ودعا للناصر الخليفة الأموي بالاندلس ، فانضم اليه جمع غفير من البربر ، وهزم عامل باغايه الفاطمي ، واستولى عليها ، ولكنه لم يلبث أن ارتد عنها ، ثم ملك اربس ، وأحرقها ونهبها ، ودخلت في حوزته بعض البلدان التي يحتلها الفاطميون ، ولم يلبث أن اقترب من المهدي ، وشن عليها عدة غارات ، حتى هجرها أهلها الى البلاد المجاورة . وسار عسكره الى القيروان ، وامتلكها سنة ٣٣٣ هـ ، وخرج اليه شيوخ للقيروان فأمنهم ، ورمع النهب عنهم .

شاع الخراب والدمار في بلاد افريقيه من عارات أبي يزيد فبعث الفاتم الى رؤساء كتامه والقبائل والى زيري بن مناد - ملك صنهاجه - بالمسير الى المهدي لاختصاص الثوار .

ولم يلبث أن ضعف نفوذ أبي يزيد بسبب انضمام عدد كبير من البربر الى جيوش الفاطميين ، الأمر الذي اضطره الى مغادرة المهدي تاركا حلفه المون والعتاد ثم تقدم الى القيروان ، ووقع بأهلها الهزيمة سنة ٣٣٤ هـ .

وفي هذه السنة توفي الخليفة القائم ، بعد أن عهد الى ابنه اسماعيل بالحكم من بعده ، وولى اسماعيل الخلافة ، وتلقب بالنصور ، وكنم موت أبيه بسبب اضطراب البلاد من جراء ثورة أبي يزيد ، فلم يلقب نفسه خليفه ، ولم ينقش اسمه على السكة ولم يذكر اسمه في الخطبة ولا البنود الى ان فرغ من أمر أبي يزيد .

رأى للنصور ضرورة التخلص من أبي يزيد ، واعادة الهدوء

والسكينة الى البلاد ، فأرسل جيشا وأسطولا الى سوسه لمحاصرة
أبى يزيد ، فانهزم أبو يزيد ، واستبيح معسكره ، ولحق بالقيروان ،
فمنعه أهلها من دخولها ، وطردوا عامله من بلدهم ودخل المنصور
القيروان ، أمن أهلها ، ودارت عدة حروب بين الخليفة وأبى يزيد
في مواضع متفرقة ، وهزم جند أبى زيد ، ومزقوا سُر ممزق ، ومضى
أبو يزيد منهزما في قلة من جنده ، ودارت الحرب بين الفريقين في كل
موضع وفي كل ناحية ، حتى لجأ أبو يزيد الى بعض القلاع ، ففتحها
الفاطميون عنوة ، وأضرموا فيها النيران ، وقتل أصحاب أبى يزيد في
كل ناحية ، وقبض على أبى يزيد ، ومات متأثرا بجراحه سنة ٣٣٦ هـ .

تدهورت الأحوال الاقتصادية في بلاد المغرب بسبب ثورة أبى
يزيد ، فانهارت الزراعة ، وتعطلت التجارة ، وكشفت هذه الثورة عن
مدى معارضة أهل المغرب للحكم الفاطمي واستعدادهم للاتصام الى
الحركات المعارضة للدولة الفاطمية . وأخذ النفوذ الفاطمي ينضاع
منذ قيام هذه الثورة ، كما ابتدأت الحكومات المستقلة في الظهور في
المناطق الغربية من الدولة الفاطمية .

وفي سنة ٣٣٧ هـ شيد المنصور في الموقع الذى دارت فيه المعركة
التي أنهت حركة أبى يزيد على مقربة من القيروان مدينة سماها
المنصورية ، واتخذها حاضرة لدولته ، وكان لهذه المدينة خمسة أبواب ،
الباب القبلى والبواب الشرقى وباب زويلة ، وباب كتسامه ، وباب
الفتوح ، وكانت جيوش الفاطميين تخرج من هذا الباب . وازدهرت
فيها النجارة والصناعة ، وعم فيها العمران ، وظلت حاضرة للدولة
الفاطمية ، حتى غادرها الخليفة المعز لدين الله الفاطمي الى حاضرتة
الجديدة ، القاهرة سنة ٣٦٢ هـ .

وفي سنة ٣٤١ هـ توفى المنصور ، وخلفه ابنه معد ، ولقب بالمعز
لدين الله الفاطمي ، وحرص على توطيد النفوذ الفاطمي في بلاد
المغرب ، وقهر معارضيه ، فأرسل في سنة ٣٤٧ هـ قائده جوهر الصقلي

الى تاهرت ، فاستولى عليها ، ونكل بوالبيها يعلى بن محمد الزناتى ،
الذى خلع طاعة الفاطميين وأعلن ولاءه للخليفة عبد الرحمن الأموى فى
الأندلس • وواصل جوهر زحفه الى البلاد المعارضة للحكم الفاطمى
فوصل الى سجلماسة ، وقد سيطر عليها ابن واسول الذى تلقب
بالنساكر بالله ، وخاطبه الناس بأمر المؤمنين ، ونقش اسمه على
العملة ، وقد استطاع جوهر مطاردته ، وهزيمته ، واسترد نفوذ
الفاطميين على سجلماسة •

وواصل جوهر جهوده فى بسط السيطرة الفاطمية على بلدان
المغرب الأقصى حتى تم له ذلك باستثناء سبته وطنجه التى سيطر
عليهما الأمويون فى الأندلس وبذلك استرد الفاطميون سيطرتهم على
بلاد المغرب ، وان كان ذلك بصفة مؤقتة ، لأن المغاربة وان كانوا قد
خضعوا للحكم الفاطمى ، الا أنهم كانوا غير راضين عنه ومعارضين له ،
ويتحينون الفرص للثورة على هذا الحكم ، وقد انتهت الفرص بحد
انتقال المعز الى مصر •

الدولة الزيرية

لا اعترف المغز لدين الله الفاطمي الرحيل الى مصر ، رأى ضرورة تولية أحد القادة الثقة افريقية والمغرب ، حتى يضمن استمرار ولاء هذه البلاد لدولته ، فعهد إلى بلكين بن زيوري بن مناد بحكم هذه البلاد نيابة عنه ، وأسماه يوسف بدلا من بلكين ، وكناه أبا الفتوح ولقبه سيف الدولة ووصله بالخلع والأكسية الفاخرة ، وأسند إليه قيادة الجيش والأسطول وإدارة الولايات ، وأوصاه بثلاث : أن لا يرفع السيف عن البربر ، ولا يرفع الجباية عن أهل البادية ، ولا يولى أحدا من أهل بيته ، وأوصاه بأن لا يسمح للأمويين بمد نفوذهم في بلاد المغرب ، وأن يحافظ على السيطرة الفاطمية والنفوذ الفاطمي في هذه البلاد .

اضطلع بلكين بالمهمة التي أسندت إليه ، فأخضع بلاد المغرب الأوسط ، وسيطر على سجلماسة ، وقضى على ثورة أهل قاهرت ، وأخضع جموع زناته في تلمسان ، وحاصر هذه البلدة حتى استسلمت له ، ولكنه لم يتوغل في المغرب بناء على أوامر الخليفة المعز ، ولم ينبت أن ضم إليه الخليفة ، طرابلس ، وعاد بلكين إلى محاربة زناته ، وفرت أمامه ، فملك فاس وسجلماسة والبلاد المجاورة ، وطرد منها عمال بني أمية الأندلسيين ، ثم غزا جموع زناته بسجلماسة ، وأوقع بهم ، وقبض على ابن خزر — أمين مغراوه ، وقتله .

استنجدت جموع زناته التي لجأت إلى سبته بالحاجب المنصور في الأندلس ، فأمدهم بجيش كبير ، ولكن بلكين تراجع عن القتال ، بعد أن هاله قوة جيش المنصور ، وانسحب إلى برغراطة ، وشغل بجهادهم ، وقتل ملكهم عيسى بن أبي الأئصار ، وأزال الدعوة الأموية ، والنفوذ الأموي من أنحاء المغرب ، وتفرق الزناتيون في الصحراء .

ولما توفى بلكين خلفه ابنه منصور ، فقام بأمر صنهاجة من بعد أبيه ، وفي سنة ٣٧٤ هـ أرسل جيشا الى المغرب الأقصى لاستعادة هذه البلاد من أيدي زناته ، الذين استولوا على سجلماسة وفاس ، ولكن زييري بن عطية المغراوي الملقب بالقرطاس - أمير فاس - هزم جيش منصور بن بلكين ، وتعددت غزوات الأمير منصور وحملاته على بلاد زناته في المغرب الأقصى ، وعلى فاس بالذات ، حتى أذعن زييري بن عطية - أمير فاس - وتخلي عن طاعته للأمويين في الأندلس . وفي سنة ٣٨٢ هـ ، وفد على المنصور في القيروان فأكرم وفادته ، وعفا عنه ، وولاه تاهرت .

خلف باديس أباه المنصور في حكم الدولة الزييرية ، وأرسل عدة حملات لقمح زناته ، ولكنها هزمت ، واضطربت بلاد المغرب ، وتعددت ثورات زناته ، وقطعوا الطرق فاضطربت التجارة ، وساءت أحوال البلاد الاقتصادية ولكن حماد - قائد الأمير الزييري - شن عدة هجمات على زناته سنة ٣٩٥ هـ ، وشق عصا الطاعة على سيده ، واستقل بما تحت يده من البلاد ، فسار اليه باديس ، لكنه توفى في معسكره ، فخلفه ابنه المعز ، فعاد حماد الى الثورة ، ودخل المسيلة ، فسار اليه المعز وهزمه ، واستسلم ، حينئذ نظم المعز بن باديس ادارة دولته ، وولى الولايات من يثق في اخلاصه ، وانقسمت الدولة الزييرية الى قسمين : دولة المنصور بن بلكين - صاحب القيروان ، ودولة آل حماد بن بلكين - أصحاب القلعة . ولكن المعز لم يقبل انفصال جزء من دولته فسار الى القلعة ، وحاصر حماد سنة ٤٣٣ هـ ، عدة سنين ، ثم أفلح عنها ، وعاد الى بلاده واستقر ملك المعز بالمريقية والقيروان ، وكان أضخم ملك عرف للبربر بالمريقية ، وقد بلغت الدولة في عهده أوج ازدهارها وعظمت ثروتها ، وازداد دخلها ، وقهر زناته في معظم المعارك التي اشتبك فيها ، وقد رفض المعز المذهب الإسماعيلي ، اعتنق مذهب أهل السنة ، ولعن الشيعة وقتل من وجد منهم ، ونكل بدعاة النسيعة ، وقد استاء منه الخلفاء الفاطميون ،

وأرسلوا إليه يتوعدون ، لكنه خلع طاعتهم ، وقطع الدعاء لهم سنة ٤٤٠ هـ في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، وأحرق بنوده ، ومحا اسمه من الطرز والسكة ، ودعا للخليفة العباسي القائم . وبذلك زال النفوذ الفاطمي من بلاد المغرب ، وعادت إلى حوزة الخلفاء العباسيين .

لما قطع المعز بن باديس الخطبة للمستنصر الفاطمي سنة ٤٤٠ هـ كتب إليه المستنصر يهدده ويتوعده ، فأرسل المستنصر بنى هلال إلى افريقية ، وملكهم كل ما يفتحونه ، وبعث الحسين بن علي التازوري وزير الدولة الفاطمية في مصر — إلى المعز بن باديس « قد أرسلنا إليك خيولا ، وحملنا عليها رجالا فصولا ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا . »

سار بنو هلال إلى برقة ، فوجدوها خالية ، لأن المعز قد أضعف أهلها ونسنت شملهم ، فاستوطن الهلاليون برقة ، ولكن المعز ارتاب في شأنهم ، وساءهم ، العبت الذي أحدثوه في البلاد ، وسيطرتهم عليها ، وتخوف على ملكه منهم ، كما تخوف من سيطرتهم على النواحي الاقتصادية للبلاد ، الأمر الذي قد يهدد سلطانه عليها ، لذلك عهد إلى ثلاثين ألفا من أرقائه بالقضاء على بنى هلال ، واجلائهم عن افريقية ، فملكوها سنة ٤٤٦ هـ فخرج كبار رجال بنى هلال إلى المعز بن باديس ، وطلبوا منه العفو والصفح ، فعفا عنهم ، ووصلهم ، وأجزل لهم العطايا . ولكنهم عادوا إلى العيث والفساد في الأرض ، ونتيجة لهذه الأعمال التخريبية توقفت الزراعة ، والتجارة ، فعم القحط والبلاء بالبلاد ، وانهار المجتمع ، وهجر الفلاحون قرانم ، وترك أصحاب الحرف أعمالهم ، فخرج اليهم المعز في جموعه من صنهاجة والسودان فيما لا يقل عن ثلاثين ألفا ، ولكن الهلاليين هزموا جنبد المعز باديس ، وقتلوا الكثير منهم ، واستباحوهم وعاد المعز إلى القيوان مهزوما . وعاد إلى الاستيلاء معهم فهزموه مرة ثانية وثالثة ، وملكوا مدينة باجة ، وأمر المعز أهل القيوان ، بالانتقال إلى المهديّة تجنبا لبطش

بني هلال وويلاتهم ، وانتقلت أيدي العرب على القيروان بالنهب والتخريب ، وعلى سائر الحصون والقرى •

وهاجر مع بني هلال من مصر الى بلاد المغرب ، عرب بني سليم ، وهم بطن من مضر ، وأكثرهم جموعا ، وكانت منازلهم بنجد ، وكان بنو سليم حتى عهد الخلافة العباسية ، شوكة بني وفتنة ، حتى لقد أوصى أحد خلفائهم ابنه ، بالألا يتزوج منهم ، وكانوا يغيرون على المدينة ، وتخرج الكتائب من بغداد اليهم ، وتوقع بهم ، وتحالفوا مع أمراء القرامطة من بني طاهر أمراء البحرين ، وتغلبوا على البحرين بعد انقراض أمر القرامطة ، وظلوا بها معتقنين لمذهب الشيعة ، فطردوا عنها ، فهاجروا الى صعيد مصر ، وأذن لهم الخليفة المستنصر بالهجرة الى افريقيه ، لمحاربة المعز بن باديس ، واقاموا مع الهلاليين في برقة وجهات طرابلس ، ثم صاروا الى افريقيه •

نعود الى المعز بن باديس ، فقد هاجمته القبائل العربية — كما رأينا — حتى اضطر الى الانسحاب الى المهديّة ، وسقطت بلاد دولته الواحدة تلو الأخرى في أيدي العرب الهلاليه وعرب بني سليم ، وقضى السنوات الأخيرة من حكمه في المهديه التي لم يبق له من ملكه سواها حتى توفي سنة ٤٥٤ هـ — ١٠٦٣ م ، وحلفه ابنه نعيم الذي حكم المهديه وبعض البلاد المجاورة لها •

ويعتبر عهد تميم بن المعز بدايه النهاية للدولة الزييرية ، وتقاسم ملك آل زييري الهلاليون وبعض زعماء زناته وصنهاجه ، يحكم كل قائد يلبدا صغيرا ، الامر الذي فتت وحدة البلاد ، واساء الي اوضاعها الإقتصاديّه وأضعف من قوه المجتمع في افريقيه ومن تماسكه وادي ذلك في النهاية الي انهيار اجتماعي حطير في افريقيه •

وفي سنة ٤٤٤ هـ — ١٠٥٢ م استرد روجر الأول النورمندي جزيرة صقلية بعد جهود حربية قليلة ، وانسحب آخر المدافعين عنها ،

وهو أبو الحواس بأهله وماله الى افريقية ، ولم تلبث قصريانة أن سقطت في أيدي النورماندين • وفي سنة ٤٨٤ هـ — ١٠٩٢ م سقطت بلرم — آخر معاقل المسلمين في صقلية — وبذلك زال الحكم الاسلامى من صقلية ، وزالت دولة الاسلام ، وانطفأ نوره عن هذه الديار •

وقد قاوم تميم بن المعز النورماندى ولكن دون جدوى وأصبح النورمان يشكلون خطرا جسيما على المهديّة نفسها ، فاستتجد على ابن تميم بالرابطين ، ورفعوا الخطر عن المهديّة ، وغزوا صقلية ، وبعد انصراف الرابطين عنها ، جمع روجر أسطولا ضخما ، وشن عدة غارات على المهديّة ، وعجز الحسن بن على بن تميم عن الدفاع عن بلاده ، فسقطت المهديّة سنة ٥٤٣ هـ — ١١٤٨ م وكذلك كل مدن الساحل الاقريقي وطرابلس في يد النورمان • ولكن الموحددين أنقذوا هذه البلاد ، واستردوها من أيدي النورمان •

ويجدر بنا أن نشير الى ملحمة أبي زيد الهلالي فنقول أن بنى هلال لما هاجروا الى المغرب ، دارت بينهم وبين الزناتيين معارك متعددة ، وكان الهلاليون يرسلون بأخبار هذه المعارك الى بنى جلدتهم في مصر ، فينظمها شعراؤهم في صورة قصص شعبيّ عربيّ مصريّ ، عرفت فيما بعد بقصة الهلاليه ، وبطل القصة يسمى أبو زيد الهلاليّ أما خصمه ، فيسمى خليفه الزنانيّ أو الزناتى خليفه • وهذه الملحمة نعتبر من أبرز الأسفار الشعبيه العربيه ، وتمتاز بطابع شعبيّ حالص ، يجعلها في الادب الشعبيّ الرموق •

ويرى الأستاذ الدكتور حسين مؤنس بأن قصة بنى هلال في الأدب تختلف عن وقائع التاريخ تماما ، فالقصة الأدبيه تدور حول فتاة جميلة من بنى هلال أحبّت فتى من أقاربها ، وأراد الزواج منها ، فرفض أهلها زواجها من ابنتهم بعد تمامه ، واحتالوا على حبيبها ونقلوها الى مكان بعيد في المغرب، وزوجوها من ابن عمها ، ولكن قلبها ظل معلقا بحسبقتها ، ولم ينس الفتى محبوبته ، وتنتهى القصة بموت الفتاة كمدا لحرمانها من عشيقها ، وموت الفتى حزنا على فرلق حبيبته له •

وتجدر بنا الإشارة تفصيلا عن سيرة بنى هلال في المغرب فنلاحظ أنهم نسوا خلافتهم في هذه البلاد ، وتحالف القيسية واليمينية بعد طول خصام ، ويقدم السلطان حسن بن سرحان على الزواج من أخت دياب ابن غانم وتدعى « نائلة » ويتعهد السلطان حسن لشيخ اليمينية دياب ابن غانم على أن يزوجه أخته نوربارق التي سميت بالغازية أو الجازية وأصبح لها دور كبير في تدبير أمور بنى هلال ، ورثته من أمها .

وحدثت عدة حروب قبلية ، أنتهت بهجرة بنى هلال الى المغرب — كما أشرنا من قبل — ولعب بنو هلال دورا كبيرا في تعريب بلاد المغرب ونشر الاسلام بين البربر .

وعن هذا الدور الهلالي تتحدث السيرة عن قحط شمل الجزيرة العربية ، وتسبب في هجرة الهلالية الى بلاد المغرب حيث الخصب والزرع ، وقادهم أبو زيد الهلالي ، مصطحبا الأمراء الثلاثة أبناء السلطان حسن بن سرحان ، مرعى ويونس ويحيى الى تونس ، ولكن حاكم هذه البلاد ، الزناتي خليفة خشى على ملكه من هؤلاء الهلالية ، وأوجس منهم خيفة ، فقبض على الأمراء الثلاثة ، وزجهم في السجن . ولم يلبث أن أطلق سراح أبي زيد ، وعاد الى نجد ، وعقد العزم على غزو تونس ، وفك أسر الأمراء الثلاثة .

وسار أبو زيد الهلالي على رأس جيشه من بنى هلال وحلفائهم وأصطحبت الجازية الجيش ، وكانت في مقدمته ، وكان لهذه الجيوش بطولات في صعيد مصر ، ولما بلغت تونس ، وضع لها أبو زيد الهلالي خطا حربية ناجحة ، فهو يضل الجواسيس تارة ، ويستولى على عيون الماء تارة أخرى ، وأثار جيش الهلالية الرعب في نفوس الزناتي وجنده ، واستخدم أبو زيد الهلالي النساء كثيرا في أعمال السلب والنهب داخل بلاد العدو لالقاء الذعر في قلوب أهل البلاد ، والتمهيد لدخول الهلالية بلادهم ، وكانت الجازية تدبر هذه الخطط ، ونقود النساء الى تنفيذها . وتواصل السيرة الهلالية حديثها عن بطولة الجازية ، التي

تمكنت من إطلاق سراح مرعى ويونس ، ولم يلبث أن لقي الزناتى مصرعه بمؤامرة دبرتها ابنته سعدة التى وقعت فى حب مرعى عندما كان فى سجن أبيها ، فهى التى أشارت على الهلالية بارسال دياب الى أبيها ومحاربتة ، لأن دياب أقدر الفرسان على التعرض لخليفة .

وبذلك تغلب الهلالية على الزناتى خليفة ، ويكذى أبا سعدى وكان فارسا شجاعا ، وكانت المدينة حصينة منيعة ، وكان يأتهم بأمره أهبالاً ذؤوب بأس شديد ، وتحديثنا السيرة أن الهلالية دخلوا فى حرب ضارية ، قتل فيها الكثير من الطرفين ، وقتل زناتى عددا كبيرا من صناديد العرب وشجعانهم ، واستمرت الوقائع سجالا ، والفرسان يتساقطون زرافات ووحداً وانتهت المعارك بانتصار الهلالية بعد أن قتل دياب زناتى خليفة ، وتفرق جنده ، ولانوا بالفرار ، وتم فتح تونس ، وجلس دياب على عرشها ، ولبس تاجها ، وعلق رمحه على بابها ، وأمر العرب أن يهروا تحته ، إشارة الى تملكه عليهم . وثار به بنو هلال ، وكادوا يقتلونه (١) .

وواصل العرب تقدمهم فى بلاد المغرب ، ولكن عادت الصراعات التقليدية بينهم ، واشتد العداء بين القيسية واليمنية . ولكن ظل العرب رغم ذلك يواصلون زحفهم فى بلاد المغرب حتى بلغوا الأندلس .

ويمكن القول بأن هذه الجموع العربية أدت دورا كبيرا فى نشر الاسلام واللغة العربية والثقافة العربية الاسلامية فى بلاد المغرب . وبعبارة أخرى أحدثت تغيرا كبيرا فى البناء الاجتماعى لشعوب المغرب ، وحولته الى مجتمع عربى لغة ودينا وثقافة .

الفصل الخامس

الخلافة الأموية

بالأندلس

(٣١٦ هـ - ٤٢٢ هـ / ٩٢٩ - ١٠٣١ م)

- ١ - الخليفة عبد الرحمن الثالث - الناصر لدين الله .
- ٢ - الخليفة الحاكم الثاني - المستنصر بالله .
- ٣ - الخليفة هشام الثاني - المؤيد بالله والدولة العامرية .
- ٤ - الحاجب المنصور محمد بن عبد الله بن أبي عامر .
- ٥ - أبناء المنصور نهاية الدولة العامرية .

عبد الرحمن الناصر

٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦٢ م

الانتقال من عصر الأمير عبد الله الى عصر عبد الرحمن الناصر يمثل بسفعل نقلة كبيرة من عصر الى عصر ، وهن فترة الى أخرى تختلف كل منهما عن الأخرى تمام الاختلاف ، وهذا الاختلاف هو تباين بين حكمن ومين عهدين كل منهما يتميز بصفة خاصة وكل منهما له خصائصه وسمانه . ذلك أن الأمير عبد الله كان حاكما عاديا من حكام الأندلس ، أما عبدالرحمن ناصر فقد نهض ببلاده نهضة شاملة ، وحول الامارة الى خلافة ، وتمتع بحب شعبه واحترام أعدائه ومنافسيه .

حكم عبد الرحمن حوالي نصف قرن ، وطول العمر بالنسبة للحكام قد تتيح لهم الفرصة الكافية لاصلاح أحوال البلاد .

وعبد الرحمن حفيد سلفه الأمير عبد الله ، وقد عهد عبد الله لحفيده عبد الرحمن ، ولم يعهد لأحد من أبنائه ، ذلك أنه قتل ابنه محمد والد عبد الرحمن بعد أن وجه اليه تهمة التآمر ضده وضد نظام حكمه . ويبدو أن الأمير عبد الله ندم على قتل ابنه ، وشعر بتأنيب الضمير بفليس من "هين على قاوب الآباء موت الأبناء بل التسبب في موتهم - ونقد دفع هذا الندم الأمير على تكريم ابنه عبد الرحمن ، والمبالغة في هذا تكريم ، ففضله على أبنائه وأحفاده ، ودفعته عقدة الذنب ، الى عهد لحفيده عبد الرحمن بالحكم من بعده متخطيا أبنائه ، ولما توفي عبد الله بايع أهل البيت الأموي والشعب عبد الرحمن ، ولم ينازعه في ذلك منازع . ويبدو أن اضطراب بلاد الأندلس ، وكثرة الفتن والثورات بها . جعلت الحكم محفوفا بالمكاره وأصبحت مهمة حاكم الأندلس شاقة ، لا تدعو الى المنافسة ، ولا يتطلع اليها أحد . وعلى أمير الأندلس أن يواجه متاعب داخلية وخارجية للتغلب عاها من الأمور العسيرة . أي أن أمير عبدالله ترك تركة لا يحسد عليها .

سياسة عبد الرحمن التامر الداخلية

وجد الأمير عبد الرحمن أرض الأندلس مضطربة كل الاضطراب ، فبدأ عهده بمحاولة فرض الوحدة على بلاد الأندلس ، وذلك بتأديب العصاة ، والقضاء على الفتن والثورات ، وإعادة الهدوء والاستقرار الى البلاد ، والعودة بدولة الأندلس الى سابق قوتها ، فأتبع سياسة الترغيب والترهيب ، والثدة واللين ، فأنفذ المكتب الى العمال في جميع كور الأندلس ، يطالبهم بالطاعة والولاء ونبذ الخلاف والشقاق بمبايعة أمير قرطبة ، والخضوع لحكومتها ، وبدأ باصدار منشور أرسله الى كل أمير أو ملك من هؤلاء المتغلبين على النواحي ، وفيه يعد ويتوعد ويحذر فالرجل الذي يقدم ولاءه للحاكم الشرعي ، فانه سيكون من المقربين وسيحقق له ما يريد من مال وسلطان تحت راية الأمانة المركزية ومن لم يفعل فينذره بحرب مدمرة لا تبقى ولا تذر ، فكان يرسل جيوشه الى الناحية ، ومع قائده خطاب الأمان للمتغلب اذا تخاض عن الحرب ، وأقطع عن العناد ، فاذا رفض قائد الناحية الأمان ، لقنه جيش عبد الرحمن حرسا قاسيا ، ويفرض الجيش عليه وعلى ناحيته الاستسلام . أما اذا وافق القائد على الصلح أعطاه الأمان ، ونقله هو وعائلته وأهله ومواليه الى قرطبة ، حيث يكفل لهم بها رغد العيش ، ينزله بمنازل تليق به ، ويصدق عليه من الرواتب ، ما يجعله يعيش وأهله في رخاء واطمئنان .

وعرف عن عبد الرحمن الوفاء بوعوده ، لذلك اطمأن له الأمراء في النواحي والقادة . ومن هنا نرى كيف استطاع عبد الرحمن أن يتغلب على هؤلاء الأمراء ، الذين قضوا السنوات الطوال في حروب ، يستسلمون واحدا بعد واحد ، ويقبلون الى قرطبة ، حيث يعيشون في أمن وعزه ، على أننا لا ننكر أن الأمير عبد الله قد عهد لحفيده عبد الرحمن أمر اضعاف هؤلاء الأمراء وانهاك قواها .

وكان أشد الأمراء عنادا بنى الحجاج في اشبيلية وبنى حفصون

في بيشتر ، أما بنو الحجاج فقد استطاع عبد الرحمن أن يجتذب منهم إليه أحمد بن محمد بن مسلمة بن حجاج ، الذي ولى اشبيلية بعد وفاة عبد الرحمن بن ابراهيم بن حجاج سنة ٣٠١ هـ ، ثم أذعن له محمد بن ابراهيم بن حجاج صاحب قرمونية ، واستعمل عليها أنصار سعيد ابن المنذر فهدم سور اشبيلية حتى لا يتمكن الثوار من التحصن بداخلها ، وبنى القصر القديم المعروف بدار الامارة ، وحصنه بسور من الحجر .

والخصم العنيد الذي أشرنا اليه سابقا ، وهو ابن حفصون ، لما ضعف عمر بن حفصون بعد اعتناقه النصرانية ، تظاهر بالانضمام الى عبد الرحمن بن محمد حتى وفاته سنة ٣٠٢ هـ ، وخلفه ابنه جعفر الذي ذهب مذهب أبيه في العناد والفساد ، فسير اليه عبد الرحمن جيشا سنة ٣٠٦ هـ ، واستولى في طريقه اليها على حصن دوس أمانتس ، وحاصر حصن بلدة من حصون رية ، ودخل المدينة . وفي عام ٣٠٧ هـ ، افتتح عبد الرحمن حصن طرش خشين من أعمال ابن حفصون واستأمن صاحبه عبد الرحمن بن عمر بن حفصون داخل حصن بيشتر ، فخلفه أخوه سليمان ، وتظاهر سليمان هذا بطاعة الأمير ، فسأله الأمير ، فلما قوى أمر سليمان ، نكث عهده ، وشن الغارات على قرطبة ، ودخل مدينة المنكب عنوة ، وقتل جميع سكانها وظل يشن الغارات على قرطبة ونواحيها ، ويشكل خطرا على دولة الأمويين في الأندلس ، حتى قتل سنة ٣١٤ هـ ، فخلفه أخوه حفص في قلعة بيشتر ، ولما لم يجد هذا الأمير فائدة من التمادي في العصيان ، استسلم للأمير عبد الرحمن ، وأسلم الحصن وبذلك قضى الأمير عبد الرحمن على أخطر الخارجين عليه ، وهم آل حفصون .

وهكذا أعاد الأمير عبد الرحمن الى أسبانيا وحدتها وقضى على كل الحركات الانفصالية التي هددت كيانها ، وجمع شمل الأندلس تحت راية واحدة ، الأمر الذي جعل حكومة قرطبة قوية مهابة أمام أعدائها في الداخل والخارج .

تحويل الامارة الى خلافة

بعد أن أخضع الأمير عبد الرحمن الأندلس ووحدها تحت سلطانه رأى أن يعلن نفسه خليفة ، وياقب بأمر المؤمنين بدلا من لقب أمير الذي ورثه عن أسلافه الأمراء الأمويين ، فأصدر منشوره في ٢ ذي الحجة سنة ٣١٦ هـ الى عماله في الكور والمدن الأندلسية يقول لهم : « وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين ، وخروج الكتب عنا ، وردودها علينا كذك . اذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ، ومقسم بما لا يستحقه منه . وعلمنا أن التماذي على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا أضعنناه ، واسم ثابت أسقطناه ، فمر الحطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه ان شاء الله » وأمر الناصر لدين الله باثبات عبارة « الناصر لدين الله أمير المؤمنين في أعلامه وطراره ودنانيره ودراهمه ، ونفذ الأمر بذلك » .

وهكذا تحولت الامارة الأندلسية الى خلافة ، واستمر خلفاء عبد الرحمن الناصر يلقبون بلقب خليفة ، حتى سقوط الدولة الأموية سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م .

رأى أن الأمراء الأمويين — قبل الناصر — كانوا يلقبون بأبناء الخلائف أو الأمراء ، ولم يجرأ واحد منهم على التلقب بلقب خليفة على الرغم من العداء الشديد بين الامارة الأموية ، والدولة العباسية ، وعدم اعتراف الأولى بالثانية ، ذلك أن مفهوم الخلافة عند المسلمين في ذلك العصر ، أنها وحدة لا تتجزأ ، وأن الخليفة ، هو حامى حمى الحرمين ، والمسيطر على الحجاز أهل العرب والملة . ولكن بمرور الوقت أفنى علماء الأندلس بجواز تجزئة الخلافة الى أكثر من واحدة ، بحيث يكون بينهما مسافات شاسعة ، منعا للحروب بين الخلافتين ، وذكر بعض المؤرخين أن الأنداسيين أنفسهم طلبوا من عبد الرحمن ، اعلان نفسه خليفة ، ولقبوه الناصر لدين الله . وبذلك تكيف نظرية الخلافة السنية تكيفا جديدا ، تبعا للواقع والضرورة السياسية ومصلحة المسلمين .

ونستطيع ان نجمل أسباب اعلان عبد الرحمن نفسه خليفه في نقاط منها ، ان اخلافه العباسيه قد ضعفت في العصر العباسي الثاني ، بسبب ازدياد نفوذ الأتراك ، وعدم مقدره الخلفاء على السيطرة على بلدان الدوله ، وضعف نفوذهم وسلطانهم . وفي نفس الوقت قامت الخلافة الفاطمية في المغرب ، وهي خلافة علوية لا تعترف بالعباسيين ، وتري أن الخلفه يجب أن تنحصر في آل بيت رسول الله ، وانخفاء الفاطميون هم أول من جزأوا الخلفه ، وشجعوا الأمويين على اعلان الخلافة في الأندلس ، وكان لايد لعبد الرحمن أن يعلن نفسه خليفه لمواجهة خطر الخلافة الفاطمية في المغرب على دولته ، وبعد أن شهدت الأندلس الانقسامات واغتنن الداخلية ، كان لايد لحكومة قرطبة من أن تحول الاماره الى خلافة ، حتى يكتسب حكمه هيبه دينية وسياسيه أمام رعاياه ، وتضمن على الدوله قوة ومهابة .

ونضيف الى ذلك ما سبق القول من أن أهل الأندلس قد طلبوا من الأمير عبد الرحمن اعلان نفسه خايفة .

مهما يكن من أمر فقد قامت الخلافة الأموية في الأندلس وهي تستند الى السياسة أولا ثم الدين ثانيا ، وتتبع قاعدة الوراثة في الحكم بمختلف في ذلك عن نظام الخلافة في الاسلام أيام الراشدين الذي يتبع قواعد الشورى والانتخاب .

وبذلك قامت في العالم الاسلامي ثلاث خلافات ، الخلافة العباسية المتداعية ، والخلافة الفاطمية الناشئة في المغرب ، والخلافة الأموية في الأندلس ، واذا ما قارنا بين هذه الخلافات الثلاث لوجدنا أن الخلافة الأموية في الأندلس أكثرها ديموقراطية ذلك أن الخلافة العباسية تقوم على الاستبداد ، والخليفة يرى أنه مفوض من الله ، أو سلطان الله في أرضه كما قال الخليفة المنصور . أما الخليفة الفاطمي فيرى أنه الامام المعصوم من الخطأ ، ولا يسأل عما يفعل ، ورث العلوم الدينية وخفايا الكون وأسرار الوجود عن رسول الله ﷺ .

أما الخلافة الأموية في الأندلس ، فلا تضى على نفسها هذه القدسية ، وإنما تتبع الديموقراطية في الحكم ، وتستمتع الى آراء المعارضة ودليلنا على ذلك ، أن عبد الرحمن الناصر حينما شيد مدينة الزهراء ، وأنفق عليها أموالا باهظة ، عارضه الأهالي بزعامة قاضي قرطبة ، الذي هاجم الخليفة الناصر على المنبر ، واتهمه بالاسراف والتبذير ، وتبديد أموال الدولة بدون وجه حق ولكن الخليفة لم يعزله ، ولم يعاقبه ، بل تركه وشأنه .

وكانت الدولة الأندلسية تمتاز عن الدولتين السابقتين من حيث الوحدة والتجانس بين الحاكم والمحكوم ، ثم انها كانت ثغرا من ثغور المسلمين ، يواصل عملية الجهاد .

سياسة الناصر الخارجية

١ - الخطر الفاطمي في المغرب :

كان الفاطميون عند تأسيس الدولة الفاطمية في المغرب ، يهدفون الى غزو الأندلس ، لجعل المغرب الاسلامي كله خاضعا للسيطرة الفاطمية الشيعية ، وبهذا ينقسم العالم الاسلامي الى قسمين ، قسم شرقي تابع للخلافة العباسية السنية ، وقسم غربي تابع للخلافة الشيعية الفاطمية ، فأرسل خلفاؤهم العيون الى الأندلس ، لكشف عوراتها ، والتجسس على أحوالها أمثال ابن حوقل ، وقد لعب هؤلاء الجواسيس في الأندلس ، دورا هاما للدعاية الفاطمية في الأندلس ، في نفس الوقت الذي أمدوا فيه الخلفاء الفاطميين بمعلومات غزيرة عن أوضاع الأندلس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وقد نجح هؤلاء الجواسيس في اجتذاب أنصار لهم في الأندلس من العناصر الناقمة على حكومة قرطبة .

خشى عبد الرحمن الناصر من بأس هذه الدولة المجاورة الطامعة

في بلاده ، فاتخذ خطوات مضادة لحماية حدوده ، وتأمين بلاده من غزو فاطمي مرتعب ، فأعلن نفسه حليعه — كما فعلنا — ليضفي على سلطانه مهابة ، وبت بذور الفتنة بين قبائل البربر في بلاد المغرب ، وانضم اليه الأدارسة أمراء العدو ، وملوك زناته ، وأمدهم عبد الرحمن بالمال والعتاد ، وسائد اثائر موسى بن ابي العافية في ثورته ضد الفاطميين ، حتى كثر جمعه ، وشكل خطرا على الحكم الفاطمي ، ونكى يؤمن الناصر حدود بلاده ، استولى على ثغرى سبته وطنجه ، وسيطر على حركة الملاحة في مضيق جبل طارق ، وأخضع بقايا الأدارسة ، كما وطد علاقته بأمرأ تاهرت ، وشجع التوار على انخيفه الفاطمي أمال أبي يزيد مخلد بن كيداد كما أنشا عبد الرحمن أسطولا قويا نازع فيه أسطول الفاطميين في البحر المتوسط ، كما قصد به الدفاع عن سواحل الأندلس ضد أي هجوم يقوم به أعداؤه الفاطميين ، وحدث أن هاجم الأسطول الفاطمي بقيادة الحسن بن علي مدينة المرية سنة ٣٤٤ هـ وأحرق السفن الراسية في الميناء ، وسلب رجاله المدينة وأسروا عددا كبيرا من سكان البرية ، فعمد غالب — قائد أسطول عبد الرحمن الناصر — الى الرد على هذه الحملة ، فأغار في ستين سفينة على سواحل أفريقيه سنة ٣٤٥ هـ وبالذات على مرسى الخزر ، ودمر كل منطقة سوسة .

كما وطد الناصر علاقته بأعداء الفاطميين ، فتحالف مع ملك ايطاليا هو جودي بروفانس الذي كان غاضبا من الفاطميين لتدميرهم ميناء جنوه ، كما تحالف مع امبراطور بيزنطة الذي كان يهدف الى استرداد صقلية من الفاطميين ثم وطد علاقته بالأخشيديين في مصر ، وعمل على ارسال الفقهاء المالكية من الأندلس الى مصر لمحاربة المذهب الشيعي . وهذه السياسة منعت الفاطميين من غزو الأندلس .

٢ — الخطر الأسباني المسيحي في الشمال :

لما فتح المسلمون الأندلس أبقوا على بقعة جبلية وعرة وهي

جليقة دون فتح ، وأهملوا أمر الجماعات المستضعفة فيها ، ولكن هذه البقعة نمت وترعرعت وقوى أمرها مستغلة الحروب بين المسلمين والاضطرابات الداخلية في البلاد ، وترعم حركة المقاومة ضد المسلمين بلاى ، تم نمت هذه المملكة ، وقوى بأسها في عهد الفونسو الأول الذى استولى على مدينة ليون ، وسيطر على جميع المنطفة الشمالية الغربية التى صارت تعرف بمملكة ليون وقد حصنت هذه المملكة حدودها من خطر المسلمين بساسلة من القلاع ، ولم تلبث هذه القلاع أن اتحدت في القرن الرابع الهجرى في امارة واحدة عرفت باسم مملكة قشتالة .

ولم تقتصر حركة المقاومة الاسبانية على ليون وقشتالة بل انتشرت قواعد لها على سفوح جبال البرانس شرقا ، ومن أهمها مملكة نافار ، التى سيطرت بحكم موقعها الجغرافى على المعابر الجبلية التى تربط أسبانيا بأوربا ، وكانت قاعدتها مدينة ببلونة .

ويلاحظ أن هذه الممالك النصرانية نشأت في الجبال خوفا من بطش المسلمين ، وتحصنت بها ، ولما قوى أمرها ، بسطت نفوذها على السواحل المجاورة ، واستولت على أراضى المسامين وهذه الممالك كانت تسند المعون والتأييد من أهم القوى النصرانية المجاورة مثل فرنسا والعالم الكاثوليكي والبابوية .

ولما ولى عبد الرحمن الاندلس ، كان شانشو الأول — ملك نافار — وأوردنيو الثانى — ملك ليون — قد تحالفا على مهاجمة أراضى المسلمين في الأندلس ، وضمها الى بلادهم ، منتهزين فرصة الفتن الداخلية في الاندلس ، واحتل الملكان فعلا بعض المدن ، واستوليا على بعض الأراضى ، ولما هاجما الملكان قاعدة الثغر الأعلى — سرقسطة — رأى عبد الرحمن الناصر ضرورة التصدى لهذا الخطر الدايم ، فخاض عدة حروب ضد هذين الملكان ، وألحق بهما هزائم كثيرة ، وهدم حصونهم وأسترد البلاد التى انتزعوها من المسلمين ، ومن هذه البلاد أسما وتطيلة ، ولكن راميرو

الثانى كان ملكا عنيدا واصل المقتال ضد المسلمين ، واستمرت الحرب بينه وبين عبد الرحمن فترة طويلة ، وأشد هذه الحروب ضراوة ، تلك الحملة التى قادها نجده الصقلبي ضد راميرو ، غير أن هذه الحملة انتهت بهزيمة المسلمين عند خندق مدينة شمئقة سنة ٥٣٢٧ هـ ومن أسباب هزيمة المسامين فى هذه الواقعة الانقسام بين العرب والصقلابة أثناء المعركة ، وقتل القائد نجده الصقلبي ونجا عبدالرحمن الناصر هو وقلة من الجند من أيدي العدو بأعجوبة ، حتى أن عبد الرحمن ، لم يشترك فى غزوة بعد ذلك .

ولكن هزيمة الناصر لم تؤبر على قوته العسكرية فى الأندلس تنفنه عن عزمه فى السيطرة الكاملة على بلاد الأندلس ، ووقف حملات النصارى على بلاده . اذلك جرد على ممالك النصارى عدة حملات أخضعهم ، وأوقف توغلمهم فى البلاد الاسلامية وفى النهاية صار سيد الأندلس بلا منازع .

ولما توفى راميرو الثانى ملك ليون ، ودب النزاع بين ولديه أوردينو وسانشو ، كان الناصر الحكم بينهما ، تحالفت ممالك النصارى معه فى الأندلس ، وكسب صداقتهم وأجبر الباقين على احترامه ، كل ذلك فى سياسة وكياسة جعلت الجميع لا ينظرون اليه كعدو ، بل صديق ، يحكمونه فيما شجر بينهم . والدايل على الصداقة بين ملوك النصارى وعبد الرحمن الناصر ، أن سانشو - ملك نافار - كان مفرطا فى السمنة ، وطلب من قرطبة طبيبا يعالجه ، فأرسل اليه عبد الرحمن طبيبا حاذقا فى الطب ، هو حسداى بن شيروط الاسرائيلى لعلاجه ، ونجح هذا الطبيب فى مهمته ، فقدم سانشو الى قرطبة على رأس وفد من كبار رجال امارته لشكر الخليفة فأكرم عبد الرحمن وقادته ، وندب الاطباء لمواصلة علاجه وكان من نتيجة ذلك عقد محالفة ، نال من ورائها المسلمون حصونا على حدود مملكته . ومن ناحية أخرى كان ملوك ليون وأرجون ، يفدون الى قرطبة ، يحتكمون الى أميرها ، ليقر السلام بينهم . وحينما عزل سانشو عن عرشه

طلب من عبد الرحمن مساعدته ، فأرسل جيشا الى ليون أعاد الى سانتسو
عرشه سنة ٣٤٩ هـ ، وهذا يدل على أن الناصر استطاع أن ييسط نفوذه
على الشمال المسيحي، وأن يفصل في مشاكل ملوكه، ويعزل من يشاء منهم .

الخطر النورماندى :

سبق القول أن النورماندى هاجموا سواحل الأندلس في عهد
عبد الرحمن الاوسط عدة مرات ، واكن عبد الرحمن الاوسط تمكن من صد
هجماتهم . وفي عهد الناصر ، اتخذ الخطر النورماندى طابعا جديدا ، فاتخذ
قاعدة لهم بالقرب من ثغور الأندلس الشمالية وسواحلها الغربية ، في ولاية
نورمانديا في غرب فرنسا . وقد شكلت هذه الولاية النورماندية خطرا
كبيرا على الأندلس ، فكانت تخرج منها الحملات البحرية ، وتغير جنوبا
على السواحل الغربية ، وعن طريق الحملات البرية التي كانت تعبر جنوبا
فرنسا ، تجتاز جبال البرانس ، وتشن غاراتها على الثغور الأندلسية
الشمالية ، وقد تصدت جيوش عبد الرحمن لهذه الحملات البرية والبحرية،
ولم تمكنها من تحقيق أهدافها التخريبية .

العلاقات الدبلوماسية بين الناصر وملوك أوروبا

لم يرتبط الناصر بعلاقات دبلوماسية مع ملوك الولايات الشمالية في
أسبانيا فحسب ، بل كانت له علاقات دبلوماسية مع ملوك أوروبا ونشير
في هذا الصدد الى سفارة بيزنطية في عهد الخليفة الناصر ، اذ وقد رسل
الامبراطور البيزنطى قسطنطين السابع ٣٣٨هـ/٩٤٩م حاملة هدية رائعة
الى الخليفة العظيم وأحتفل الناصر بقدوم الرسل واصطف العساكر في
ذلك اليوم بالسلاح في أكمل شكل ، وزين القصر الخلفى بأبهى معالم

الزينة ، وصنوف الصقور ، وعهد الخليفة الى أحد قواده باستقبالهم ومرافقتهم من الميناء الى العاصمة فلما اقترب موكب رسل الروم من قرطبة ، خرج القواد للقائهم واستقبالهم بالعدد وانعتاد ، واصطف القواد وتلقوهم قائداً بعد قائد ، ثم استقبلهم اخيراً الفتيان الكبيران ياسر ونمام أعظم قواد الخليفة ، وذلك مبالغة في الاحتفال بهم ، ورافقاهم الى احد قصور قرطبة ، التي أعدت لمقامهم ، وأحيط هذا القصر بالحراسة المشددة ، ومنع الناس من الاقتراب منه ، ورتب الناصر حاكماً لقضاء حوائج الرسل ، وكان الخليفة الناصر مقيماً وقتئذ بالزهراء ، فلما مضى شهر على قدوم هؤلاء الرسل ، وحان موعد مقابلة الخليفة ، رحل من قصر الزهراء الى قصر قرطبة ، وجلس لهم في ١١ ربيع الأول سنة ٨٣٣٨ في بهو المجلس الزاهر ، الذي يعتبر أروع قاعات القصر في قرطبة ، وكان مخصصاً للاستقبالات الرسمية وجلس الى يمينه الحكم المستنصر ولى العهد ، ويليهِ عبد الله فعبد العزيز فالاصبح فمروان ، وجلس الى يساره المنذر ثم عبد الجبار فسليمان - من أبناء الخليفة •

وتوزيع الوزراء حسب مراتبهم الى اليمين واليسار ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى وراءهم وفرشت أبهاء القصر بالبسط القيمة • وبدت قاعة المجلس الزاهر متأنقة بستور الديباج ، ويريق الثريات ، وسادها السكون ، حتى وصل رسل الأمبراطور مبهورين حائرين الى باب القاعة ، بعد أن مروا بين صفوف القواد رافعين الاسلحة على شكل أقواس ، نم اقتربوا من الخليفة ، وقدموا له الهدية • ثم عد الرسل الى القسطنطينية بالهدايا الى الامبراطور البيزنطى ، ورد على رسائل الامبراطور •

نشأت دبلوماسية بين أوتو الكبير ملك الفرنجة ، وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ، نتيجة لغارات المسلمين المجاهدين على سواحل بلاده الجنوبية ، وأرسل أوتو الكبير الى عبد الرحمن الناصر ، رسالة شديدة اللهجة ، يطلب منه وقف أعمال القرصنة ، والتخريب في

ببلاده الجنوبية ، وقد رد عليه الخليفة الناصر برسالة مماثلة سنة ٥٣٣٩ هـ وبعد أعوام قليلة عاد أوتو الكبير ، وأرسل رسالة الى الخليفة الناصر فأحسن الناصر استقبال حامل الرسالة في قرطبة ، وهو راهب يدعى جان دى جورز ، وأنزله الناصر في قرطبة في قصر بجوار إحدى الكنائس حتى يستطيع تأديته شعائره لدينيه ، وكان من عادة الناصر أن يحاط علما بالرسالة قبل تقديمها اليه ، فعلم أنها تسديدة اللهجة ، وفيه افتراء على الاسلام واستقبال الخليفة الراهب ورفض تسلم الرسالة وألح الراهب حتى لا يغضب الملك ، ولكن ازاء اصرار الناصر عاد الراهب ومعه رسول من الناصر من المستعربين ، يجيد العربية واللاتينية ، ويسمى ربيع بن زيد، واستقبله الملك الجديد أوتو أحسن أستقبال ، وتخلى عن الرسالة التي فيها نيل من الاسلام ، وأعاد رسوله الى الخليفة عبد الرحمن الناصر برسالة لا تتعرض للدين الاسلامي ، وأستقبل الخليفة الناصر رسول الامبراطور في احتفال كبير .

وهذه السفارات تدل بوضوح على مدى ما كان لرجال البحر الأندلسيين من نشاط في حوض البحر المتوسط ، الى درجة جعلت كلا من امبراطور بيزنطة وامبراطور الدولة الغربية ، يتوسط لدى خليفة قرطبة ، كي يحد من نشاطهم .

الصقالبة في عهد الناصر :

أطلق الجغرافيون اسم الصقالبة على مجموعة الشعوب السلافية سكان البلاد الممتدة بين بحر قزوين شرقا الى البحر الادريانى غربا ، وهي بلغاريا العظمى في العصور الوسطى ، ولقد دأبت القبائل الجرمانية على سبى الشعوب السلافية ، وبيع رجالها ونسائها الى عرب أسبانيا ، وأطلق عليهم الصقالبة ولكن هذه التسمية بمرور الزمن لم تعد تقتصر على الشعوب السلافية فحسب ، بل اتسع نطاقها ، وشملت سبى نصارى

الشمال والفرنجة من جنوب فرنسا . ومن سواحل البحر الأسود ومن
لبارديا وكلا بريا في ايطاليا .

وهؤلاء الصقالبة ، كانوا يجلبون أطفالا ، ويتعلمون اللغة العربية ،
ويدينون بالاسلام ، ويفتلتون بالشعب الأندلسي ويعيشون الحياء
الاسلامية ، وكان منهم الجند والحرس الخاص بالخليفة والخدم وتدرجوا
في سلك الوظائف ، حتى بلغ منهم الشعراء والادباء وامتلكوا المكتبات
الكبيرة وللضياع الشاسعة ، وقد ألف حبيب الصقلبي كتابا أسماه
(الاستظهار والمغالبة على من أنكروا فضائل الصقالبة) وفقد هذا الكتاب
وأشار اليه ابن بسام في كتابه (الخزيرة) ظهر انصقالبة في الأندلس منذ
عهد الحكم الرضى ، وكثر عددهم في عهد الناصر حتى شككوا طبقة
جديدة في المجتمع ، ومن أسباب استنكار الناصر من الصقالبة أنه لاحظ
أن جند العرب والبربر ، اذا انتظموا في الجيش انتظموا بعصبيتهم ،
وكان هذا يؤثر على بناء الجيش ، لذلك رأى الناصر ضرورة القضاء على
العصبيات في الجيش ، ويجعل جنده ملتحقين كأفراد لا كعصبيات ،
وأدى هذا الى ضعف جيش الدولة ، لان العربى أو البربرى لم يكن
يحمسه في القتال سوى الحرب في العصبية ، اذلك استنكر الناصر من
الصقالبة في الجيش ، فقد رباهم في المعسكرات ، ونشأوا على الطاعة
والولاء لا عصبية لهم ولا وطن ولا أسرة .

المنشآت المعمارية في عهد الناصر

ازدهرت البلاد في عصر الناصر حضاريا ، وتجلى هذا الازدهار في
المنشآت الفخمة التى خلعت اسمه ، وجعلته من أعظم ملوك أوربا في
العصور الوسطى .

ومن أبرز منشآته ، مدينة الزهراء التى أسسها شمال غرب قرطبه ،
وعلى بعد ثمانية كيلو مترات منها ، وقد شيد الناصر هذه المدينة ، لتكون

مدينة ملوكية ، يعيش فيه هو وأفراد البيت الأموى بعيدا عن قرطبة المزدهمة بالسكان ، وتروى بعض المصادر أسطورة تقول أن الناصر سيّد هذه المدينة تخليدا لذكرى جارية له كانت تحمل اسم الزهراء ، هام بها حبسا .

كانت الزهراء مدينة مدرجة على مسطح الجبل ، القسم الأعلى فيه قصور الخليفة ، والقسم الاوسط بساتين ورياض ، والقسم الأعلى يحتوى على المسجد ومنازل الخاصة والحراس وكل قسم من هذه الاقسام له أسوار وأبواب . وقد أشرف على بناء الزهراء الحكم المستنصر ولى العهد سنة ٥٣٥ هـ ، وأنفق فى بناء المدينة أموالا طائلة ، زادت عن ثلث ايراد الدولة لمدة ١٧ سنة ، واستغرق بناء هذه المدينة أربعين سنة فى عهد الحكم المستنصر .

وتفيد المصادر أن الناصر قد انتقل الى الزهراء قبل اتمام بنائها ، ونقل اليها أبناءه وأقاربه ومواليه وخدمه ، وظلت قرطبة مع ذلك العاصمة الرسمية ، ولا تزال بقايا مدينة الزهراء قائمة حتى يومنا هذا .

على أن العمران لم يستمر طويلا فى مدينة الزهراء ، فبعد ستين سنة منه ، تعرضت لعبث العابثين والملاعمال التخريبية التى صحبت نهاية الحكم الأموى ، وظلت المدينة فى الزوال ، حتى أصبحت خرابا تبكى من شيدها وبنائها وأقام صرحاها .

ومن أعمال الناصر الانشائية اعادة بناء مدينة سالم التى تقع شمالى مدريد بنحو ١٥٣ كم ، وعرفت هذه المدينة باسم قائد من قواد الفتح الأول ، وقد تعرضت هذه البلدة للخراب فى عهد الأمير عبد الله ، فأعاد الناصر بناءها ، وجعلها ثغرا حربيا لمواجهة امارة قشتالة الناشئة . وأصبحت مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط الى جانب طليطلة قاعدة الثغر الأدنى ، وسرقسطة قاعدة الثغر الأعلى .

والمعروف أن الخليفة الناصر وسع مسجد قرطبة الجامع • ومع أن الناصر حكم حوالي خمسين عاما ، وعذبت له في آخر حكمه الأيام ، فقد وجد في مذكراته الشخصية أن أيام السرور التي صفت له دون تكدير ، كانت أربعة عشر يوما ، وهذا يعطينا فكرة عن مقدار الجهد المتواصل الذي بذله الناصر طول مدة حكمه في النهوض بأعباء الدولة • ويدل على أن الملوك الذين يشعرون بالمسئولية لا يجدون وقتا للراحة أو اللذة بالحياة •

وما يدل على عظمة هذا الخليفة وتقدير ملوك العصر له أن الملك الأسباني أوردينو ملك ليون زار الأندلس ، في أوائل عهد الخليفة الحكم المستنصر ابن عبد الرحمن ، زار قبر الناصر ، وركع أمامه في خضوع مظهرا عظيم احترامه لذكراه •

ويعتبره المؤرخ دوزي من الملوك العصريين من حيث تحلية بالروح الديمقراطية ، والأخذ بأسباب الحضارة واتباع سياسة داخلية وخارجية ناجحة حتى كانت الأندلس في عهده من الدول الكبرى •

الحاكم المستنصر بالله

(٣٥٠ — ٥٣٣٦ / ٩٦١ — ٩٧٦ م)

ولى المستنصر الحكم بعد أبيه ، وقد تجاوز الأربعين من العمر ودربه أبوه على ادارة بعض الولايات ، وقيادة الجيوش ، وولى المستنصر البلاد ، بعد أن وطد أبوه الحكم فيها ، وكفل للبلاد الاستقرار والهدوء ، وقضى على الفتن الداخلية ، وأضعف النصارى فى الشمال ، وتحولت الأندلس فى عهده الى دولة كبرى ، تخطب دول العالم ودها ، لذلك كانت مهمة لمستنصر فى الحكم سهلة ميسورة وانشغل بقراءة الكتب ، وكان دودة كتب — كما يقول لين بول أنشأ مكتبة فى قصره الزهراء تتألف من أربعمائة مجلد ، وروى أنه قرأ معظم هذه الكتب ، بدليل أن تعالقات بخط يده ، وجدت على هذه الكتب ، وأنفق الأموال الضخمة فى شراء نفائس الكتب والمصنفات ، ومن الكتب القيمة التى بعث فى شرائها ، كتاب الأغاني لأبى الفرج الأصفهاني ، واشتراه بألف دينار •

وكما يقول المرحوم الاستاذ عبد الحميد العبادى أن من يقضى الوقت فى قراءة الكتب ، لا يستطيع أن يقوم بأعباء الحكم بكفاءة ، لأن منصب الملك لا يهيىء لمصاحبه أن يبلغ الذروة فى العلم ، فيجب على الملك ألا يدفن نفسه فى خزائن كتبه ، وان يعنى بمكتبته ومحفوظاته ، أكثر من عنايته بتسؤون الحكم ، والاتجاه الى صالح دولته •

وكان الحكم يجذب العلماء الى قرطبة ، ويبذل فى ذلك أموالا طائلة ومن أبرز العلماء الذين ظهروا فى قرطبة فى عهده ، العالم اللغوى أبا على القالى ، وتصدى للتدريس فى جامع قرطبة ، وجمع محاضراته فى كتاب فسماه الأمالى ، وقدم هذا العالم الجليل الأندلس فى عهد الناصر لدين الله وظل يواصل نشاطه فى عهد الحكم ويتضمن الكتاب فصولا متفرقة عن العرب ولغتهم وشعرهم وأمثالهم وأخبارا تاريخية •

تتصل بعرض شعرائهم ، ومن أشهر علماء الاندلس في عهد المستنصر ابن القوطية ، نسبة الى أمه سارة حفيدة الملك غيظثة ، وله مصنقات منها كتاب في النحو ، يسمى الأفعال ، وكتاب في التاريخ ، يسمى العربي (تاريخ افتتاح الاندلس) ويبدأ تاريخه من فجر الاندلس ، ويتحدث عن الفتح العربي لهذه البلاد ، ثم يتابع الكتابة في تاريخ الاندلس حتى ينتهي بوفاة الأير عبد الله سنة ٩١٢ م ، وقد أملى هذا الكتاب على تلاميذه ، بحليل ما ورد فيه مرارا وتكرارا من عبارة قال شيخنا أبو بكر أو قاله ابن القوطية .

ومن أبرز العلماء الذين اجتذبهم الحكم المستنصر الى قرطبة ، محمد بن الحارث الخسني ، وقد استدعاه الحكم من القيروان ، وأغدق عليه ، ومن أهم مؤلفاته ، « كتاب القضاء بقرطبة » ولهذا الكتاب أهمية كبيرة في دراسة الحياة الاجتماعية في قرطبة .

كما كان المستنصر يعقد حلقات البحث والدرس في قصره مع العلماء ، ويتدارس معهم فروع العلم ، ويأظفهم ويناقشهم ، شأنه شأنهم . وحرص كذلك على نشر التعليم بين عامة الشعب ، فأنشأ الكتاتيب في قرطبة وفي شتى بلاد الأندلس ، ليتعلم فيها أبناء الفقراء القرآن والقراءة والكتابة والحساب وبعض المعلومات الدينية ، فمن انشاءاته القيمة سبعة وعشرون مكتبا حول المسجد الجامع ، وبكل ربض من أرباض قرطبة .

ولم تزل كتب الحكم في قصر قرطبة الى أن بيع أكثرها في حصار البربر ، وقد أمر ببيعها الحاجب واضح من موالى المنصور بن أبي عامر ، ثم نهب ما بقي عند دخول البربر قرطبة ، واقتصامهم الحاضرة الأندلسية عنوة . ومن المؤسف حقا أن الحاجب المنصور ابن أبي عامر ، أمر بأحراق كتب الفلسفة ارضاء للفقهاء .

ذاعت شهرة قرطبة بالكتب في عهد الحكم المستنصر ، فلم يقتصر اقتناء الكتب على الخليفة وحده ، وانما تعداه الى أفراد الشعب وكانت

الكتب من أروع متاجرها ففقيه : اذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه ،
حمله الى قرطبة حتى تباع فيها وان مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته
حملت الى اشبيلية •

ومن أعماله الانشائية توسيع المسجد الجامع ، وامداد المسجد
بالماء العذب ، وتيسير وسائل الصرف الصحي •

السياسة الخارجية

١ - الخطر الفاطمي في المغرب :

خفت حدة الخطر الفاطمي على بلاد الأندلس في عهد الحكم
المستقر ، ذلك لأن الفاطميين أدركوا أن بقاءهم في المغرب محفوف
بالمخاطر ، بعد تعدد ثورات البربر ، وشعورهم بعدم الأمن والاطمئنان
على بقاء دولتهم واستمرارها وأسس جوهر الصقلي مدينة القاهرة ،
وانتقل الفاطميون الى مصر سنة ٣٦٢ هـ تاركاً حكم المغرب في يد خلفائه
بنو زبري زعماء صنهاجة •

وظلت بلاد المغرب موضع تنافس بين الأمويين والفاطميين واتخذ
كل من العدوين المتنافسين حلفاء وأعوان وأنصار له في المغربين ، فبينما
كانت زنانه تتبع الأمويين وتتناصرهم كانت صنهاجة حلفاء الفاطميين ،
وأخيراً وبعد تنافس مريز بن زناتة وصنهاجة ، سيطر الزبريون من
صنهاجة على القسم الشرقي للمغرب ، تحت السيادة الفاطمية ،
وسيطرت زناتة على القسم الغربي للمغرب تحت السيادة الأموية في
الأندلس •

وأدى ابتعاد المسافة بين الخلافتين الى تخفيف حدة التوتر بينهما ،
ومع ذلك حرص الأمويون على تأكيد سيادتهم على المغرب الأقصى تأميناً
لحدود بلادهم من خطر فاطمي متوقع فأكد المستنصر سيطرته على
مضيق جبل طارق عن طريق احتلال القواعد المغربية المطلة على المضيق
مثل سبتة وطنجة ومد النفوذ عن طريقها الى العدو المغربية ، ولكن

الادارسة في المغرب الأقصى ، طمعوا في الاستقلال بملكهم ، واستعادة دولتهم ، ولكن الحكم تصدى لهم ، وأرسل اليهم قائده الشجاع غالب ، فاستعاد السيطرة الأندلسية على المغرب الأقصى ، وأخضعهم وقضى على دولتهم ، ونفل بقايا أسرة الادارسة الى قرطبة . وكان هذا آخر عهد لهذه الأسرة التي قامت في هذه البقعة في أواخر القرن الثاني الهجرى .

٢ - الخطر النورماندى :

سبق القول أن النورمان بدأوا يشنون الغارات على سواحل الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط ، وأدى ذلك الى يقظة الأندلس ، وأنتساء أسطول قوى يتصدى لخطر أى هجوم بحرى وقد عاد هذا الخطر الجديد على الأندلس سنة ٣٣٠ هـ ، ويرى المؤرخون أن ريكارد الأول دوق نورمانديا - مؤسس هذه الولاية - شن هجوما على السواحل الاسبانية بعيد من السفن ، فصد المستنصر هذا الهجوم ، واتخذ كافة الاحتياطات منها للتحالف مع بعض امارات نصارى الشمال ، واتخاذ العيون والجواسيس ، للاخبار عن الهجوم قبل وقوعه وأمر بصنع بعض مراكب على هيئة مراكب (المجوس) ووضعها في الوادى الكبير تمهيدا لقتالهم بها على نفس طريقتهم وشن غارات على سواحل نورمانديا بغية اصعاف النورمان ولعب قائده المشهور غالب دورا كبيرا في هذا المضمار . وكان أشد غارات النورمان (المجوس) ضراوة على سواطىء الأندلس ، ما حدث منها على غرب الأندلس وفي مياه المحيط الاطلسى .

وقد هاجم النورمان في عهد الحكم سواحل جنوب البرتغال وسهول لشبونه ، حيث حدثت اشتباكات عنيفة قتل فيها من الطرفين كثيرون . ولكن الأسطول الأندلسى لم يستسلم لعنف القتال ، وانما طارد المراكب النورماندية حتى أباد معظمها ، واسترد أسرى المسلمين .

٢ - موقف المستنصر من نصارى الشمال :

قلنا أن عبد الرحمن الناصر ، اتفق قبل وفاته على اعادة سانشو

الى العرش بدلا من أوردينيو الرابع ، مقابل أن يسلم سانشو الى الناصر
بعض الحصون ، واعاد الناصر فعلا سانشو الى العرش ، ومات الناصر ،
وولى الحكم المستنصر ، فانتهز سانشو الفرصة ، وماطك في تسليم
الحصون ، ظنا منه أن الحكم ليس بقوة أبيه وأنه فيلسوف لا يهجم
الا الكتب . وفي غضون ذلك وفد أوردينيو على المستنصر يطلب منه اعادته
الى الملك ، بدلا من سانشو ، ولما علم سانشو بذلك ، وعد بتسليم الحصون
خوفا على ملكه وخوفا من تحالف الملكين ضده ، ولكن توفى أوردينيو ،
فخلا الجو لسانشو ، ولم يعد أمامه سوى خصم واحد وهو الحكم ، فعاد
الى رفض تسليم الحصون ، وتحالف مع ملك قشتاله وملك ناغار ، ولكن
الحكم أرسل الجيوش الى الشمال ، وهزمت الحلفاء . وتكبد سانشو
خسائر جسيمة . وأدرك أنه لا قبل له بالحكم ، فسلم اليه الحصون .

واعتمد الحكم في ادارة شؤون دولته على وزرائه ومن أبرزهم
وزيره المصحف ، وكان يتصرف في ادارة الدولة تصرفا مطلقا ، ولا يرجع
الى الخليفة الا في بعض الامور ، ومن هنا ظهرت طبقة كبار الموظفين ،
التي سيكون لها أثرها في الحياة السياسية في الأندلس بعد وفاة الحكم ،
والتي ستفرض سلطانها على الدولة ، على حساب خلفاء البيت الأموي .

وكان ولى عهد الحكم في العاشرة من عمره ، وأوصى رجال الدولة
به ، وعهد اليهم بتربيته وتدريبه على شؤون الحكم والسياسة وولى
هشام الحكم بعد أبيه ، ولكن حرص كبار الموظفين على منعه من ممارسة
سلطانه ، لذلك يمكن القول بأن فترة الازدهار في الخلافة الأموية كانت
في عهد عبد الرحمن الناصر ، والحكم المستنصر قويت البلاد سياسيا
وعسكريا ، وازدهرت فيها الحضارة ، ونهضت فيها الحركة العلمية .

هشام الثاني

(٣٣٦ - ٣٣٩ هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٨ م)

تولى هشام الحكم وهو طفل صغير قد تجاوز عشر سنوآت الا قليلا ، وظهر في الدولة حزبان يتنافسان حول السلطة والنفوذ ، الحزب المدني ، وبتزعمه الحاجب الصحفي ووزراؤه ويرى هذا الحزب الموافقة على تولية هشام الحكم عملا بوصية أبيه ، وهذا الحزب يريد الابقاء على هشام الطفل حتى يتسنى له السيطرة على مقاليد الأمور في الدولة ، والابقاء على هشام العوبة في أيديهم ، يحكمون بأسمه . أما الحزب العسكري ، وقوامه الصقالية فيرى أنهم خاضوا غمار الحروب في الشمال وفي البحر وفي داخل البلاد ، وأن لهم الحق في السيطرة على سياسة الدولة ، وعلى الحكم ، ويرى هذا الفريق أن هشام طفل لا يصلح للحكم ، ويرشحون للخلافة رجلا يستطيع ادارة أمور البلاد ، ودرء الأخطار الخارجية عنها ، وقمع الفتن الداخلية ، وهذا الرجل هو المغيرة بن عبد الرحمن الناصر . وتتازع الحزبان حول تقرير مصير البلاد ، وانتصر الحزب المدني بقيادة الصحفي على الحزب العسكري ، وتصدى لهذه المؤامرة الخطيرة محمد بن عبد الله بن أبي عامر ، قتل المغيرة ، ونبت هشام الثاني على العرض ، وتاريخ الأندلس منذ تولية هشام حتى نهاية القرن الرابع الهجري هو في الحقيقة تاريخ هذا الشاب الذي وصل الى الحكم والسيطرة على مقاليد الأمور في الدولة بأساليب ميكانيكية أي الغاية تبرر الوسيلة ، لذلك يسميه دوزي بسمارك القرن العاشر الميلادي .

٢١٤ مد

محمد بن عبد الله بن أبي عامر

الملقب بالنصور

(٣٦٦ - ٣٩٣ هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٢ م)

محمد بن عبد الله بن أبي عامر من أسرة عربية يمنية من قرية المعافر ، اشترك جده عبد الملك في جيش طارق بن زياد في عمليات عسكرية في الجزيرة الخضراء ، وبرزت هذه الأسرة في الأندلس ، وشغلوا مناصب هامة وكان منهم القضاة والولاة والعلماء ، وكان عبد الله والد صاحبنا من رجال العلم والأدب .

عرف عن محمد بن عبد الله بن أبي عامر الطموح منذ نعومة أظفاره ، وتثقف بثقافة أسرته ، فدرس اللغة والأدب على ، أبي علي القالى البغدادي وابن القوطية ، وقرأ الحديث على ، أبي بكر بن معاوية بن القرشي ، ثم فتح دكانا بجوار قصر قرطبة لكتابة الشكاوى للخليفة الحكم ، وظهرت براعته في كتابة الشكاوى ، فكان يحسن عرض الموضوع ، ويكتب بعبارات أدبية جذابة ، وأسلوب ممتع ، فأعجب به الحكم ، وتقرب الى السيده صبح زوج الحكم ، وكان يرسل اليها الهدايا في المناسبات ، حتى قيل انه دخل معها في علاقة حب ، ومن هداياه المشهورة ، للسيدة صبح ، قصر من الفضة الخالصة نموذج من قصر قرطبة ، وقد حمله الرجال الى القصر وسط نظرات الاعجاب والدهشة ، ومازالت صبح تبادلها الاعجاب ، حتى رفعت من شأنه ، هولاء الحكم أمانة دار السكة ، ثم ولاء قضاء بعض النواحي ، ثم عهد اليه بالاشراف على أموال الزكاة والمواريث في اشبيلية وعلى ادارة الشرطة فيها ، ثم جعله وكيلا لولده هشام ولي العهد ، ومازال ابن أبي عامر يرقى في سلك المناصب ، حتى أصبح من كبار رجال الدولة ، وفي مرتبة الوزراء ، ومن الساسة الذين يديرون دفة الأمور في الدولة .

تولى هشام الثانى الحكم — كما قلنا — بتأييد المصحفى وابن أبي عامر ، وبالطبع الام صبح ، ورأى هؤلاء الثلاثة ضرورة التخلص من أعدائهم ومنافسيهم ، الصقالبة ، وزعميهم المغيرة بن عيد الرحمن .

عهد هشام الى المصحفي بالحجابة - كما كان حاله في أيام أبيه -
ورقى ابن أبي عامر الى مرتبة الوزارة ، بدلا من خطة الشرطة ، ولكن
المصحفي كان يخشى على نفوذه من ابن أبي عامر ولا يستريح لبلوغه
مرتبة الوزارة ، وكان ابن أبي عامر قويا بفضل مهارته ومقدرته ،
وتأييد صبح التام له ، وكانت صبح تطمئن اليه ، وتطمئن الى مقدرته
على تعزيز وُضْع ابنها الفتى ، وحماية ملكه ، وأدار شؤون البلاد
بمهارة حتى صار الحاكم المطلق في الأندلس .

كان لا بد لابن أبي عامر من التخلص من كل الشخصيات التي
تعترض تحقيق طموحه ، فبعد أن تنلص من المغيرة بن عبد الرحمن ،
رأى سريرة التخلص من الصقالبة ، ثم المصحفي الذي لا يزال من
الناحية الرسمية الرجل الأول ، والمهيمن على السلطة العليا فيها وكان
يضرب أعداءه ببعضهم حتى تخلص منهم نهائيا ، ولم يبق له في الحكم
منازع ، وكان الصقالبة وعددهم ألف لا يزالون قوة يحسب حسابها
فانتهاز فرصة كراهيه الحاجب المصحفي للصقالبة - الذين نافسوه
بترشيح المغيرة بدلا من هشام - فحمل ابن أبي عامر الحاجب
المصحفي على نكبة الصقالبة ، فجد في مطاردتهم واستصفاء أموالهم ،
وأعمل فيهم القتل والنفي ، حتى هلك الكثير منهم ، وانهار بذلك
سلطان الصقالبة ، وأمن الحاجب وابن أبي عامر شرهم وتقلد الحاجب
أمر القصر بدلا منهم ، ويذكر ابن حيان أن الصقالبة اشتد طغيانهم
في القصر والدولة ، وثقلت وطأتهم على الناس وعلى الشعب قاطبه .

اعتزم ابن أبي عامر بعد التخلص من الصقالبة ، على توطيد
مركزه بين الجيش والشعب ، فقرر استئناف الجهاد ، وكان المصحفي
قد أبدى تقاعسا في ذلك ، حتى اتسع نفوذ : نصارى الشمال ، وكثرت
غاراتهم على أراضي المسلمين حتى اقتربوا من قرطبة ، فقاد ابن أبي
عامر جيشا الى الشمال ، وعاقب ممالك النصارى ، ولقنهم درسا
قاسيا ، وحذرهم من منبة الاغارة على أراضي المسلمين ، وعاد محملا

بالغنائم ، فأعقد على جنده ، ونال رضى الشعب والجيش ، والسيدة صبح ، وتطلع الناس اليه للقبض على زمام الأمور في الدولة .

لا يستطيع ابن أبى عامر تحقيق طموحه الا بالتخلص من المصحفى ورأى في الشقاق الذى نشأ بين القائد الشجاع غالب وبين غريمه - أقصد المصحفى فرصة لضعافه والتخلص منه ، وضم ابن أبى عامر القائد غالب الى جانبه ، وسعى للرفع من شأنه أمام الخليفة والسيدة صبح ، حتى خرج المرسوم برفعه الى خطة « ذى الوزارتين » وانتدابه لقيادة جيش الثغر وجاهد ابن أبى عامر الى جانب القائد غالب في ممالك النصارى بالشمال ، وانتصر الرجلان ، وزادت مكانتهما في قرطبة ، وتوثق بينهما التحالف للتخلص من العدو المشترك المصحفى .

استطاع ابن أبى عامر استصدار مرسوم من الخليفة بعزل محمد بن جعفر المصحفى من ولاية قرطبة ، وبذلك أضعف من نفوذ المصحفى ، وصدر مرسوم من الخليفة بتولية ابن أبى عامر حكم قرطبة ، وبذلك سيطر على الجيش والحكومة معا ، وضبط العاصمة ، وتخلص من المفسدين ، وأعاد الامن والطمانينة الى أهل قرطبة . وبذلك ازداد نفوذ ابن أبى عامر ، في الوقت الذى ضعف فيه نفوذ المصحفى .

وقوى التحالف بين ابن أبى عامر ، والقائد غالب ، وواصل سويا الجهاد في الشمال ، وفي كل غزوة يحرزان الانتصارات ، ويعودان الى قرطبة محملين بالغنائم ، فتزداد مكانتهما في القصر على حساب الحاجب المصحفى ، ولم يلبث أن قلد الخليفة ، القائد غالب خطة الحجابة الى جانب جعفر المصحفى ، وبذلك ازداد المصحفى ضعفا ، وتوطدت العلاقة بين غالب وابن أبى عامر بصفة خاصة بعد المصاهرة التى تمت بينهما ، فقد تزوج ابن أبى عامر من ابنة القائد غالب ، وأخيرا آن الاوان للتخلص من المصحفى ، فأمر ابن أبى عامر بالقبض عليه بمرسوم استصدره من الخليفة ، اتهمه بتبديد أموال الدولة ، ومصادق

أمواله ، وثكّب أهله ، واستصفى أموالهم وأمر ابن أبي عامر بقتل بعض أفراد أسرة المصحفى ، بل طالبه بالمال الكثير ، حتى اضطره الى بيع قصره المنيف ، ومازال يضطهده بضع سنين حتى توفى سنة ٣٧٢ هـ • وبذلك تخلص ابن أبي عامر من خصم عنيد ، يقف عقبه فى سبيل تحقيق طموحاته •

ولم يبق أمام ابن أبي عامر الا القائد الأندلسى القوي غالب ، وعلى الرغم من المصاهرة بينهما الا أنه كان يتوجس خيفة منه ، ويراه خطرا على سلطانه ، وعقبه فى سبيله ، وكان غالب يقيم بعيدا عن قرطبة ، وكان المعارضون ، يرون فيه الرجل الوحيد ، الذى يستطيع التصدى لابن أبي عامر ، والتخلص منه ، لذلك رأى ابن أبي عامر ابعاد القائد غالب عن طريقه ، فاستدعى ابن أبي عامر جعفر بن على ابن حمدون المعروف بالأندلسى من عدوة المغرب ، وكان من قواد البربر الأقوياء من زناته ، واستصدر له مرسوما بالوزارة ، واستعان ابن حمدون بالبربر ، وأيده ابن أبي عامر ، ورحب بمقدمهم الى الأندلس ، وأدخلهم فى الجيش ، واستكثر ابن أبي عامر من البربر حتى اتخذ منهم الحرس والحاشية ، وتقوى بهم ، فارتاب القائد غالب فى تصرفات صهره ، وتطور الشك الى عدا شديدا بين الرجلين ، انتهى بالحرب بينهما أمام حصن شنت بجننت ، ولكن القائد غالب أثناء المعركة ، سقط ميتا من فوق جواده ، فديب الذعر فى نفوس جنوده ، وثبتت ابن أبي عامر شملهم ، وأمعن فى جيش غالب قتلا وأسرا سنة ٣٧١ هـ • وبذلك تخلص ابن أبي عامر من هذا الفارس الشجاع •

ومع أنه استعان بابن حمدون فى التخلص من غالب ، الا أنه رأى ضرورة التخلص من ابن حمدون حتى لا ينافسه فى السلطان ، فاستعان عليه بابن جهور وابن ذى النون وأولياء الدولة من العرب حتى تخلص

منه •

حتى السيدة صبح أم الخليفة التي أوصلت ابن أبي عامر الى ما وصل اليه حتى شك الناس في العلاقة بينهما ، تخلص منها أيضا ، فقد أغضبها استبداده بالامر ، ومنع ابنها الخليفة من ممارسة سلطانه ، وأرادت أن تقضى على نفوذه ، فاستعانت عليه ببعض زعماء البربر في المغرب الأقصى المعادين لابن أبي عامر ، وأرسلت اليهم الاموال والهدايا ، ولكن المؤامرة اكتشفها ابن أبي عامر في مهدها ، وأستولى على الأموال ، ثم استعانت بالفقهاء ، فأعلن الفقهاء في قرطبة أن ابن أبي عامر يستبد بالنفوذ دون الخليفة ، ولكن ابن أبي عامر دحض هذه التهمة بالتقرب الى الخليفة ، واطهار الولاء والطاعة له ، والخروج معه في شوارع قرطبة في موكب ، وانخليفة يحادثه وهو يحادث الخليفة مظهرا الخضوع والخشوع له ، وحدد من اقامة السيدة صبح ، وأحاط قصرها بالجواسيس ، وتشد الرقابة عليها ، حتى قضت بقية حياتها في زوايا النسيان . وهكذا كان مصير هذه السيدة التي أوصلت ابن أبي عامر الى ما وصل اليه ، وفبلت الاشتراك معه في منع ابنها الخليفة من ممارسة نفوذه وسلطانه .

وهكذا تخلص محمد بن أيوب عامر من منافسيه ، وفق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة وولى منصب الحاجب ، وهو أرفع منصب في الدولة ، ولقب بالمنصور سنة ٣٧١ هـ ودعى له على المنابر ، شأنه شأن الملوك ، وكانت الكتب تنفذ عنه ، وكان الناس يقبلون يده ، كما لو كان الخليفة ، وأضحى ابن أبي عامر بعد أن قضى على كل منافسيه سيد الأندلس بلا منازع ، وصاحب السيطرة على الجيش ، والمسيطر على سيادة الدولة . ولم يكن الخليفة هشام المؤيد سوى أداة لينة في يد هذا الرجل القوي ، يوجهها كيف شاء .

جهاد المنصور ضد الممالك المسيحية في شمال اسبانيا :

أراد المنصور أن يضى على حكمه هبة وقوة ، فاستأنف عهد الجهاد ، وغزا الممالك المسيحية ، وكان يقود جيوشه بنفسه في الربيع

والخريف أى فى الضبوات والشبوات ، وبلغت هذه الغزوات سبعا وخمسين غزوة على مدى حكمه الذى استمر حوالى خمسا وعشرين سنة ، وانتصر فى كل هذه الغزوات ويروى ابن عذارى : أن المنصور اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار فى غزواته ومواطن جهاده حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بفرش قبره بهذا الغبار عند دفنه ، وكان يحمله حيث ما سار مع أكفانه توقعاً لحلول منيته فى أى لحظة •

حارب المنصور فى جبهات المسيحيين المتعددة فى قشتالة وليون ونافار وقطالونيا ، وأنزل بهذه البلاد خسائر فادحة ، وما رأى أسبان التسمال هزائم ولا مذلة كهزائمهم على يديه فمدنهم الكبيرة دمرها ووصل الى أقصى الركن الشمالى الغربى من أسبانيا ودانت له جميع أسبانيا شمالاً وجنوباً •

ومن أهم حملاته الغزوة التى شنّها على برشلونه وقطالونيا فى شمال شرق أسبانيا سنة ٣٧٤ هـ ، والحملة التى شنّها على جليقية شمال غرب أسبانيا سنة ٣٨٧ هـ • أما الحملة الأولى ، حملة برشلونه وقطالونيا ، فقد خرجت من العاصمة قرطبة ، وبلغت برشلونه بعد شهرين من زحفها ، فدمرها المنصور ولم يستطع أهل المدينة مقاومة هذا الجيش القوى •

أما حملة جليقية ، وهى الغزوة الثامنة والأربعون ، فكان غرض المنصور منها ، هو غزو مدينه شنت ياقيب أبى القديس يعقوب ، ويعتقد المسيحيون أنه من حوارى السيد المسيح ، وترك القدس ، وسأح فى البلاد ، حتى انتهى به المطاف الى هذه البلدة ، ومات فيها ، وأقام له السكان مقبرة ، فوقها كنيسة ، يزورها المسيحيون من شتى البلاد • المهم أن ابن أبى عامر هدم البلدة كلها الا قبر هذا القديس • وهذه الانتصارات التى لم ينسها الأندلسيون ملها فى أى عهد سابق ، جعلت للمنصور شعبية كبيرة ، والتفت الناس حول هذا البطل الذى أعاد لهم كرامتهم •

العلاقات الأندلسية المغربية في عهد المنصور

حرص المنصور على الاحتفاظ بالعدوة المغربية تلمينا لحدود دولته ، ودرءا لخطر شيعي محتمل ، واصل بسط نفوذ دولته في تلك الأصقاع حتى دانت له البلاد المغربية الممتدة من سجلماسة جنوبا سنة ٣٧٠ هـ والى ولايتي تلمسان وتاهرت شرقا .

ولتدعيم هذه السيطرة على العدوة المغربية ، وتلافي ثورات البربر في المستقبل ، أقام المنصور قاعدة عسكرية في الجزيرة الخضراء ، لمراقبة الأوضاع في العدوة المغربية ، وسرعة تجريد حملة عسكرية على هذه البلاد ، اذا ما أعلنت الثورة ، كما شيد المنصور منازل له واستراحات في الطريق من قرطبة الى الجزيرة الخضراء لسرعة حركته من قرطبة الى بلاد المغرب في حالة تمرداها ، وهو نفس ما في الطرق المؤدية الى الثغور الأندلسية شمالا .

وواجه المنصور عدة حركات استقلالية في المغرب ، تهدف الى التخلص من الحكم الأموي في الأندلس ، واول هذه الحركات سنه ٣٦٩ هـ ، وقد ترعها يلكين بن زيري الصنهاجي وهاجم ظاهر سبته ، ولكن جيش المنصور مزق جيشه كل ممزق ، والمحاولة الثانية اتى قادها الحسن بن جنون - وهو من الأدارسة - وقد لجأ الى يلاط الفاطميين في عهد الخليفة العزيز وحرصه الخليفة الفاطمي ، على المسير الى المغرب الأقصى ، واسترد ملك آباءه وأجداده ، ومبار ابن جنون الى بلاد المغرب الأقصى ، والتف حوله ، الزنانيون والعلويون ، وكثر جمعهم ، ولكن جيش المنصور ، هزم العلويين شر هزيمة ، وطلب ابن جنون الامان ، ولكن المنصور رفض لكثرة نكته وقتله ، الأمر الذي اثار استياء العلويين .

ومن أشد الثورات ضراوة في العدوة المغربية ضد حكم المنصور قادها زبري بن عطية المغراوي الزناتي سنة ٣٨٦ هـ ، وهذا الزعيم ورجال قبيلته مغراوة لعبوا دورا كبيرا في اخماد الثورة العلوية ، وهزيمة

أبن جنون ، لذلك كافأ المنصور زبرى بن عطية ، بأن عهد الية بحكم بلاد المغرب ، وأقام مدينة وجده سنة ٣٨٤ هـ على الحدود الجزائرية ، وجعلها عاصمة لدولته المغراوية ، وكانت العلاقات بين هذا القائد وبين المنصور قوية ، وكان يظهر له الولاء والطاعة ، ويتقرب اليه بالهدايا النفيسة والأموال الكثيرة ، لكن حدثته نفسه بالاستقلال ببلاده عن الدولة الاموية في الأندلس ، وطرد عمال وولاه — المنصور من بلاده • ويختلف المؤرخون حول تفسير أسباب ثورة زبرى ، فيرى البعض أنه استغل لقب وزير ، الذى منحه له المنصور ، وكان يريد لقب أمير ، ويرى آخرون أنه كان ينتظر من المنصور مكافآت مالية كبيرة • وهناك من يقول أن السيدة صبح حرضت زبرى على الثورة ، وأرسلت اليه الهدايا ، وحرضته على التخلص من المنصور الذى حجر على ولدها الخليفة هشام بدليل أن شعار جيش زبرى كان : هشام يا منصور •

ولكننا نستطيع أن نقول بأن كل هذه الاسباب — ان صحت — اتخذها زبرى ذريعة للثورة ، أما السبب الحقيقى للثورة فهو رغبة زبرى القوية في الاستقلال ببلاده عن الدولة في الأندلس •

رأى المنصور ضرورة القضاء على هذه الثورة التى تشكل خطرا على النفوذ الاموى في المغرب ، فأرسل جيشا الى المغرب بقيادة مملوكة واضح الصقلبي — صاحب ثغر سالم — وسار الى طنجة ، وانضم اليه جموع البربر هناك ، على حين استصرخ زبرى بن عطية قومه زناته ، فعظم أمره وقوى بأسه ، لذلك استطاع صد هجوم جيش الأندلس ، وأرتد واضح عن فاس • هنا ناد المنصور كل جيوش الأندلس الى الجزيرة الخضراء ، وأرسلها الى المغرب بقيادة ابنه المظفر عبد الملك ونشبت بين الفريقين معارك عنيفة بالقرب من طنجة دون نتيجة حاسمة • فجأة اغتيل زبرى بن عطية ، ويبدو أن المنصور كان من وراء هذه المؤامرة التى أدت الى تشتت شمل جيشه ، ومزق عبد الملك جند زبرى هزمهم ، واستولى على فاس وسجلماسة ، ودانت بلاد المغرب لأقصى بالولاء والطاعة للدولة الاموية سنة ٣٨٩ هـ ، وعهد المنصور الى واضح بحكم بلاد المغرب •

أعمال المنصور الادارية والمعمارية

كان ابن أبي عامر اداريا من الطراز الأول ، واستغل سلطاته المطلقة لمصلحة الدولة والشعب ، وكان يواصل الليل بالنهار في العمل ، ويقال ان ساعات عمله تجاوزت عشرين ساعة في اليوم في خدمة الدولة وتفقد أمورها بنفسه ، ووكّل مهام الدولة الى رجال يثق بهم ، وكان يراقب أعمالهم بنفسه ، ويث عبونه في كل ناحية ليطلع على كل كبيرة وصغيرة ، وكان اداريا قديرا حازما ، وعلمتم أنه رغم أعماله المدنية وأعبائه الادارية الكبيرة كان يقود الجيوش بنفسه .

اهتم المنصور بتنظيم الجيش ، وأنشأ صفوفًا جديدة من المرتقة من زناته وصنباجه وغيرهما من قبل البربر ومن الجند النصارى من ليون وقشتاله ونافار ، وبذل لهم الأجور السخية ، واجتذب قلوبهم بعده ورفقه وجوده ، وغير أنظمة الجيش القديمة ، فقدم رجال البربر ، وأخر زعماء العرب ، وأقصاهم عن مناصبهم وفرق جند القبيلة الواحدة في صفوف مختلفة ، وكانوا من قبل ينتظمون في صف واحد ، وكان العرب يتمسكون منذ أيام الفتح بوحدة القبيلة ، لأن العصبية كانت في قبائلهم في أيام الناصر ، ما تزال قوية ، ولكن الناصر عمل على سحق القبائل العربية ، واضعاف هيبتها ، وجاء ابن أبي عامر ، فألقى الميدان ممهدا لخطه ، فلم تلق سياسته الجديدة معارضة ، وبذلك جعل المنصور الجيش ، جيشا نظاميا دائما ، يتكون من فرق متعددة ، وكل فرقة تتألف من جميع هذه العناصر المخلفة كالعرب والبربر والصقالبة ، وكل جندي من هؤلاء يتقاضى مرتبا شهريا من الدولة حسب رتبته ، وزالت بذلك العصبية القبلية من فرق الجيش .

واهتم المنصور بالمحافظة على الأمن والطمأنينة في البلاد كما اهتم بالقضاء ، وراقب أعمال القضاة ، حتى يحكموا بالعدل ويمنعوا الظلم .

ومن أهم الانجازات المعمارية للمنصور تأسيسه مدينة ملكية جديدة ، يتخذها مركزا مستقلا للإدارة والحكم ، ويتخذها مظهرا

للمسلمان ، وسمى مدينته الزاهرة ، سنة ٣٦٨ هـ ، وتقع بالقرب من قرطبة ، وأنشأ المنصور بئرا قصرا بلوكيا فخما ومسجدا ودواوين للإدارة والحكم ، ومساكن للبطانة والحرس ، وأقام حولها سورا ضخما ونقل إليها خزائن المال والسلاح ، وإدارات الحكم ، وتم بناء المدينة الجديدة في نحو عامين ، واقطع ما حولها للوزراء والقادة وكبار رجال الدولة ، فشيّدوا الدور العظيمة وأنشئت الشوارع والأسواق الفسيحة ، واتصلت أرياضها بأرياض قرطبة .

وفي سنة ٣٩٢ هـ توفي المنصور وهو منصرف من غزوة شمالية بالقرب من مدينة سالم ، وقد تنفس نصارى الشمال الصعداء ، فقد كتب أحد الرهبان في تقويمه عن هذه الجملة ، في سنة ١٠٠٢ م مات المنصور ودفن في الجصيم . وهذا يدل كما يقول دوزي على مقدار المرارة والحصرة التي يشعر بها النصارى من هزائم المنصور لهم .

عهد الحاجب المظفر عبد الملك بن المنصور

ويموت المنصور تنفس ملوك أسبانيا المسيحية الصعداء ، وغمرتهم موجة من الفرح والاعتباط فلقد دمر المنصور بلادهم ، واكتسح سهولهم ، وهدم حصونهم ومعقلهم ونشر الذعر والهلع في قلوبهم ، وشرّد جيوشهم ، وأزال سيادتهم ، وأذلهم بانتصاراته العديدة ، وغزواته المتكررة . فلما مات كتب مؤرخ لاطنى في حولياته : « مات المنصور سنة ١٠٢ ، ودفن في النار » .

ولما علم هشام بموت ابن أبي عامر استقدم أبا مروان عبد الملك ابن المنصور ، وأمره بقمع حركة الفتيان الصقالية الذين استغلوا هذه الفرصة لاسترجاع نفوذهم القديم وحذره الخليفة الواقعة الدماء ، وخلع عليه ، وأخرج معه كتابا بولاية الحجابة مكان أبيه . وهكذا قام عبد الملك بالحجابة ، وتلقب بالمظفر سيف الدولة في ٣ رمضان سنة ٣٩٢ هـ ، وقضى على حركة الفتيان الصقالية ، ونفى بعضهم الى سبته . وكان عبد الملك قد ورث كثيرا من صفات أبيه ، فاستوسق له الأمر

واجتمع الناس على حبه لعدله وانسانيته وحمايته للشرع ، وسهره على رعيته ، وتصرفته للمظلومين ، وجهاده في سبيل الله « حتى آيس الاعداء من دولة بنى عامر ، وعلّموا انها وراثه » • وذكروا أنه كان يزور الصالحين والاولياء في المقابر ، ويستهدى أدعيّتهم • ويذكر ابن الخطيب زيارته لابي أيوب • كذلك كان يزور المسجونين ويتفقد حال المسجونين ، ويكشف عن ظالم سجنهم فيطلقه • ويذكر ابن بسام نقلاً عن أبي مروان بن حيان فقرات ذبها وصف لحالة البلاد في عهده منها : « راقت أيامه ، وأحبه الناس سرا وعلانية ، وأنصب الاقبال والتأييد عليه انصبابا لم يسد مع بمثله ، وسكن الناس منه الى عفاة ونزاهة نفس ، فباحوا بالنعمة ، وأخذوا في المكاسب والزينة من المراكب والملابس والقيان ، حتى سمت أثمان هذه الاثسياء في مدته ، وبلغت الأندلس في أيامه الى نواية الجمال والكمال وسعة الحال ، في كنف ملك مقتبل السعد ، ميمون الطائر ، غافل عن الايام ، مسرور بما تتنافس فيه رعيته من زخرف دنياها • فاجتمع الناس على حبه ، ونجا من الفتن » •

ويضيف ابن حيان في ذكر حسناته ومآثره فيذكر أنه كان من أكثر الناس حياء • نال حظوة الخليفة ورضاه ، فظفر بلقب المظفر ، وظفر ابنه بلقب ذي الوزارتين • ولكن لم يتح لعبد الملك أن يتمتع طويلا بهذا اللقب ، اذ اعتل أثناء عودته من صائفته الى قلوونية • من بلاد شبانجة بن غرسبية سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م) ، وزاد به مرض الذبحة الصدرية ، وتوفى بالقرب من قرطبة في ١٦ صفر سنة ٣٩٩ هـ (٢٠ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م) •

وفي عهد عبد الملك ظهرت عدة شخصيات كان لها أثرا كبيرا في الاحداث السياسية أهمها :

الفتى الكبير طرفة ، والوزير عيسى بن سعيد اليحصبي المعروف أنظر كتاب تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس للاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم •

وحاول المظفر بعد عودته من غزوته المذكورة أن يجمع صفوفه ، ويفاجيء العدو بشاتية ، فأمر بالتأهب لذلك ولكنه كان مريضا ، وازداد مرضه في الطريق . ودكر ابن عذارى أنه كان مصابا بذبحة أنهكه وتوفي وهو عائد الى قرطبة بعد سبع غزوات .

لما توفي عبد الملك خلفه أخوه عبد الرحمن ، ولم يكن مثل أبيه وأخيه في قوة الارادة وقضى حياته في لهو وعبث ، وساعت أحوال انبلاذ في أيامه ، وأصبحت البلاد على تدهور الانهيار ، وحدثته نفسه بالاستيلاء على السلطة الشرعيه ، وهذا أمر لم يجراً عليه أبوه وأخوه ، وكان هشام ضعيفا يوافقته على كل ما يطلب منه ، وطالب منه عبد الرحمن أن يعهد اليه بولاية العهد فوافقته هشام ، وكتب عهدا بذلك جاء فيه : أن الخليفة لم يجد من هو اصلح لولاية العهد من هذا القحطاني عبد الرحمن . وقد عجل هذا العمل بالقضاء على الدولة العامرية ، فكبر على الناس ضياع الخلافة من قريش ، ورفض المصريون توليه اليمينين المخلافه ، كما رفض البيت الأموي ضياع الخلافة منه ، وثار البلاد ، وانتهز المعارضون فرصة غياب عبد الرحمن ببعض الغزوات في الشمال ، وخلعوا هشاما من العرش ، وولوا رجلا من احفاد الناصر هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن أمير المؤمنين الناصر ، ولقبوه المهدي بالله ، فعاد عبد الرحمن مسرعا من اشمال ، ولكن جنوده انقضوا من حوله ، وهاجمه الثوار وقتلوه سنة ٣٩٩ هـ .

وبموته انتهت الدولة العامرية . وهذا يدل على أن الناس مرتبطون بالخلافة كل الارتباط .

بقي من عمر الخلافة الأموية ٢٣ سنة ، وهذه الفترة اصطاح على تسميتها بعصر الفوضى ، فقد اضطربت البلاد ، ولم يستطع الخلفاء الاستمرار في الحكم الا لفترات محدودة حتى أن من ولي الخلافة في فترة الفوضى ، يزيد على من وليها في القرون الثلاثة الماضية وظهرت العصيات ، واشتد النزاع بين الصقالبة وأهل قرطبة والبربر ، وأعطت هذه الحروب

الاهلية الفرصة لنصارى الشمال لاسترداد كل ما أخذه الحاجب المنصور ابن أبى عامر ، بل توسعوا أكثر من ذلك على حساب ملك المسلمين ، وكان زعماء العصبية يستعينون بالنصارى ضد خصومهم من المسلمين وانتقل بنو حمود من سبته الى الاندلس ، واستقروا فى قرطبة ، وحاولوا السيطرة على الاندلس ، ونازعوا الامويين السلطة والنفوذ فى الاندلس .

وفشل بنو أمية فشلا ذريعا فى استعادة وحدة البلاد وقوتها ، وانتهت بموت آخر خلفائها المعتمد بالله . وبموته أعلن الوزير أبو محمد بن جمهور ، انتهاء الخلافة لعدم وجود من هو جدير بها ، وأنه سيحكم الدولة جماعة من الوزراء على نظام شبه جمهورى عرف فى كتب التاريخ بحكم الجماعة وتبع سقوط الدولة الأموية ، انقسام الاندلس الى دويلات متنازعة ، فسيطر البربر على الجنوب ، وخضع الشرق للصقائبة أما البقية الباقية فقد آلت الى المتغلبين . وقد حكم فى هذه الفترة التى تقع بين عامى (٤٢٢ — ٤٨٤ هـ) نحو عشرين أسرة مستقلة فى عشرين مدينة . ومن أشهرهم بنو عباد فى أشبيلية وبنو حمود والادارسة فى مالقة والجزيرة ، وبنو زيرى فى غرناطة ، وبنو هود فى سرقسطة وبنو ذى النون حكام طليطلة وبلنسية ومرسيه والمريه .

وعلى الرغم من هذا التمزق ، فقد ازدهرت الحياة الادبية فى الاندلس وتنافس الامراء بتربيتهم بالعلماء ، وكان الفلاح أو الصانع يروى الشعر ، ويقرأ فى فروع العلم ويجاس فى المسجد للدراسة .

وتجدر بنا الاشارة الى شيخ جليل عاصر هذه الدولة وهو ابن حزم وينسب الى أصل فارسى ، دخل جدة فى خدمة يزيد بن أبى سفيان ، وفدت أسرته الى الأندلس ، وأقامت فى غربها حيث ولد صاحبنا سنة ٣٨٤ هـ ، بدأ حياته بالثقافة الابتدائية فى عصره ، وهى حفظ القرآن . وبعض الأشعار ، والكتابة والقراءة والحساب ، وكان أبوه وزيراً فى أواخر عهد الدولة الأموية ، ولكنه عزل ، وحلت به النكبات ، وعانت

الأسرة في بؤس وشقاء ، وتوفي أبوه سنة ٥٤٠٢ هـ . واضطرت الأسرة إلى مغادرة قرطبة سنة ٥٤٠٤ هـ بعد اشتداد عنف البربر ، واستقرت في المريه .

عكف ابن حزم في سببه على دراسة العلوم الإسلامية خصوصا الحديث والأخبار ، ولما ذهب إلى نانسية ، عكف على دراسة الفقه وتأن ابن حزم يدرس كل ما يصل إليه من كتب ، وعلى كل من يلقاه من شيوخه .

ولقد تعرضت أسرته للاضطهاد ، بعد أن حكم قرطبة آل حمود ، واتهموا أسرة ابن حزم بمحاولة إعادة انكم إلى الأمويين واستوزر الخليفة الأموي المستظهر الذي استرد قرطبة من آل حمود — ابن حزم ، ولكن هذا الوزير لم يلبث أن قتل في هذا العصر المضطرب ، وزج ابن حزم في السجن ، ثم أفرج عنه .

وعاد ابن حزم إلى الاستغال بالعلم والدرس ، وانصرف إلى دراسة الفقه والحديث والجدل والدعوة إلى الإسلام ، والرد والتصدي لأعداء الإسلام ، ثم عاد إلى السياسة ، وشغل منصب وزير الخليفة المعتمد — آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس — وهذا آخر عهد ابن حزم بالسياسة وظل ابن حزم على ولاء تام للأمويين ، وكان يقف إلى جانبهم ، ويؤيدهم ، ويتولى المناصب الهامة في دولتهم ، ويتعرض للأذى في سبيلهم .

لما اضطرت الدولة الأموية سنة ٥٣٩٩ هـ ، اضطرت معها أسرة ابن حزم ، فأخذت تنتقل من بلد لآخر ، ولم يستقر لها مقام ، فانتقلت من سرق قرطبة إلى غربها ، ثم انتقلت إلى المريه ، ثم كان النفي ، ورغم ذلك كان يعيش في رغد من العيش ، وكان لانتقال ابن حزم من بلد لآخر ، أثر كبير في تفكير الناس ، الكثير من الناس يستمعون إليه ، ولكن بعض الفقهاء عارضه وكان ينشر آراءه أينما حل ، وكان الفقهاء يأخذون عليه مخالفته

للمذهب المالكي ، ونقده الشديد لهذا المذهب الذي لا يعتمد تماما على النصوص •

تنقل ابن حزم بين بلدان الأندلس التي انقسمت الى دويلات يسر علمه وآراءه على الناس ، حتى نزل بإسبيلية ، ويحكمها المعتمد بن عباد ، وقد استنكر آراءه ، وأمر باحراق كتبه ، وذلك بتحريض من الفقهاء الذين استنكروا مهاجمة ابن حزم للإمام مالك والأئمة الأربعة ، وخروجه على الناس بفقته لا صلة له بفقته الأئمة الأربعة •

يضاف الى ذلك أن المعتضد كان ساخطا على ابن حزم لأنه أموى النزعة ، وفي تنقلاته بدون الأحداث ، وخشى المعتضد أن يكون ابن حزم قد استهدفه ، فرأى احراق كتبه ، ولذا يقول ابن حزم أن علمه انذى في صدره لم يحرق ، وأنه معه حيث تنقل ، وان أوراقه التي أحرقت ، سيسجل غيرها ، أو يحدث به الناس ، أو يموت في صدره •

انتهت رحلات ابن حزم الى الإقامة في قرية يملكها أسلافه ، وآلت اليه ، وهو يشغل كل وقته في البحث والتأليف والتدريس لطلاب العلم ، ولم يعر اهتماما بالمجادلين والمعارضين نه وبلغت شهرته الآفاق ، وكان الطلبة يقدون عليه من كل مكان ، وهذه القلة القليلة من طلاب العلم الذين كانوا يتعلمون منه في ضيعته في أيامه الأخيرة ، هي التي نشرت علمه من بعده • ولم يعد التاريخ يذكر ابن حزم وزيرا أو سياسيا بارزا ، انما يذكر له شهرته كامام مجدد وظل يدرس ويعلم حتى وفاته سنة ٥٦٦ هـ •

تفقه ابن حزم في علوم متنوعة ، كان كاتباً أدبيا ، عالما في الفلسفة والمنطق ، له آراء فريدة في الفلسفة حتى أنه يعارض آراء أرسطو في المنطق ويكتب التاريخ بكل دقة ، ويخاصه من المبالغات والشوائب ويحقق في الانساب بدقة وعمق ، وكان جافظا للحديث ومحيطا به وفوق ذلك فقيها أحيا وجدد علم الظاهر ، لأنه المنهاج الذي يتمكن به من بيان أحكام القرآن والسنة • يضاف الى ذلك أنه عالم بالملل والنحل غير الاسلامبة وانفرد

الاسلامية ، ولا يقصد في عام العقائد الا ما كان واضحا ظاهرا ولا يقصد الى المناهج المعقدة المتأثرة بمناهج اليونان •

ويناقش الفلاسفة ، ويستنكر معتقداتهم بالدليل القاطع • وبذلك لم يدع ابن حزم فرعا من فروع العلم الا تناوله بالدرس وهو من أكثر العلماء تأليفا وتصنيفا ، بحث في العلوم الإسلامية كلها •

كان ابن حزم عالما في العلوم النقاية كالتفسير والفقه والحديث وعلوم اللغة ، كما كان عالما في العلوم العقلية خصوصا المنطق والفلسفة والتاريخ ، وصنف كتبا قيمة في هذه المجالات ومن العلماء الذين اعترفوا لابن حزم بالتبصر والاجتهاد المطلق والنقافة الواسعة والعلم الغزير تلميذه الحافظ الحميدى • قال كان أبو محمد حافظا عالما بعلوم الحديث وفقهه مستتبطا للأحكام من الكتاب والسنة ، متقنا لعلوم جمّة ، عاملا بعلمه زاهدا في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له لأبيه قبله ، في الوزارة وتدبير الملك ، متواضعا ذا فضائل جمّة ، وتوالييف كثيرة ، في كل ماتحقق به من العلوم ، وجمع من الكتب والمصنفات والمستندات كثيرا ، وسمع سماعا جما ، وما رأينا مثله وكان له في الآداب والشعر نفس واسع ، وباع طويل ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه ، وشعره كثير ، وقد جمعناه على حروف المعجم •

وقال ابن خلكان : كان ابن حزم حافظا عالما بعلوم الحديث وفقهه مستتبطا للأحكام من الكتاب والسنة ، بعد أن كان شافعي المذهب ، فانتقل الى مذهب الظاهر ، وكان أدبيا شاعرا ، طبيبا ، له في الطب رسائل ، وكتب في الأدب •

أما عن أسلوب ابن حزم — في كل هذه المؤلفات والمصنفات فهو

أسلوب المفكر الدقيق العميق ، الذى يجعل من اللغة أداة طيعة لتعبير
عن أفكاره ومعانيه ، دون لغو أو حشو ، ودون استطراد أو حـروج
عن الموضوع •

أما أشهر مؤلفات ابن حزم فى التاريخ :

- جوامع السيرة
- أسماء الصحابة الرواة
- القراءات المشهورة فى الأمصار
- أسماء الخلفاء والرواة
- جمهرة أنساب العرب
- نقاط العروس فى تواريخ الخلفاء
- رسالة فى فضل علماء الأندلس
- رسالة فى أمهات الخلفاء
- الامامة والسياسة فى سير الخلفاء
- ذكر أوقات الأمراء وأيامهم فى الأندلس
- غزوات المنصور ابن أبى عامر

وأحصى الزميل الأستاذ الدكتور صلاح الدين بسيونى رسلان،
مؤلفات ابن حزم فى الفلسفة وعلم الكلام ، فبلغت ٢٢ كتابا ، وفى الفقه
والشريعة ٤٤ كتابا ، وفى التاريخ ٤٣ كتابا ، وفى اللغة والأدب سبعة
كتب ، وفى الطب سبعة كتب ، وبلغت بذلك مجموعة كتبه ١٠٤ كتابا ،
وهى الكتب المعروفة التى لم تفقد ولم يتسرب إليها العيب •

نشأ المذهب الظاهرى للحفاظ على النصوص ، والوقوف عندها
وعدم تجاوزها • والمقصود بالظاهر ، هو ظاهر اللفظ من ناحية اللغة أى
ضرورة الأخذ بالمعنى اللفظى الظاهر للكلام ، وتجاوز النص يعتبر
تبجيلا لكلام الله ، ولقد سبق ابن حزم بذلك المنهاج داود بن على ابن
خلف البغدادي ، واختار ابن حزم هذا المذهب ، لأنه مذهب الكتاب

والسنة ، واجماع الصحابة ، وليس لأحد فيه أن يقلد أحدا ، وفي نفس الوقت يقول ابن حزم : ان التقليد حرام ، ولا يحل لأحد أن يأخذ يقول أحد من غير برهان •

ويقرر ابن حزم : أن أهل النظر والادراك ، ومن توافرت عندهم أدوات الاجتهاد ، لا يسوغ لهم أن يقلدوا اماما في كل ما يقوله أو كل ما قال وقرر من غير ترجيح • ويقول ابن حزم : ان الناس فريقان : أحدهما تخصص للدراسات الاسلامية ، فتوافرت له الأسباب لتعرف الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله من غير توسط أحد ، وهم الأئمة المرشدون ، والثاني العامة لم يدرسوا الاسلام ، ولكنهم يريدون معرفة ما عاينهم من واجبات ، لذلك هم في حاجة انى التعرف على أحكام الدين من العلماء المقربين منهم ، والمنهج الظاهري الذي اختاره ابن حزم يفتح باب الاجتهاد ، لأنه المذهب الذي يستند الى الكتاب والسنة مباشرة ، ويأخذ الالفاظ بظواهرها اللغوية ، ولا يحاول تحليل الأحكام واستخراج العكس وتعميمها بل يأخذ المعنى التكليفي من اللفظ •

ويذكر ابن حزم ان المصادر الرئيسية للفقهاء الاسلامي ، هي القرآن الكريم بالدرجة الأولى ، ونص كلام الرسول (ﷺ) والاجماع ، وهو ما أجمع عليه شيوخ وعلماء الجماعة الاسلامية ، والقرآن الكريم هو الأصل لهذه الشريعة • ويأخذ ابن حزم بظاهر القرآن الكريم ، لذلك كان كل لفظ من القرآن يؤخذ على مقتضى ظاهره أو يقول ابن حزم : ولما تبين بالبراهين والمعجزات أن القرآن هو عهد الله الينا الذي التزمنا بالعمل بما فيه وجب الانقياد لما فيه ، فكان هو الأصل المرجوع اليه « ما فرطنا في الكتاب من شيء » فما في القرآن من أمر ونهى فواجب الرقوف عنده ، والسنة عند ابن حزم تفصل ما في القرآن من عموميات ، وأهل الظاهر يأخذون بظواهر النصوص ، ولا يقبلون التحليل والقياس • ويرى ابن حزم أن النصوص لا تتعارض ، ولا يوجد

تضارب بين نصوص القرآن والسنة ، بل النصوص كل متكامل تبين وتوضح أحكام الشريعة الاسلامية ، وما دام المصدر الاسلامي للشريعة هو الله فلا يمكن أبدا وجود تعارض بين النصوص .

ويقرر ابن حزم أن معرفة الناسخ من المنسوخ هو الركن الأعظم من أركان الاجتهاد ، والنسخ في نظر ابن حزم بيان للأحكام ولا ينتكر للنصوص ، لأن معرفة الناسخ من المنسوخ هو الركن الأعظم من أركان الاجتهاد .

والاجماع في نظر ابن حزم ، هو ما نقلته الأمة كلها عصرا بعد عصر كالايمان وأصول الصلوات المفروضة وأوقاتها وعدد ركعاتها والصيام وشهره ووقته والحج ووقته وركته .

ويوضح ابن حزم أن الاجماع من غير نص غير ممكن لاستحالة الاجتماع ، ولاختلاف أساليب تفكيرهم .

ويرى ابن حزم أنه لا رأى في الدين ، فليس لأحد أن يجتهد برأيه ويدعى أن ذلك حكم الله تعالى ، لأنه لا يحق لأحد أن يتحدث عن الله غير رسول الله ، وما يتوصل إليه الشيوخ من آراء واجتهادات هي أحكامهم ، وايست حكم الله تعالى ، ولا يحل لأحد الحكم بالرأى ، وينفى ابن حزم القياس .

ولا يجوز في رأى ابن حزم تقليد أحد لا من الصحابة ولا من غيرهم ويعتبر أن الأخذ برأى الصحابي من غير دليل من السنة ، غير صحيح لأنه لا يؤخذ الا من الكتاب والسنة أو الاجماع القائم على نص منها أو الدليل المقتبس من هذه الأمور الثلاثة .

انتشر المذهب الظاهري في الدروة الاسلامية بعد وفاة ابن حزم نشره تلاميذه في أقاليم الدولة الاسلامية ، سرقها وغربها ، وظهر في

الأندلس فقهاء ظاهريون ، ومنهم الحافظ أبو الخطاب مجد الدين بن عمر بن الحسن ، وقد طاف بأقنيم الأندلس كلها ، وتوفي سنة ٦٣٣ هـ ، وكان محيي الدين بن عربي ظاهريا ، وكان ابن عربي في عصر الموحدين الذين نشروا المذهب الظاهري في المغرب والأندلس . ويوضح شيخنا الجليل الامام محمد أبو زهرة : أن آخر القرن السادس الهجري وأول القرن السابع عصر ازدهار المذهب الظاهري ، فقد ساد بلاد المغرب والأندلس في عهد يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) واستمر من بعده . وفي أيامه « انقطع عُم الفروع وخاصه الفقهاء ، وأمر باحراق كتب المذهب بعد أن جرد ما فيها من أحاديث رسول الله والقرآن ، فأحرق منها جملة في سائر البلاد .

تأثر ابن حزم في شعره باشتغاله بالفقه والحديث والجدل والأنساب والتاريخ ، وخضع في مذهبه الشعري الى تفضيل مواضيع ذات طابع ديني . ولقد تأثر ابن حزم في شعره بالاضطرابات التي سادت الأندلس والفتن التي مزقت هذه البلاد ، وشهد في شبابه دمار قرطبة ، وتغير مجرى حياته ، فبعد أن كان مترفا في معيشته ، ذاق مرارات الحرمان والبؤس ، ولكن ابن حزم صمد للشدائد والصعاب وأحيت المحن التي تعرض لها ابن حزم ملكات أفادت مجتمعه تشعبت وتنوعت ثقافته ابن حزم حتى اشتملت جميع أنواع المعرفة في عصره - ما عدا الحساب والهندسة - فلقد تمخص في عاوم الحديث والفقه والأديان واللغة والنحو والأدب والتاريخ واطلع على المؤلفات الأندلسية ، ودرس المنطق والفلسفة والفلك . وتدل رسالته في فضل الأندلس على تقديره لثقافة أهل ياديه في تاريخها ورجالها ومؤلفاتها وأدبها وشعرها (١) .

ويقول صاعد : كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعنوم الاسلام ، وأوسعهم معرفة مع توسعه في عاوم اللسان والبلاغة

(١) أحسان عباسي : تاريخ الادب الاندلسي ص ٢١٥ .

والشعر والسير والأخبار ، وكان جماعا للكتب ، جمع منها في عاوم الحديث والمصنفات والمستندات شيئا كثيرا ، كما كان كثير التقييد لايدع شيئا يفوته من سماع أو قراءة أو مشاهدة لذلك كثرت مؤلفاته وبلغت أربعمائة مجلد .

كان ابن حزم يقول الشعر بسرعة على البديهة ، ولذلك كثر شعره ، وأكثر ما ذكره دون العشرين كان في الغزل ثم رثاء لجاريتيه ، وكان يرسل بعض أقاربه وأصدقائه بالنسر ، وتمتلىء بعض قصائده بالحكمة ، وبعضها يتجه الى تمجيد الزهد ، وبعضها في تسبيح الله وتمجيده واثبات حدود العالم ، وبعض قصائده يحث فيها على دراسة الحديث ، ومن قصائده الرائعة القصائد الذاتية التي يدافع فيها عن اتجاهاته ، ويندد بكرامية بعض الناس له وانكاره لفضله . وتظهر في بعض أشعاره الروحانية الغيبية كلما وجد قلقا من التشدد بالأخذ بالظاهر (١) .

يعتبر كتاب طوق الحمامة لابن حزم كتاب في الحرب لفقيه من فقهاء الأندلس ، قضى حياته في المجادلات الدينية ، حيث عرض في هذا الكتاب أشعاره الغزلية المتنوعة ، ويقصد من ذلك تصوير بعض مواقف حياته مخفيا أسماء بعض الأشخاص حينما مصرحا بها حينما آخر ، لذلك فان الكتاب ترجمة ذاتية ، تصور حياة صاحبه ومجتمعه والعلاقات الاجتماعية ، وفي هذا الكتاب يوضح نوعا من الحب ، وهو الحب العذرى ، لم يكن معروفا في الأندلس من قبل .

ويبدو أن ابن حزم ألف كتابه بعد خروجه من قرطبة ، اذ تتضح في هذا الكتاب حسرته الشديدة على خروجه من قرطبة ومفارقة أهله ودياره التي خربها البربر ، ويتحدث عن مشاهداته في مدن الأندلس المختلفة ، ويبدو أنه صنف كتابه بعد اعتزاله للحياة السياسية أي بعد

(١) المترى : نفتح الطب ج ١ ص ٢٦٤ تاريخ للأدب الأندلسي

حوالى سنة ٤١٩ هـ ، وقد ذكر في سبب تأليفه لهذا الكتاب بأن صديقا كلفه بتصنيف رسالة في الحب ومعانيه وأسبابه وأغراضه ، فصف هذا الكتاب (١) .

وقسم ابن حزم رسالته هذه الى ثلاثين بابا ، عشرة منها في أصول الحب ، ثم كيف يتدرج من التعرض الى الاشارة الى المراسلة الى السفارة - اثنا عشر في أغراض الحب وصفاته وحمودها ومدحومها وهو يقرن كل صفة بما ينقضها - وستة ابواب في الآفات الداخلة على الحب - وخاتمة في بابين تحدث فيهما عن قبح المعصية ، وعن فضل التعفف ، لكى يقرن الحب بروح اتدين ، ويكون كلامه فيه داخلا في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ويوسع ابن حزم في هذه الرسالة من مدلول الحب ، ويفص قصصا عن الصداقة ، وحكايات عن الأدب المكسوف .

والنفس بطبيعتها جميلة تولع بالجمال .

وأفضل ضروب المحبة عند ابن حزم محبة المتحابين في الله عز وجل أما الاجتهاد في العمل ، وأما الاتفاق في أصل النحلة والمذهب . أما الفضل علم يمنحه الانسان ، ومحبة القرابة ، ومحبة الألفة والاستترار في المطالب ومحبة التصاحب والمعرفة . . . وتكلم ابن حزم عن أنواع المحبة ودرجاتها ، والحب العاطفى ، والحب التجسدى ، والحب المنتائم على الزهو والغرور :

فكما العقل واحد ليس يدري
خالقا غير واحد رحمان
فكذا القاب واحد ليس يهوى
غير فرد مبعاد أو مدان

وكذا الدين واحد مستقيم
ركفور من عنده دينان

ويتكلم عن أنواع الحب ويقول : أعلم أن للحب حكما على النفوس
ماضيا وسلطانا قاضيا وأمرًا لا يخالف ، وحدا لا يعصى ، وملاكا
لا يتعدى ، وطاعة لا تصرف ، ونفاذا لا يرد ، كما تحدث عن آفات
الحب .

بدأ ابن حزم رسالته بالدفاع عن الحب وجلاله ، ويقول : أوله
عز وآخره جد ، دنت معانيه لجلالها من أن توصف ، فلا تدرك
حقيقتها الا بالمعاناة ، وليس بمنكر في الديانة ولا بمحذور في الشريعة ،
اذ القلوب بيد الله عز وجل ، ويعرف ابن حزم الحب تعريفا فلسفيا
بقوله : وقد اختلف الناس في ماهيته ، وقالوا وأطالوا ، والذي أذهب
اليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المتسومة في هذه الخليقة في أصل
عنصرها الرفيع (١) .

والمحبة عند ابن حزم لا تقوم بين متنافرين أو متضادين ، لأن
المخلوقات انما تتصل أو تنفصل بسبب تمازجها أو تباينها والمجانسة
عمل محسوس وتأثير مشاهد وكلما كثرت عناصر المشاكاة بين
المتحابين زادت المجانسة ، وتأكدت المودة .

ان الحب ثمرة المشاكاة بين الحب والمحبوب ، ولا يكون الا بازدواج
النفسين وامتزاج الشكائين ، وهو دليل على تمازج الروحين وينبعث
من تجانس الأرواح نور ساطع ، تبرز لاشراقه طبائع الحياة .

ومن أبرز كتب ابن حزم كتاب « الفصل في المال والأهواء والنحل »
تكلم فيه عن الفرق المخالفة لدين الاسلام ، وناقش آراء الفلاسفة

(١) ابن حزم : طوق الحمامة ص ٥ - ٦ .
صلاح رسلان : الأخلاق والسياسة عند ابن حزم .

لنهما وراء الطبيعة ، وتكلم عن فرق النصارى شارحا آراءهم ، وتحدث عن الأنبياء والمرسل ، ورد على المعترضين على الشرائع ، وكذب عن اليهود وعلى من أنكر التثنية من النصارى ومذهب الصابئين ، ومن أقر بنبوة زرادشت من المجوس وأنكر ما سواه ، كما تكلم عن المتناقضات الظاهرة في التوراة والانجيل ، وأبرز أن السامرة بأيديهم توراه غير التوراة الذى مع اليهود ، وناقض بعض ادعاءات اليهود الباطلة بوصف قيام بنى اسرائيل على موسى ، وتكلم عن فصول التوراة وما فيها من تحريفات ، وذكر بعض ما ورد في كتبهم ، فأوضح ما نقره من كتب التوراة والأنبياء ، وناقض خطأ من أنكر أن التوراة والانجيل غير محرفين ، وذكر شيئا من كلام أحبارهم .

ثم تكلم عن الانجيل وكتب النصارى وما فيها من التناقض ، وذكر ما تثبته النصارى بخلاف نص التوراة ، وذكر متناقضات الاناجيل الأربعة ، وذكر بعض الأكاذيب في كتبهم ، وتكلم عن بعض اعترافات للنصارى على المسامين وبيان فسادها ، وتكلم عن بطلان ما تمسكت به النصارى من بعض أقوال الرافضة وبيان بطلانها . وذكر فصولا يعترض بها الملحدون على ضعاف المسلمين ، وتكلم عن كروية الأرض ، وكذب من ادعى أن مدة الدنيا عددا معلوما وذكر مرق الاسلام ، وأوضح النحل ، وتكلم عن آراء المرجئة في الايمان والكفر ، وأوضح خروج بعض الفرق على الدين الاسلامى ، وتكلم عن التوحيد ونفى التشبيه ، وتكلم في صفات الله وفي الحياة وناقض مسائل في السخط والرضا والعدل والصدق والملك والخلق والجود والارادة والسفاهة والكرم .

الممالك النصرانية خلال القرن العاشر الميلادي

لما ضعف أمر المسلمين في الأندلس ، وانسدت الصراع بين القوى الإسلامية في هذه البلاد ، قرّبت الممالك النصرانية في مطلع القرن العاشر الميلادي ، حتى كانت مملكة ليون ، التي خاقت مملكة جيبقية ، وسيطرت على ولاية قشتالة في اواسط أسبانيا الشمالية ، اشدت بأسها وقوى أمرها ، وأصبح في امكانها التصدي للمسلمين بل وتوجيه الضربات العنيفة لهم .

وعلى الرغم من أن عبد الرحمن الناصر كان مسيطرا على الأندلس مهايا في هذه الديار ، الا أن النصارى بقيادة أوردينو الثاني انتصروا على المسلمين انتصارا حاسما في موقعة سانت اشتين سنة ٩١٧ م ولكن النصارى شغلوا عن مواصلة الانتصارات على المسلمين وذلك بسبب الانقسامات الداخلية بينهم ، فقد اشدت النزاع على العرش بين سانشو والفونسو — ولدى أوردينو — وانتهى هذا الصراع بتولية الفونسو العرش بمعاونة حليفه سانشو — ملك نافار — ولكن سانشو لم يستسلم للهزيمة بل جمع أنصاره ، وأعلن نفسه ملكا في سانت اشتين في أقاصى جيبقية ، ثم سار بجيشه الى ليون ، واستردها وأعلن نفسه ملكا ، وخاع أخاه ، ولم ينته ذلك الصراع بين الأخوين ، بل استمر أعواما حتى توفي سانشو ابن أوردينو سنة ٩٢٩ م ، وولى الفونسو الرابع العرش ، وظل في الحكم حتى توفيت زوجته ، وبلغ به الحزن مبلغا لم يمكنه من الاستمرار في الملك ، فقتل عن العرش لأخيه راميرو الثاني ، واجأ الى الدير ، ولكنه عاد فتطاع الى استرداد ملكه ، فانتهاز فرصة غياب راميرو عن ليون لمساندة توار طليطلة، واستولى على ليون . ولكن راميرو عاد بسرعة الى عاصمة ملكه ، وسمل عيني الفونسو حتى لا يعود الى طلب الملك ، وعاقب بكل شدة كل من سارك في هذه المؤامرة ، وبذلك استقر راميرو في الملك وكان من ألد

أعداء المسلمين ، اذ قضى سنن حكمة في الهجوم على الأراضي
الاسلامية أو تحريض النوار ومساندتهم ضد حكومة قرطبة .

قلنا أن القسم الغربي من مملكة ليون يسمى جليقية ، أما القسم
الشرقي فيسمى قشتاله أي القلاع واحصون ، وهذه المنطقة تحولت
فيما بعد الى مملكة قشتاله ، تمتد شرقا حتى هضاب نافار ، وسكانها
من البشكنس وجبال الألب ، وكان رعماء قشتاله يرفضون منذ القدم
سيطرة أهل جليقية عليهم ، وباروا على حكاهم عدة مرات ، ولكن
ثوراتهم فشلت بسبب تكيل منوك ليون للثوار على أن انزعاهم
القشتالين تحينوا الفرص للاستقلال عن نفوذ جليقية . وقاد الثورة
الكونت فرنان ، ولكنه فشل أيضا ، واستمر أهل قشتاله في الثورة ،
وعارضوا حكم راميرو بكل شدة ، واستطاع المسلمون خلال تلك الفترة،
الاغارة على أراضي ليون والعبث بها ، وقام عبد الرحمن الناصر بتجديد
مدينة ساليم التي تقع على الحدود بين أراضي قشتاله والأراضي
الاسلامية ، وتحصينها سنة ٩٤٦ م ، وتحول موقف راميرو - ملك ليون -
من الهجوم الى الدفاع بانسبة للمسلمين .

ترك موت راميرو الثاني - ملك ليون - سنة ٩٥٠ م فراغا سياسيا
كبيرا في مملكة ليون ، وتنازع ولداه اردونيو وسانشو على العرش ،
بعد أن هزم خصومه ، وهذه الحرب الأهلية مكنت المساميين من تشديد
حملاتهم على ليون ، واضطر أوردنيو الى طلب العون من قرطبة على
خصومه في ليون ، وعقد معاهدة صلح مع عبد الرحمن الناصر ، تعهد
فيها أوردنيو بأن يصاح بعض القلاع الواقعة على الحدود ، وأن يهدم
البعض الآخر ، وخلف سانشو أخاه في الملك ، ولما حاول نقض الصلح
حاربه الناصر وانقصر عليه فعاد الى طلب الصلح ، ونفذ كل الشروط
التي تضمنها كتاب الصلح ، وبذلك عاد السلام الى البلدين .

على أن أشرف ليون أصروا على خلع الملك لهزيمة أمام المسلمين
واحتجوا عليه بأن بدانته تمنعه من ركوب الخيل ، ومن خفة الحركة

في المعركة ، وولوا أردونيو الرابع ابن الفونسو الرابع الملك هاجماً
سانتو الى عبد الرحمن الناصر ، طالبا منه العون والتأييد ، فوعده
الناصر باعادته الى العرش مقابل تعهده بأن يسلم للمسلمين بعض
الحصون الواقعة على الحدود ، وان يهدم البعض الآخر وامده الناصر
بجند مكنته من العودة الى العرش ، وفر أردونيو من ليون •
ولكن سانشو نكت بعهده للمسلمين ، ولم يسلم للمسلمين الحصون
التي وعد بتسليمها ، وثجعه على ذلك وفاة الناصر وانتزح الرعييم
القشتالي فرمان فرصه الاضطرابات في مملكة ليون ، وأعلن استقلال
قشتاله تحت قيادته ، وتقرب الى النصارى باغارة على الأراضي
الاسلامية ، وتوسيع ملكه ، وضم ما يقع تحت يده من أملاك المسلمين
الى ملكه •

ولما رأى انحكم المستنصر خيانة سانشو للمعاهدة ، ساند أردونيو
الرابع على العودة الى العرش ، فتراجع سانشو ، وأرسل الى الحكم
يعده بتنفيذ المعاهدة ، ولكنه نكث العهد ثانية بعد وفاة خصمه أردونيو،
فشن عليه الحكم حملات حربية واسعة النطاق ، ومزق المسلمون جيش
فرنان — ازعيم القشتالي — كل ممزق في موقعة سنت استين ،
وأرغمته هو وحليفه سانشو — ملك ليون — على طلب الصلح ، وتوغلت
الجيويس الاسلامية في قستاله ونافار ، وتوالت غزوات المسلمين لأراضي
قشتاله (٩٦٣ — ٩٦٧ م) • وبذلك أخذت قشتاله تظهر على مسرح
التاريخ كامارة مستقلة تدريجيا وقوى أمرها بمرور الزمن ، حتى
تبوأ مكانتها بعد ذلك كأقوى دولة نصرانية إسبانية تقاوم
المسلمين في الأندلس ، وتوفي سانشو على أثر مؤامرة دبرها ضده أحد
زعماء قشتاله •

خلف راميرو الثالث أباه سانشو في ملك ليون سنة ٩٦٦ م وكان
طفلا في الخامسة من عمره ، فاستنكر الأشراف هذا الحكم وكثرت
الصرعات الاستقلالية ، وانقسمت مملكة ليون ، الى مملكتين ،
قشتاله ونافار •

واضطر الملوك والأمراء النصارى بعد الضعف الذى حاق بهم ،الى تحسين علاقتهم مع قرطبة ، فتوالت زياراتهم وسفاراتهم على الحكم ، يخطبون وده ، ويرجون صداقته ولما توفى الحكم ، وشغل المسلمون بأمورهم الداخلية ، شن اقشتاليون غزواتهم على المسلمين ، وتوغلوا فى الأراضى الاسلامية ولكن الحاجب المنصور تصدى لعدوانهم ، وغزا أراضى قشتالة غزوات متعددة متكررة ، وانتصر على الممالك النصرانية وأضعفها وأخضعها . وأحبط المنصور حربا شنها عليه ملوك ناغار وقشتالة وليون سنة ٩٨١ •

ويأخ من ضعف مملكة ليون فى عهد المنصور أن استتجد ملكها برموهو بالحاجب المنصور ضد خصومه ، فأعاده المنصور الى عرشه فى ليون ، وأمدّه بجند لحمايته • وبذلك جلس على العرش فى حماية المنصور •

ونخلص من كل ذلك الى أن النصارى فى شبه الجزيرة الأيبيرية بعد أن كانت قواهم تتعزل فى جايقية ، قوى أمرهم ، واتسع ملكهم على حساب المسلمين ، وشيئا فشيئا أصبح لهم ثلاث ممالك : قشتالة وليون وناغار ، وكل هذه الممالك تتربص بالمسلمين ، وتسعى كل ما سمحت لها الظروف بالتوسع فى الأراضى الاسلامية ، وضم ما يمكن ضمه الى بلادهم •

اللغة العربية وآدابها في الأندلس

أدى اندماج عناصر السكان في الأندلس من عرب وبربر وأسبان الى ظهور لغة مشتركة يتحدثون بها جميعا على مختلف فئاتهم ، وهذه اللغة مزيج من اللغة العربية والأسبانية وكان اقضاسة في الأندلس يناقشون الناس بهذه اللغة التي كانت معروفة لديهم ، وسميت هذه اللغة بالرومانسية .

وظهرت الموشحات نتيجة انتشار اللغتين العربية والأسبانية بين الأندلسيين ، وقد أخذ المشرق هذا الفن من الأندلس وتلتزم الموشحة بنظام القوافي الموحدة في القصيدة العربية وتشتمل على قوافٍ متعددة ، ولم تكن وحدتها البيت الشعري وإنما المقطوعة الشعرية التي تتكون من عَظْمَن وقَفْلٌ ، ويسمى القفل الأخير منها بالخرجه — كما سنرى — والمخرجة لا بد أن تكون باللغة الأسبانية ، أو باللغة العامية الأندلسية. الدارجة ، ولا بد أن تكون حادة محرقة ، حارة منضجة ، والمخرجة عادة على لسان امرأة تتغزل أحيانا في الرجل على عكس الشعر العربي ، فالرجل هو الذي يتوبخل الى المرأة أن تبناذله الحب ، بينما المرأة متكبرة معرضة .

وانتشرت الموشحات في المغرب والمشرق ، وصارت الموشحة كالقصيدة الشعرية ، واستخدمها الصوفية في مدائحهم وأذكارهم وقد تأثر الشعر الأوربي الشعبي بالموشحات والأزجال الأندلسية ويعرف بالشعر البروفنسي ، الذي كان يفسده المغنون المتجولون في غرب أوروبا .

وقد انتشرت لغة العربية بين المستعربين ، وتأثروا بالثقافة الاسلامية ، والحضارة الأندلسية ، ولعبوا دورا هاما في نقل التراث

الاسلامى الى اسبانيا اشمالية ، بحكم هجراتهم المستمرة الى مملكتى
مشتالة وأراجون • ولا تزال اللغة الأسبانية تحتوى على الكثير من
الألفاظ والكلمات انعرييه ، وقد برهن اللغويون على صحة • ذا القول
بألدراست المستقيضة •

ولم تكن الأرجال التى سنتحدث عنها فنا شعبييا صحيحا ، وانما
كانت مزيجيا من فنين ، فن خاص قديم متداول بين الوتاحين ، وفن
شعبي لا سند له من التراث المكتوب • ولم يكن جمهور انزل أهل
الأزقة والحارات ، كما لم تكن الفئات المميزة التى نظم التسراء من
أجلهم القصائد •

ولالأرجال الصوفية بيئتها الخاصة ، بيئة انقراء الذين زهدوا فى
الدنيا وهاموا فى حب الله سائحين معتربين ، ينشدون ويرقصون على
ألحان التصوف ، والبيئة النائية بيئة الشباب الماجن العابث أصحاب
الثروات •

يقول ابن خلدون عن نشأة انزل ، أنه ظهر تقليد الموشحة
فقد استحسن العامة التوشيح ، فنسجوا على منواله ، جاعلين لغتهم
الحضرية موضع اللغة العربية • ومما لا شك فيه أن الشبه كبير بين
التوشيح وانزل فى أكثر من ناحية ، وخاصة فى الشكل الخارجى وفى
الأوزان ونظام القوافى ، وكذلك فى بعض موضوعات القول والمعانى ،
وقد أدى تطور الأغنية الشعبية الى ظهور الموشحات ، وتبع ذلك ظهور
الأرجال ، وكل ذلك بلغة بسيطة يفهما العوام من أهل الأندلس ، وتعبّر
عن عواطفهم وأحزانهم وأفراحهم ، وأحاسيسهم ، وختام الموشحة
قفل يسمى الخرجة •

والمعروف أن الموشحة تتألف من مقطوعات وكذلك الأرجال وكل
مقطوعة تشتمل على وحدتين ، والوحدة الأولى تسمى غصن والثانية
تسمى قفل •

ظهر المزجل في أواخر القرن الرابع الهجرى ، ولم يصلنا من أزجال القرن الخامس الهجرى الا النزر اليسير ، وكان الزجاجون في القرن الخامس يقتربون في فنهم من الوشاحين ، ويتأثرون بهم ، لذلك كانت أزجالهم في لغة عربية سليمة ، تخاطب الخاصة المثقفين ، ذلك أن ملوك الطوائف في هذا القرن حرصوا على النهوض بالأدب العربى وشعره ونثره ، ورفضوا كل نظم ملحون . ولكننا نلاحظ العكس من ذلك في القرن السادس الهجرى ، فقد سيطر المرابطون على الأندلس ، وكانوا لا يتقنون العربية ، ولا يتخوقون الشعر ، لذلك ازدهرت الأزجال في أيامهم . ولا نعرف الا القليل من الزجاجين في القرن الخامس ، بينما نعرف الكثير في القرن السادس وعلى رأسهم ابن قزمان .

وابن قزمان من أهل قرطبة ، وتوفى سنة ٥٥٤ هـ وقد اشتهر ابن قزمان بالنظم العربى ، فرأى نفسه لا ينسجم مع الاتجاه السائد لعصره ، فعمد الى المزجل المنظوم بكلام عامه الأندلس ، ويعتبر بحق امام الزجاجين بالأندلس وديوان ابن قزمان يقدم لنا صورة عن حياة صلحبه ، وجانبها من شخصيته (١) .

وكان ابن قزمان يعيش في بيت جميل وفي حى مزدحم بالسكان

وكان مولعا بالثياب الأنيقة ، ويرتدى دائما فاخر الثياب وهو صاحب ذوق في اختيار الألوان ، ويراعى في تنسيق الألوان في الثياب التي يرتديها . لذلك يكثر من الحديث عن الثياب في أزجاله وكان ابن قزمان مولعا بالشرب واللهو والعبث ، ولا يحب حياة الأسرة ، لذلك ضاق ذرعا بالمرأة التي تزوجها وبمسئولية البيت فديوان أبى بكر ابن قزمان يصور أناقته ولهوه وشرابه وسهراته الخارجية ، واذا تحدث عن البيت ، يتحدث عن الخادمة السوداء ، ولم يذكر زوجة ولا أولادا (٢) .

وقد استنتج الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى من الأزجال

(١) عبد العزيز الأهوانى : المزجل في الأندلس ص ٧٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٨ .

ابن قزمان ، أنه بدأ حياته يعمل بالتوثيق ، وهو عمل يستلزم معرفته بالفقه والشروط الصحيحة والفاصلة ، والدقة في ضبط الصيغ واستخدام الكلمات ، ثم هو أديب ينظم الشعر والموشحات والأزجال ، ويحفظ أخبارا ونوادير ، كما أنه جليس ومسامر ، يستطيع أن يدخل السرور والبهجة على جالسيه ، ويضحكهم ويجذبهم اليه . وكان يحصل على المال من مواهبه هذه . وتدل أزجال ابن قزمان على أن مرتبة الشاعر كانت أكثر وأجل من مرتبة الأزجال ، وكان تقدير كبار رجال الدولة للشاعر تزيد عن الأزجال .

وازجال ابن قزمان توضح مياهه الى اللهو والشراب والعسق
كقوله :

دنيا هي كما تراها فاجتهد واربح زمانك
كل يوم وكل ليلة لا تخلى مهرجاناتك
واشغفني عليه من قبل أن يجيء الموت في شأنك

وظل في كبره يقول الزجل في هذا اللون من العبث كقوله :
ولياي بيت فيها القمر ، في ذراعي من العشا للسحر فانجبر لي
صبأى بعد الكبر ، وارتنى غناي بعد العدم .

والأحداث السياسية الجسيمة التي مرت بالأندلس لا تشغل بال ابن قزمان ، ففي عصره كانت الحروب بين المرابطين والنصارى ، ولا يتحدث عن ذلك الا بأزجال قليلة لا تتم عن انشغاله بهذه الأحداث الجسام .

والخلاصة فان ديوان ابن قزمان يصوره تماما في مجالس شرابه وفي جولاته في المدينة ، وخروجه الى القرية في أوقات معينة ويتحدث في ديوانه عن خادمه وكبش العيد وهو يرقص حوله ، ويصور مغامراته ، وأغانيه ورقصه وانشاده لمدوحه بغية الحصول على المال

للبحث عن امرأة أو صبي أو شراء ثوب أنيق • لذلك يجمع القدماء على أن ابن قزمان امام الزجالين ، وكان شاعرا حيا الأسلوب فطنا بخفيايا النفوس (١) •

وفي عصر الموحدين عاد الاهتمام بالثقافة العربية الرفيعة ومن ثم عاد الشعر الى مكانته الأولى ، ووجد رواجاً في بلاط الموحدين ، لأنهم يعرفون العربية ، وظهر في عصرهم علماء وفلاسفة كبار كابن رشد •• لذلك فإن الزجل في القرن السابع وبعد عصر ابن قزمان بعد عن القوافي، ومزاحمة الفقرات وتعددتها ، وظلت موضوعاته كما هي ، بحيث يستأثر الحبيب بالمكان الأول والحديث عن جمال الطبيعة والبساتين والأزهار وظهر لون جديد في الزجل ، وهو الهجاء ولم يظهر زجال كبير في هذا انفرن ، وإنما ظهر وشاح كبير وهو أبو بكر بن زهر ، وقد شهد القرن السابع سقوط قرطبة واشبيلية ، وهزيمة الموحدين في العقاب ، وسقوط المدين الأندلسية في أيدي النصارى ، ولم يبق لهم سوى غرناطة التي صمدت • لذلك انتشر في ذلك العصر الزجل والموشحات الصوفية •

وتحول الزجل في عصر ملوك بنى الأحمر في غرناطة الى فن شعبي، لا يشارك فيه المثقفون • ولقد عاشت غرناطة أيامها في تأهب ودفاع ضد العدو المتربص بها ، وكان كل سكانها يتكلمون العربية ومسلمين ، لذلك كان للشعر مجاله ورواده والزلج جمهوره من غير المثقفين •

وقبل أن نختم كلامنا على الزجل يجب أن نشير الى أغنية حزينة قالها مولاي أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة ، يبكي ضياع قصره الملكي ، حينما استولى فرديناند وايزابيلا على مملكته :

الحمرا حنينه والقصور تبكى

على ما جرى لولاي بو عبدالملي

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٥ •

هات لى فرسى ودرقتى البيضا
وشى نمشى نقاتل ونأخذ الحمرا
هات لى فرسى ودرقتى الديدى
وشى نمسى نقاتل ونأخذ أولادى
أولادى فى وادى ياش ومراتى فى (جبل طارق)
ياستى يام الفتى
أولادى فى وادى ياش وأنا فى (جبل طارق)
ياستى يام الفتى

الفصل السادس

المرابطون والموحدون

١ - المرابطون •

٢ - الموحدون •

١ — المرابطون (٤٤٨ — ٥٥٤١ / ١٠٥٦ — ١١٤٧ م) :

يكتنف الغموض نشأة المرابطين ، ويبدأ تاريخهم في جناح المغرب الأيمن في الصحراء الغربية أو مايسمى موريتانيا في هذه الصحراء الشاسعة كانت تعيش قبائل صنهاجة وهذه القبائل الصنهاجية كانت امتدادا لقبائل صنهاجة التي كانت في الشمال ، والتي تكونت منها الدولة الزيرية الصنهاجية في المغرب الأدنى والأوسط ، وهذه القبائل الصحراوية الجنوبية كانت تختلف عن أقربائها في الشمال في أنها كانت تتلثم ولهذا سميت بصنهاجة اللثام ، وعرف عنهم الشجاعة في القتال وانشر الاسلام بين هذه القبائل عن طريق رحلات التجار أو من السرايا العسكرية، وظلوا حتى القرن الخامس الهجرى متفرقى الكُمة بعيدين عن روح الاسلام ، حتى حدثت فيها ثورة دينية اصلاحية ، ألقت بين قلوبهم ، ووحدت صفوفهم ، ويرجع الفضل في نشر هذا الاصلاح السياسى والاصلاح الدينى الى يحيى بن ابراهيم الجدالى زعيم المثلثين ، والفقيه عبد الله بن ياسين — وهما من أصل صنهاجى .

وضع عبد الله بن ياسين أسسه الاصلاحية على أساس التمسك بالدين على مذهب مالك ، ونشر دعوته بين قومه ، وبنى رباطه ابتغاء العزلة والعبادة ، ولم تمر اياه أيام حتى اجتمع له حوالى ألف رجل، سماهم المرابطين للزومهم رباطه .

بهذه الرسالة الدينية كان خروج المرابطين من الصحراء بقيادة زعيمهم الروحى عبد الله بن ياسين ، وكانت بلاد المغرب في ضعف شديد مزقتها الانقسامات ، لذلك خرج المرابطون من الصحراء للقضاء على أهل الضلال ، واصلاح البلاد من الفساد .

خرج المرابطون من الصحراء يقودهم زعيمهم الدينى عبد الله

ابن ياسين ، واتجهوا الى بلاد السوس ، وقضوا على الشيعه والوثنيين، وقاتلوا اليهود المنتسرين في تلك النواحي وأعادوا تلك المناطق الى أهل السنة والجماعة .

نجح المرابطون في اخضاع الزناتيين في المغرب الأقصى ، وسيطروا على المغرب الأقصى ، ثم زحفوا الى المغرب الأوسط وفتحوا مدينتي تلمسان ووهران ، واقتربت قواتهم من الجزائر وبعد كفاح دام عشرين عاما أصبح المرابطون سادة المغرب دون منازع (٥٤٤٧ - ٥٤٦٧) وتمخض ذلك عن نتائج هامة في تاريخ البرانس وتاريخ صنهاجه ، فتسيطر صنهاجة للشمال على افريقية ، بينما تسيطر صنهاجة الجنوب على المغربين الأوسط والأقصى ، فارتفع شأن البرانس ، وضعف نفوذ البتر ، واتبع المرابطون سياسة ناجحة في جذب المغاربة اليهم ، فخففوا الضرائب على الناس ، ولم يبقوا من الضرائب الا ما أقره الشرع كإزكاة والعشر ، وكان دستورهم في الحكم كتاب الله وسنة رسوله ، ولم ينعود المغاربة على حكم يتمشى مع تعاليم الاسلام من قبل ، لذلك التقوا حول المرابطين ، وكانوا يوزعون خمس الغنائم على الفقهاء والعلماء ، وكانوا في ذلك العصر زعماء الشعب الروحانيين ، يمثلون الشعب في تأييد نظام الحكم أو رفضه ، فلما أيد رجال الدين ، المرابطين ، أيدهم الشعب كذلك ، وبدأ واضحا لكافة الناس أن المرابطين جاؤوا لا للفتح ، ولكن لاحياء الدين ، لذلك فكانت المدن والقرى تستقبلهم بالحفاوة والترحاب والواقع أن المغاربة كانوا في حاجة الى حكم يخلصهم من نير وظلم زناته ، وبالفعل وجدوا في المرابطين خير عون لهم على أعدائهم زناته الظالمين المستبدين .

عظم شأن المرابطين بعد أن قادهم يوسف بنى تاشفين وقادهم في معارك ناجحة لاستئصال المعارضة في المغرب ، واستولى على طنجة وسبته وغيرها ، ولعب دورا كبيرا في بناء صرح الدولة الجديدة . وقد مكن لنفسه في المغرب كما استطاع بفضل جهوده أن يفتح معاقل حصونه ، وأن يؤدب قبائله ، ويردها الى الطاعة ، وجمع لبيت المال

ثروة هائلة لذلك يمكن اقول بأن يوسف بن تاشفين يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين ، فقد أتم فتح المغرب ، والأندلس - كما سنرى - .

جمع يوسف ثروة طائلة من انخنايم والأسلاب ، ومن حصياه الزكاة والعشور ، واستغل هذه الأموال في جذب قلوب زعماء الملتهمين ، وأغدق عليهم ، ووزع الأراضي الخصبة على قبائل الملتهمين القادمة من الجنوب ، وولى رجالها الأعمال ، واستطاع بهذه السياسة أن يستميل الزعماء وأن يكسب ودهم ، فانتفوا حوله ، وخضعوا له خضوعاً تاماً ، وعهد إلى أقاربه بالمناصب الرئيسية في الدولة حتى يضمن ولاء البلاد له ، وهادن يوسف القبائل المغلوبة على أمرها ، فكان يستدعي زعماءها ويغدق عليهم ، وينظر في مطالبهم . وبذلك عم السلام في المغرب ، وهدأت القبائل واستكانت ، وعم السلام في المغرب بشكل لم تشهده البلاد من قبل ، وأدى ذلك إلى طمأنينة الناس ، فانصرفوا إلى الإنتاج ، وتحسنت الأحوال الاقتصادية ، ووجدوا في يوسف خير منقذ لهم ، فكان يتفقد أحوال الرعية بنفسه ، وينظر في المظالم ، ويحكم بين الناس بالعدل لذلك نجحت هذه السياسة في التفاف الناس حول الحاكم ، ولما دعاهم للجهاد في بلاد الأندلس ، أقبلوا يلبون نداء الجهاد .
ونشير الآن إلى دور المرابطين في الأندلس .

قوى أمر النصاري في عهد الفونسو الثاني سنة ٧٨٨ م ، وتكون خلق من الدول النصرانية ضد القوى الإسلامية في الأندلس ينكون من أرغون وبرشلونة ونافار وقشتالة ، في وقت ضعف الخلافة الأموية ، واستمدت هذه الامارات العون والتأييد من مملكة الفرنجة ، ولكن أضعف من شأن هذا الحلف يقظة الدولة الأموية في عهد الصاحب المنصور ، ولما سقطت الدولة الأموية ، وتمزق شمل الأندلس ، ازدادت قوة النصاري ، ولنهارت مقلومة المسلمين ، وأعاد الملك شانجو وحدة الامارات النصرانية في القرن العاشر الميلادي وأعاد جمع شمل نافار وقشتالة وليون وأرغونه وبرشلونة وبعث شانجو باعث حركة

الاسترداد في أسبانيا التي استمرت حتى انتهى أمر المسلمين في الأندلس .

وقوى تسآن وبأس فردناند الأول ، فسعى الى توحيد القوى النصرانية ، وكون جبهة وتحدة من المسيحيين بأسبانيا ضد القوى الاسلاميه في هذه البلاد ، ووطد صلاته بالدول الأوربية حتى يسمد منها العون والتأييد ، ونجح في سياسته حتى أن البابا اسكندر الثاني ١٠٦٣م نظم حمله ضمن قوات فرنسية وايطالية ، وسير الغزاة في غزو الأراضي الاسلامية .

كشف فردناند القناع عن سياسته المعادية للمسلمين ، فأوضح أنه يريد طرد المسلمين من الأندلس ، واسترداد الأراضي الأسبانية التي اغتصبوها ، فبدأ بمهاجمه أراضي المسلمين منتهزا حالة الضعف التي عاش فيها المسلمون ، والانقسام فيما بينهم وتجنب المسلمون هجماته بدفع الجزية ، وقد دفع الجزية حكام طليطلة وأسبيلية وسرقسطة وبطليوس ، وجبى من ذلك أموالا طائلة ، ولما زادت قوته كثيرا عن قوة المسلمين اتجه الى سياسته ضم الأراضي الاسلامية الى دولته ، وبذلك اتسعت حدود قشتالة شرفا وغربا .

وضعف تسآن المسلمين ، وقوى فردناند والنصارى ، ويات واضحابان أيام المسلمين في الأندلس ، أصبحت معدودة ولكن موت فردناند سنة ١٠٦٥ م وانقسام الأمراء النصارى على أنفسهم ، أخر هذا المصير المؤلم .

ومضت فترة كان النصارى ممزقين على أنفسهم ، وفي اسنطاعة المسلمين اغتنام الفرصة لاسترداد أراضيهم وقواهم، ولكن الانقسامات ظلت قائمة بينهم ، بل كانوا يستعينون بأمراء النصارى في خلافاتهم ، وظل الأمر كذلك حتى استرد انصارى قوتهم ووحدتهم باعتلاء الفونسو السادس العرش ، فوحد امارات النصارى ، ووطد علاقته بالبابا

وبفرنسا وعموما- بالقوى المسيحية في أوروبا ، واتخذت حركة الاسفرداد بعد ذلك شكل الحركة الصليبية بوجهها- البابا ويساندها .

اشتدت هجمات الفونسو السادس على المدن الأندلسية ، وكان يفرض عليها المغارم الباهظة ، فاذا عجزت مدينة عن الدفع-هاجمها ، وحاصرها حتى يشتد الجوع ويعم البلاء ، ويزداد في طلب المال حتى أرهق المدن الأندلسية وأذلها ، ولما أيقن من ضعف المسلمين الشديد ، اتجه الى سياسة الاستيلاء على المدن رافضا الجزية ، فاستولى على طليطلة ، وكان لهذا الاستيلاء أثر مروع في نفوس المسلمين : وفي نفس الوقت رفع من شأنه عند أهم النصرانية ، فطليطلة عاصمة القوط — كما تعلمون — ثم هاجم قرطبة وسرقسطة ، وبدأت الحصون في سبه الجزيرة تتساقط في يده تساقط أوراق الخريف فاستولى على بلنسية ، وسيطر على بعض حصون مرسية وعلى المريه ، وأصبح مصير الأندلس في خطر ، واتخذ الفونسو في قلب الأندلس حصونا يشن منها الغارات على البلاد الاسلامية وشعر المسلمون في الأندلس بالضعف والمذلة ، وانهارت معنوياتهم ، وساعت أحوالهم المعيشية لأن أمراءهم طابوهم بالضرائب الباهظة ، ادفع ما عليهم من اتاوات « للامبراطور » الفونسو السادس وقد صور مؤرخ أندلسى وضع المسلمين بقوله : « وبالجمامة كان الناس قد فسدت أديانهم وانما الدنيا الفانية والزمان على آخرة ، وخلاف هذه الأشياء ، هو ابتداء الهرج وداعية الفساد وانقضاء العالم » .

لقد يئس ملوك الطوائف من توحيد كلمتهم ، كما يئسوا من قوتهم، وكان لا بد لهم من عون خارجي اذا أرادوا أن يكبجوا جماح الفونسو ، الذي أذلهم ، وأثقل كاهلهم ، ورأوا في المرابطين ضالتهم المنشودة لما عرف عنهم من محبتهم للجهاد والغزو في سبيل الله ، كما أن المرابطين غير بعيدين عنهم ، وترغم محاولات أهل الأندلس هذه ابن عباد — ملك اشبيلية وقرطبة — كان المعتمد بن عباد آخر ملوك اشبيلية من بنى عباد من قبيلة لخم اليمنية ، وقد اتسعت مملكته حتى شملت قرطبة ، لكنه كان يقاسى من ويلات الفونسو الذي فرض عليه الاتاوات والمغارم حتى

يكف عن الهجوم على ممتلكاته ، ولما ازدادت قوة الفونسو ، ركب العرور وطلب من ابن عباد بعض الحصون ، وأمن في التحرش بمك اشبيلية وأرسل رسولا الى ابن عباد يطالبه ببعض الحصون في أسلوب وقح وفيه استفزاز ومهانة لذلك ثارت نائرة ابن عباد ، وأمر بقتل رسوله الفونسو ، وطلب في قرطبة ، وأمر ابن عباد بمقتل فرسانه هنا تحرك الفونسو الى اشبيلية للاستيلاء عليها ، واسقاط ابن عباد الذي قتل رسله .

لذلك استنجد ابن عباد بالرابطين على عدوه ، وسافر بنفسه الى ابن تاشفين في المغرب ، واستنجد به ، فوافق ابن تاشفين يدافع الحماس الديني والأطماع السيلامية أيضا ، وحشد الجيوش للجهاد ، وأجازها الى الجزيرة الخضراء ، ثم عبر اليها بنفسه ليقود الجيش ، واتخذ من الجزيرة الخضراء قاعدة لجيوشه ، وابتهج الأندلسيون لمقدمه ، وروا فيه خير منقذ مما وصلوا اليه من ذل ومهانة . وكان ابن تاشفين متحمسا للجهاد بدليل قوله « انما كان غرضنا من ملك هذه الجزيرة أن نستنقذهم من أيدي الروم ، لما رأينا استبدالهم على أكثرها وغداة ملوكهم واهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم واثارهم الراحة . . . ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم طول هذه الفتنة الى المسلمين ، ولأملأنها عليهم خيلا ورجالا لاعهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برحاء للعيش » .

احتلت طلائع المرابطين الجزيرة الخضراء — كما قلت — وعلت صيحة الجهاد في المغرب والأندلس ، فأقبل عليه الناس من البلدين مجاهدين ، وانضمت اليه قوات المعتمد بن عباد وقوات أمراء الأندلس الآخرين ، وبذلك اجتمع شمل الأندلس بعد تفرق ، وتوحدت جهودهم بعد طول نزاع ، وبدا ، وكان يوسف قد وصل ما انقطع من تاريخ البلاد منذ أيام المنصور ابن أبي عامر الذي كانت البلاد في أيامه موحدة الكلمة ، وعاهد يوسف ملوك الطوائف أن يكونوا يدا واحدة وأنه تتصل جهودهم لغزو الروم بمعونته ، وتكونت جيعة اسلامية متحدة

تتصدى للنصارى • وأدرك الفونسو الخطر الداهم على دولته وقوته ، فاستتجد بأمراء النصارى ، ملوك أوربا والبابوية ، ورفع الحصار من سرقسطه ، وأعد العدة لمقاومة الخطر الاسلامى الزاحف •

زحفت جيوش المسامين نحو اشبيلية ثم الى بطليوس في غرب الأندلس ، بغية لقاء العدو ، وحينما علم الملك الفونسو السادس بأخبار هذا الغزو ، رفع الحصار عن سرقسطه — كما قلنا — وأسرع بجيوشه نحو تجمعات المسلمين من المغاربة والأندلسيين ، فالتقى بهم في اشمال من بطليوس عند الزلاقة ، وهناك دارت معركة فاصلة بين الفريقين بين الاسلام والنصرانية سنة ٤٧٩ هـ ١٠٨٦ م • وفي بداية المعركة هاجم النصارى معسكرات المسلمين ، فأحدث فيها هرجا ومرجا ، ففر كثيرون من الأندلسيين ، وتقهقروا أمام العدو ، ولكن يوسف لم يأتبه بهؤلاء الفارين بل هاجم جيش الفونسو ، وحمل عليه حملة شديدة ، ودرق جيش العدو كل مهزق ، وولوا مدبرين لا يلوون على شيء ، ولا شك أن جمال المرابطين وأصوات طبولهم الهائلة قد ألقنت الرعب في نفوس العدو •

ومما لا شك فيه أن انتصار المرابطين في الزلاقة قد أنقذ الحكم الاسلامى بالأندلس من سقوط محقق ، وثبت احترام المرابطين في الأندلس ، واستطاع المرابطون تكوين دولة في المغرب والأندلس عاصمتها مراکش ، واسترد المسلمون بلنسية ، وفكوا حصار سرقسطه ، وأوغل جنود ابن تاشفين في بلاد العدو ، وذاعت شهرته ، وفسرح الأندلسيون بمقدمه • وحكم البلاد بالعدل ، ولم يفرض على الناس من ضرائب الا في حدود ما أقره الشرع • وأسقط كل ملوك الطوائف لأنهم بلغوا درجة من الضعف والتخاذل لا تغتفر حتى ابن عباد نفسه ، وأمن الأندلسيون في ظل حكم المرابطين على أموالهم وأنفسهم ، واستتب الأمن وباد الهدوء وخضع الناس لحكومة واحدة ، وضعف النصارى ، وانكشوا في حصونهم وأوقفوا هجماتهم على بلاد المسلمين ، وخشوا بأس المرابطين ، وتجنبوا الاشتباك معهم •

الرابطون وبنو عباد :

بعد أن سيطر الرابطون على كل بلدان الوادي الكبير وقواعد ممّكه اشبيلية ، واتجهوا لى اشبيلية ، وكانوا يعتقدون أن المعتد بن عباد ، سيخرج من المدينة لاستقبالهم والترحيب بهم ، ولكنه امتنع بمدينته ، وأعد العدة لمقاومة الرابطين ، ومنعهم من دخول اشبيلية .

شدد الرابطون حصارهم لاشبيلية ، فاستعان المعتد بن عباد بطيفه الفوننسو السادس — ملك قشتاله — وكانت تجمع بين الفريفيين مصلحة واحدة ، وهى الدفاع عن الوطن الواحد — اسبانيا — . ومهما يكن من أمر فقد اشتبك الفوننسو مع الرابطين في موقعة ، دارت فيها الدائرة على القشتاليين وزعيمهم الفوننسو السادس . وانفرد ابن عباد بمقاومة الرابطين ، وانهارت قواته واقتحم الرابطون اشبيلية في رجب ٥٤٨٤ / ١٠٩١م وعاثوا فسادا وتخريبا في المدينة ، وهاجم الرابطون القصر الملكي ، وخرج ابن عباد لمقاومتهم ، وظل يقاتل أمام قصره ويدافع عن بلاده ، حتى تمكن منه الرابطون وأسروه هو وآله ، وقتلوا ابنه مالكا الملقب « فخر الدولة — أمام عينيه ، ونهبوا قصور الأمير ، كما نهبوا البلدة نهبا قبيحا . وعلى أثر ذلك سقطت كل بلدان المملكة في أيدي الرابطين » (١) .

وقى ذلك يقول أحد أبناء الأمير :

يحل زمان المرء ما هو عاقد ويسهر في اهلاكه وهو راقد
ويغرى بأهل الفضل حتى كأنهم جناة ذنوب وهو الكل حاقد
ويفترق الآلاف من بعد صحبة وكم شهدت مما ذكرت الفراقد

وقتل الرابطون أربعة من أبناء المعتد ، وقبضوا على المعتد وبعض أفراد أسرته ، وسيقوا الى أغمات في موكب حزين وودعه شعبه بالبكاء

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ج ٢ ص ٨٠ — ٨٥ .

والنحيب ، وتحديث الأدباء والشعراء بافاضة عن نكبة ابن عباد وعن
المجد المفقود والعز الزائل ، وتقلبات الدهر ، وتغيرات العصر .
على كل حال عاش ابن عباد في معتقله في أعماق بالقرب من مراكنس
وقد عاش المعتمد وزوجته وأولاده في ذل وبؤس حيث ضيق عليهم أمير
الرابطين في المأكل والملبس ، وكانت هذه الأسرة الغنية سابقا لا تجسد
ما يكفيها من المال لأبسط متطلبات الحياة كالملبس ، وكانت بنات الأمير
يغزلن الثياب لأفراد الأسرة ، ويبيعهن في الأسواق والتكسب من ذلك .

وفي أول عيد في الأسر يقول الأمير :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساعك العيد في أعماق مسرورا
تري بناتك في الأطحار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
يطلن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطلأ مسكا وكافورا

ولقد اهتز الشعراء لنكبة آل عباد حتى أن الشاعر يقول :

غريب بأرض المغربين أسير سبيكي عليه منبر وأسير .

وتفرق أولاد ابن عباد في مختلف البلاد ياتمسون الرزق والعيش بكل
سبيل ، وتوفي الأمير في أسره ، وظلت فكره عالقة في نفوس أهل المغرب
والأندلس ، وكانوا يزورونه في قبره ، وأنشد أحد الشعراء أمام الجماهير
المحتشدة حول قبره :

ملك الملوك أسامع فأنادي أم قد عدتكَ عن السماع عواد
لما خلت منك القصور ولم تكن فيها كما قد كنت في الأعياد
أقبلت في هذا الثرى لك خاضعا وتخذت قبرك موضع الانشاد
قد كنت أحسب أن تبرد أدمعي نيران حزن أحترقت بفؤادي
فاذا يدمعي كلما أجريته زادت على حرارة الاكباد

وظل قبره مزارا يزوره أهل المغرب والأندلس ، وظلت ذكرى نكبه
حديث الناس ونسج الادباء والشعراء القطع الأدبية الكثيرة حول هذه
المناسبة .

ولكن المرابطين لجأوا إلى استشارة الفقهاء في كل أمور السياسة والحكم ، الأمر الذي أضعف أداة الحكم ، لأن رجال الدين ليسوا أهل سياسة ، وأدى ذلك بمرور الزمن إلى سحق الأهلين على حكومة المرابطين ، ثم انغمس المرابطون في الترف والنعيم ، وفقدوا خصائصهم البدوية وما اتصفوا به من خشونة وغازة ، وخضعوا للنساء وانغمسوا في الشهوات والملذات ، فضعف أمرهم واختلت أحوالهم ، وجسدت النصراني هجماتهم في الأندلس وامتدت من ليون إلى جبل طارق . ولما رأى الأندلسيون حكامهم المرابطين لا يتحركون لانتقادهم من هجمات النصراني ، طردوهم من بلادهم .

وعاد الأندلس سيرتها الأولى في عهد ملوك الطوائف ونشأت في الأندلس مدن مستقلة عن بعضها ، تخضع للنصراني ، ويحارب بعضها بعضاً .

من أهم أسباب تدهور حكم المرابطين في الأندلس ، اضطراب الأمور في هذه البلاد ، بعد استدعاء الأمير تاشفين إلى المغرب وسحب عدد كبير من المرابطين معه للتصدي لمحاولة الموحدين السيطرة وانتزاع المغرب من المرابطين ، فانتهاز النصراني في الأندلس الفرصة كعادتهم ، وأغاروا على الأراضي الإسلامية في إسبانيا وتعدد هزائم المرابطين في الأندلس ، بعد أن توقفت الإمدادات التي كانت ترد إليهم من المغرب ، بسبب انشغال المرابطين في المغرب بقمع حركة المهدي ، وأدى ذلك إلى ضعف المرابطين في الأندلس ، واستهانة أهلها بهم .

ومن أسباب ضعف المرابطين في الأندلس اضطراب الإدارة بعد وفاة الأمير علي بن يوسف ، وتولية تاشفين ، فكانت الأوامر تصدر إلى الجند والرعية متناقضة ومتضاربة ، فساءت العلاقة بين الحاكم والرعية ، ونظر الجند والرعية إلى أميرهم تاشفين نظرة احتقار وأزدراء .

ومن أسباب ضعف حكم المرابطين في الأندلس : أن القهاء — كانوا

أصحاب نفوذ كبير في دولة المرابطين — لم يوجهوا الرعاية التوجه السليم ،
ولم يظهروا أمام الناس بالمظهر اللائق للمقادة الروحيين ، بل انصرفوا إلى
كتب الغزالي والحديث عنها ، وتركوا الأمور الجوهرية تنتشر في البلاد
كالشعوذة والمهدية •

وتضيف إلى ذلك أن الحكومة المرابطية في الأندلس عرفت عنها
التسامح الشديد مع مثيري الشغب في بلد لا يستقيم أمره إلا بالعنف •

ومن الأسباب المباشرة لتدهور حكم المرابطين في الأندلس ، إجراق
لفقهاء لكتب الغزالي — أحياء علوم الدين — واستغل هذه الواقعة محمد
ابن تومرت — زعيم الموحدين — للنيل من المرابطين والدعاية لحكمهم •
وانطلق المهدي بن تومرت للقضاء على حكم المرابطين رافعاً شعار الأهر
بالمعروف والنهي عن المنكر •

كان ابن تومرت سياسياً بارعاً قبل أن يكون رجل دين وكان يمتلك
موهبة رجل السياسة الذي يستطيع فهم الرجال وتقييم الأعمال ،
والتخلص ممن يستطيع التخلص منه ، وممن لا حاجة له به ، والاستعانة
بما يفيد في نشر دعوته ، وأخذ من المذاهب ما يفيد في أغراضه • •

ونلاحظ أن الموحدين قد تمكنوا من المرابطين بسبب فساد أدارتهم ،
ويتمثل ذلك في عمالهم الذين أقبلوا على الرشوة والفساد كما أن الرشوة
امتدت إلى القضاء ففسد ، وأقبل الفقهاء على جمع المال واستغلال الدين
ومناصبهم لصالحهم الشخصية •

ومن أسباب تدهور حكم المرابطين ازدياد قوة النصارى في عهد
الفونسو الأول — ملك أراغون وقشتالة وليون — الإقب بالمحارب ، وقد
شدد هجماته على المرابطين حتى أضعفهم وفي مدى سنة وبضعة أشهر
اجتاح بلاد الأندلس شرقه وغربه وشماله وجنوبه • وقد أضعفت هذه

الغارة من هبة ومكانة المرابطين في الأندلس ، واستهان الأندلسيون بحكامهم ، وانضموا الى الموحدين في التخلص من المرابطين .

انتشر التصوف والزهد في الأندلس ، بعد أن كثر الفساد في المجتمع ، وتعرضت البلاد لهجمات النصارى ، وتسلط الفقهاء على الناس وقرصوا عليهم مذهبهم وآراءهم ، وضعف الحكام المرابطين وانتشر الفساد بين عمال الدولة وقضااتها ، لذلك لجأت جماعات كثيرة الى العزلة عن هذه الحياة ، والزهد فيها ، وظهرت في شرق الأندلس عدة فرق ، كان من أشهرها وأهمها مدرسة المريه والتي ترعّمها الصوفي الكبير أبو العباس ابن العريف ، وامتدت مراكز الصوفية فشملت ، مرسية وبانسية وجزيرة شقر ومالقه وجيان وغرناطة ، وانتشرت الصوفية كذلك في قرطبة وراسل ابن العريف المريدين برسائل حفظها التاريخ . وانتشر المريدون كذلك في غرب الأندلس ، وارتبطوا مع بعضهم بروابط وثيقة ، وكان ابن العريف يرسل الرسائل — كما قلنا — الى مريديه تباعا ويانتظام .

كان للمريدين أفكارا وآراء مختلفة ومتنوعة ، وأغلب الصوفية كانوا يرون الالتزام بالكتاب والسنة ، وكان على رأس هؤلاء ، ابن العريف ، وهناك فريق آخر من المريدين كان يميل الى المذهب الظاهري ، وهناك جناح متطرف يميل الى المذهب الباطني .

وارتأبت الحكومة المرابطية في المريدين ، وخشيت على سلطانها ، اذلك أمنت في مراقبتهم وملاحقتهم ، حتى لجأ بعضهم الى أماكن منعزلة عن عيون السلطة القائمة .

وتورط المريدون في بعض حوادث الاغتيالات مثل مقتل بعض القضاة الأمر الذي شدد من ملاحقة السلطة الحاكمة لهم ، واشتد الصراع بين أجنحة المريدين بسبب تورط المتطرفين منهم في الاغتيالات ، وقد حاول ابن العريف أن يدعو المريدين الى دهادنة الحكومة ونبذ التطرف ، وكان

يغرض تغيير الحكومة القائمه ، لأن الوقت غير مناسب وحذر بعض كبار رجال الدولة ، الحكومة من التساهل والتغاضي عن حركة المريدين ، فاشتدت الحكومة في مطاردتهم ، وتصدت لهم وانقطعت الرسائل بينهم ، وتصدى الفقهاء لابن العريف ، وسفها آراءه وأنكروا مذهبه ، وسعوا به الى الأمير الرابطي وحذروه منه ومن رجاله ، وأمر الأمير علي بن يرسف بنفسه ابن العريف الى دراكس حتى يكون بعيدا عن مريديه ، ولكنه عاد فعفا عنه ، وتوفي ابن العريف سنة ٥٣٦ هـ / ١٢٤١ م ، وقد شجع تسامح الأمير علي بن يوسف الأجنحة المتصوفة من المريدين على الثورة ضد الحكم القسامي .

ترعم أبو القاسم أحمد بن قسي ، المريدين بعد وفاة ابن العريف ووجه المريدين توجيهها يختلف تماما عن سلفه ، حتى أصبح المريدون في الظاهر طائفة دينية أو فرقة صوفية وفي الحقيقة أداة سياسية ، استخدمها ابن قسي أداة في الوصول الى الحكم ، وشجعه على ذلك ضعف المرابطين في المغرب أمام محاولات الموحدين انتزاع الحكم منهم .

كان ابن قسي يعقد المجالس العلمية لشرح كتب الغزالي وآرائه ويجتمع بالمريدين سرا لنشر دعواه السياسية ، بالثورة ضد المرابطين ، واقصائهم عن الحكم ، وادعى أنه المهدي ، فكثر أنصاره وأتباعه ، وأقبل عليه الناس من كل مكان .

وفي سنة (٥٣٨ ، ٥٣٩ هـ / ١١٤٣ - ١١٤٤ م) كان المرابطون في نهاية أمرهم بالمغرب ، إذ كان الموحدون على وشك انتزاع بلاد المغرب منهم ، فانتهز ابن قسي الفرصة ، وحرّض المريدين على الثورة ، وكان المرابطون في الأندلس في مركز حرج إذ توقفت الامدادات التي كانت تصلهم من المرابطين في المغرب وانتوز النصراني في الأندلس الفرصة ، فشدوا هجماتهم على المسلمين في الأندلس ، لذلك تعتبر سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م بداية حركة المريدين الدينية والسياسية .

وأقبل الناس على ابن قسى مؤيدين له ولامامته كل التأييد ولما كثر أتباعه أعلن الثورة ، ودعا الى تحرير البلاد من المعتصمين ، وأرسل رجاله الى بعض الحصون لمهاجمتها واستولى المريدون على بعض الحصون ، وطردوا منها حمايتها المرابطين ، ولكن جنود المرابطين بقيادة أبى زكريا ابن غانية ، — أمير قرطبة — تصدت للمريدين ، وألحقت بهم الهزائم . وحينما ابتعد ابن غانية عن قرطبة لمحاربة المريدين ، ثار العامة في قرطبة بقيادة القاضي أبى جعفر بن حمدين ، وخلصوا ابن غانية ، وولوا ابن حمدين وطاردوا المرابطين خارج قرطبة . ولم يلبث أن ثار الناس بابن حمدين ، وولوا سيف الدولة بن هود ، وكان عميلا للفونسو — ملك قشتالة ، يحرصه ضد المسلمين ، ويستخدمه أداة ضدهم ، وفي اشاعة الفرقة بينهم ، وانقراع ما يستطيع من أراضيهم ، وكان ذلك قشتالة يعاونه بالمال والجنود لأن الاضطراب في الأندلس يحقق للملك النصرارى أهدافه وقتل ابن هود ، وتولى ابن مردتيش أمور شرق الأندلس وواجه الموحدون مقاومة عنيفة من ابن مردتيش واستمر مسيطرا على شرق الأندلس حتى ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م أما زعماء غرب ووسط الأندلس ، فقد استسلموا للموحدن ، ودخلوا في طاعتهم .

دولة الموحدين (٥٢٦ هـ — ٦٦٨ / ١١٢٠ — ١٢٦٩ م)

ينسب محمد بن عبد الله مؤسس هذه الدولة الى على بن أبى طالب وكان يقال لوالده تومرت ، وبإيعه الناس ولقبوه بالمهدى ، وهو من أهل المغرب الأقصى ، رحل الى الأندلس في طلب العلم سنة ٥٠٠ هـ ورحل في طلب العلم الى مصر والشام والعراق ، حيث التقى في بغداد بالامام الغزالي ، وكان فقهاء الأندلس يكفرون من يقرأ كتابه احياء علوم الدين وأفتوا بحرقه في الأندلس والمغرب ، وعاد أبو عبد الله بن تومرت الى المغرب يطعم الناس ، ومن أشهر تلاميذه عبد المؤمن بن على — من أهل تلمسان — وظل يقرأ عليه برباط ملاله الى أن انتقلا الى مدينة فاس ، ومنها الى مراكش ثم مرغه في السوس الأقصى ، وتبع المهدي الكثير من البربر سنة ٥١٥ هـ وبإيعوه على أنه المهدي ، وتعاقدوا على أن يكونوا يدا

ولحده على القتال والدفاع ، وعلى أن يقاتلوا عنه ، ويبدلوا أنفسهم دونه
بها كانت التضحيات ، وترعم هذه البيعة أصحابه العشرة ومن أبرزهم
عبد المؤمن بن علي ، وسموه بالمهدي ، وكان يعقد الأمور العظام مع أصحابه
لعشرة ، وتتابع البربر على بيعته ، والتزموا بنصرته ، وكانت صنهاجه من
أهم أنصاره ، وأعان الحرب على لمتونه ، وترعم أصحابه العشرة الحرب
والطلاب والحفاظ وأهل الدار وأنصاره من القبائل والجنود والرماء ،
ولكل صنف من هذه الأصناف رتبة لا يتعداها غيره لا في سفر ولا في
حضر ، ولا ينزل كل صنف الا في موضعه فاننظم جنده ، وصنف
لأنصاره كتابا ، سماه التوحيد باللغة البربرية ، وهو سبعة أجزاء عدد
أيام الجمعة ، وأمرهم بقراءة جزء واحد كل يوم بعد صلاة الصبح
بعد الفراغ من قراءة جزء من القرآن ، وهو يحتوى على معرفة الله
تعالى وسائر العقائد كالعلم بحقيقة القضاء والقدر والايمان وما يجب
على المسلم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وآخى بين أنصاره ،
وألف لهم كتابا سماه « القواعد » وآخر سماه « الامانة » وكتبا أخرى
بالعربية والبربرية تداولها الناس وتتضمن هذه الكتب المواعظ والحكم
والأمثال ، فأقبل الناس بشغف شديد على هذه الكتب ، ويسر لهم
طلب المسلم .

خشى على بن يوسف — أمير المرابطين — على ملكه من المهدي
وحركته ، وعول على قمع هذه الحركة في مهدها ، وأعد جيشا
بقيادة — والى النسوس أبا بكر اللمتوني — ومنيت جيوش المرابطين
بالهزيمة أمام جيوش المهدي ، ولم يزل ، أمير المرابطين يوالى الحروب
على أصحاب المهدي من كل جانب ، ويبعث لحسابتهم الجيوش
والكتائب ، حتى سئمت جنوده الحرب ، وداخلهم الذعر والرعب ،
وواصل الموحدون — أتباع المهدي — انتصاراتهم حتى اقتربوا من
أنعام ، وقتلوا الكثير من أهلها ، وتوجه المهدي الى تينمال ، واتخذها
مقرا له لحصانتها وحسن موضعها ، وقسم أرضها وديارها على
أصحابه وأدار على المدينة سورا خفيا ، وشيد على رأس الجبل

حصنا يكشف على ما وراء الجبل ، والمدينة حصينة الدخول اليه -
صعبا عسيرا •

ولما شعر المهدي بقوته وازداد أنصاره ، حشد الجيوش للاستيلاء
على مراكنس - عاصمة المرابطين - واسقاط هذه الدولة المتداعية
وحاصر جنده مراكنس أربعين يوما ، ولكن جيوش المرابطين تانت أكثر
عددا وقوة من جيوش الموحيدين ، لذلك هزم المرابطون الموحيدين
ولم يسلم من الموحيدين الا القليل وفر من استطاع الفرار من
المعركة ، وأتبعهم المرابطون من مراكنس الى أغمات ، فأمنوا القتل
فيهم ، ولم ينج منهم الا القليل ، وكان المهدي مريضا بتينمال ، وأوصى
أن يخلفه عبد المؤمن ، وتوفي المهدي سنة ٥٢٤ هـ ، وخلفه
عبد المؤمن بن علي •

توفي أيضا أمير المرابطين علي بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ ، وازدادت
قوة الموحيدين ، وعظم شأنهم ، وتتابع ثوراتهم ضد المرابطين فساعت
أحوال بلاد المغرب ، وتدهور الوضع الاقتصادي ، وكسدت التجارة ،
وانحطت الزراعة ، فانتشرت المجاعات وارتفعت الأسعار ، وتدهور الوضع
السياسي والحالة الاقتصادية في الأندلس ، وتوسع التصاري في
الأندلس على حساب ملك المسلمين وغادر الكثير من الأندلسيين بلادهم
الى المغرب •

ولى أمر المرابطين تاشفين بن علي بن يوسف ، وكان قد اشتبك
مع الموحيدين في عدة وقائع وحروب ، ولم يستطع الذهاب الى الأندلس
بسبب اشتغاله بحروب الموحيدين واشتدت غارات الموحيدين من فاس
الى تلمسان وكان الموحدون يسيرون في الجبال المنيعه حيث الأرزاق
الواسعة وتاشفين ينزل البسائط بعساكره ، فلا يجد من ينصره من البربر
وانتقل عبد المؤمن الى جبل غماره ، فتبعه تاشفين ، ثم انتقل من جبل
غماره الى جهة تلمسان ، وبايعه أكثر زناته المستوطنين بنواحي
تلمسان ، ونزل برأس الجبل الذي غيها ، واستعان تاشفين بصنهاجه

وبرجاله في كل بلد في المغرب ، وتمت المعركة الفاصلة بين المرابطين والموحدين فيما يعرفه بيوم منداس فقد فيه من جيش المرابطين جموع غفيرة ، وظهرت حتى هذا اليوم قوة عبد المؤمن وتجلت بوضوح ، وكان أمر المرابطين قد ضعف في الأندلس لانشغالهم بأمر الموحدين في المغرب ولم يزل الموحدون في علو وظهور كل يوم ، وحال اللمتونيين في ادبار ، حتى اضطر تاشفين الى الاحتماء في حصن في وهران ، خوفا من بطش الموحدين ، ولكن الموحدين حاصروه في الحصن ، ومات تاشفين ، واستولى الموحدون على الحصن سنة ٥٣٩ هـ .

خلف ابراهيم بن تاشفين أباه في وقت تمزقت فيه دولة المرابطين ، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من الزوا ، وكان عليه أن يحافظ على ماتبقى للمرابطين في المغرب ، ولكن كانت قوة الموحدين في ازدياد ، وشأن المرابطين في ضعف وانقسام .

استولى عبد المؤمن على وهران وتلمسان ، ونهبوا كل ما وقع تحت أيديهم من الأموال ، وخربوا الديار ، وقتلوا الأتفس ، واستولى على فاس بعد حصار دام ستة أشهر قاوم أهلها الموحدين بكل بسالة وشجاعة ، واستولى الموحدون على فاس ، ورحل عبد المؤمن الى سلا ، وأرسل عبد المؤمن فرقا من جيئته حاصرت مكناسه حتى استسلمت .

بعد أن ضم الموحدون الكثير من بلدان المغرب الى حوزتهم ولمسوا ضعف المرابطين ، رأوا أن الوقت قد حان للاستيلاء على مراكش عاصمة المرابطين ، حتى يزيلوا نهائيا هذه الدولة من الوجود . وفي سنة ٥٤١ هـ توجه عبد المؤمن الى مراكش ، وحاصر جنود الموحدين العاصمة المرابطية حتى طال الحصار ، واشتد الكرب وعظم البلاء ، وقتل في الحصار الكثير من أهل مراكش ، ومات الناس جوعا وعطشا ، حتى فتحت مراكش أبوابها للغزاه سنة ٥٤١ هـ فدخل الموحدون البلدة عنوة ، وامتنع الأمير أبو اسحاق ابراهيم بن تاشفين مع المرابطين بداخل أحد الحصون ، ولكن الموحدين اقتحموا الحصن وقتلوه ، كما قتلوا

الكثير من أهل مراكنس ، واستمر القتل ثلاثه أيام • وبموت الأمير أبو اسحاق ابراهيم بن تاشفين زالت دولة المرابطين ، وقامت على أنقاضها دولة الموحدين •

وكان انتصار الموحدين في وهران ، ومصراع حاكمها تاشفين ابن علي مشجعا الثوار في الأندلس بالاتصال بالموحدين يطالبونهم بالذهاب الى بلادهم •

واتصل النوار في الأندلس فعلا بالخليفة عبد المؤمن ويايعوه ، ودعوه للحضور الى الأندلس ، وتواى أمورها بعد أن تدهور المرابطون ، وطمح العدو في البلاد ، وانهار الوضع الاقتصادي وكانت أول خطبة أقيمت للموحدين بالأندلس في مسجد قادش ، وانضم ابن ميمون قائد أسطول المرابطين الى الموحدين •

وكان لمقدم الزعماء الثائرين في الأندلس على ، عبد المؤمن ، ومبايعتهم له أثر فعال في توجيه أنظار الموحدين الى الأندلس وسعيهم الى مد سلطانهم على هذه البلاد •

زحف الجيش الموحدى الى الأندلس سنة ٥٤١ هـ - ١١٤٦ م ، واستولى على الجزيرة الاخضراء ، وطرد المرابطين منها ، واستولى الموحدون على شريش ، وواصل الموحدون زحفهم في أراضي الأندلس حتى ضموا الى حوزتهم معظم بلدان غرب الأندلس ، وتوجسوا انتصاراتهم بتصفية قواعد المريردين بالاستيلاء على أشبيلية ، ودخل أهلها في طاعة الموحدين ، ولكن سرعان ما لمس الأهالى تعنت حكام الموحدين وظلمهم ، فثاروا عليهم ، وطردوا عمالهم وخرج على طاعة الموحدين ابن قنسى وثار في شلب وابن ميمون بقسادش ومحمد بن الحجام بيظليوس ، وطرد أهل اشبيلية الموحدين من بلادهم ، وثار أهل الرية على واليهم وقتلوه وفي نفس الوقت ثار المغاربة على الموحدين ، ولم يبق في طاعتهم سوى مراكنس وفاس • وانتز ابن غانية الفرصة ، وقاد جيشا من المرابطين استرد الجزيرة الخضراء من الموحدين •

وزاد من ثورة أهل المغرب على الموحدين ما أشيع بين الناس من أن الموحدين يعترمون قتل زعيم سبته الروحي أبو الفضل عياص

لما تم لعبد المؤمن فتح مراکش قسم فيأها وأموالها على الموحدين. وقسم عليهم ديارها ، وبيع أولاد أهل مراکش واستولى عبد المؤمن على خزائن على بن يوسف وذخائر لتونه وبقية مراکش ثلاثة أيام لا يدخلها داخل ، ولا يخرج منها خارج ، وأسس بمراكش مسجدا جامعاً عبر مسجد المرابطين وغرس البساتين حول مراکش ، وجلب لها الماء من أعماق وحفر الآبار والعيون . وعظم انتاج هذه البساتين من الفواكه .

على أن دولة الموحدين الناشئة تعرضت لكثير من الفتن فوجد بعض الزعماء أن ادعاء المهدي يكسبهم سلطانا ونفوذا وجاها ، فأعلن محمد بن عبد الله بن هود الماسي الثورة في بلاد السوس ، وادعى الهداية ، ولقب نفسه بالهادي ، وأقبل عليه الناس من كل مكان ، وطبقت شهرته الآفاق ، ودان بدعوته جموع غفيرة ، وبايعه الناس في كل بلدان المغرب ، واستنكروا دعوة الموحدين ، ورأوا في دعوته خلاصا من الموحدين الذين لم تتحسن أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية بانتقال الحكم اليهم ، على أن عبد المؤمن سير عدة جيوش الى بلاد السوس هزمت محمد بن هود الماسي وأنصاره ، ولم تكن هذه الحركة المعارضة الوحيدة لعبد المؤمن ، بل اشتعلت ضد حكمه ثورات متعددة قضى عليها وأحبطها في مهدها .

قيام ثورة الموحدين بالأندلس

لم يتعجل الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن عنى بإرسال جيش الى الأندلس لانتزاعها من المرابطين مستغلا ثورة الأندلسيين عليهم ، بل تريت بعض الوقت حتى يتمكن من السيطرة على كل بلاد المغرب ، وانتزاع البلاد التي كانت لاتزال فى أيدي المرابطين ، وضماها الى حوزته . وسقطت بلاد المغرب فى يده الواحدة تلو الأخرى ، وفى سنة ٥٤١ هـ — ١١٤٧ م سقطت مراكش — عاصمه المرابطين فى يده .

وكان الأندلسيون يتربون ما يجرى فى المغرب ، ويتعجلون نهاية اليحصبى . وولى أهل سبته عليهم واليا من المرابطين بعد أن خلعوا طاعة الموحدين .

لما شعر عبد المؤمن بقرب زوال حكمه ، اضطر الى استخدام العنف لاختضاع انوار عليه فى المغرب ، ومزق معارضيه كل مزق ، واسترد الموحدون فى الأندلس الجزيرة الخضراء واسبيلية ، وتلى ذلك سقوط مدن الغرب الأندلس فى أيدي الموحدين المدينة تلو الأخرى ، وقوى أمر الموحدين فى الأندلس حتى أصبح فى امكانهم ضمها الى حوزتهم ، وقد أزعج ذلك ، الفونسو السابع — ملك قشتالة — فأرسل الى ابن غانية فى قرطبة يطالبه بالمال الكثير نظير حمايته من الموحدين ، ودرء خطرهم عن بلاده ، فرأى ابن غانية أن الموحدين اخوانه فى الدين أفضل ألف مرة ومرة من الفونسو السابع ، لذلك أرسل فى الصلح الى الخليفة عبد المؤمن ، وتتنازل للخليفة عن قرطبة وفرمونة مقابل حكم جيان عوضا عنها ، ولم يأبه ابن غانية بتهديدات الفونسو السابع ، وقد هاجم الفونسو السابع قرطبة ، واستولى عليها بعد وفاة ابن غانية ، وعدم استطاعة الموحدين ملا الفراغ الذى تركه هذا القائد ولكن الموحدين مالبثوا أن استردو قرطبة ، وعززوا فيها حاميه كبيرة ، وعاد ملك قشتالة فاستولى على المريه فى سنة ٥٤٢ هـ — ١١٤٧ م ، وكان

لسقوط المريه أمر سيء في نفس الأنداسيين ، الذين تتابعت المنح عليهم ، وقد سُجج ذلك النصرارى على الاستيلاء على ما بقى بأيدي المسلمين في الثغر الأعلى ودعا البابا أوجين الثالث إلى حماه صليبية لفتح هذه البلاد وهاجموا طرطوشه التي سقطت بعد حصار دام ستة أشهر ٥٤٣ هـ - ١١٤٨ م . وتتابعت حملات النصرارى على البلاد الاسلاميه فهاجموا لارده وأفراغه ومكناسه ، واستولوا على هذه البلاد . وبذلك زال سلطان المسلمين من الثغر الأعلى ، ودانت بلاد الثغر الأعلى للنصارى ، وسقطت أشبونه في أيدي ملك البرتغال في الوقت الذي سقطت فيه المريه .

ساعت أحوال الأندلس ، وتدهور الوضع السياسى بها وتطمع الأندلسيون إلى الخليفة عبد المؤمن لانقاذ بلادهم من النصرارى ، وذهب شيوخ الأندلس إلى الخليفة وبايعوه ولم يتخافوا ابن قسى لئذى ظهر عدم اخلاصه للموحدين بل وطد علاقته بملك البرتغال ، لذلك خشى أهل ثلب سوء العاقبة ، وتاروا على ابن قسى وقتلوه وأرسلوا إلى الخليفة عبد المؤمن يبأيعونه ، وبذلك انتهت ثورة المريدين التي كانت تستهدف الخلاص من حكم المرابطين ، وأصبح غرب ووسط الأندلس في أيدي الموحدين ، وتخرج موقف المرابطين في غرناطة ، فأرسل إليها المرابطى ميمون بن بدر إلى الخليفة عبدالمؤمن يعرض عليه تسليم غرناطة فوافق على طلبه وأمنه على حياته وماله سنة ٥٥١ هـ - ١١٥٦ م وعلى أثر استعادة الموحدين غرناطة ، استولوا على المريه وكان لابد للموحدين من تأمين سواحل المغرب والأندلس من أخطار النصرارى ، واسترد الموحدون كل بلدان الثغر الأعلى .

وبعد أن فتح الموحدون معظم الأندلس ، اتجهوا إلى تحرير بقيه شبه الجزيرة من النصرارى ، وحصنوا قاعدة جبل طارق وأنشأوا مدينة كبرى بها تكون معسكرات تتطلق منها الجيوش الموحديه لتحرير البلاد من الأعداء والجهاد في سبيل الله . وكانت سياسة عبد المؤمن تستهدف

تخليص بلاد الأندلس من العملاء المسلمين المتواطئين مع الأعداء
وتخليص البلاد بعد ذلك من العدو النصراني المتربص •

كان عبد المؤمن باراً بمن انضوى إليه ، عارفاً بأقدار النساء
مكرماً لأعيانهم وأهل البيوتات منهم ، عالماً بقدر العلماء ، ينزل النساء
على قدر منازلهم ورتبهم ، وربى الحفاظ بحفظ كتاب الموطأ ، وكذا
ورسائل المهدي ، وكان يدخلهم كل يوم جمعة بعد الصلاة داخل القصر
فيجتمع الحفاظ فيه ، وهم نحو ثلاثة آلاف قصد بهم سرعة الحفا
والتربية على ما يريد ، فيأخذهم يوماً بتعلم ركوب الخيل ، ويوم
بالرمي بالقوس ، ويوماً بالسباحة فتأدبوا بهذه الآداب ، تارة بإعطاء
وتارة بالأدب ، وكان ينفق عليهم عن سعة • وبذلك استطاع تكوين فرقة
ذات كفاءة قتالية كبيرة ، وثقافة دينية رفيعة ، كما عهد بحكم الولايا
الى رجال يثق في مقدرتهم الادارية •

اعتزم عبد المؤمن توسيع دائرة مآكه في المغرب ، فتوجه الى تونس
وسأله أهلها الأمان فأمنهم في أنفسهم وأولادهم ولكن ليس في أموالهم
لذلك دخل جيش الموحدين تونس ، وصادر الجند أموال الأهلين
وبعد أن ثبت الموحدون أقدامهم في تونس ، توجه عبد المؤمن الى المهديّة
وكان صاحب جزيرة صقلية قد استولى عليها ، وعانى بعض بلدان
الساحل التونسي فاسترد الخليفة عبد المؤمن هذه البلاد ، وعادت الى
أيدي المسلمين سنة ٥٤٥ هـ ، واعطى جند صقلية أماناً فغادرو
المهديّة ، وبذلك عادت هذه البلاد الى حظيرة الاسلام ، وأمن أهلها على
أنفسهم وأموالهم ، وانضمت الأراضي التونسية الى دولة المرحدين •
وضمت دولة المرحدين معظم بلاد المغرب من طراباس الى أقصى
السوس •

خلفاء عبد المؤمن :

لما توفي عبد المؤمن خلفه ابنه يوسف ، وقد اجتاز الى الأندلس
سنة ٥٨٠ هـ ، وقد سيطر على بلاد غرب الأندلس ، وصعد عنها غارات

النصارى سنة ٥٨٠ هـ ، وولى أبناءه القواعد الرئيسية في الأندلس ، واتسع ماكه في المغرب والأندلس ، وخلفه يعقوب المصور ، ومن أهم انجازاته فتح مدينة شلب وفي سنة ٥٩١ هـ ، هزم النصارى ، وانتصر عليهم انتصارا رائعا في موقعه تسمى الأرك سنة ٥٩١ هـ بلغت دولة الموحدين ذروتها في عهد هذا الخليفة ، فقد اتسع ملكهم ، فكان لدوله جيش قوى قادر على توجبه الضربات القوية للعدو ، وكانت جيوسهم تضم جندا من المصامدة أولا ثم من الصنهاجيين ثانيا وبعض الزنانيين ، وبعض العرب الهلالية ، وأحاط الخليفة نفسه بحرس خاص من العبيد السودانيين •

ومن أشد الفتن الداخية التي واجهها أبو يوسف يعقوب المنصور فتنة بنى غانية في أفريقية ، وقد انضم اليهم بعض العرب والترك وكانوا يتخذون من الصحراء ملاذا لهم ، كلما ضيق عليهم الموحدون الخناق ، وما زال أبو يوسف يعقوب يشدد عليهم هجماته حتى نكل بهم وهزمهم ، واستكانوا ، وكفوا عن الثوره سنة ٥٨٣ هـ •

لما هدأت بلاد المغرب بعد انتهاء ثورة بنى غانية تطلع أبو يوسف يعقوب لانقاذ بلاد الأندلس من الهاوية التي تردت فيها ، فقد استند ضنط النصارى على مسلمى الأندلس وتدهورت أحوال المسلمين في هذه البلاد ، وأصبح الأندلس على وشك السقوط في أيدي النصارى ، وجدير بالذكر أن أبا يوسف يعقوب كان معاصرا لصلاح الدين الأيوبي ، وكما حرر صلاح الدين القدس وبعض أراضى الشام من الصليبيين معن أبو يوسف يعقوب نفس الشيء • وفي هذه السنة — أقصد سنة ٥٨١ هـ — تولى سانشو الثانى ملك البرتغال ، وقرر الاستيلاء على بعض بلاد غرب الأندلس منتهزا فرصة انشغال الموحدين ببني غانية •

وفي سنة ٥٨٥ هـ حشد جيتسا كبيرا ضم فرقا صليبية كانت مسافره الى بلاد الشام ، واستولى على شاب أهم ما تبقى للموحدين في غرب الأندلس من الموانى •

وكان لسقوط سلب في أيدي ملك البرتغال امر كبير في تصميم
أبي يوسف يعقوب لتحرير عرب الأندلس من أيدي النصارى ، ودعا
الى الجهاد ، واستنفر الناس للقتال ، وأقبل عليه أهل المغرب من كل
مكان ، وكانت مساع المسلمين قويه بعد انتصار صلاح الدين في
حطين سنة ٥٧٩ هـ •

خرج المنصور من رباط الفتح ، وأمر جنده بموافاته في انسيبية
سنة ٥٨٦ هـ ، واستعاد المنصور سلب سنة ٥٨٧ هـ وكذلك بعض
التحصون • وتوقف عن الحرب أربع سنوات ، عاد بعدها الى منازلة
العدو سنة ٥٩١ هـ ، وعندما علم الفونسو الثامن — ملك قشتاله —
دعا كل ملوك النصارى في أسبانيا الى تشكيل جبهة متحدة للتصدي
للمسلمين واستنجد بالبابوية ، فكثر جموع النصارى وفرسانهم ،
واحتشدوا في سهل فسيح حول حصن يسمى الأرك على ضفة الوادى
أنه والى الغرب من مدينة « ثيوداد ريال » الحالية ودارت المعركة
الفاصلة في شعبان ٥٩١ هـ ، وهزم المسلمون النصارى ، ومزقوا جموعهم
كل ممزق ، وفر الفونسو ومن استطاع الفرار الى طليطاه ، ولم ينج
من هذه المعركة الا الشريد •

كان لهذه الواقعة آثار بعيدة المدى في تاريخ الأندلس لا تقل عن الأثر
الذى تركته واقعة الزلاقة ، فقد عادت الى المسلمين هيبتهم في هذه البلاد
وضعف أمر النصارى • فبعد هذه الواقعة أرسل المنصور فرقا من جيئسه ،
استعادت الكثير من بلاد غرب الأندلس ، لكن المنصور لم يجن ثمرة نصره ،
فقد كان في استطاعته تحرير طليطله وغيرها من البلاد • وكف عن محاربة
النصارى ، لذلك أعطى الفرصة للفونسو الثامن لاعادة تنظيم قواته
واكتفى المنصور بتنظيم ادارة الأندلس ، وجنح الى السلم •

خلف محمد بن عبد الله الملقب بالناصر أباه (٥٩٥ هـ — ٦١٠ هـ
١١٩٦ — ١٢١٣ م) كان شابا سريع الاندفاع مستبدا بالأمر ، وفي عهده
انتهت ثورة ابن غانية ، واستولى محمد بن عبد الله على الجزائر الشرقية

سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م ، وبعد ذلك بعامين ، انتصر الموحدون انتصارا رائعا على بنى غانية ، وقضوا عليهم نهائيا قرب قابس . وعلى أثر ذلك دخل الموحدون تونس والمهدية . وتم بذلك القضاء على فتنه بنى غانية التي أجهدت الموحدين كثيرا ، وعهد خليفة الموحدين لعبد الواحد بن أبي حفص بحكم تونس لكفائه . وقد قضى على آثار بنى غانية ، ونبت أقدامه في تونس ، ووطد نفوذه بها . وتوارث بنو حفص حكم افريقية حتى احتفظوا بها نهائيا .

ضعف أمر المسلمين في الأندلس بسبب انسغال الخليفة الموحدى الرابع أبو محمد عبد الله الناصر بقمع الفتن في تونس ، وكف الموحدون عن ارسال الجيوش الى الأندلس لتعزيز مركز المسلمين هناك ، وقد شجع ذلك الفونسو الثامن — ملك قشتالة — على شن الغارات على بلاد المسلمين في الأندلس ، لذلك رأى الخليفة أبو محمد عبد الله الناصر اخضاع الفونسو ، ومحاربته وأعد لهذا الغرض حملة قوية أحسن اعدادها ، وأمدّها بالأسلحة والعتاد ، وعبرت الحملة الى الأندلس سنة ٦٠٧ هـ — ١٢١٠ م ، وعسكر الجيش الموحدى في انبيليه ، وتوافد على جينسه المجاهدون الأندلسيون من كل صوب وحذب .

وأعد الفونسو الثامن حملة صليبية للانتقام من هزيمة الأرك وطرده المسلمين من الأندلس ، فأنهى خلافاته مع ماكى نافار وأرجون واستجد بالبابوية ، وكون قوة مسيحية ضاربه تستطيع محاربة المسلمين وتوجيه أشد الضربات لهم .

تحرك الناصر بجيشه الكبير سنة ٦٠٨ هـ — ١٢١١ ، ودخل جيلان وحصنها ، ثم سار الى خانق ، وعسكر بجيشه على مقربة منها في سهل ملء بالقتال الصخرية القليلة الارتفاع ، وتسمى العقاب ، والتقى الناصر بجيوش النصرانية ، وتتألف من قوات من ليرن ونافار وقشتالة وأرجون وخراسان اسبانية وقوات من المانيا والبرتغال واستولت هذه الجحافل على قلعة رباح ، فذعر الناصر ، وأمر بقتل قائدها يوسف بن قادس ، هنا

ارتاع الأندلسيون ، وتفرقوا ، فضعف شأن الناصر ، ووقعت الواقعة ٦٠٩ هـ - ١٢١٢ م ، وقد هاجم النصارى المسلمين بعنف وضاوة ، واخترقوا صفوف المسلمين ، وقتلوا من فرسانهم الوف ، ومن جندهم عشرات الألوف . وتعتبر هذه الواقعة بداية لضعف شامل أصاب المسلمين في الأندلس ، كما تعتبر نهاية قوة الموحدين ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك ، وتوفى الناصر بعدها بعدة أشهر ٦١٠ هـ - ١٢١٣ م ، وقد نسجت هزيمة المسلمين ، النصارى على الاستيلاء على حصون المسامين ، الواحد بعد الآخر وضعف الموحدون ، وتنافسوا حول الوصول إلى الحكم ، وتنافسوا أحوال الأندلس ، فسقطت البلاد الأندلسية في أيدي النصارى وهي قرطبة وانسيبيلية وجيان ومرسيه والجزائر الشرقية وقد هال المسامون سقوط عاصمتهم قرطبة ٦٣٢ هـ - ١٢٣٦ م في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة ، الملقب بالقديس دون مقاومة تذكر .

خلف الناصر ابنه المنصور ، أبو يعقوب يوسف بن محمد الناصر وتنافس أمراء البيت الموحدى حول الحكم ، وثاروا ضده وظهرت العناصر القوية تطالب بالحكم والقضاء على الدولة المتداعية ، وانتهى النزاع بالقضاء على الموحدين ، وقيام دولة بنى مرين ٦٦٨ هـ - ١٢٧٠ م .

ويجب أن نقول هنا قبل أن نختم كلامنا على دولة الموحدين ، بأن هذه الدولة لعبت دورا كبيرا في تقوية بلاد المغرب ، وأجلت كارثة سقوط الأندلس ، وعززت مركز المسلمين في هذه البلاد ، ويعتبر عصرهم ، العصر الذهبى للفلسفة الاسلامية ، فقد ظهر علماء الفلسفة الكبار ، ابن رشد وابن طفيل وابن عربى، وحفل العصر الموحدى بالأدباء والشعراء والمفكرين والمهندسين الذين أقاموا منشآت معمارية بديعة في جميع أنحاء المغرب . واعتمد الموحدون في بناء صرح دولتهم على المصامدة ، وهو فرع بربرى تميز بالصلابة والمقدرة القتالية ، ويشكلون معظم سكان المغرب الأقصى .

ويجب أن نشير هنا إلى كبار فلاسفة هذا العصر من القلاسة الأندلسيين أبو بكر محمد بن عبد الله بن طفيل القيسى من مراکش

ت ٥٨١ هـ ، ويرى البعض أنه تلميذ لابن باجه ، وكان طبييا في عراطه ، وعمل كاتبا لبعض الأمراء ، وارتفع شأنه حتى أصبح طبييا لحليفة الموحدين يعقوب يوسف المنصور واه مصنفات في الطب ، وله آراء ميمه في الفلك ، ولم يبق من مؤلفاته الا رساله حى بن يقظان ، أو سرار الفلاسفة الاشرابه ، وبدأ ابن طفيل رسالته بموجز مفيد هام عن تاريخ الفلسفة في الاسلام ، يمتدح ابن طفيل فيه ممن تقدمه من الفلاسفة ، ابن سينا وابن باجه والغزالي ، والأساس افسفى لرساله ابن يقظان ، هو الطريق الذى كان عليه فلاسفه المسلمين ، الدين نهجوا على مذهب الأفلاطونية الحديفة ، وقد صور ابن طفيل الانسان الذى هو رمز العقل فى صورة حى بن يقظان (واليقظان هو الله) ورمى ابن طفيل من ورائها الى بيان الاتفاق بين ادين والفلسفه ، وهو موضوع سغل أدهان المسلمين جميعا .

ولد ابن طفيل فى احدى القرى الأندلسيه ، وتقاد عدة مناصب من بينها وظيفة كاتب لحاكم ولاية غرناطة ، وحاكم ولاية طنجه ، وكان طبييا لأحد خلفاء الموحدين ، وهو أبو يعقوب يوسف ، وعظمت مكانته عند الخليفة الموحدى ، وجمع بين الرجلين الميل الى دراسه علوم الدين والفلسفة ، وأرسل فى شراء الكتب من المغرب والأندلس ، وجذب العنماء الى بلاطه ، وأغدق عليهم ، ووصلهم ، حتى ضم بلاطه نخبه من العلماء الأجلاء .

وتطورت الدراسات الفلسفية فى عهد الموحدين ، فبينما كان يرفض المرابطون علوم الفلسفه ، نجد أن الموحدين جددوا علم الكلام عن طريق

ادخال مذهب الأشعري ومذهب اعرالى الصوفي الأشعري ، بعد أن كانا موصوفين بالزندقة من قبل .

ومن أهم مؤلفات ابن طفيل « حى بن يقظان » ووفق في هذا الكتاب بين الدين والفلسفة حتى يزيل اشك والريبه من نفوس المغاربه في علم الفلسفة ، واستفاد ابن طفيل من كتب الفلاسفة الذين سبقوه في المشرق والمغرب ، وتوفي في مراكس سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ - ١١٨٦ م .

كان الانتاج العلمى لابن طفيل قليلا ، ادا قيس بابن رسد أو ابن سينا ، وقد يكون السبب في ذلك اشغاله بالمناصب الرئيسيه في فترات من حياته ، ربما نسغته عن التأليف والتصنيف ونسمع عن كتب ألفه في الفلسفة والطب والأدب ، وفقدت مؤلفاته ، ولم يبق منها سوى كتابه المعروف « حى بن يقظان » .

وترجع شهرة ابن طفيل الى رسالته « حى بن يقظان » التي تعد من الرسائل الخالدة في مجال الفكر الفلسفى العالمى عامة ، والفكر الفلسفى العربى على وجه الخصوص ، وتأثر بها الفلاسفة العرب والأوربيون وأقبلوا على دراستها ، وترجمت الى لغات متعددة^(١) .

وقد أوضح ابن طفيل اعتماده على العزالي وابن سينا ، واضافه الآراء الفلسفيه الجديدة التي ظهرت في أيامه ، الى آرائهما ، وانتقد بشدة ورفض كل الرفض آراء منتطلى الفلسفه ، وأضاف الى كل هذه الآراء أفكاره الخاصة وآراءه . وبذلك يتضح لنا أنه درس آراء فلسفه المشرق والمغرب الذين سبقوه وعاصروه ، ونقدها وأوضح وجه الكمال أو النقص فيها .

وفي رسالته عن حى بن يقظان يقول ابن طفيل « نظر حى الى سائر الأجسام من الجمادات والأحياء فرأى أن حقيقه وجود كل واحد منهما مركبة من معنى "جسمية ومن نسيء آخر زائد على الجسمية اما واحد واما

(١) العراقى : المتمايزيقيا في فلسفة ابن طفيل ص ٣٩ .

أكثر من واحد ، للاحتمال له صور الأجسام على اختلافها وهو أول ما لاح له من العالم الروحاني اذ هي صور لا تحرك بالحس وانما تدرك بضرب ما من النظر « العقلي » (١) .

درس ابن طفيل عالم ما تحت فلك القمر ، وعالم ما فوق فلك القمر ، ومشكلة حدود العالم وقدمه ، وأدلة وجود الله ، ومشكله الصفات الالهيه ، ومشكلة خلود النفس ، والتوفيق بين الفلسفه والدين .
ومما يجدر ذكره أن ابن طفيل كان حريصا على تقديم أكثر من دليل على وجود الله ، كل دليل منها يعتمد على فكرة غير الفكرة التي يعتمد عليها الدليل الآخر بصورة أو بأخرى ، دليل أول يعتمد على فكرة انحره ، ودليل ثان يبين لنا كيف أن حدود الصورة للمادة يحتاج الى محدب ، ودليل ثالث يكشف لنا عناه الله بالكون ، ولولا هذه العناية لهلك العالم في لحظة من اللحظات والاعتراف بين الأسباب ومسبباتها يهديننا الى التصرف بعناية الله بالكون (٢) .

وقد أوضح ابن طفيل بعض الصفات الالهية عن طريق نفيه عن الله تعالى ما تتصف به الموجودات ، تمسكا منه بقواعد التنزيه وموحدا بين الذات والصفات ، « فالله هو الوجود وهو الكمال وهو التمام وهو الحس ، وهو القدره وهو العلم وهو هو » (٣) .

وفي مجال التوفيق وبين الفلسفه والدين ، اهتدى بهذه الآراء ضرورة التمسك بحدود الشرع والأعمال الظاهرة ، وقلة الخوض في المسائل الجدلية ، والايمان بالمتشابهات والتسليم بها والاعراض عن البدع والأهواء ، والاعتداء بالسلف الصالح وترك الأمور المحدثه ، وتجنب ما عليه جمهور العوام من اهمال الشريعة ، والاقبال على الدنيا (٤) .

(١) ابن طفيل : حر بن يقظان ، ص ٨٧ .

(٢) عاطف العراقي : ابن طفيل ، ص ١٤٠ — ١٤٩ .

(٣) ابن طفيل : حر بن يقظان ، ص ٩٩ .

(٤) المصدر السابق ، ١٧٦ .

ودرس ابن طفيل نظرية الاتصال بالله ، وبدراسته جوانب معبرة عن الفناء والخلود ، وغيرهما عن اسياء يتحدب عنها ا صوفيه وهو بيان لسمو العالم الالهي عن العالم الحسي ، ولم يعبر ابن طفيل عن اتجاه صوفي ، انما استند الى اراء فلسفيه وصلته اى المبادئ العامة للوجود .

ويقول الأستاذ الدكتور عاطف العراقي . ان آراء ابن طفيل حلقة من حلقات المدرسه الفلسفية الأندلسية ، وهذه المدرسه بأقطبها الثلاثة : ابن باجه ، وابن طفيل ، وابن رشد ، لا يعبر واحد منهم من خلال آرائه عن اتجاه صوفي .

اما ابن رشد فقد ارتفع شأنه في خلافة أبي يوسف يعقوب المنصور ، ولكن الخليفة قلب عليه ظهر المجن ، وتكر للفلسفة والفلاسفة ، وجمع الفقهاء وشاورهم في ذلك . ماتهما ابن رشد بالكفر ، ونفى الخليفة ابن رشد على مقربه من قرطبه ، ويبدو أن الخليفة بعد موقعه الأرك ، ازدادت حماسه الدينيه ، ولا يغيب عن الأذهان سعى الحاسدين لابن رشد لدى الخليفة . ودمه الفقهاء والنسوح في المساجد ، وهجاه اشعراء ، ولكن أهل الخير أصلحوا بينه وبين أبي يعقوب ، فاستدعاه الى مراكش ، واكرم وفادته ، وطل بها حتى وفاته ٥٩٥ هـ ، ومن أبرز مؤلفاته في الفلسفة ، شروح مؤلفات أرسطو ، وطبع شروح مطوله لكتاب « التحليلات الثانية » — « السماع الطبيعي » « ما وراء الطبيعنة » و (السماء والعالم) و (النفس) ومؤلفات أخرى لأرسطو رسائل (السماع الطبيعي) و (السماء والعالم) و « الكون والفساد » و « الأثار العلوية » و « النفس » و « وما وراء الطبيعنة » .

ومن كتبه التي وضعها بنفسه كتاب « تهافت التهافت » وله كتاب (المقدمات) عبارة عن اثني عشرة مسألة في المنطق ، وكتب « اتصال العقل الفعال بالانسان » وله في علوم العقائد « فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » والثاني هو (الكشف) .

انتقل ابن رشد بالطب ، وصف كتباً في هذا المجال ، ومن أهمها كتاب الكليات ، وهو الذى يتضمن الاحكام الكلية في ميدان الطب ، وقد درس طلاب الجامعات في العصر الوسيط هذه الكتب ، لأنه يتضمن معلومات عامة في الطب ، وكان حذراً في وصف العلاج ، وشغل منصب الطبيب الخاص لأبى يوسف المنصور ، ولما عاد المنصور من إحدى حروبه سنة ٥٩٣ هـ ، كتب اليه البعض مقالات يشككون المنصور في صحه عقيدة ابن رشد ، فنفاه فترة محدودة ثم عفا عنه واستدعه الى مراکش ، وتوفى ابن رشد سنة ٥٩٥ هـ .

وتصوير مبادئ ابن رشد على أنها كفر وزندقه جاء من بعض علاة الفقهاء وأشياعهم ، اذ أرادوا السيطرة على حرية الفكر ورفضوا انحوض في الفلسفة على اعتبار أنها من العلوم التى لم يعد هناك مجال لدراسنها ، واستجاب المنصور لهم لا موافقه على آرائهم ومبالعتهم بل ارضاء لهم ، وفي ارضائهم ارضاء للشعب ، لأنهم زعماءه الروحيون .

والطب في نظر ابن رشد جزء من الفلسفة ، التى كانت في ذلك العصر دراسة شاملة للوجود ككل ، بما يشمله من مجالات عديدة . ولما كان ابن رشد — كما قلنا — قد درس الطب ككل فقد نصح صديقه الطبيب المشهور ابن زهر بأن يعنى بدراسة الأمور الجزئية في الطب في كتاب ، وأصبح الكتابان يكمل أحدهما الآخر .

وصنّاعه الطب في نظر ابن رشد لا بد وأن تتصل بالعلم الطبيعى ، وقسمها الى سبعة أجزاء ، يعرض في الجزء الأول أعضاء الانسان التى شوهدت بالحس ، والجزء الثانى ، الصحة وأنواعها ولواحقها ، والثالث المرض بأنواعه وأعراضه ، والرابع العلامات الصحية والمرضية ، والخامس الآلات ، وهى الأغذية والأدوية ، والسادس الوجه في حفظ الصحة ، والسابع الحيلة في ازالة الأمراض .

عارض ابن رشد الطريق الصوفى في كثير من المجالات ، ويأخذ عليهم

أن طرقهم في النظر ، ليست طرقا نظريا أى مقدمات تؤدى الى نتائج ،
اذ أنهم يرون أن معرفه الله وعيره من الموجودات عبارة عن سىء يلقى في
النفس بعد تجردها من الماديات ، وهم يعرفون الله بالله لأن العقل عاجز
لا يدل الا على عاجز منله . وبدلك لا يلتقى الطريق الصوفى بالطريق
العقلى ، لأن انتجربه الصوفيه ليست راجعه الى احس أو العقل ، وانما
هى نور يقذف به الله في قلب من احبه ، لذلك يعارض ابن رشد الطريق
الصوفى الذى لا يتفق مع العقل ، وتبطل النظر ، والقرآن الكريم دعا الى
النظر والاعتبار (قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون) سوره
الأنعام ٥٠ رقم ٦ — (قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض) ١٠١
يونس ١٠ — (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبه المجرمين)
٢٧/٦٩ النمل — (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الحلق) ٢٩/٢٠
العنكبوت .

وبذلك لا يمكن اقامة البرهان على أى قول من اقوال الصوفية ؛
لأها تعبر عن نزعات شخصية وجدانية لا تستقيم مع قضايا العقل (١) .

وهكذا يوضح لنا ابن رشد ان الطريق الصوفى يقتنافى مع الطريق
العقلى ، والطريق الصوفى فردى ذاتى ، ولذلك فان آراءهم تفتقد الدليل
المقنع والبرهان الأكيد ، لأن أفكارهم — كما أوضحنا — تتنافى مع العقل ،
فلا بد من قواعد وأسس للمعرفة العقلية ، ويرفض ابن رشد ما رده
اصوفيه بأن المعرفه تتصل الى الصوفى بطريق الالهام لا بطريق العقل ،
ولا يمكن تفسير المعرفه بالعجائب والخوارق .

من أهم الانجازات التى حققها ابن رشد تعمقه فى دراسة أرسطو
فحصل على كل ما استطاع الحصول عليه من مؤلفات هذا الفيلسوف
وانكب على شرحها وتلخيصها ، وفضل ابن رشد ، أرسطو على جميع
الفلاسفة الذين سبقوه والذين أتوا بعده ، ولكنه على الرغم من ذلك

(١) عاطف العراقى : المنهج النقدي فى فلسفة ابن رشد ، ص ٢٦١ .

يناقش آراء أرسطو ويؤيد بعضها ، ويرفض بعضها الآخر وكان يريد أن يقدم للعالم الاسلامي فلسفه أرسطو خاليه مما تسببها من أخطاء السراح والمفسرين وتأويلاتهم ، وهذا عكس ما فعله لابن سينا اد كان يعرض آراءه لينقدها أو ينال منها .

وقد اختلف ابن رشد مع الغزالي ، لأن الغزالي اتهم الفلاسفه بالكفر ، وذلك بسبب تصوفه ونزعه الدينيه المتطرفه ، وأرجع الغزالي كفر الفلاسفه الى تأثرهم بالفلاسفه اليونانيه ، وقال الفلاسفه خطأ بقديم العالم ، وبأن الله لا يحيط علما بالجزئيات .

ونقد ابن رشد علماء الكلام لأنهم أهل جدل لا برهان لهم فهم قد آمنوا بآراء معينه بناء على اعتقادات سابقه ، وهو يرفض كذلك التصوف ، لأنه خاص بجماعه دون أخرى وعلى حين أنه يريد الأسس الشامله والمبادئ العامه الواضحه التي ييسر على هديها العقل في اصداره الأحكام على الأشياء ، والنظر في الموجودات .

وابن رشد اذا كان قد اطلع على كثير من آراء الفلاسفه كالفارابي وابن طفيل وغيرهما ، فانه كان أكثر منهم التراما بالاتجاه العقلي وبخصائص الفكر الفلسفي ، واستفاد من الفلاسفه السابقين عليه وكشف عما وضعوا فيه من أخطاء ، اذ هو يأخذ بمذهب أرسطو ، وهذا هو سبب خلافه مع الفلاسفه السابقين عليه^(١) .

ودرس الفلاسفه بافاضة آراء ابن رشد ، وتوصلوا الى أن نظريته في المعرفة ، ترتفع من المحسوسات الى المعقولات ، ومذهبه في العقل والوجود ، يقوم على الارتباط الضروري بين السبب المسبب ، ورد كل شيء الى أسباب تدرك بالعقل وآراؤه عن العقل والانسان تقوم على أساس التسليم بنواميس الكون ، والاعتراف بالخصائص الضرورية لكل شيء^(٢) .

(١) عاطف العراقي : النزعة العقلية في فلسفه ابن رشد ، ص ٨٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦١ .

وهو يفضل في الدين الأدلة البرهانية على غيرها من الأدلة الخطبية
والجدلية ، والحلاصة أن مذهب يتخذ من العقل هادياً ويرى على مبادئ
المنطق .

ولابن رشد مؤلفات كثيرة ، وشروح متعددة في موضوعات فلسفه
وعلم الكلام والنحو والطب والفقه ، وفقد الكثير من مؤلفاته ومن أهم
مؤلفاته « فصل المفاد فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » وكتب
(الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة) وكتاب « صحيفة لمسائله العلم
القديم » وكتاب « تهافت التهافت » الذي رد فيه على العزالي ، وكتاب
« الكليات في الطب » .

من شروحه وتلخيصاته « تلخيص كتاب النفس » و « تلخيص كتاب
الحس والمحسوس » — « تلخيص كتاب الخطابه » — « وتفسير ما بعد
الطبيعه » — « تلخيص ما بعد الطبيعه » — « تلخيص كتاب الشعر —
« شرح أرجوزه ابن سينا في الطب » — « تلخيص كتاب البرهان » —
« تلخيص كتاب القياس » .

ورساله عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ، وتعريف ما وقع فيها بحسب
التأويل من الشبه المزيفه والبدع المضلة وألف في الفقه « بداية المجتهد ونهاية
المقتصد » وهو على مذهب مالك الى غير ذلك من الكتب الفلكية والطبية .

وابن رشد كفيلسوف شارح لمؤلفات أرسطو ومعلق عليها . ويرجع
الفضل الى هذا الفيلسوف القرطبي المسلم في أنه أتم أول محاولة للتوفيق
بين الحكمة والشريعة .

ترك ابن رشد تلاميذه في الأندلس حملوا آراءه وأفكاره الى الناس ،
وصنفوا الكتب في فلسفه أستاذهم ، وكان تأثير مذهب ابن رشد قويا في
الفكر الأوربي ، فقد ترجم اليهود شروحه الى العبرية ولخصوها ، وكانت
هذه الترجمات والمختصرات هي العماد الأكبر الذي بنى عليه العلم العبري

ابتداءً من القرن الثالث عشر الميلادي ، وظلت كتابات ابن رشد مصدر الهامهم .

محيى الدين بن عربى :

تتمثل أعلى صورة وصل اليها تطور مذهب الأفلاطونية الحديثة عند مسلمى الأندلس المتفرع من مدرسه ابن مسرة فى شخص أبى بكر محمد بن على بن عربى ت ٦٣٨ هـ ، وقد عرف بمحيى الدين وبالشىخ الأكبر ، وابن افلاطون قضى سنوات طفولته وصباه ، ودرس علوم الحديث والفقه والتفسير والأدب واللغة ، ثم زهد الحياة بعد تفكير فلسفى عميق ، وانصرف الى دراسة كتب التصوف وممارسة حياة التصوف مع شيوخ كثيرين ، وعندما استكمل عدته ، خرج يجول فى الأرض ، وقضى بقية حياته متجولا فى بلاد المسلمين والنصارى ، بتعلم ويعلم ويجادل ، ولقى بعض الصوفية فى المغرب ، وهو الذى بدأ ثورة المريدين فى غرب الأندلس على المرابطين ، وبعد أن قام بسياحات متعددة فى بلاد المغرب والأندلس ، استقر فى فاس سنة ٥٩١ هـ ، حيث انصرف الى الرياضة الروحية ، وغادر المغرب الى المشرق لسوء علاقته بالموحدين ، ووضع قبل رحيله كتاب « مواقع النجوم » أوضح فيه الطريق الذى يجب أن يتبعه المريدون ، وتوجه الى مصر ومنها الى مكة المكرمة سنة ٦٥٨ هـ ، وحدث الناس حول ما سيحل بهم ، وتعلق بفتاه من أهل مكة ، وضع فيها مجموعة من شعر العشق ، وكتب كتابه « الدرر الفاخرة » ويتضمن سير الصوفية من شيوخه وزملائه من أهل المغرب .

ورحل الى الموصل سنة ٦٠١ هـ ، ثم القاهرة ٦٠٣ هـ ، وظهرت له كرامات ، ولكن الفقهاء هاجموا لما علموا قواه بوحدة الوجود ، ثم رحل الى قونية بدواة سلاجقة الروم وتلمذ عليه كثيرون ، ووضع كتابين « مشاهد الاسرار » و « رسالة الأتوار » ثم ساح بنواحي الأناضول ، وعاد الى بغداد سنة ٦٠٨ هـ ، واجتمع به المريدون ، وتلمذوا عليه ، وعاد الى مكة حيث كتب « ذخائر الأعلاق » ترحا على ديوانه « ترجمان الأشواق » وقد أبرز فى هذه الكتب العشق الروحى الذى يقصده من

كتابه وهو بعيد كل البعد عن العنق الجسدى • وعاد الى دولة سلاجقة الروم ، ثم توجه الى حلب ، حيب لقيه السلطان الظاهر غازى صاحب حلب ، واشتد به المرض ، فكتب كتاب « الحكمة الالهامية » وهو رد على الفلاسفة على طريقة الغزالى واستقر فى دمشق حتى وفاته ٥٦٢٠ هـ •

كتب ابن عربى أربع مائة كتاب ورسالة ، وأعظم كتب ابن عربى « الفتوحات المكية فى معرفة الأسرار المكية والملكية » وجمع فيه كل ما أورده فى كتبه الأخرى •

والفكرة الرئيسية التى يقوم عليها تفكير ابن عربى هى الزهد والقول بوحدة الوجود والشك الصوفى ومذهب الصوفية فى النفس ، وجمع بين هذه الآراء المتباينة ، ونسقتها ، ويرى ابن عربى أن لا دواء ينسقى من الحيرة التى وقع فيها الانسان من أفكار الفلاسفة ، لا الزهد والتصوف ، وذاعت آراء ابن عربى فى البلاد الاسلامية وغير الاسلامية •

ينسب ابن عربى الى قبيلة حاتم الطائى ، وهو أبو بكر محمد بن على ويلقب محبى الدين والشيوخ الأكبر وابن أفلاطون ، ونشأ فى مرسية بالأندلس فى عصر الموحدين ، ونشأ من أسرة متدينة يغلب عليها الزهد والتصوف ، وانتقل فى طفولته الى اشبيلية مع أهله وهناك درس التاريخ والأدب والقراءات والشعر ، وتولى وظيفة فى بعض دواوين اشبيلية وهو فى شبابه الغض ، ولما توفى والده تأثر لذلك كثيرا حتى تحول الى الله بكليته نهائيا ، ويشير ابن عربى فى بعض كتبه الى الكرامات التى صحبت وفاة والده ، ودخل الحياة الصوفية ، وصار صوفيا ، بعد أن تجاوز العشرين فى حوالى سنة ٥٨٠ هـ — ١١٨٤ م • وفى سنة ٥٨٦ هـ — ١٩٩٠م ارتحل صوفى شهير الى اشبيلية ، واتصل بابن عربى للاستفادة منه ، وعكف ابن عربى بعد أن تحول الى طريق التصوف على قراءة كتب الصوفية وعلى الاجتماع بشيوخ الطريقة ، وتلقى الكثير من الآراء والأفكار عن المتصوفين الذين اتصل بهم وتعلم منهم الاتصال بأرواح الموتى ، وكان ابن عربى يتصل بالشيوخ والعلماء ، وقد أشادوا بعلمه

وورعه وزهده ، وتلقى ابن عربي عن شيخين متخصصين في عملية محاسبة الضمير يوميا ولكن طريقتهم كانت مقصورة على المحاسبة على الأفعال والأقوال ، فأضاف إليها ابن عربي المحاسبة على الخواطر أيضا ، وعمل على تكوين روحه منذ سنوات بشبابه بالزهد في السهوات .

وبعد فترة من الزمن أمر ابن عربي العزلة ، وترك التسايح وخلا إلى المقابر ، يقضى عندها النهار بطوله على اتصال مباشر بأرواح الموتى ، كان يجلس على الأرض باكيا ، متأملا في قدرة الله وفوته ، متؤملا في قضية الحياه والموت ، وبذلك اشتد ايمانه بالظواهر الحارقة في الحياة الصوفية ، وشاهد بنفسه كرامة قدمها صوفي ، وهي عدم الاحترق بالنار . وكان ابن عربي يرى في المنام ما يتحقق في اليوم التالي ، الأمر الذي أثار دهشة أهل اشبيلية ، واعتقادهم في ولايته .

وأتم ابن عربي تكوينه الصوفي تحت اشراف جميع الشيوخ الذين اتصل بهم ، وكان يقضى أياما كثيرة في مسجد الزبيدي يصحبه أبي يحيى الصنهاجى الضرير — صاحب الكرامات الذى علمه أن يصبر على اضطهاد العامة ، مخفيا الولاية ، وتعلم الفائده في حياة التجوال بالنسبة الى الصوفى ، واتصل بالصوفيه رجالا ونساء وقد صحب الصوفيه فاطمة سنتين متتاليتين ، مريدا وخادما ، وعاش معها عيشة طاهرة في كوخ من القصب ، بناه هو نفسه في اشبيلية ، ليعتود حياة العزلة ، ويشاهد عن قرب الظواهر العجيبة ، التى كانت تصدر عن فاطمة ، وحضور الجن حينما تدعوهم .

وبعد أن تعمق ابن عربي في دراسة التصوف ، جال في الأرض ، وكانت حياته سياحة مستمرة ، طاف بلاد المشرق والمغرب ، متعلما ومعاما ومناقشا ، وبدأ جولاته في قرى الأندلس وهدبه ومن البلاد التى زارها ، مدينة الزهراء — قرب قرطبة — وهى التى شيدها عبدالرحمن الناصر ، أوحى اليه.أطلالها بتأملات حزينة تبكى من شيدها وبناها وأقام صرحاها ، ذكر في ذلك أبياتا :

ينوح عليها الطير من كل جانب
فيصمت أحيانا وحينما يرجع
فخاطبت منها طائرا متغردا
له شجن في القلب وهو مروع
فقلت : على ماذا تنوح وتشتكى
فقال : على دهر مضى ليس يرجع

ورأى في منامه أسماء الصوفية في عالم الاسلام ، واشتهر أمره
بصفته صوفيا في بلاد الأندلس ، ولجأ اليه التسيوخ ، يسألوه الرأي
في المسائل الصوفية .

ويبدو أن روح ابن عربى القلقة لم تقنعه بحدود بلاده الضيقة
فارتحل منها الى افريقية قبل سنة ٥٩٠ هـ — ١١٩٣ م ، وكان هدفه
الرئيسى أن يلتقى بالشيخ الاشبيلي ابن مدين ، الذى أقام مدرسه
صوفية في مدينة بجاية منذ عدة سنوات ، ويتسیر اليه ابن عربى بوصفه
شيخه ، وأورد في كتبه كراماته ورؤاه ومناقبه ومذاهبه ، ولم يقيم ابن
عربى كثيرا في بجاية ، ورحل الى تونس سنة ٥٩٠ هـ — ١١٩٣ م ، وهناك
اكرمه حاكمها ، وأنزله منزلا جليلا من الاكرام والتبجيل والاعزاز ،
ويقول ابن عربى بأنه في أثناء اقامته بتونس تجلى له الخضر من جديد
في ليلة قمرية كان ابن عربى يستريح فيها من دراساته ومجاهداته
الصوفية ، ومن بين أسباب زيارته لتونس حرصه على لقاء صوفى خبير
هو أبو محمد عبد العزيز ، ولم يلبث ابن عربى أن غادر تونس عازما على
السير بحذاء الشاطيء حتى يباغ اشبيلية لان الاضطرابات السياسية
في شمال افريقية جعلت من الصعوبة عليه البقاء فيها ، وعاد الى الأندلس
ونزل في ميناء طريف ، ثم عاد الى سبيلية ، حايث وقعت له كرامة جديدة
أعجبت من كان شاهده ، وثبت ذلك اعتقاد الناس فيه ، فقد قيل بأن ابن
عربى قد الف قصيدة في ذهنه لم ينسخها ، ولم يقرأها لاحد من الناس ،
ورغم ذلك فقد أنشدها نسخا لا يعرفه .

وفي سنة ٥٩١ هـ — ١١٩٤ م ، عاد ابن عربي الى بلاد المغرب ونزل في فاس ، واتصل بالمشايخ والاخوة في طريق الله الذين سيتردد عليهم كثيراً في السنوات التالية ، منهم صوفي أفاد ابن عربي في علوم السحر ، وتنبأ بعض الشيوخ هناك بانتصار الموحدين في موقعة العقاب سنة ٥٩١ هـ — ١١٩٤ م الأمر الذي شجع ابن عربي على العودة الى الأندلس ، ونزل في شبيلية عند أحد أصدقائه ، وأقبل عليه الناس من كل مكان ، حيث ازدادت شهرته ، وأقبل الناس على قراءة كتبه ، والاستفادة منها ، وعاد شيخنا الى فاس سنة ٥٩٣ هـ — ١١٩٥ م ، وعكف على الدراسات والمجاهدات هناك ، وكان يحضر دروس المشايخ في فاس . وكان يجلس في أحد بساتين فاس ، ويلتف حوله تلاميذه ، فيستمعون الى محاضراته في الصوفية ، واتخذ لنفسه آراء مستقلة ، ودحض آراء بعض المشايخ .

وقد نال ابن عربي شهرة كبيرة بين تلاميذه — لكن حکام الموحدين كانوا يبعثونه ، ويخشون على حکمهم من الصوفية ومن ثوراتهم ، وقد جرى حديث بين ابن عربي والسلطان يعقوب المنصور ، يدل على ذلك . فقال السلطان لابن عربي : ذل من ليس له ظالم يعضده ، فقال له ابن عربي : وصل من ليس له عالم يرشده ، فقال : يا أخى : الرفق فقال ابن عربي : ما دام رأس المال محفوظا ، يعنى الدين ، فقال : صدقت ، وسكت عنه .

لذلك رأى ابن عربي مغادرة المغرب نهائيا حتى ينال في المشرق من الحظوة والتقدير ما لم ينلها في المغرب ، وفي أثناء مغادرته للمغرب تجأى له الخضر للمرة الثالثة ، وهو يسير في الهواء بحضور ناس آخرين .

وفي سنة ٥٩٧ هـ — ١٢٠٠ م ، توجه ابن عربي الى مراکش — عاصمة دولة الموحدين — بصحبة الصوفي أبو العباس السبتي ، وبينما ابن عربي في مراکش ، اذا برؤيا يراها ، تطلب من ابن عربي الرحيل الى فاس للقاء محمد الحصار ، ويرحل معه الى الشرق ، الذى أخبره هو أيضا أنه رأى هذه الرؤيا . وارتحل الرجلان الى تلمسان ، وأقبل ابن

عربي الى بجاية سنة ٥٩٧ هـ ، وواصل ابن عربي رحلته ، فتوقف في تونس وفيها وصل الى درجة من أعلى درجات السلوك ، وأقام ابن عربي في تونس تسعة أشهر الا قليلا ، ثم استأنف الرحلة الى الشرق ، وفقد صاحبه محمد الحصار أثناء الرحلة ، ومر بمصر ولم يقيم طويلا بها ، واستأنف السير الى غايته ، الى مكة المكرمة وبلغها سنة ٥٩٨ هـ ، وذاع صيته في هذه المدينة المقدسة والتف حوله الصالحون والعلماء والزهاد . واستقرت حياته نسبيا سنة ٥٩٨ هـ ، ونشط نشاطا كبيرا في مجال التأليف والتصنيف . وفي سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م ، صنف كتاب « مشكلة الأتوار فيما روي عن النبي من الأخبار » وفيه جمع أربعين حديثا بأسانيدھا المتصلة حتى الله (أحاديث قدسية) وفي الطائفة ألف كتاب « حيلة الأبدال » وكان الطواف في البيت العتيق بحياته ينشئ في روحه روى وتجليات كثيرة فظهر له بعض الصوفية الذين ماتوا منذ قرون أثناء طوافه وتحدث معهم ، وتتبا بوقوع كارثة في اليمن ، وقملا حدثت وهبت عليها ربح عاتية ، قاسى منها اليمنيون الكثير وحدثت كوارث وأوبئة في بلاد الحجاز أيضا ، الا أن هذه المصائب لم ترزع أيمانہ ، وصنف في أثناء ذلك كتاب « الدررة الفاخرة » ووجهها الى صديقه في تونس وفيها تراجم لثييوخه في التصوف في المغرب ، والذين أباد منهم في حياته الروحية .

وفي سنة ٦٠٠ هـ / يشرع في الترحال والتجوال ، وفي سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م يمر ببغداد ، ويقيم بها عدة أيام ، وغادرها الى الموصل ، لزيارة أحد شيوخ الصوفية ، وكان لهذا الضوق ، كما يفعلون ابن عربي — بستان خارج الموصل ، وفي هذا البستان ظفر ابن عربي بشرف تلقى خرقة الخضر لثالث مرة من يدي ابن جامع الذي تلقاها مباشرة من الخضر ومن هذا التاريخ أصبح ابن عربي يعتقد في الأهمية الكبرى لهذا الرسم من مراسم الصوفية ، وأوصى بذلك المريدين ، كدواء ناجح لعلاج الأزمات الأخلاقية .

(١) انظر كتاب « ابن عربي » للاستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوي .

وفي سنة ٦٠٣ هـ — ١٢٠٦ م ، ارتحل ابن عربي إلى مصر ، وكانت جماعة من الصوفية من أصحاب ابن عربي وهم يديه قد أقاموا في بيت بزقاق التناديل بالقاهرة ، فانضم اليهم ابن عربي وقضى معهم الليالي في العبادات والمجاهدات واتبان الكرامات العجيبة ، وكانوا يقضون أوقاتا في الظلام ، فيعتقدون بانبعث أنوار منهم تبعد نور الظلام ، وفجأة تجلى لابن عربي شخص رائع الجمال ، ألقى إليه بكلمات في غاية الحسن يوحى فيها من الله بأمر تتعلق بالاتحاد الصوفي ، معناها يدل على وحدة الوجود .

ولم يرض شيوخ السنة عن آراء ابن عربي ، فاتهموه بالكفر والالحاد ، وطالبوا بقتله ، واضطهد ابن عربي عقب ذلك وتجادل شيوخ الفقه حول آرائه وحقيقة إيمانه ، ولقد دخل ابن عربي من قبل مع فقهاء الشرق والغرب في مجادلات حول آرائه وأفكاره ، ومن حسن حظ ابن عربي أن الملك العادل الأيوبي لم يستمع إلى نداءات الفقهاء بسجنه والتخلص منه .

ولم يؤثر هذا الاضطهاد على المذهب الصوفي لابن عربي ، بل زادت حماسته ، ولم يلبث أن غادر القاهرة إلى الاسكندرية ، ومنها ذهب إلى مكة ، وظل بها حتى سنة ٦٠٤ هـ — ١٢٠٧ م ، لكن السماء — كما يقول — نادته وأمرته بالسياسة إلى قونية ، وكانت عاصمة دولة سلاجقة الروم ، واتصل بالسلطان كيكاوس الأول سنة ٦٠٧ هـ — ١٢١٠ م ، وأنزله السلطان السلجوقي في دار نليق به ، وأقام فيها بعض الوقت ، وأهداها ابن عربي صدقة إلى أحد السائلين ، وفي هذه الفترة الهادئة من حياة ابن عربي ، استأنف التأليف والتصنيف ، فكتب كتابين هما : « مشاهد الأسرار » و « رسالة الأنوار فيها يمنح صاحب الخلوة من الأسرار » ، وفي أوقات فراغه كان يجتمع بالصوفية الذين يريدون الانتفاع بتعاليمه والاقتداء به ، وكان له تلاميذ يشهدون له بالولاية ،

ويقولون بأن ابن عربي كانت تظهر له تجليات سماوية للأرواح النبوية ، على هيئة جسمية ، أو تتحد بروح ابن عربي في مشاهد وجدانية خارقة ، وشاهد الناس كراماته فأمنوا به واعتقدوا فيه .

استأنف ابن عربي رحلته في آسيا الصغرى وأرمينية وفي خلال رحلاته اتصل بالصوفية ، وفي سنة ٦٠٨ هـ — ١٢١١ م عاد الى بغداد للاتصال بالصوفي الشهير شهاب الدين عمر السهروردي وكان صاحب مدرسة في الوعظ والمجاهدات الصوفية ، وشيخ مشايخ الصوفية ، وذاع صيت ابن عربي في بغداد حتى التفت حوله الصوفية ، وكان يمشى في شوارع بغداد محاطا بتلاميذه ومريديه حتى علت مكانته على مكانة الخليفة الناصر .

وعاد ابن عربي الى مكة في سنة ٦١١ هـ — ١٢١٤ م ، وعكف على العبادة المعتادة في الكعبة ، وكتب شرحه على « ترجمان الألسان » وقد رد في هذا الكتاب على مزاعم الفقهاء الذين هاجموا بعض أشعاره لما فيها من لهجة حسية شهوانية تشيع في قصائده دون أن يدركوا معانيها الصوفية . وعاد الى آسيا الصغرى وتتبأ بانتصار كيكافوس في أنطاكية في قصيدة كتبها للسلطان جاء فيها :

قصبت بلاد الكفر نبغى فتوحها
فابشر ، فإن الروم فيك لفسى خسر
رأيت لكم رؤيا تعدل على النصر
وفتح بلاد الكفر والقتل والأسر
إذا جاء نصر الله والفتح فلتجد
بصالك من خير على العسر واليسر

وقد لقي ابن عربي الحفاوة والتكريم من سلاطين وملوك عصره مثل الملك الظاهر — صاحب حلب — ووضع كل ثقته في ابن عربي ، وأفرد لابن عربي بيتا خاصا ، وكان أهل حلب يوسطونه لدى الملك في قضاء حوائجهم ، والملك لا يرد له طابا وزاد نفوذه على نفوذ كبار رجال الدولة

والفقهاء ، ودارت بينه وبين الفقهاء مجادلات كثيرة حول التصوف •

وكان ابن عربي يحصل من أسد الدين شيركوه — سلطان حمص — سنة ٦٣٧ هـ — ١٢٣٩ م كل يوم على مائة درهم ، فكان يتصدق بها •

كتب ابن عربي أكثر من أربعمئة كتاب ، ولم تكن هذه الكتب تتمسئ مع العقل والنطق ، لأنه لم يستطع التخلص من تأثير الوحي الالهي انذئ كان يملئ عليه ما يجب أن يكتبه أو لا يكتبه •

واشئت به المرض نتيجة كثرة أسفاره ، واقامته في بعض الاوقات في بلاد شديدة البرودة ، ومجاهداته الروحية ، وفي مرضه صنف كتاب « الحكمة الالهية » وهذا الكتاب على نمط كتاب « تهافت الفلاسفة » للغزالي • وقد مرض في أثناء تأليفه لهذا الكتاب ، ولم يسمح له مرضه بالتفكير أثناء وضع الكتاب في المسائل الطبيعية ، فألهمه الله حلها دون تفكير ولا تأمل ولا نظر ، وفي سنة ٦٢٠ هـ — ١٢٢٣ م استقر ابن عربي في دمشق وكان في الستين من عمره ، ولم يغادرها حتى وفاته • وبالنسبة الملك المعظم ابن الملك الكامل في اكرامه ، وكانت صلته بابن عربي صلة المريد بالشيخ ، وقد تعددت تجلياته في السنوات الأخيرة من حياته ، وانقطع فترة في صحراء خارج دمشق • ويقول ابن عربي : بأن النبي ظهر له سنة ٦٢٧ هـ ، وسلمه كتابا سماه « فصوص الحكم » وأمره بإذاعته ونشره بين الناس لما فيه من كمال صوفي ويعرض في هذا الكتاب أغرب نظرياته في وحدة الوجود على هيئة الهامات يعزوها إلى التوالئ إلى تعليم السبعة وعشرين نبيا المرثيين بين الأنبياء الذين يعتز بهم الإسلام ابتداءا من آدم وانتفاءا بمحمد ، وأقبل طلاب ابن عربي على دراسة هذا الكتاب والتعليق عليه •

ويعتقد أنه ألف كتاب « الديوان » بعد سنة ٦٣١ هـ — ١١٣٢ م وتتجلى في قصائده في الديوان لهجته عن الوجد الصوفي • ويعتقد أن

(١١) انظر الرسالة القيمة التي كتبها الدكتور عبد الرحمن بدوي من

ابن عربي •

ابن عربي أتم في تلك الفترة كتابه الاكبر « الفتوحات المكية » وقد استغرق تأليفه بضع سنين ، وهذا الكتاب خلاصه شاملة لكل مؤلفاته بما في ذلك قصائده الشعرية ، وقد وضع هذا الكتاب بعد أن زار القدس والمدينة ، وزار مكة لأول مرة ، وفتح الله عليه عند طوافه بيئته الحرام ، ومن هنا جاءت تسمية الكتاب « الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والمكية » ويذكر في مقدمته كتابه أن الرسول ظهر له في المنام ، ولقنه خطبة طويلة من وحى الروح القدس •

وقد شرح الصوفية هذا الكتاب ، ونال شهرة واسعة بينهم ، واعتقدوا بما فيها من آراء وأفكار صوفية ، وم نكتب ابن عربي في التفسير كتاب « تفسير الكبير » ولم يتمكن من اتمامه ، ثم كتابه المعروف « تفسير الشيخ الاكبر » وهو تفسير رمزي صوفي للقرآن وأطلق فيه العنان لتأويل الرمزي المستور ، وله رسائل لأهل الطريق ، توضح لهم الأسلوب الواجب اتباعه •

وعاش ابن عربي في هدوء شديد في دمشق في أيامه الأخيرة مع أسرته ، وكان موضع تقدير الناس حكاما ومحكومين ، وكان الملك الأنسرف ابن الملك العادل يحضر دروسه ، وتلقى الاجازة منه برواية كتبه ، وكان قاضي الشافعية يخدمه خدمة العبيد تقديرا واجلالا له ، وقام القاضي ابن زكي بترتيب معاشه في دمشق ، ثلاثين درهما كل يوم ، وأنزله في منزله •

وعاش ابن عربي في شيخوخته يصنف مصنفاته حتى وفاته سنة ٦٣٨ هـ - ١٢٤٠ م وقد اقترب من ائمانين ، ودفن قرب دمشق في قرية الصالحية على سفح جبل قاسيون ، يعتقد الناس ، أن الأنبياء زاروه خصوصا الخضر •

وقد ظلت شهرته بعد وفاته قائمة ، ونسب اليه الصوفية وأتباعه الكرامات والأساطير ، وأمر السلطان سليم الثاني سنة ١٥٧٩ م ببناء مسجد باسمه ، ومدرسة كبيرة على ضريحه ورتب الأوقاف عليهما •

ولا تزال كتب ابن عربي حتى يومنا هذا في المكتبات العربية ،
ويقبل على قراءتها ودراستها الصوفية والدارسون ، وانطرق
الصوفية في الشرق الاسلامي تستلهم القواعد العمليه والنظرية في
تصوف ابن عربي •

ومن أهم آراء ابن عربي ، وحده الوجود : ويفسرها الدكتور
بلاثيوس (١) بقوله : اذا كان العالم يصدر عن الله ، والمخلوقات هي
علامات وآثار وتجليات له ، واذا كان الجوهر أو الحقيقة العددية
للكون واحدة ، هي الحقيقة الالهية ، واذا كان لا يوجد خارجها غير
ظواهر هي بمثابة أعراض لها ، فمن الواضح أن ادراك هذه الوحدة
في الوجود ينبغي أن يكون المطلب الأسمى للتصوف : فالنفس ، بعودة
مثالية ترجع الى الاتحاد بالله الذي صدرت عنه • ويقول ابن عربي في
نظريته بأن الحلول (وحدة الوجود) ليس سببها بوصول الجسم
بالجسم ، أو العرض بالعرض أو العلم بالمعلوم ، أو الفعل بالمفعول ،
بل الاتحاد أو الوصول متخيلا أكثر منه حقيقا ، ويشاهد الصوفي
محبوبه بالقرب منه على نحو كأنه يشاهده بعينه ، ويشعر بلذة
الوصول بتجربة ألطف وأعذب من الوصال الجسماني ، لأن الله روح
محض فلا يمكن للإنسان أن يتصل به الا عن طريق التخيل •

(١) ابن عربي حياته ومذهبه ص ٢٥٢

الفضل السابع

مملكة غرناطة ونهاية الأندلس

مملكة غرناطة

أو دولة بنى الأحمر

كانت مملكة غرناطة البقية الباقية من ملك العرب في أسبانيا ، بعد أن فقد العرب أملاكهم في أسبانيا ، ودالت دولتهم ، واستولى الأسيبان على بلدانهم ، البلدة تاو الأخرى ، وفيما بين ١٢٣٨ م (٦٣٦ هـ) و ١٢٦٠ م (٦٥٨ هـ) فتح فرديناند ملك قشتالة وجايم الأول — ملك أرغون — مدن يونسية وقرطبة واشبيلية ومرسية ، ولم يبق للعرب سوى غرناطة ، وقدر للعرب أن يستمروا في غرناطة قرنين ونصف قرن .

وكان للعرب في غرناطة جيش قوى ، واجتمع بهذه البقعة الحصينة المسلمون الذين فروا من المدن الأخرى التي استولى عليها النصارى ، وتجمعوا في غرناطة ، وتحصنوا بهذه البلاد التي يحيط بها انحود من كل جانب ، وكانت غرناطة تؤدي اتاوة سنوية لملك قشتالة حتى تؤجل مصيرها المحتوم قدر استطاعتها .

أسس دولة بنى نصر في غرناطة ابن الأحمر — وهو عربى الأصل لشقرة فيه ، سمي بهذا الاسم ، وكان قوى الشكيمة شجاعا ، غير أنه لم يستطع مقاومة فردناند ، فدان له بالولاء وأدى له جزية سنوية ، واتبع هذه السياسة مع أبنة الفونسو ومضت فترة من الوقت ، ترك فيها النصارى هذه المملكة الاسلامية وشأتها ، وانصرفوا الى توطيد ملكهم ، وابعاد الدخلاء عن بلادهم .

ازدهرت العلوم والفنون في غرناطة في فترة الهدوء هذه وذاعت شهرة مهندسيها وبنائيتها في انحاء أوروبا ، وهم الذين سئدوا الحمراء (نسبة الى لون التربة التي أنشئت عليها) وأنشئ قصر الحمراء فوق أرض مرتفعة تحيط به قمم جبال عالية صعبة المنحدر ، وحصن القصر

بأسوار غطيت بالمرمر ، وشيدت عند كل مسافه حصون تشريف عليه .
وزينوا حيطانها بالزخرف الذهبى البديع ، وزينوها بالأنسكال المصبوبة
ذات الهندسة العربية الفاتقة ، وتحيط بها البساتين والحدائق والجداول
مما يبعث فى انفس البهجة والمتعة ، وفى حدائقها أشجار الكروم والبرتقال .

وكان من العجيب أن يعيش العرب فى غرناطة قرنين من الزمان أو
أكثر ، والعدو يحيط بهم من كل جانب ، ولكنهم شعروا بقرب زوال دولتهم
فى الربع الثالث من القرن الخامس عشر وازدادت قوة النصارى الاسبان
الاتحاد بين مملكتى قشتاله وأرغون بترويج فرديناند من ايزابيلا وكان هذا
الاتحاد نذير الخطر على بقاء المسلمين فى آخر معاقلهم بالأندلس ، وكان
يلى حكم غرناطة فى هذا الحين مولاى على أبو الحسن ، وكان شديد
البأس ، قوى الشكيمة ، وعقد العزم على محاربتهم مهما كانت التضحيات ،
ولم يأبه بما بلغاه من قوة ، ورفض دفع الأتاوة ، لفرديناند ، وهى التى
اعتاد أسلافه أداءها ، ورد فى كبرياء على رسالة فرديناند : ان دار
الضرب لا تطبع نقودا ، ولكنها تطبع سيوفنا ، وهذا الرد اشارة الى
استعداداه وتصميمه لحرب الاسبان . وشن غارة على المسيحيين فى قلعة
الصخرة فى ليله شديدة البرودة وقد فزع أهلها من هول الغارة ، وساقهم
جميعا الى غرناطة كما يساق العبيد ، وأبقى بالمدينة والقلعة حراسا أشداء ،
ودخل غرناطة مزهوا بنصره ومحملا بالأسلاب والعتائم ، ودخل الأسرى
من الرجال والنساء والأطفال المدينة كما يدخلها قطيع البقر . ولكن هذا
الأمير بعماه هذا عجل بمصير بلاده المؤلم ، فكان لا بد للنصارى من
الانتقام ، وفعلا استولى مركز قادس على حصن الحمة عنوة ، وبسبب هذا
الاستيلاء تمكن النصارى من وضع حامية قوية فى قلب بلاد المسلمين ،
وعلى مسافة قصيرة من غرناطة نفسها ، وحاول أبو الحسن عبثا استرداد
هذا الحصن . وكان هذا الحصن نذير الخطر وبداية النهاية لغرناطة .
وقال بعض المعاصرين ان مفتاح غرناطة فى أيدي الكفار . ومنذ ذلك الحين
أصبح هذا الحصن شوكة فى جبين ملوك العرب .

وتبادل الفريقان العرب والاسبان شن الغارات والأعمال التخريبية

في أراضيهم ، ولم يكن من نتيجتها سوى الدمار وتوقف السساط الاقتصادي . وفي النهاية أعد النصارى جيشا كبيرا بزعامه مركيز قادس لمهاجمة غرناطة ، ولكن الزغل قائد العرب مزق جيشه كل ممزق ، وفر النصارى لا يلوون على دار وفي غضون ذلك اغتصب عبد الله ملك غرناطة من أبيه ، وشن غارة فاشله على النصارى ، وعادت فلول جيشه مهزومه الى غرناطة ففزع أهلها ، ودب في نفوسهم اليأس ، وقبض على أبي عبد الله في هذه الموقعة ، وسيق أسيرا الى قرطبة ، وعاد مولاي أبو الحسن الى ملكه ، ولكن دب فيه الضعف بسبب شيخوخته .

سقوط غرناطة :

كان أبو عبد الله مترددا شؤم الطالع ، وقد استغل النصارى ضعفه فأحسن فرديناند استقباله ، ودارت مفاوضات بين الرجلين حول خلع أبيه ، وفعلا أطلق فرديناند سراح أبي عبد الله ، وعاد الى غرناطة لانتراع الملك من أبيه ، وتيسير استيلاء النصارى على بلاده ، وتحصن أبو عبد الله بحصن القصبية ، واتخذة قاعدة لشن الهجمات على أبيه ، وكان لهذا الموقف السيء أثره في سقوط غرناطة ، الابن يحارب أباه لصالح العدو ، وأصبح لغرناطة سلطانان ، أحدهما أبو عبد الله ، المنكود الحظ في ميدانى السياسة والحروب ، والبغيض الى العرب لأنه العوبة في أيدي أعدائهم ، والثانى أبو الحسن ، أو هو على الأصح أخوه الزغل ، لأن السلطان قضى ببقية أيامه في حزن بسبب موقف أبنه الانهزامى . وفقد بصره ثم مات .

وكان الزغل - آخر ملوك غرناطة الأقوياء - وقضى فترة من حربه يحارب ابن أخيه أبا عبد الله ، وهكذا انقسم البيت الحاكم على نفسه وكان الأمراء يحاربون بعضهم بعضا ، ويستعينون في خصوماتهم بالعدو ، وقصرت فترة حكم السلاطين ، وكان أهل غرناطة ييقون على السلطان الذى يحارب ، ويعود محملا بالأسلاب والغنائم ، أما السلطان الذى يهزم يعزلوه . وانتهدز النصارى فرصة ضعف غرناطة ، وضعف سلاطينها ، وما زالوا يشنون عليها الغارات وتم استيلاء فرديناند ورجاله على القسم

الغربي من المملكة ، ونقصت أطراف غرناطة قليلا قليلا ، وسفط
الغرناطيون على الزغل لأنهم لم يتحملوا كل هذه الهزائم ، ودعوا أبا عبد الله
مرة ثانية الى مدينتهم فلم يستطع النبات وحده أمام عمه الزغل ،
فاستعان عليه بالمسيحيين ودخل غرناطة ، وحكمها ، وحاول الزغل صد
المسيحيين عن مآلقة ، وكان البارود قد استخدم في الحروب في ذلك العصر ،
وواصل النصارى شن الهجمات على قلاع مآلقة الحصينة ، اجتمع الفرسان
الاسبان حول مآلقة وحضرت الملكة ايزابيلا بنفسها ، فأثار حضورها
حماس الفرسان والجنود •

وبعد حصار طويل ، قاس فيه أهل مآلقة الجوع والبؤس والحرمان ،
حتى استسلمت مآلقة ، وقد أذلهم الاسبان ، وطلبوهم بأن يفتدى كل
واحد نفسه بفدية كبيرة ، والا وقع في الأسر ، وأمهالوهم ثمانية أشهر ،
وأرسل الاسبان أهل مآلقة الى اشبيلية لخدمة الاسبان فيها ، حتى
انقضت الثمانية أشهر ، ومن لم يستطع وقع في الأسر • وبذلك أصبح
القسم الغربي من غرناطة في قبضة النصارى •

بقى الزغل يسيطر على بعض الأراضي والحصون ، ويواصل في الوقت
نفسه الجهاد ضد الاسبان ، ويشن الغارات على بلادهم ، ولكن فرديناند
استولى بعد حصار طويل وخسائر فادحة على حصونه ، وسقطت بلاد
الزغل في يد الأعداء ، وقبض عليه فرديناند ، فأقطعته أرضا ، ولكنه لم
يبق طويلا في هذه البلاد التي ذهب فيها مجده ، وولى ساطانه فباع أرضه ،
واجتاز البحر الى افريقية ، وهناك قبض عليه سلطان فاس ، فعذبه أشد
عذاب ، وسمل عينيه ، وقضى بقية أيامه في بؤس وشقاء • ولم يبق من
ملك المسلمين سوى غرناطة نفسها ، واستراح أبو عبد الله من نهاية الزغل ،
ولكن فاته أن فرديناند يتخذة أداة ، وأنه سيلقى نفس المصير ، فلا بقاء
لضباط •

واستاء أهالي غرناطة من موقف أبي عبد الله ، ومن خيانتة لوطنه
وكان يسمع سبه بأذنه ، وكان سعيدا بزوال ملك عمه الزغل ، وبصداقته

لفرديناند . ولم يلبث أن تبين له أن فرديناند كان يستغله فقط للاستيلاء على ما تبقى من مملكة غرناطة ، فأرسل اليه يدعوهُ الى التسليم بالسُّروط التي حددها ، وبعثا حاول أبو عبد الله أرجاء هذا الأمر ، لذلك أعلن أبو عبد الله الجهاد ، وشن غارات على أراضي النصارى ، وأحرز بعض الانتصارات ، ولكن كل هذه المحاولات كانت يائسة ، فلم يعد هناك مفر من الاستسلام ، وفعلا خرج فرديناند وايزابيلا سنة ١٤٩١ م (١٤٩١ هـ) للحرب الصليبية لآتى اعتادها كل عام ، وعزما ألا يعودا الا وغرناطة في قبضتيهما ، وكان جينس الملك يتكون من أربعين ألفا من المشاة وعشره آلاف من الفرسان . ورأى أهل غرناطة أن الموت في ساحة القتال أفضل من الاستسلام للعدو الذي يريد أن يستولى على أراضيهم ويزيلهم ، وقام فرسان العرب بأروع ضرب الشجاعة والاقدام ، واحرق الملك بساتين ومزارع العرب ، ولما لم يجد العرب فائدة من مقاومة العدو، أغلقوا أبواب مدينتهم ، وقاوم أهل المدينة المحاصرين الجوع ثمانين يوما حتى أهلكهم ، وتوسلوا الى السلطان أبي عبد الله بطلب الصلح وفي ٢٥ نوفمبر ١٤٩١ ، وقعت شروط التسليم ، وبمقتضاه تسلم المدينة الملكين بعد وقت معين ، ودخل الملك المدينة بجيوشه والحرب في حزن على ما أصابهم ، ونصب علم قشتالة وأراغون فوق قمة برج المدينة ، وسلم أبو عبد الله المدينة الى فرديناند وولى منطلقا الى الجبال وعاد الى افريقية هو وقومه وقضى بها ما تبقى له من العمر ، واتبع سقوط غرناطة حملة اضطهاد العرب ، لذلك ثار العرب ، وحملوا السلاح ، واستصدر فرديناند مرسوما يخير العرب بين التنصر أو مغادرة البلاد ، وأعقب هذا غلق المساجد واحراق المخطوطات والكتب النفيسة التي هي عسارة الفكر العربى عدة سنين ، وعذب المسلمون أشد العذاب . ويقول لين بول : اننا نلمس فضل العرب وعظم آثارهم ، حينما نرى بأسبانيا الأراضي القاحلة التي كانت في أيام المسلمين جنات تجرى من تحتها الأنهار ، تتردهر بما فيها من الكروم والزيتون وسنابل القمح الذهبية ، وحينما تذكر تلك البلاد التي كانت في عصور العرب تموج بالعلم والعلماء ، وحينما نشعر بالركود العام بعد الرفعة والازدهار .

وتلك الأيام نداولها بين الناس •

* * * * *

بلغت الحركة الفكرية والأدبية ذروة ازدهارها في مملكة غرناطة في القرن الثامن الهجري ، وفيه ظهرت طائفة من كبار المفكرين والكتاب والشعراء ، الذين أنتجوا إنتاجا علميا بارزا في مجال العلم والأدب وكان ابن الخطيب أعظم شخصية ظهرت في ميدان الأدب والفكر والسياسة والشعر والأدب ، ونبغ في مجالات مختلفة في الطب والفلسفة والشعر ، والدبلوماسية •

ينسب ابن الخطيب الى قبيلة يمنية ، وقدت الى الأندلس مع الفتح وولدا في مدينة لوشه بالأندلس سنة ٧١٣ هـ — ١٣١٣ م ، ونشأ في بيت علم وفضل وجاء ، ونشأ ابن الخطيب في غرناطة وتعلم بها ، وتلقى بها دروسه ، وكانت غرناطة أعظم مركز للدراسات الاسلامية في المغرب الاسلامي ، ويجتمع بها حشد هائل من العلماء والأدباء ودرس لسان الدين الخطيب اللغة والشريعة والأدب في غرناطة ، وكان أبوه يشغل بعض المناصب الهامة في ديوان السلطان ، وبعد وفاته ، استدعى للخدمة مكان أبيه في ديوان الانشاء واستفاد من وظيفته ، وتعلم فن الكتابة ، ولم يلبث أن شغل منصب رئيس ديوان الانشاء بعد وفاة صاحبه سنة ٧٤٩ هـ — ١٣٤٩ م ومنحه السلطان أبو الحجاج يوسف رتبة الوزارة وألقابها ، وقد نال ثقة السلطان حتى جعله كاتم سره ولسانه ، في المكاتبات السلطانية وصدرت منه خلال تلك الفترة كتابات رائعة ، ولما توفي السلطان أبو الحجاج يوسف ، خلفه السلطان أبو عبد الله محمد المعنى بالله واستمر الحاجب رضوان في رئاسة الوزارة ، واستمر ابن الخطيب في منصبه معاونا له • ونال ابن الخطيب ثقة السلطان المعنى بالله ، وأنعم عليه بلقب ذي الوزارتين ، لجمعه بين الكتابة والوزارة ، ولكن ابن الخطيب لم يلبث أن تبدلت أحواله ، وتعرض لحنة ، ذلك أنه في سنة ٧٦٠ هـ — ١٣٥٩ م ، فقد المعنى بالله ملكه في انقلاب دبره ضده أخوه الأمير اسماعيل ، وارتاب السلطان الجديد في ولاء ابن الخطيب ، وقبض عليه بتحريض من خصومه ، وأمر بمصادرة أمواله وممتلكاته ، وبذلك فقد ابن الخطيب منصبه ونفوذه

وأمواله • على أن محنة ابن الخطيب لم تستمر طويلا • ولجأ ابن الخطيب في محنته الى بلاد المغرب ، وعاش ابن الخطيب في كنف وفي رعاية سلطان المغرب أبي سالم ، والتقى بابن خادون ، وكانت تجمع بين الرجلين على الرغم من فارق السن مشابهاة عديدة ، أدبية ومادية ، وكان ابن الخطيب في طور الشيخوخة ، وابن خادون في طور انتساب ، وكان كل منهما أستاذ عصره ورائدا في الفكر والتأنيب ، وكان لكل منهما تأثير واضح في حوادث وسياسة العصر ، وكان كلاهما وزيرا مستبدا ومستشارا لأمرء عصره ، ومحرضا لهم أو عليهم ، وكان ابن خادون يشغل في دول المغرب ما يشغله ابن الخطيب في الأندلس وجمعت بين الرجلين أواصر الصداقة في البداية ثم فرقت بينهما عوامل الغيرة وانتقاس ، وكان كل منهما رغم ذلك يحترم صاحبه ويحبه ، وترجم كل منهما للأخر ، وتبادلا طائفة من الرسائل الشخصية والسياسية ، تعتبر من أبداع الكتابات السياسية والأدبية في ذلك العصر • وأذن ملك المغرب لابن الخطيب في التجول في أقاليم دولته ، وأمر عماله بحسن استقباله ، وإكرام وفادته ، وقد وصف لنا ابن الخطيب هذه الرحلة في كتابه « تقاضة الجراب في علالة الأغرابة » وفقدت بعض فصول هذا الكتاب •

وتعتبر دولة بنى مرين من أعظم الدول المغربية اجلالا للعلم وأهله • ومن أبرز مآثرهم حماية العلوم والآداب ، واجلال العلماء والأدباء وحسن رعايتهم ، ومن أبرز علماء وشيوخ هذه الدولة ، ابن خادون وابن الخطيب ، وهما أكبر مفكرى القرن الثامن الهجرى •

وكان ابن الخطيب في منفاه في المغرب يتمتع بحياة ناعمة مترفة وكان وقت إقامته في سلا يعيش عيشة الأمرء في قصوره ودياره التي شيدها ، وكان السلطان يصدق عليه بصفة منتظمة وقد سعد ابن الخطيب باسترداد السلطان أبي عبد الله محمد ملكه وبعث اليه يهنئه بقصيدة جاء فيها :

الحسب يعلو والباطل تسفل
والله عين أحسكاه لا يسئل

و اذا استتحتالت حباله وتبدلت
 فما لله عز وجل لا يتبدل
 واليسر بعند العسر موعد به
 والصبر بالفرج القريب موكل

وشعر ابن الخطيب بعد عودة مليكه الى عرشه في غرناطة ، ضرورة
 عودته الى بلاد الأندلس ، خصوصا وبلاد المغرب قد سادتها الفتن
 والاضطرابات . وشجعه على ذلك أن السلطان محمد الغنى بالله كتب الى
 وزيره المنفى ابن الخطيب رسالة يطلب منه العودة الى غرناطة . ونفذ
 ابن الخطيب أمر سيده ، وعاد الى غرناطة سنة ٧٦٣ هـ ، وأكرم الملك
 وفادته ، ونظم له استقبالا رائعا ، ولقبه ذى الوزارتين ، ومعنى ذلك
 اضطراره بمنصبى القيادة والوزارة أى الرئاسة العليا عموما ، ويغدو في
 مرتبة الحاجب . وبمقتضى ذلك أصبح ابن الخطيب ينوب عن السلطان
 أثناء الغزو في حكم البلاد ، وأن يتولى قيادة الحملات العسكرية أحيانا .
 واستطاع ابن الخطيب التخلص من منافسه عثمان بن أبى يحيى ، الذى
 كان يلقب بشيخ الغزاه ، لأنه عاون السلطان في استرداد ملكه . وما زال
 ابن الخطيب يوغر صدر السلطان على منافسه حتى نكل به وأسرته .

وفي غضون ذلك وفد على الأندلس ، ابن خلدون ، بعد تضاعل نفوذ
 في بلاط فاس ، فعادر المغرب الى الأندلس سنة ٧٦٤ هـ ، ولجأ الى غرناطة،
 وكان ابن خلدون يقوم بخدمة السلطان الغنى بالله أثناء اقامته منفيا في
 فاس ، لذلك كان ابن خلدون يتطلع الى نيل مكانة كبيرة في غرناطة من
 السلطان الغنى بالله ، وقد أكرم السلطان ووزيره ابن الخطيب وفادة ابن
 خلدون واختاره الغنى بالله ليكون سفيره لدى ملك قشتالة ، ليقيم معه
 الصلح بين غرناطة وقشتالة ، ونجح ابن خلدون في مهمته وبالغ السلطان
 في اكرامه ، وعاش المؤرخ في غرناطة في أمن ورعاية مع أسرته . ولكنه
 شعر بتغير السلطان وابن الخطيب عليه . ويبدو أن ابن الخطيب قد
 خشى على نفوذه في الدولة من ابن خلدون ، لأنه يعرف قدره وبراعته

السياسية والعلمية ومكانته التي نالها في الدولة ، وتقدير السلطان الكبير له فأوغر ابن الخطيب صدر السلطان على نفسه في السلطة ، ابن خلدون باعراض السلطان عنه ، وفي نفس الوقت تلقى دعوات من حكام المغرب بالمقدوم ، فقرر العودة الى المغرب ، وأذن له السلطان ، وغمره بصلاته ، وودعه وشيخه معززا مكرما ، وعاد ابن خلدون الى بجاية •

أما ابن الخطيب فقد ضاق ذرعا بالحياة السياسية والعمل السياسي لذلك تطلع الى العودة الى حياة العزلة في سلا ببلاد المغرب •

وكان ابن الخطيب — على حسب قوله — هدفا لحملات خصومه ، ولم يكن يتمتع بحب الكثير من الناس ، لذلك سئم الحياة السلطانية والمسئوليات السياسية ، ومظاهر الترف والنعيم ، ورغب في ازهد والعزلة ، وطلب من السلطان أن يأذن له في الحج وكان يفكر في مغادرة الأندلس نهائيا • وكان استبداد ابن الخطيب بالنفوذ والسلطان في المملكة الأندلسية ، سببا في نفور الناس منه ، وسعى بعض رجال الدولة لدى السلطان بالنيل منه والتخلص منه وفعلا نجحت مساعيهم ، وتغير للسلطان منه ، وساء وضع ابن الخطيب سنة ٥٧٧٢ هـ ، وقد مهد ابن الخطيب سر المغادرة الأندلس ، والذهاب الى المغرب ، فأتصل بالسلطان المريني عبد العزيز ، فأبدى هذا الأخير ترحيبا بمقدمه وكانت العلاقات بين مملكتي غرناطة وبنى مرين في فاس قد ساءت •

تحين ابن الخطيب الفرصة ، واستأذن السلطان الغني بالله بالرحيل الى المغرب لتفقد الثغور المغربية ، فأذن له وخرج من غرناطة مع واده على ، وكان من خاصة السلطان والمقربين اليه ، وفي قلة من الفرسان ، وسار في صحبه نحو الجنوب ، فلما وصل الى جبل طارق — وكانت يومئذ من أملاك بنى مرين ، دخاها وأبرز الى عالمها المريني عهد السلطان عبد العزيز ، فأكرم وفادته ، ونقله الى سبته وهناك استقبل بحفاوة بالغة سنة ٥٧٧٢ هـ ، وأرسل من هناك يعتذر الى مليكه الغني بالله ، ويطلب منه اعفائه من مهام منصبه حتى يخاد الى الراحة •

لم يابث ابن الخطيب أن غادر سبته الى تلمسان ، فأكرم السلطان عبد العزيز وفادته ، واستقر ابن الخطيب في تلمسان ثم انتقل الى فاس ، واستكثر من شراء الضياع ، وتأنق في بناء المساكن ، واغتراس الجنات ، وكان الملك الطفل محمد السعيد قد خلف أباه عبد العزيز في الملك ، وقد استاء رجال الدولة من هذا العهد الجديد . ووضع ابن الخطيب في ذلك كتابا سماه « أعمال الأعلام فيمن بويح قبل الاحتلام من ملوك الاسلام » وفيه أثبت أن العالم الاسلامي قد شهد ملوكا صغارا مثل هذا الملك ، وأن ذلك لا يخالف الدين في شيء . ويبدأ كتابه بسرد تاريخ الدولة المرينية منذ السلطان عبد العزيز ، وهو آخر كتاب وضعه ابن الخطيب قبل مصرعه ، وفيه يروى كيفية مغادرته الأندلس ، والتجائه الى السلطان عبد العزيز ، ويحاول أن يبرر لنفسه تصرفه ، ويثبت حسن نواياه .

وكان ابن الخطيب يسعى الى تحسين العلاقات بينه وبين أمراء المغرب ، واستقر أخيرا في فاس ، بعيدا عن الأهل والوطن وكان يحتل في بلاط بنى مرين مكانة لا تقل عن مكانته في الأندلس .

قضى ابن الخطيب شيخوخته في سلام وهدوء ، ولكن فرار ابن الخطيب من الأندلس ، لم يهدىء من ثورة خصومه ، بل استغلوا هذا الحدث للنيل منه ، ولو ثوا سمعته في الأندلس والمغرب ، واتهموه بالزندقة والكفر بالاسلام حتى يتخلصوا منه بسهولة ويسر ، وألوا بعض كتاباته بحيث تتمشى مع مزاعمهم واتهاماتهم ، وخصوصا ما جاء في كتابه « روضة التعريف بالحب الشريف » وقالوا أن بعض عبارات هذا الكتاب تتضمن طعنا في النبي ، والقول بالحلول ، وسلوك مذاهب الفلاسفة الملحدين . ولم يقف خصوم ابن الخطيب عند هذا الحد من الاتهام بل تجاوزوه الى مؤلفات ابن الخطيب الأخرى ، فقد زعموا أن مؤلفات ابن الخطيب التاريخية ، ولا سيما كتاب « الاحاطة في أخبار غرناطة » وما اشتملت عليه من تراجم الأحياء المعاصرين ، والأموات الأقربين ، وما يتخللها من الطعن والقذف ، في حق الكثير

منهم انما هي من قبيل الغيبة المحرمة ، وكان تلميذ ابن الخطيب وخلفه في الوزارة ، أبو عبد الله بن زمرك ، أكبر مروج لهذه المزاعم ، وتولى صياغة الاتهام عدو ابن الخطيب اللدود ، القاضي أبو الحسن النباهي ، وأفتى بوجوب حرق كتبه ، التي تتناول العقائد والأخلاق ، وأحرقت هذه الكتب في غرناطة في منتصف سنة ٧٧٣ هـ في جمع من الفقهاء والعلماء ، ووجه القاضي أبو الحسن في نفس الوقت الى ابن الخطيب في المغرب ، رسالة شديدة يوجه اليه تهما شخصية وشرعية ، ولى رسالته يعدد عيوب ابن الخطيب ، وما يسند اليه من تهمة الانحاد والزندقة . ويوجه اليه القاضي أبو الحسن في غرناطة بعد احراق كتبه تهمة الانحاد والزندقة وصادق السلطان الغني بالله على حكمه ، وفرر بلاط غرناطة أن يبذل مساعيه لدى سلطان فاس لتتفيذ حكم الشرع في ابن الخطيب . فرفض السلطان المغربي هذه التهم عن ابن الخطيب ومما زاد وضع ابن الخطيب سوءا ، أن ابن الخطيب حرض سلطان فاس المريني على غزو الأندلس ، لذلك زاد حنق السلطان الغني بالله عليه .

وأصبح واضحا الآن مصير ابن الخطيب ، ولما اثبتت الحال ، وانتظر كارثة قد تقع به ، وكان الغني بالله قد ساعد السلطان على الوصول الى ملك فاس مقابل تسليمه ابن الخطيب ولم تمض أيام قلائل على دخول السلطان الجديد فاس ، حتى حرضه وزيره سليمان ابن داود على اعتقال ابن الخطيب ، فقبض عليه ، وزجه في السجن ، وأرسل الى الغني بالله الخبر ، فبعث الغني بالله وزيره أبا عبيد بن زمرك - تلميذ ابن الخطيب - ليقوم في الظاهر بتهنئة السلطان الجديد ، وليعمل في الواقع على استلام ابن الخطيب واعادته الى الأندلس مقبوضا عليه لمحاكمته بها .

وعبثا حاول ابن الخطيب الاستغاثة بأصدقائه ، ولكن السلطان أحمد قرر محاكمته في فاس بالتهم التي وجهت اليه في غرناطة ، وأهمها الانحاد والزندقة ، وعقدت المحاكمة فعلا ، وزج في السجن ولكن

انوزير ابن زهر ك حرص بعض خدمه بقتل ابن الخطيب بالسجن ، وأحرقت
جثته وذلك فى سنة ٧٧٦ هـ •

كان ابن الخطيب من أعظم كتاب عصره ، كان ساعرا فذا وأديبا
كبيرا ، ويكتب الشعر فى موضوعات متنوعة تناسب حياته المليئة
بالأحداث والمحن • ومن أبرز كتاباته فى النثر المراسيم السلطانية ،
التي أصدرها أيام توليه أنوزارة ومنها رسائل الى ملوك أسبانيا
النصارى وسلاطين المغرب وسلاطين مصر ، وجمع ابن الخطيب عددا
كبيرا من هذه الرسائل فى كتابه « ربحانة الكتاب ونجمة المنتاب » منها
رسائل يصف فيها بعض الوقائع الحربية ورسائل يحث سلاطين
المغرب ومصر على انضمامهم لمواجهه أعداء الاسلام ، وتعتبر رسائل
ابن الخطيب السلطانية من اروع نماذج النثر الدبلوماسى فى الأندلس
والغرب الاسلامى بصفه عامة • فى كتابه « الاحاطة » نثر بعض الرسائل
الخاصة التي أرسلها الى أصدقائه وزملائه ، وتتجلى فيها دقة العبارة
وروعة الأسلوب •

وابن الخطيب مؤرخ بالدرجة الأولى ، ومؤرخ عصره بنوع خاص ،
وله مؤلفات عديدة تتصل بتاريخ عصره ، ولا سيما فيما يتعلق بدولة
بنى الأحمر ، أبدى خان ابن الخطيب من كبار رجالها • وتعتبر هذه
المؤلفات أهم مصادر هذه الفترة ويؤخذ عليه هجاؤه لأعدائه بأسلوب
متطرف ، زيباخ فى المدح والهجاء ، ولكنه بارع فى تحليله للشخصيات
التاريخية والحكم عليها •

وتميز شعر ابن الخطيب بالترفع فى المدائح النبوية ومدح السلطان ،
والزجل والتواشيح ، وكتب ابن الخطيب الكثير من الكتب فى الطب ، وكان
طبيبا وفيلسوبا يكتب فى النفس والمشاعر الانسانية ، والواقع أن ابن
الخطيب كان قطب الشعر والنثر فى عصره ، ومحصر النشاط الأدبى
فى عصره • ويعتبر أعظم كاتب كتب عن تاريخ وجغرافية غرناطة وأوصاف
حياتها الاجتماعية وترك تراثا فكريا كبيرا فى النثر والشعر والتاريخ

والجغرافيا والرحلات والبلاغة والشريعة والعلوم والأخلاق والدين والنبات والطب والبيطرة والموسيقى والفن الحربي والسياسة ، ويظهر في هذه المؤلفات العمق وأصالة التفكير والابتكار .

ويتميز منهج ابن الخطيب في الكتابة التاريخية بأنه لا يفتصر على التاريخ السياسي ، إنما يكتب عن حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والنظم وجغرافية الأقليم ، ويموت ابن الخطيب انحدرت الحركة الفكرية في الأندلس . وقد نبغ في مختلف الدراسات حتى أصبح أعظم مؤرخ وأكبر كاتب وأفضل شاعر في عصره . ويمثل التاريخ أعظم وأجل وأكثر مؤلفاته ومن أهم مؤلفات ابن الخطيب التاريخية « الاحاطة في أخبار غرناطة » وكتاب « انتمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية » و « طريقة العصر في تاريخ دولة بني نصر » و « رقم الحذل في نظم الدول » و « أعمال الأعلام فيمن بويح قبل الاحتلام » و « الكتيبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة » و « ونفاضه الجواب في علالة الاغتراب » وكتاب « ريحانة الكتاب » ويتضمن رسائل تاريخية ودباوماسية .

ومعظم هذه الكتب تتضمن تاريخ العصر الذي عاشه وترجمه للأعلام من الشعراء والكتاب وقادة الفكر المعاصرين أو القريبين من عصره ، ولكن قلة من هذه الكتب مثل « الاحاطة » و « أعمال الأعلام » تتضمن تاريخا لعصور سابقة .

وتتضمن بعض كتب ابن الخطيب معلومات جغرافية هامة ، مثل حديثه في « الاحاطة » عن جغرافية غرناطة ، وله رسالتان في الأدب الجغرافي الأولى « معيار الاختيار في ذكر المعاهد والآثار » ويصف فيها على لسان شيخ رحالة بعض مشاهداته في الأندلس . والثانية رسالة عنوانها « مفاخرة بين مالقه وسلا » وهي عبارة عن مقامة مسجعة يفارن فيها ابن الخطيب بين الثغرين الأندلسي والمغربى .

وترك ابن الخطيب تراثا فكريا كبيرا في مختلف فروع العلم ، وأن كان الكثير من كتبه قد أحرق في غرناطة ، حينما وجهت اليه تهمة الإلحاد والزندقة ، والواقع أنه وضع الكثير من كتبه أثناء منفاه في المغرب حيث كان لديه متسع من الوقت .

ومن أهم كتبه التاريخية « الاحاطة في أخبار غرناطة » وكتاب « التاج المحلى في مساجلة انقذح المطى » وهو يحتوى على مختصر لتاريخ مملكة غرناطة منذ انشائها على أيدي بنى نصر وتراجم أعيانها في القرن الثامن الهجرى ، ويترجم ابن الخطيب لنفسه ولوالده ، وله كتاب « انكتية الكامنة فيمن لقيته بالأندلس من شعراء المائة الثامنة » وكتاب « اللوحة البدرية في الدولة النصرية » وهو مختصر تاريخ بنى نصر ملوك غرناطة حتى سنة ٧٦٥ هـ ، وكتاب « رقم الحلك في نظم الدول » وهو تاريخ منظوم للدول الاسلامية وكتاب « نفاضة الجواب في علاقة الاغتراب » وقد أشرنا اليه فيما سبق . وكتاب أعمال الأعلام وهذا الكتاب هو آخر ما ألفه ابن الخطيب قبل موته ، وكتاب « طرفه العصر في تاريخ بنى نصر » وهو تاريخ آخر للدولة النصرية . هذه أهم مؤلفات ابن الخطيب التاريخية .

ومن أهم الكتب الأدبية لابن الخطيب «ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب» وكتاب « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » وكتاب « معيار الاختيار في ذكر المشاهد والديار » وكتاب « مفاضلة بين مالقه وسلا » وكتاب « خطرة الصيف في رحلة الشتاء والصيف » يصف فيه رحلة قام بها السلطان يوسف أبو الحجاج في الأندلس وزار فيها عددا من مدن الأندلس . وله الكثير من الرسائل الأدبية تتجلى فيها أفكاره الفاسفية وآراؤه في التصوف وفي السياسة ومناقشات بين ابن الخطيب وأهل الطريقة وفي البحث على الجهاد ، وله رسائل في الموسيقى والقضاء والحرب وأهل المحن والحرف وطوائف الشعب . ورسائل في الرد على بعض خصومه .

ولابن الخطيب دواوين في الشعر مثل ديوان « الصيب والجهام والماضى والكهام » و « الحلك المرقومة في اللمع المنظومة » وهى أرجوزة من ألف بيت في أصول الفقه ، و « السحر والشعر » وهو مجموعة مختارة من شعره . و « جيش التواشيح » وجمع فيه أعظم وأجمل تواشيح عصره . وله مؤلفات تضمنت أشعار كبار الشعراء ، وكذلك صنف في العروض .

لابن الخطيب مؤلفات في الطب ، منها كتاب « عمل من طب لمن حب » ويتناول هذا الكتاب مختلف الأمراض ، وأسباب كل مرض وأعراضه وعلاجه ، ونظام الغذاء الذي يناسبه ويصف مختلف أعضاء الجسم ، وطرق العناية بها .

ولابن الخطيب أرجوزة في الطب ، تقع في ١٦٠٠ بيت ، وذكر للأمراض المختلفة وطرق علاجها وأسبابها ، وله كتاب « وجز في الأغذية » ويقع في نحو ١٢٠٠ بيت ، ويذكر في الكتاب الأغذية مرتبة حسب حروف المعجم وطباعتها ومنافعها ومضارها واصلاح خللها ، وله كتاب « الوصول لحفظ الصحة في الفصول » كتاب في علاج السموم ، بالاضافة الى رسائل عديدة في الطب .

من هنا نرى أن ابن الخطيب كان دائرة معارف ، وعالمًا ومفكرًا موسوعيًا ، صنف في مختلف أنواع المعرفة ، كتب في الأدب والشعر والفقهاء والتاريخ والتراجم والفلسفة والطب ، وترجم لحياته في خاتمة كتاب الاحاطة ، وهذه المؤلفات العديدة وهذا الانتاج العلمي الغزير يتجلى فيه عمق التفكير ، وقوة البيان وسعة الاطلاع ، وكتب التاريخ لأنه عاصر الأحداث أو كان قريبًا منها . ويعتبر ابن الخطيب خلاصة ما وصل اليه الفكر الأندلسي من قوة وازدهار ، وفي نفس الوقت تضاعف الفكر الاسلامي في الاندلس بعد ابن الخطيب حتى انكمش نهائيًا .



يقول صاحب كتاب أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر : فلما تمت هذه العقود والمواثيق قرئت على أهل غرناطة سمعوا ما فيها واطمأنوا اليها واتقادوا لطاعته كتبوا بيعتهم وأرسلوها الى فرديناند صاحب قشتاله وسمحوا له في الدخول الى مدينة الحمراء والى غرناطة فعند ذلك أمر أمير غرناطة محمد بن علي باخلاء مدينة الحمراء فأخليت دورها وقصورها ومنازلها وأقاموا ينتظرون دخول النصارى لقبضها فلما كان اليوم الثاني لربيع الاول عام سبعة وتسعين وثمانمائة أقبل الملك فرديناند بجيوشه حتى

قرب من البلاد وبعث جناحا من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء وأقام ببقية الجيوش خارج البلاد لانه كان يخاف من الغدر وكان طلب من أهل البلد حين وقع بينهم الاتفاق على ما ذكر رهونا من أهل البلد ليضمن بذلك فاعطوا خمسمائة رجل منهم واقعدهم بمحلته فحينئذ قدم كما ذكرنا فلما أطمأن من أهل البلاد ولم ير منهم غدرا سرح جنوده لدخول البلاد والحمراء فدخل منهم خلق كثير وبقي هو خارج البلاد وأشحن الحمراء بكثير من الدقيق والطعام والعدة وترك فيها قائدا من قواده وأنصرف راجعا إلى محلته وبقي حينئذ يختلف بالدقيق والفارغات وأنواع الطعام والعدة وما يحتاج إليه وقدم في البلاد فوادا وحكاما وبوابين وما يحتاج إليه من الأمر وصار المسلمون يفتنون إلى المحلة للبيع والشراء والنصارى كذلك ولما سمع أهل البصرة أن أهل عرابطة دخلت تحت ذمة النصارى أرسلوا بيعتهم إلى ملك النصارى ودخلوا في دمه ولم يبق للمسلمين موضع بالأندلس « فانا لله وأنا إليه راجعون » *

ثم أن الملك فرديناند سرح الناس الذين كانوا عنده مرتعنين ومؤمنين في أموالهم وأنفسهم مكرمين وأقبل في جيوشه حين أطمأن فدخل مدينة الحمراء في بعض حواصه وبقي الجند خارج البلاد وبقي يتنزّه في الحمراء في القصور والمنازل المسيدة إلى آخر النهار ثم خرج بجنوده وصار إلى محلته وأخذ في بناء الحمراء وبسيدها وأطمأن في البلاد وصرح لهم الجواز وأتاهم بالمراكب إلى الساحل فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ودوره وشرع في تحصينها وإصلاح أسانها وفتح طرقها وهو مع ذلك يتردد إلى الحمراء بالنهار ويرجع بالليل فلم يزل كذلك إلى أن أطمأنت نفسه من غدر المسلمين فحينئذ دخل البلاد ودار ميه نفر من قومه وحضمه فلما أطمأن في البلاد صرح لهم بالجواز وأتاهم بالمراكب إلى الساحل فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره فكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة أو واسعة المعبرة باليمن القليل وكذلك يبيع جنانه وأرض حرثه وكرمه وفدائه بأقل من ثمن الخلة التي كانت فيه فمنهم من اشتراه منه المسلمون الذين عزموا على الدجن ومنهم

من اشتراه منه النصراني وكذاك جميع الحوائج والأمتعه . وأمرهم بالمسير إلى الساحل بما معهم فيرفعهم النصراني في البحر محترمين مكرمين مؤمنين .

وكان الملك فرديناند قد أطرد "مسلمين في دمه المدة العنانية والأخرام حتى كان النصراني يغيرون منهم ويقولون لهم أنتم الآن عند ما كنا اعز وأكرم منا ، ووضع عنهم المغارم وأظهر لهم العدل حينه منه وتيدا نيعرهم بذلك وليمنعهم عن الجواز ، فوقع الطمع الكثير من الناس وطبوا ان ذلك يدوم لهم فاشتروا أموالا رخيصة وأمتعه وترموا على الجلوس مع النصراني .

ثم ان الملك فرديناند أمر الأمير محمد بن علي بالانصراف من رنطة إلى قرية اندرشن قرى البشارة فارتحل الأمير محمد بعياله وحمله وأمواله وأتباعه فنزل قرية اندرشن وأقام بها ينتظر ما يؤمن به ، ثم أن الطاغية ظهر له أن ينصرف الأمير محمد إلى العدو فأمره بالجوار وبعث للمراكب تأتي لمرسى عذرة واجتمع معه حاق كبير مهن أراد الجوار فركب الأمير محمد ومن معه في تلك المراكب في عزة واحترام وكرامة مع النصراني وساروا في البحر حتى نزلوا مدينة مليلة من عدوة المغرب ثم ارتحل إلى مدينة فاس حرسها الله وكان من مدر الله تعالى لما جاز الأمير محمد بن علي وصار بمدينة فاس أصاب الناس تدة عظيمة وغلاء وجوع وطاعون واشتد الأمر بفاس حتى فر كثير من الناس من تدة الأمر ورجع بعض الناس من الذين جازوا إلى الأندلس فاخبروا بتلك التدة ففجر الناس عن الجواز عند ذلك وعزموا على الاقامة والدجن ولم يجوز النصراني أحدا بعد ذلك الا بالكراء والمغرم وعشر المال .

فلما رأى الملك فرديناند أن الناس قد تركوا الجواز وعزموا على الاستيطان والمقام في الوطن أخذ في نقض الشروط التي شرطوا عليه أول مرة ولم يزل ينقضها فصلا فصلا إلى أن نقض جميعها وزالت حرمة

المسلمين وأدركهم الهوان والذلة واستطال عليهم النصارى وفرضت عليهم الفروضات وثقلت عليهم المغارم وقطع لهم الاذان من الصوامع وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة الى الارياض والقرى فخرجوا أذلة صاغرين ثم بعد ذلك دعاهم الى التنصر وأكرههم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة فدخلوا في دينهم كرها وصارت الاندلس كلها نصرانية ولم يبق فيها من يقول « لا اله الا الله محمد رسول الله » الا من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس ، وجعلت النوافيس في صوامعها بعد الاذان في مساجدها الصور والصلبان ، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن ، فكفم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمعدورين ، لم يقدروا على الهجرة واللحوق باخوانهم المسلمين ، قلوبهم تشتعل نارا ، ودموعهم تسيل سيلا غزيرا ، وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ، ويسجدون للاوثان، يأكلون الخنزير والميتات ويشربون الخمر التي هي أم الخيائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ، ولا على نهيمهم ولا على زجرهم ، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب ، وعذب بأشد العذاب ، فيالها من فجعة ما أمرها ومصيبة ما أعظمها ، وظلمة ما أكبرها ، عسى الله أن يجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجا والله على كل شيء قدير .

وقد كان بعض أهل الاندلس امتنعوا من التنصر وأرادوا أن يدافعوا عن أنفسهم كأهل قرية وتجن والبشرة وأندرش ويلفيق فهجم عليهم الملك فرديناند بجموعه وأحاط بهم من كل مكان حتى أخذهم عنوة بعد قتال شديد فقتل رجالهم وسبى نساءهم وصبيانهم وأموالهم ، ونصرهم واستعبدتهم ، الا أن ناسا في غربية الاندلس امتنعوا من التنصر وانحازوا الى جبل منيع فاحتتموا فيه بعيالهم وأموالهم وتحصنوا فيه فجمع عليهم ملك الروم جموعه وطمع في الوصول اليهم كما فعل بغيرهم فلما دنا منهم وأراد قتالهم خيب الله سعيه وردة على عقبه ونصرهم عليه فقتلوا من جنده خلقا كثيرا من رجاله وفرسان وأجناد .

فلما رأى أنه لا يقدر عليهم طلب منهم أن يعطيهم الامان ويجوزهم

لعدوة المغرب مؤمنين فأنعموا له ذلك الا أنه لا يسرح لهم سعيًا من أموالهم غير الثياب التي كانت عليهم وجوزهم لعدوة المغرب كما شرطوا عليه، ولم يطمع أحد بعد ذلك أن يقوم بدعوة الاسلام ، وعم الكفر جميع القرى والبلدان ، وانطفى من الاندلس الاسلام والايمان ، فعلى هذا فليكن الباكون وينتخب المنتخبون ، فاننا لله وانا اليه راجعون ، كان ذلك في الكتاب مسطورا ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ، لاراد لأمره ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما الى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين •

نهاية الاندلس،

بعد أن سلم أبو عبد الله مدينته غرناطة لفرديناند ، ودعها وترك هذه المدينة بأبراجها الحمراء وبساتينها الخضراء وزرعها النضير ، وكل ما بها من جمال وعظمة ، بدأ عصر جديد من الحزن والاستبداد والبؤس للمسلمين في الأندلس واتضح منذ اللحظة الأولى أن الأسباب أن يلتزموا بما عاهدوا المسلمين عليه - من اطلاق حرية العبادة لهم ، ومعاملتهم بالتسامح والعدل ، وقدم إلى غرناطة في سنة ١٤٩٩ رسولا من قبل الملكة ، وأرغم في يوم واحد ثلاثة آلاف من العرب على التنصر ، وفي زعمه انقاذ هؤلاء الموحدين وكانت الملكة ايزابيلا بمعصية ، واعتقدت أن التسامح مع المسلمين ، يبعدها عن الله ، لذلك أمرت باضطهاد العرب . نار المسلمون ضد هذا التعصب ، وهاجسوا المسلمين ادين ارتدوا خوفا وضعفا وتقربا إلى السلطات الحاكمة . ادك أصدرت الملكة مرسوما ، بأن يخير المسلمون بين التنصر أو مصادرة الممتلكات ، لأنه في زعمها لا مكان للمسلمين في ديارها ، وجاء في هذا المرسوم - أن أسلافهم كانوا مسيحيين ، وأن الكنيسة تعدهم وهم من سلالة مسيحيين منذ الولادة ، فيجب عليهم أن يظهر دينهم الموروث ، وعلى أن ذلك أمرت الملكة باغلاق المساجد ، واحراق المخطوطات والكتب النفيسة ، التي يتجلى فيها مدى ما بلغه الفكر العربي من رقى وتقدم ، واضطهدت غرناطة المسلمين . وسامهم سوء المذابح ، لارغامهم على التقاضي من دينهم ، واستدباب ايوذا الاضطهاد المستضعفون ، وارتدوا عن دينهم ، وهاجسوا إلى البصرانية ، حتى واصلوا حياة:هم المعيشية في ديارهم ، وخشوا من السدد في بداع الأرض في جهل لا يدركون مصيرهم فيها . وبقى من دينهم جماعة من النجاة ، وأعتوا الودة لمقاومة بطش الملكين الظالمين ، وهاجسوا الاضطهاد في نسجائه واقدام ، ورفضوا الظلم والظلم ، وأعدوا الودة للتضحية بالغالي والنفيس في سبيل الدين الخفيف ، ولكن السلطات الحاكمة أمعنت في اضطهاد المسلمين ، حتى هدمت مسجدا

على من فيه من الرجال والنساء والأطفال ، ممن لا مأوى لهم ، واضطر من أراد الفرار بدينه الى هجرة الوطن والدار ، واستقر بهم المقام في بلاد المغرب ، واشتغلوا بالزراعة والصناعة واضطر بعض المسلمين الى التظاهر بالنصرانية ، فكانوا يؤدون شعائرهم الدينية سرا ، واذا عقد زواج أحد ، طبقا للطقوس المسيحية ، عاد سرا الى بيته ، وجمع أقاربه من المسلمين ، وعقد الزواج طبقا للشريعة الاسلاميه ، وكرد فعل ، لما عاناه المسلمون من البطش والاضطهاد ، ساعدوا قراصنة البحر على الهجوم على شواطئ اسبانيا ، واختطاف أطفال النصارى •

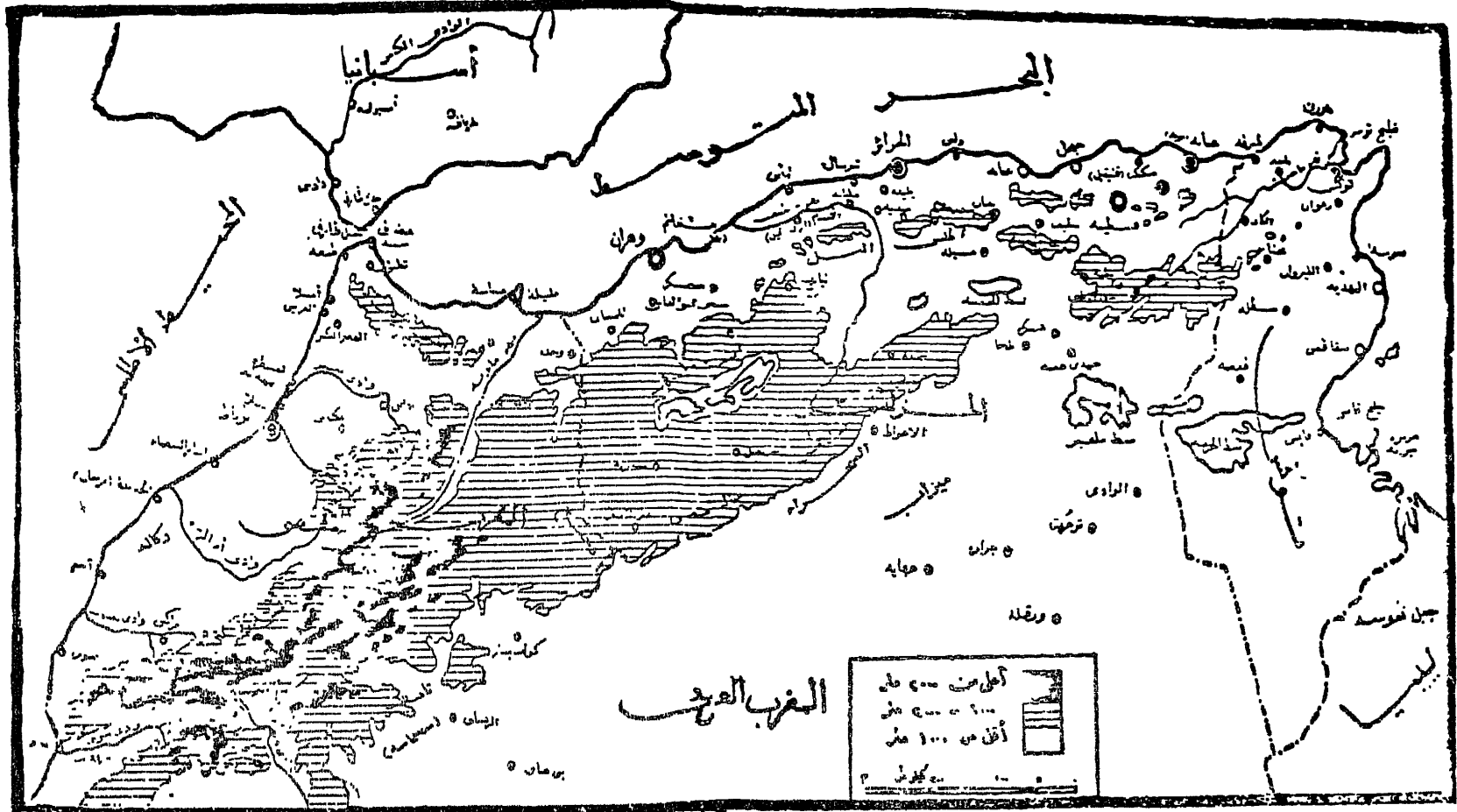
لكن السلطات الحاكمة حرصت على ازالة كل أثر للاسلام ، فأرغموا المسلمين على ارتداء ملابس النصارى وقبعاتهم وسراويلهم ، واتخلى عن لغتهم وأسمائهم وتقاليدهم •

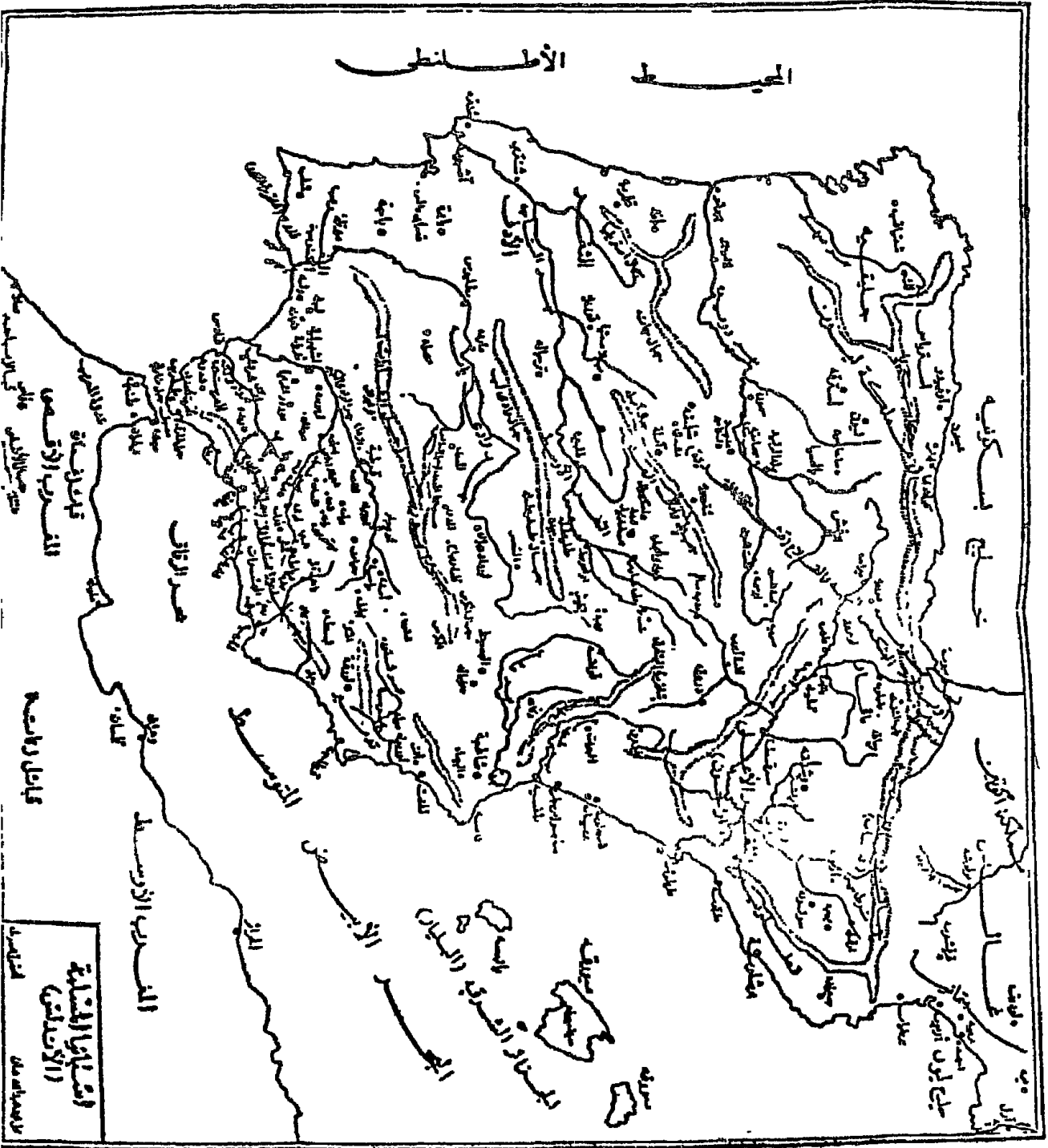
ولم يقبل المسلمون في غرناطة التخلي عن قوميتهم وتقاليدهم ولغتهم ودينهم ، لذلك ثارت الحمية في نفوسهم ، والتفروا حول أحد زعمائهم ، ويسمى محمد بن أميه من نسل خلفاء قرطبة ، وثاروا في منطقتة البشرات الحصينة سنة ١٥٦٨ م وكانت هذه الثورة عنيفة تجأت فيها الكرايه المتبادلة بين الفريقين ، وكان المسلمون يهاجمون النصارى في بأس واستماتة وكانت هذه الثورة آخر محاولة لهم للتعبير عن الظلم الذي لحق بهم ، لذلك قتلوا النصارى والقساوسة ، ولطخوا الكنائس بالأقذار • ولكن السلطات الحاكمة في غرناطة قمعت هذه الثورة بعنف وضراوة ، وذبخوا من المسلمين الكثير ، وحولوا مراكز الثوار الى بحار من الدماء ، وانتهت الثورة حوالى سنة ١٥٧٠ م بعد أن أحرقوا ألفرى العربيه ومنعوا من التجأ الى الكهوف من مغادرتها ، فدفنوا فيها أحياء ومن نجا من هذه البيرة استرق أو نفى • وقد قتل في الثورة أكثر من عشرين ألف مسام • وقد نفى من أسبانيا مايقدر بثلاثة ملايين مسلم ، لجأ بعضهم الى المغرب ، وعاشوا في شظف من العيش • وبعضهم مات في الطريق ضعفا وكهدا ، ولجأ بعضهم الى فرنسا •

وضياع الأندلس من المسلمين واعرب يوقع المؤرخ في حيرة شديدة - هل حقيقة العرب مسؤولون مسؤولية كاملة عن فقدانهم للأندلس ، كم هو الحال في فلسطين ؟؟ الصراع بين الاسلام والنصرانية صراع طويل مرير ، وأقصد بين المسلمين في الشرق والنصارى في الغرب . لقد أحرز المسلمون الانتصارات الرائعة على النصارى ، وانتزعوا منهم الامبراطورية البيزنطية التي كانت تسيطر على مصر والشام والمغرب وآسيا الصغرى . كما أن المسلمين والعرب لم يمتكنوا الصليبيين من الاستمرار في أرض العرب والاسلام ، بل عادوا الى بلادهم بعد قرنين من الزمان ولكن العرب ظلوا في الأندلس أكثر من سبعة قرون وأدت الحضارة الاسلامية دورها الكبير في هذه الأرض الأوربية التي لا تزال آثارها باقية الى يومنا هذا وفي نفس الوقت فشل الاستعمار الأوربي في الاستمرار في أرضنا العربية الاسلامية . معنى ذلك أن الشرق شرق والغرب غرب . أى أن الشرقيين لا يمكنهم البقاء في أرض عربية باستمرار . وفي نفس الوقت لا يستطيع الغربيون البقاء في العالم العربي والاسلامى .

ولكن المحزن أن تضيع أرضا من ديار الاسلام مثل الأندلس . ولعب العرب دورا كبيرا ورئيسيا في ضياع هذا الملك العتيد . وكان المسلمون في الغرب في ضعف أمام النصارى في الوقت الذي كان فيه الأتراك العثمانيون يجتاحون أوروبا حتى وصلوا الى أبواب فينا ، وكانوا في أوج عظمتهم ، وفي أبهى انتصاراتهم . ولكن على الأرجح بعد المسافة ، وانقطاع الأخبار ، وعدم وضوحها جعل من الصعب بل ومن المستحيل على العثمانيين انقاذ اخوانهم في الدين في الأندلس .

وهكذا فقد العرب اسبانيا — هذه مأساة المسلمين والعرب رقم ١ — يليها فلسطين — المأساة رقم ٢ ، يليها لبنان التي تتمزق أمام أعيننا الآن — يليها أفغانستان جلبوا العدو الى بلادهم ليمزق شملهم ، ويفرق وحدتهم والحرب بين العراق وايران — حضارة تتمزق أمامنا ، والعدو يعمل على توسيع نطاقها حتى يرى بنفسه المسلمين في ضعف وهوان ، وحتى يروج لأسلحته ، ويفرض سيطرته على دول الخليج بحجة حماية البترول . والكويت تتمزق وتتهار بأيدي عربية اسلامية .





الجهة

البحر الأحمر
البحر الأبيض المتوسط
البحر الهندي

مكة
المدينة
البحر الأحمر

وقتها في القسطنطينية
الأتراك
القسطنطينية

هل حقيقة أن العرب والمسلمين لا يميزون بين العدو والصديق؟؟
يقدر الأخطار المحيطة بهم من كل مكان • اننا في شدة الحاجة الى
دّة والتضامن والعمل بكتاب الله حتى نستطيع أن نواجه كل هذه
أار وحتى لا نخرب وندمر بيوتنا بأيدينا •

يقول بدر الدين الجارم :

أمامك قصه عن مجد قوم تقشع عن سمائم السحاب
مناصل ان دعوا للحرب لبو وان نودوا لمكرمة أجابوا
نجوم ما بدت الا لتخفى كما يطو على الماء الحباب
سلوا التاريخ عنها ان أردتم ففي صفحاته حط الجواب

والله أعلم •

ثبت المراجع

١ - المراجع العربية

- ١ - ابن الأبياد (أبو عبد الله محمد ، القضاء البنيسى) • ت ٦٥٨ م - ١٢٦٠ م
- (أ) كتاب التكملة لكتاب الصلة ٢ ج ، الخامس والسادس من مجموعة المكتبة الأندلسية • نشر كودبرا مدريد ١٨٨٧ م •
(ب) المعجم • المكتبة الأندلسية مدريد ١٨٨٦ م •
- ٢ - ابن أبي زرع (أبو عبد الله محمد بن عبد الحليم) • ت ٢٢٦ هـ - ١٣٢٥ م •
الأنس المطرب بروض القرطاس في أحبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، ٢ ج • إيطاليا ١٨٤٣ •
- ٣ - ابن الأثير (أبو الحسن على بن أبي الكرم) ت ٣١٠ هـ
الكامل في التاريخ ، ١٠ ح • بولاق •
- ٤ - ابن الأحمر (الأمير أبو انوليد اسماعيل بن يوسف النصرى) ت ٨١٠ هـ ، ١٤٠٧ م •
(أ) نثر الجمان في نسع من مظمنى واياها الزمان • مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٨٥٣ أدب •
(ب) روضة النسرين في ماوك ببى مرين نسرہ الأستاذان مارسية وبولى باريس ١٩١٧ م •
- ٥ - ابن بسام (أبو الحسن على السنترينى) ت ٥٤٢ هـ •
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة • القاهرة ١٩٤٥ م •
- ٦ - ابن بسكوال (أبو القاسم حلف بن عبد الملك) ت ٥٧٨ هـ ، ١١٨٣ م •
كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس • مدريد ١٨٨٣ •

- ٧ — ابن بطوطة (أبو عبدالله محمد عبدالله الطنجي) ت ٥٧٧٩ هـ ، ١٣٧٧ م
نحلة الأنظار في عرائب الأمكار وعجائب الأسفار ، ٢ ج ، القاهرة
٠ م ١٩٣٨
- ٨ — ابن حجر العسقلاني (نهاب الدين أحمد بن عالى) ت ٨٥٢ هـ ،
٠ م ١٤٨٨
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ؛ ج ٠ الهند ١٣٥٠ هـ
- ٩ — ابن حوقل (أبو القاسم محمد) ٠ عاس في الفرس الرابع الهجرى
كتاب صورة الأرض ، ٢ ج ، لندن ١٩٣٩ م ٠
- ١٠ — ابن الخطيب (الوريير محمد لسان الدين) ٠ ت ٧٧٦ هـ ، ١٤٨٥ م ٠
(أ) الاحاطة في أخبار غرناطة ، ٢ ج ، القاهرة ١٣١٩ هـ ٠
(ب) أعمال الاعلام ممن بوع قبل الاختلام من ملوك الاسلام ٠
رباط الفتح ١٩٣٤ م ، حققه لبنى بروقنسال ، بيروت ١٩٥٦ م ٠
(ج) اللمحة البدرية في الدولة المصرية : القاهرة ١٣٤٧ هـ ٠
- ١١ — ابن خلدون (أبو ركريا بن محمد) ب ٥٧٨٠ هـ ، ١٣٧٩ م بغية الرواد
في ذكر الملوك من بنى عبد الواد ٠ نشر وترجمه للفرنسية الفرديل ،
الجزائر ١٩٠٣ م ٠
- ١٢ — ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨ هـ ٠
العبر وديوان المبتدأ والخبر ٠ بولاق ١٢٨٤ هـ ٠
- ١٣ — ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم)
ت ٦٨١ هـ ٠
وفيات الأعيان وأنباء الزمان ٠
- ١٤ — ابن الزبير (أبو جعفر أحمد) ت ٥٧١٨ هـ ، ١٣٠٨ م ٠
صله الصلة ، نشره ليفى بروقنسال ٠ رباط ١٩٣٨ م ٠
- ١٥ — ابن فرحون (برهان الدين ابراهيم بن على النيعمرى) ت ٥٧٩٩ هـ ،
٠ م ١٣٩٦
الديباج المذهب في معرفة أعيان عماء المذهب ، القاهرة ١٣٣٩ هـ ٠

- ١٦ — ابن عذارى المراكسى •
اليبيان المغرب • فارس ١٩٣٠ م •
- ١٧ — ابن الفرضى (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي)
ت ٤٠٣ هـ ، ١٠١٣ م •
تاريخ علماء الأندلس ، مدريد ، ١٨٩١ م •
- ١٨ — أخبار مجموعة في فتح الأندلس لمؤلف مجهول • مدريد ١٨٦٧ م •
- ١٩ — الادريسي (محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوسى) ت ٦٤٩ هـ •
صفه المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس — ابدن ١٨٩٤ م •
- ٢٠ — القبكتى (أبو العباس أحمد بابا)
نيل الابتهاج بتطريز الديباج • كتب على هامس كتاب الديقاح
المذهب لابن فرحون • القاهرة ١٣٢٩ هـ •
- ٢١ — المقرئ (سهاب الدين محمد بن التامسانى) نفح الطيب من عصف
الأندلس الرطيب • القاهرة ١٩٤٠ م •
- ٢٢ — النحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبدالمعتم) ت ٨٦٦ هـ •
صفه جزيرة الأندلس • منتخبه من كتاب الروض المعطار • القاهرة
- ٢٣ — حسن أحمد محمود (الدكتور) قيام دوله المرابطين، صفحه مسرقه
من تاريخ المغرب فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٧ م •
- ٢٤ — زكى محمد حسن (الدكتور) ت ١٩٥٧ م •
الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى • القاهرة ١٩٤٥ م •
- ٢٥ — زيادة (الدكتور محمد مصطفى) •
رحلة ابن جبير وابن بطوطه • لجنة التأليف والترجمه والنشر •
القاهرة ١٩٣٩ م •
- ٢٦ — السلاوى : (سهاب الدين محمد بن خالد الناصرى) ت ١٣١٩ هـ ،
١٩٠١ م •
الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، ٤ ج ، القاهرة ١٨٩٤ م •

- السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر محمد)
ت ٥٩١١ هـ ، ١٥٠٥ م •
- (أ) تاريخ الحلفاء أمراء المؤمنين • القاهرة ١٣٥١ هـ •
(ب) حس المحاصره فى أخبار مصر والقاهرة • القاهرة ١٣٢٧ هـ •
- — الطبرى : (الامام أبى جعفر محمد بن جرير)
تاريخ الأمم والملوك • القاهرة ١٩٣٩ م •
- — العبادى (عبد الحميد)
(أ) صور من التاريخ الاسلامى ، ٢ ج (١٩٤٨ — ١٩٥٣) •
(ب) حديث الفقيه المغروبن من أهل لسبونه • مجله النفاسه
١٩٣٧ م •
- — العبادى (أحمد مختار • دكتور)
(أ) الصقالبه فى أسبابا — لحه عن أصابهم ونسأتهم وعلاقنهم
(ب) لسان الدين بن الخطيب وبرعاته الاقتصادية •
(مجله لسان الدين الجزء التاسع والعاشر — سبتمبر —
مقامه للعيد لأبى عبد الله الأدرى (صحيفه المعهد المصرى
١٩٥٤ م) •
- مساعدات لسان الدين بن الخطيب (مجموعه من رسائله)
الاسكندرية ١٩٥٨ م •
- ٢ — لين بول •
العرب فى أسبابا ، ترجمه على الجارم •
- ٢ — على محمد حمودة •
الاسلام فى الأندلس • القاهرة ١٩٥٣ م

- ٣٣ — محمد عبد الله عنان • ترجمه عى المؤرخ الألماني يوسف أسبناح •
(أ) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدىن • القاهرة
• ١٩٤٠ م
- (ب) نهاية الأندلس ، وتاريخ العرب المصرىن • القاهرة ١٩٤٩ م •
(ج) تاريخ العرب فى أسبابها • القاهرة •
- ٣٤ — مؤنس (حسن — دكتور) •
(أ) الشعر الأعلى الأندلس فى عصر المرابطين • مجلة كلية الآداب
— جامعه القاهرة ج ٢ ، ١٩٤٩ م •
- (ب) السيد القبيطور وعلاقاته بالمسلمىن • مجلة كايه الآداب
القاهرة العدد الأول المجلد الثالث ١٩٥٠ م •
- ٣٥ — النباهى (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن الماقي) ت ٥٧٧٦ هـ •
المرتبة العليا فبمن بسنحو العصاء والفتيا • القاهرة ١٩٤٨ •
- ٣٦ — النويرى (سهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن
عبد الدائم) •
نهاية الأرب • غرناطه ١٩١٩ م •

ب - المراجع الأجنبية

- 1 Altamera :
 - a) Spain (1031 - 1248), London 1949.
 - b) Cambridge Medieval History, vol VI, Ch XII.
- 2 Bel, A. :

Ency. of Islam, Arts., Almoravides & Alī Ben Youssof.
3. Dozy, R., :
 - a) Histoire des Muslmans d'Espagne, 3 vols, (ed. Levi-Provençal) Leyde, 1932
 - b) Historia Abbadidarum, 2 vols, Leyde 1946
 - c) Recherches sur l'Histoire et Literature de l'Espagne Penđant le Monyen ęge, Leyde, 1881 (2 vols)
- 4 Gayangos (P.) .

The History of the Mohammadan Dynasties in Spain, (Extracted from the Nafhu-t-tib), 2 vols, London 1840.
5. Levi Provençal :
 - a) Un Manuel Hispanique de Hisba sur la Surveillance des corporation et la repression des froudes en Espagne Musulmane, Paris 1931.
 - b) Inscriptions Arabes d'Espagne, Leyde, 1931.
 - c) Seville Musulmane au debut du XIIe Siecle la Traitę d'Ibn Abdun, Paris 1970.
 - d) La Mora, Zaida femme d'Alphonse VI (en) Hesper is 1934, t. XVII.
 - e) Ency of Islam, Arts. Le Cid & Sons.

للؤلف

- ١ — كتاب « تاريخ الاسلام في العصر المبركى » .
- ٢ — « الحواصر الاسلاميه الكبرى » .
- ٣ — « بلاد الجزيرة في اواخر العصر العباسى » .
- ٤ — « اليمن في ظل الاسلام » .
- ٥ — « الهند في العصر الاسلامى » .
- ٦ — « الاسلام وعالم الفكر » .
- ٧ — « الدول الاسلاميه المستقلة في الشرق » .
- ٨ — « الدوله العباسيه » .
- ٩ — « تاريخ المغرب والاندلس » .
- ١٠ — « الدوله الاسلاميه وحضارتها » .
- ١١ — « معالم الفكر الاسلامى » .
- ١٢ — « الحركة الفكرية في بلاد اليمن في عصر نبي رسول » .

شارك في اعداد اطلس العالم الاسلامى يضاف الى ذلك العديد من
المحوث والدراسات في تاريخ الاسلام وحضارته .

د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقى فى سطور

- استاذ التاريخ الاسلامى والحضاره الاسلاميه فى كلية الآداب —
جامعة القاهرة .
- الفى العديد من المحاضرات فى التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلاميه
فى جامعات مصر والسعوديه واليهن والجزائر والكويت .
- عضو فى العديد من الهيئات العلميه .
- شارك فى العديد من المؤتمرات العلميه .
- له بحوب عديدة فى المجالات العلميه المخصصه والثقافيه .
- أشرف وبتكرم على رسائل الماجستير والدكتوراه ، بحاول فى دراسه
امرار دور المسلمين فى الحضارة الانسانيه ، وحب المسلمين وبتبهم
الى الاستفادة من ماضيهم ، والسعى الى حياة افضل ، واستعاده أمجادهم
وتبوتهم المكانة اللائقه بهم .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول : التعريف ببلاد المغرب والأندلس	
أهميه دراسه تاريخ المغرب والأندلس	١١ .
نظرة عامة حول بلاد المغرب	١١ .
الفتح العربي للمغرب	١٦ .
حملة عقبة بن نافع الأولى على المغرب	١٧ .
الحمالات المتتالية على بلاد المغرب	١٩ .
سائح الفتح العربي لبلاد المغرب	٢٧ .
اسبابها قبل الفتح العربي	٣٠
الأندلس .. .	٣٣ .
الفتح العربي للأندلس	٣٦ .
سائح الفتح العربي للأندلس	٤٤
الفصل الثاني : عصر الولاة في الأندلس	
بدء المحاولات الحدية لفتح مرسيا	٤٦ .
الفن والحروب الداخلية في المغرب والأندلس	٥٥ .
ضعف الدولة الأموية وبدهورها	٥٩ .
الفصل الثالث : الامارة الأموية في الأندلس	
عبد الرحمن الداخل	٦٠
السياسة الداخلية لعبد الرحمن الأموي	٦١ .
ثورة الماطمي	٦٤ .
ثورة عبد الغافر السحائي	٦٦
سياسة عبد الرحمن الداخل الخارجي	٦٧
موقف الفرنجة من عبد الرحمن الداخل	٦٩ .
حضاره الأندلس في عصر عبد الرحمن الداخل	٧٣
هشام بن عبد الرحمن	٧٦
الموقف من نصارى الشمال	٧٧
مذهب مالك في الأندلس	٧٨
الأمير الحكم الربضي	٨١
الفن والثورات الداخلية	٨١

الموضوع	الصفحة
ثورات المولدين	٨٢
العلاقات الخارجية	٨٦
الأمير عبد الرحمن الأوسط	٨٩
الثورات الداخلية	٩٦
عزابات النورمان	٩٧
فتنة المسعمرس المنطرس في مرطبه	١٠٠
العلاقات الدولية في عصر عبد الرحمن الأوسط	١٠٢
أعماله الإدارية والعربانية	١٠٣
عصر دويلات الطوائف الأولى	١٠٥
المملكة النصرانية في الشمال	١١٠
الفصل الرابع : المغرب الإسلامي في العرس الثاني والثالث للهجرة	
المغرب من سقوط الدولة الأموية حتى قيام دولة الأغالله	١١٨
دولة الأغالله في المغرب الأدنى	١٢١
دولة الإدارية في ماس	١٣٦
تأسيس مدينة فاس	١٤٠
حركات الحوارج في المغرب	١٤٣
قيام الدولة الرسومية	١٤٨
دولة بني مدرار	١٦٠
الدولة الإسماعيلية الأولى في اليمن	١٦٤
الدولة الزييرية	١٨٥
سيرة بني هلال	١٩٠
الفصل الخامس : الخلافة الأموية بالأنطلس	
عبد الرحمن الناصري	١٩٢
سياسة عبد الرحمن الناصري الداخله	١٩٣
تحويل الإمارة الى حلامه	١٩٤
العلاقات الدبلوماسية بن الناصر وملوك أوربا	٢٠٢
الصقلية في عهد الناصر	٢٠٤
المنشآت المعمارية في عهد الناصر	٢٠٥
الحكم المستنصر	٢٠٨
السياسة الخارجية	٢١٠
الخطر النورماندى	٢١١
موقف المستنصر نصارى الشمال	٢١٢

المصـفـحـه	المـوـدـع
٢١٣	هنـسـام الـسـامـي
٢١٤	مـحـمـد بن عـبـد الله بن ابي عامر
٢٢٣	خلفاء المنصور ..
٢٢٦	نـهـايـة الـدـولـه الـأمـويـه
٢٢٧	ابن حـرم
٢٣٨	المـمـالـك الـبـصـريـه خـلـال الـقـرن الـعـاشـر الـمـيـلـادـي
٢٤٢	اللـعـه العـرـسـة وآدائـها فـي الـأندلس
٢٤٩	الفصل السادس : المرابطون والموحدون
٢٥١	المرابطون ..
٢٦٤	الموحدون ..
	ازدهار الفكر العلمي في عصر المرين
٢٧٦	ابن طفيل
٢٨٠	ابن رشد
٢٨٥	ابن عربي
٢٩٧	الفصل السابع : مملكة غرناطة وبهاية الأندلس
٢٩٩	مملكة غرناطة - بطورها وسقوطها
٣٠٤	لسان الدين ابن الخطيب
٣٢٢	المصادر والمراجع
٣٣١	مهرس الكتاب

رسم الانداع ٨٦١٠ / ١٩٩٠

المطبعة الجارية الحديثة
٢٢ شارع ادرس راغب - الطاهر
تليفون ٩٠٣٣٦٤ القاهرة



Biblioteca Nazionale

di Scienze Mediche



0307889



To: www.al-mostafa.com